تدوين الحديث

الدكتور محمد علي مهدوي راد

دار الهادي

شبكة الفكر
alfeker.net

تدوين الحديث

تدوين الحديث

تأليف

حجة الإسلام والمسلمين

الدكتور محمد علي مهدوي راد

أشرف على الترجمة

رياض الأخرس

دار الهادي

للطباعة والنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

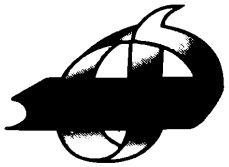

دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف: ٥٥٠٤٨٧/٠١ - ٨٩٦٣٢٩/٠٣ - فاكس: ٥٤١١٩٩ - ص.ب: ٢٨٦/٢٥ غبيري - بيروت - لبنان
E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: http: //www. daralhadi.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، الذي لا تحصى نعماؤه ومننه والذي خلق الإنسان وعلَّمه البيان؛ وصلى الله على رسوله الأمين محمد المصطفى الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى والذي سكناته وحركاته وأقواله وأفعاله منارة لنا وشرعاً ومنهاجاً؛ وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً وجعلهم أحد الثقلين اللذين تركهما في أمته أماناً لها من الفرقة والضلال إلى قيام يوم الدين؛ وعلى أصحابه المنتجبين الذين ساروا على نهجه واقتفوا أثره وحفظوا تراثه وحديثه وهو المِثْلُ الذي قال فيه صلوات الله عليه: «أوتيت الكتاب ومثله معه».

أما بعد فإن قصة هذا الكتاب تعود إلى أنه في الأساس دوِّن ليتناول بالبحث الموسع والمفصل تاريخ تدوين الحديث عند الشيعة الإمامية على مرّ التاريخ الإسلامي منذ صدر الإسلام وحتى يومنا هذا وهو القسم الذي يشكل الجزء الثاني من هذا الكتاب في حلته الحالية.

ولكن شيئاً فشيئاً تكامل هذا البحث العلمي المهم أكثر فأكثر من خلال الإضافات الكثيرة المثرية له ولا سيما تلك الإضافة التي جاءت على شكل مقدمة عن تاريخ الحديث عند أهل السنة وشكلت القسم الأول من هذا الكتاب.

وفي الواقع فإن المعلومات المتوافرة والرائجة حول هذا الموضوع تمثل بالنسبة للكثيرين وجهة النظر التقليدية والرائجة في هذا المجال مما قد يدفع بالبعض إلى توهم أنها وجهة النظر الرسمية والوحيدة في العالم الإسلامي وبالتالي يغطي على الحقيقة التاريخية والدينية على الأقل لتيار الإمامية وما تعتقده في هذا المجال استناداً إلى وثائق ونقول وحقائق دينية وشرعية وتاريخية.

وكما هو معلوم فإن تدوين الحديث تعرض للمنع والحظر رسمياً فترة طويلة جداً تقارب المئة عام! الأمر الذي أثار ولا يزال عاصفة قوية من التساؤلات والجدل والنقاش داخل الدائرة الإسلامية وخارجها حول حقيقة ما جرى ومواقف التيارات الإسلامية الأساسية من المنع هذا فضلاً عن الآثار السيئة التي تركتها تلك الفترة على مكونات الثقافة ومنظومة الفكر والعلوم الإسلامية ولا سيما على الحديث النبوي خصوصاً.

أصل الكتاب عبارة عن عدد من المقالات المتلاحقة التي كتبت باللغة الفارسية العذبة وبعد نشرها في إحدى المجلات المتخصصة بالثقافة الإسلامية التي تصدر في إيران اقترح عدد من الباحثين والمهتمين في هذا المجال أن يتم ترجمته إلى اللغة والثقافة العربية لتعميم الفائدة وإثراء المكتبة العربية ورفدها بوجهات نظر أصيلة وجديدة في هذا المجال.

ولا يخفى على المنصف المتأمل أن المكتبة العربية عموماً تعاني تاريخياً من نقص مهم في هذا المجال أعني الكتب والمراجع التي توضح وجهة نظر المسلمين الإمامية حول هذا الموضوع تحديداً والتي جاء الكتاب موضحاً لها بالدليل والبرهان والبحث والتقصي الواسع.

وبعد التأمل في الاقتراح وجدت أنه في محله نظراً إلى ارتباط البحث كلياً بشكل كبير بالثقافة العربية والإسلامية عموماً هذا من جهة ومن جهة

أخرى خلو المكتبة العربية إلى مثله من حيث الأفكار الجديدة والجريئة والتأملات العميقة التي ولا سيما في شقه الثاني وهو الشق الذي يتحدث عن تدوين الحديث عند المسلمين الشيعة ويظهر حقائق وجوانب عندهم فيما يتعلق بتاريخ الحديث لا توجد بهذا الوضوح في غيره من الكتب القليلة التي ألفت في هذا المجال.

والحقيقة هي أن تاريخ الحديث من وجهة نظر المسلمين الإمامية ولأسباب كثيرة ـ لسنا الآن بصدد استقرائها وبحثها ـ لم يحصل فيه عمل مهم يقوم بتوثيق الحقائق وكشفها ولا سيما منها تلك المستترة بسبب الظروف التاريخية الرهيبة التي عانى منها المسلمون الشيعة ظلماً أو تلك الأخرى التي تمّ تغييبها قهراً خدمة لمصلحة الحكام والسلاطين على حساب الأمة المسلمة والحقيقة الدينية الصافية.

ولكن بعد أن منّ الله علينا بتوفيقه لإنجاز أكبر معجم حديثي عند الشيعة الإمامية المتمثل بمعجم الموسوعة الحديثية الضخمة عند الإمامية المتمثلة بـ«بحار الأنوار» كان لا بد من إعداد مقدمة مستفيضة له ولم يكن هناك مجال سوى الكتابة حول تاريخ الحديث عندهم وهو ما تمّ بالفعل في مقدمة الكتاب المذكور وشكّل فيما بعد المادة الرئيسية لهذا الكتاب.

ولا نرى داعياً للتأكيد على أن هذا الكتاب دوّن في وقت وظروف لم يكن قد دوّن أي أثر مشابه له وهو ما يمكن أن ينعكس عليه سلباً وإيجاباً على الرغم من كل الجهود المبذولة للتقليل من الجوانب السلبية ورفد الجوانب الإيجابية بما يجعله مفيداً ومرجعاً أساسياً وتأسيسياً للأعمال التي يجب أن تلحقه في المستقبل لتغني الجوانب الإيجابية فيه وتتلافى القصور والنواقص التي يحتمل أن توجد فيه كغيره من الأعمال البشرية الأخرى التي لا تخلو عن النقص والعيوب ولا سيما في مثل الظروف التي أحاطت بكتابته.

كما أننا لا نرى مزيد حاجة للتأكيد على الدور الكبير لتاريخ الحديث في فهم الحديث نفسه وتياراته المختلفة على مرّ التاريخ الإسلامي ولا سيما في جانب تدوينه وكتابته ونقله للأجيال اللاحقة والتالية.

كما أن أهمية تاريخ الحديث وتدوينه لا تقتصر على فهم الحديث وتيارات تدوينه وكتابته بل تتعداها إلى فهم دور الحديث الهام والأساسي في تشكيل منظومة العلوم الإسلامية عموماً في جوانبها المختلفة ولا سيما بالنسبة للعلوم التي نشأت وترعرعت في أحضان الحديث الإسلامي وهي كثيرة قد تربو على العد والحصر ولكن نشير هنا إلى أهمها من قبيل: علوم تفسير القرآن الكريم وعلم الكلام وعلوم الفقه والأصول وغيرها من الحقول العلمية الإسلامية التي كانت تمثل اللبنات الأولى لتشكيل المنظومة العلمية والمعرفية في الإسلام والثقافة الإسلامية.

ختاماً لا بد من القول إنه وعلى الرغم من الجهود التي بذلت لجعل هذا العمل متميزاً إلا أنه يجب القول مرة أخرى إنه إن لم يكن بكراً فهو من الأعمال الأولى البكر في هذا المجال ولذا من الطبيعي أن لا يكون كاملاً تمام الكمال وأن يكون بحاجة في المستقبل إلى جهود أخرى تثريه وتغنيه وتجعله أكثر فائدة للدارسين والباحثين والأكاديميين.

غرة جمادى الثانية ١٤٢٦ هجرية قمرية

طهران

جامعة تربية مدرس (للدراسات العليا)

محمد علي مهدوي راد

مقدمة

إنّ الكلام عن الحديث ومنزلته الرفيعة في المعارف الإسلامية، والأحداث الّتي اعترت سبيل «الحديث» على مرّ التاريخ، يعد حديثاً عن ثاني المصادر الدالّة على المعارف الإسلامية وأقوى وأبرز دليل على العقيدة الإلهية بعد القرآن الكريم، فقد بعث الله النبيّ ﷺ هدىً للناس ليقضي على الجهل وينشر العلم والمعرفة فزيّن رسالته بـ«القراءة» و«القلم»، وأناط به مسؤولية البيان والتفسير ودعم نبوّته بالقرآن الكريم:

﴿... وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

و﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[2].

إنّ هاتين الآيتين وما يناظرهما خير تجسيد على المكانة الرفيعة للحديث في التعرف على الإسلام واستنباط الأحكام الإلهيّة، وسنعود إليهما لاحقاً، ولنبدأ بحثنا من معنى الحديث:

---

(١) النحل/ ٤٤.

(٢) النحل/ ٦٤.

معنى الحديث لغة:

جاء في أقدم معجم لغوي:

الحديث: الجديد من الأشياء. شاب حدث وشابّة حدثة: فتية في السّن ورجل حِدث؛ كثير الحديث[١].

وفي مقاييس اللّغة:

الحدث: أصل واحد وهو كون الشيء لم يكن، يقال: حدث أمر بعد أن لم يكن،... والحديث من هذا؛ لأنّه كلام يحدث منه الشيء بعد الشيء[٢].

وفي لسان العرب:

والحديث: ما يحدّث به المحدّث تحديثاً[٣].

وبهذا المعنى فسّر[٤] قوله تعالى:

﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾[٥].

وعلى هذا، وإن كان «الحديث» أطلق في أصل اللغة على «الجديد من الأشياء» و«حدوث أمرٍ بعد أن لم يكن» إلاّ أنّه أطلق على مطلق الكلام في سائر الاستعمالات على أساس من ذلك المعنى اللغويّ[٦].

وقال العلامة المامقاني في توضيح ذلك:

بناءً على هذا فإن الحديث هو حصول شيء لم

---

(١) العين، ج٣ / ١٧٧.
(٢) مقاييس اللّغة، ج٢/ ٣٦.
(٣) لسان العرب، ج٧٦/ ٣.
(٤) مجمع البيان، ج٤٧٤/ ١.
(٥) التحريم/ ٣.
(٦) مجمع البحرين، ج١/ ٣٧١ (طبعة بنياد بعثت).

يكن، فالحديث ضد القديم وكان ما جاء في الرواية «إياكم ومُحْدَثات الفتن» هو هذا المعنى، وهو ما يقول عنه ابن فارس «حدث أمر بعد أن لم يكن،... والحديث من هذا؛ لأنّه كلام يحدث منه الشيء بعد الشيء» وذكر الفيومي صاحب المصباح أن «الحديث لغة ما يُتحدث به ويُنقل، ومنه حديث رسول الله (صلى الله عليه وآله)».

ويؤيد هذا المعنى ما ذكره بعض العلماء من أن العرب كانوا يطلقون اسم «الأحاديث» على أيامهم المشهورة باعتبار أنه كانت تحصل في تلك الأيام الكثير من الحوادث، فتنقل وتروى[١].

وقال العلاّمة الشيخ حسن المصطفوي بعد سرد كلام اللغويين بالتفصيل في معنى الحديث:

فظهر أن مفهوم هذه المادّة: هو تكوّن شيء في زمانٍ متأخر، وهذا التكوّن والتجدّد أعم من أن يكون في الجواهر والذوات أو في الأعراض والأفعال والأقوال... فالحديث كلّ ما يتجدّد بالذكر ويُروى ويُنقَل من أيّ مقولة كان، فالنظر في الحديث إلى جهة التجدّد ونقل ما وقع..[٢].

وبناءً على هذا فإن الحديث من جهة اللغة والوضع الأولي يطلق على «الجديد من الأشياء» و«حدوث أمر بعد أن لم يكن» وفي النهاية أطلق على مطلق الكلام في سياق استمرار استعماله في معناه اللغوي.

---

(١) علوم الحديث ومصطلحه/ ٤ نقلاً عن فتوح البلدان/ ٣٩.

(٢) التحقيق في كلمات القرآن، ج٢/ ١٨٨ ـ ١٨٩.

الحديث اصطلاحاً:

ذكر العلماء والمحدثون للحديث تعاريف عديدة:

فالشهيد الثاني (رضوان الله عليه) أورد بعدما نقل عنهم أن الحديث والخبر مترادفان ـ ما نصه:

الخبر المرادف للحديث أعم من أن يكون قول الرسول صلى الله عليه وآله والإمام عليه السلام والصحابي والتابعي، وغيرهم من العلماء والصلحاء ونحوهم، وفي معناه فعلهم وتقريرهم. هذا، هو الأشهر في الاستعمال، والأوفق لعموم معناه اللغوي[١].

وهذا التعريف يعتمد على المعنى اللغوي المذكور، كما صرّح به.

وقد عرف العامة ـ غالباً الحديث بهذا التعريف أيضاً، والتزموا بمرادفته للخبر.

فقد نقل السيوطي عن العلماء أنهم ذكروا في تعريفه:

الحديث أعم من أن يكونَ قول النبي والصحابي والتابعي وفعلهم وتقريرهم... الخبر عند علماء الفنّ مرادف للحديث، فيطلقان على المرفوع وعلى الموقوف والمقطوع[٢][٣].

وذكر بعض علماء العامة تعاريف أخرى، كما ذكرت فروق بين الخبر والحديث أيضاً.

---

(١) الرعاية في علم الدراية/ ٥٠.

(٢) تدريب الراوي، ج١/ ٢٣.

(٣) المرفوع: ما أسند إلى الرسول صلى الله عليه وآله، والموقوف: ما رفع إلى الصحابي، والمقطوع: ما رفع إلى التابعي. أصول الحديث علومه ومصطلحه/ ٢٨.

قال السيوطي في ذيل كلامه السابق:

وقيل: الحديث ما جاء عن النبي ﷺ، والخبر ما جاء عن غيره، ومن ثم قيل لمن يشتغل بالسّنة محدث، وبالتواريخ ونحوها أخباري و..[١].

ويعتقد جمع من محققي أهل العامة أن الحديث كان يطلق في البداية على قول رسول الله ﷺ خاصة، واتسع مدلوله بعد وفاته ﷺ؛ وهو الآن يطلق على «ما نقل عنه من قول، وفعل، وتقرير»[٢].

وعرف الشيخ البهائي (رضوان الله عليه) الحديث في بداية رسالته المختصرة «الوجيزة» هكذا:

والحديث: كلام يحكي قول المعصوم عليه السلام، أو فعله، أو تقريره[٣].

ولعل الشيخ (رحمه الله) كان ملتفتاً إلى أن هذا التعريف ليس منعكساً ولا مطرداً، إذ لا يدخل الحديث المنقول بالمعنى في هذا التعريف فهو ليس جامعاً، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى: فإن كثيراً من الكتب الفقهية أوردت عبارات الأحاديث بعينها، مع حذف الأسانيد، على شكل فتاوى لأصحابنا، كما عمله الشيخ في «النهاية» وعلي بن بابويه في كتابه «الشرائع» وغيرهما... ومثل ذلك لا يدخل في التعريف. ومن أجل ذلك، أضاف الشيخ البهائي قوله:

---

(١) تدريب الراوي، ج١/ ٢٣، وراجع أيضاً: الرعاية في علم الدراية/ ٥٠

(٢) الاتجاهات الفقهية عند أصحاب الحديث في القرن الثالث الهجري/ ١٢ ـ ١٣.

(٣) الوجيزة في الدراية، تراثنا، العدد٣٢/ ٤١٢.

ولو قيل: الحديث قول المعصوم أو حكاية قوله أو فعله أو تقريره، لم يكن بعيداً[١].

وقال الميرزا القمي (رضوان الله عليه) في تعريفه:

الحديث ما يحكي قول المعصوم عليه السلام أو فعله أو تقريره[٢].

وذكر جمع من أصحابنا أن الحديث ـ في الاصطلاح هو: ما يحكي قول المعصوم أو فعله أو تقريره[٣].

وما يمكن أن يقال في هذا التعريف أنه أشهر التعاريف التي التزمها علماء الشيعة ومحدثوهم.

الخبر:

الخبر هو الإخبار عن الوقائع والحوادث، ومما يحكى نقله والإعلام عنه.

قال الخليل بن أحمد:

أخبرتُهُ وخبَّرتَهُ. والخَبَر: النبأ، ويجمع على أخبار[٤].

وقال الزبيدي:

إن أعلام اللّغة والاصطلاح قالوا: الخَبَر عُرفاً ولغةً: ما يُنقل عن الغير، وزاد فيه أهل العربيّة: واحتمل الصدق والكذب لذاته[٥].

---

(١) المصدر السابق، ٤١٤.
(٢) قوانين الأصول/ ٤٠٩.
(٣) مقباس الهداية/ ٥٧.
(٤) العين، ج٤/ ٢٥٨.
(٥) تاج العروس١١ / ١٢٥.

ويرد عليه بأنه لا اختصاص في الخبر أن يكونَ نقلاً عن الغير، بَل يُشمل عرفاً ولغةً ما يخبر المخبر عن نَفسِه لأنّ الإخبار بمعنى الإعلام، ومنه الخبير بمعنى العالم، فكل من أعلَمَ غيره شيئاً فقد أخبره به، ولا بدّ من التنبيه على أن الخبر قد يطلق فيما يقابل الإنشاء، وقد ذكر الشهيد الثاني (رضوان الله عليه) أيضاً في بداية بحث الخبر تفصيل هذا المعنى ـ فنقول: إن هذا المعنى أجنبيّ تماماً عن موضوع بحثنا، فلا نتطرق إليه ولنقف على مناسبة «الخبر» بمعنى الإعلام، و«الحديث»:

وقد نقلنا ـ سابقاً عن الشهيد الثاني أنّه قال بترادفهما، وكذلك صرح بترادفهما آخرون من المحدثين.

قال الحافظ أحمد بن علي بن حجر:

الخبر عند علماء الفن مرادف للحديث[١].

وصرّح به الأستاذ الشيخ جعفر السبحاني، نقلاً عن المحدثين وقال:

الخبر وهو في اصطلاح المحدّثين يرادف الحديث وربّما يطلق في كثير من العلوم ويراد ما يقابل الإنشاء، ثم توصيف المحدث بالأخباري إنّما هو بالمعنى الأوّل ـ أي من يمارس الخبر والحديث ويتخذه مهنة[٢].

ولمزيد التدقيق فيما أسلفنا نجد أن «الخبر» و«الحديث» لا يفترقان في أصل معناهما اللغوي، ولا مدلولهما الاستعمالي في الصرف العام افتراقاً أساسياً.

---

(١) شرح نخبة الفكر/ ٣.

(٢) أصول الحديث وأحكامه/ ١٩.

يقول أبو البقاء:

فالحديث هو اسم من التحديث، وهو الإخبار، ثم سمّي به قول أو فعل أو تقرير نُسِبَ إلى النبي (عليه الصلاة والسلام)[١].

وهذا المعنى للحديث كان متداولاً في الأدب الجاهلي، فقد كانوا يطلقون اسم «الأحاديث» على الأيام المشهورة[٢] ويسمّون الناقلين للحوادث والوقائع التاريخية بـ«الاخباريين» كما صرح بذلك الشهيد وآخرون[٣].

قال الشيخ عبد النبي الكاظمي:

يطلق لفظ الأخباري في لسان أهل الحديث من القدماء من العامّة والخاصّة على أهل التواريخ والسير ومن يحذو حذوهم في جمع الأخبار[٤].

إن ما كان يكتب في الابتداء هو سيرة الرسول ﷺ التي تشكل أكثر المدوّنات، ونظرة إلى مجرى تاريخ التدوين تبيّن ذلك بوضوح، خصوصاً في مدرسة الخلفاء، ثم افترقت فروع المدوّنات شيئاً فشيئاً، واستقل المحدثون بعنوان مستقل، فعرّفوا هذين المصطلحين:

الحديث: ما جاء عن المعصوم، من النبي والإمام.

والخبر: بما جاء عن غيره.

أو: الأول هو الحديث والخبر أعم منه مطلقاً، فيقال لكلّ خبر حديث من غير عكس.

---

(١) الكليّات/ ١٧٠.

(٢) فتوح البلدان/ ٣٩ عن علوم الحديث مصطلحه وعلومه.

(٣) الرعاية في علم الدراية/ ٥٠.

(٤) تكملة الرجال، ج١ / ١١٤.

وهذه التعاريف، اتخذها المحدثون في القرون التالية تبييناً لتلك الأدوار[١].

ولا بد هنا من التنبيه على أنه في القرون المتأخرة، تداول إطلاق «الأخباري» في مقابل «الأصولي» على أثر مواجهة الطريقتين في تميز مصادر الفكر الإسلامي، وقد احتمل بعض العلماء[٢] وجود هذا المصطلح في عصر العلامة الحلي، وقد استفاد ذلك من عبارة الحلي التالية:

أما الإماميّة: فالأخباريّون منهم لم يعوّلوا في أصول الدين وفروعه إلاّ على أخبار الآحاد المرويّة عن الأئمة عليهم السلام، والأصوليّون منهم كأبي جعفر الطوسي وغيره وافقوا على قبول خبر الواحد[٣].

وقد استعمل العلماء كلمة «الأخبار» في تسمية مؤلفاتهم الحاوية على مجموعة من الأحاديث مثل:

* «شرح الأخبار» **للقاضي نعمان (م٣٧٦)**.
* «جامع الأخبار» **للشيخ محمد بن محمد السبزواري (م قرن٧)**.
* «الاستبصار فيما اختلف من الأخبار» **الشيخ الطوسي**.
* «ملاذ الأخيار في شرح تهذيب الأخبار» **للعلاّمة المجلسي**.

وهذا دليل على تلك الحقيقة.

---

(١) راجع: مقياس الهداية في علم الدراية، ج١/ ٥٨ وبعده حيث جمع كل مّا قالوا ويمكن أن يقال في ترادفهما واختلافهما عند القدماء والمتأخرين.
(٢) الأستاذ السبحاني في كتابه أصول الحديث وأحكامه.
(٣) معالم الدين/ ١٩ نقلاً عن النهاية للعلاّمة الحلّي (مخطوط).

الأثر:

وقد اختلفت المنقولات في تعريف الأثر وأشهر تعريف له بين علماء العامة ومحدثيّهم: تطلق الآثار على أفعال الصحابة[١].

وقال جمال الدين القاسمي:

والأثر ما روي عن الصحابه ويجوز إطلاقه على كلام النبي أيضاً[٢].

وهذا الاصطلاح له جذور في أوساط علماء العامة ومحدثيهم، إلا أنّه لا يتسم بالدقة والإحكام.

قال الزبيدي:

الأثر: بقيّه الشيء، والأثر: الخبر وجمعه الآثار... وفلان من حَمَلة الآثار وقد فرّقَ بينهما أئمّة الحديث، فقالوا: الخبر ما كان عن النبي ﷺ، والأثر: ما يؤدى عن الصحابة... وممّن اشتهر به: أبو بكر سعيد بن عبد الله بن علي الطوسي (ولد سنة ٤١٣ بنيشابور) ومحمد بن هياج بن مبادر الآثاري الأنصاري..[٣].

وما يظهر من التتبع في مؤلفات العامة أن هذا التعريف للأثر تعريف قديم، إلا أنه ليس بحيث يكون متفقاً عليه دائماً، قال الدكتور نور الدين عتر:

أمّا الأثر: فقد خصّه فقهاء خراسان بالموقوف

---

(١) كشاف اصطلاحات الفنون، ج/ ١٩٥.

(٢) قواعد الحديث/ ٦٢.

(٣) تاج العروس، ج٣/ ١٠١.

اصطلاحاً. ومنهم جماعة خصّوا المرفوع بالخبر، لكن المعتمد الذي عليه المحدثون أن يسمّى كل هذا أثراً لأنّه مأخوذ من أثرت الحديث أي رويته[١].

ولذلك سمى ابن حجر كتابه من مصطلح الحديث بهذا العنوان «نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر» ويؤيد ذلك إطلاق الحافظ العراقي على نفسه لقب (الأثري) بمعنى المحدث، حيث قال في أوّل ألفيّته:

يقول راجي ربّه المقتدر عبد الرحيم بن الحسين الأثري

قال الدكتور صبحي الصالح:

فلا مسوّغ لتخصيص الأثر بما أضيف للسلف من الصحابة والتابعين[٢].

هذا تعريف علماء العامة للأثر.

وأما في الشيعة فقال بترادفها الشيخ البهائي(ره)[٣].

وأمّا الشهيد الثاني(ره) فيقول:

الأثر أعم منهما مطلقاً، فيقال لكلّ منهما: أثر بأي معنى اعتبر[٤].

وقال السيد الداماد(ره):

وفي أصحابنا (رضوان الله عليهم) من يؤثر هذا الاصطلاح ويخصّ الأثر بما عن الأئمة عليهم السلام،

---

(١) منهج النقد في علوم الحديث/ ٢٨.
(٢) علوم الحديث ومصطلحه/ ١١.
(٣) الوجيزة/ (تراثنا، ٣٢/ ٤١٢).
(٤) الرعاية في علم الدراية/ ٥٠.

والمحقق نجم الدين ابن سعيد (رحمه الله) في مصنّفاته الاستدلالية كثيراً ما يسير هذا السير، وأمّا رئيس المحدثين (رضي الله عنه) فقد عنى بالآثار الصحيحة أحاديث رسول الله ﷺ وأوصيائه الصادقين[١].

والظاهر أن الأثر يرادف الحديث، والآثار في عبارات العلماء، هي الأحاديث المنقولة عن المعصومين عليهم السلام، وإذا وجد ذلك الاصطلاح في كلمات الشيعة فهو اصطلاح مستحدث.

وقد يطلق «الأثر» في الروايات وفي ألسنة الأئمة عليهم السلام على حديث رسول الله ﷺ والأئمة عليهم السلام[٢].

ويطلق الشيخ المفيد (رحمه الله) ـ غالباً الأثر والآثار، على الحديث والأحاديث[٣].

ونعلم أن كتاب الطبري المشهور والمهم المعنون «تهذيب الآثار وتفصيل معاني الثابت عن رسول الله ﷺ من الأخبار» هو رواية أحاديث وأخبار رسول الله ﷺ. وفي مؤلفات القاضي أبي حنيفة النعمان بن محمد يوجد كتاب بعنوان «الاقتصار بصحيح الآثار عن الأئمّة الأطهار».

وسمّى الخرازي كتابه بـ«كفاية الأثر في النصّ على الأئمّة الاثني عشر» وسمى أبو عبد الله أحمد بن محمد بن عياش الجوهري كتابه «بمقتضى الأثر في النص على عدد الأئمة الاثني عشر» وهما في نصوص

---

(١) الرواشح السماوية/ ٣٨.
(٢) الاحتجاج، ج٢ / بحارالأنوار، ج٧٨/ ٢١٦.
(٣) راجع على سبيل المثال: الإرشاد، ج١/ ٣١٩، ٣٢٠ و٣٣٠، ج٢/ ١٦٩.

النبي على الأئمة الاثني عشر وهذا كلّه يدلّ على صحّة قول نور الدين عتر:

إن هذه العبارات الثلاث: الحديث والخبر والأثر، تطلق عند المحدثين بمعنى واحد[١].

وعلى هذا الأساس نقول إنّ الاحتمالات المختلفة في كتب الدّراية في الفروق بين هذه الثلاثة إنّما حدثت عند المتأخرين، وأمّا كتب المتقدمين فهي خالية عن هذه الاحتمالات والأقوال.

السنّة:

للسنّة معانٍ وتعاريف متعددّة، فهي بحسب أهل اللّغه وعلمائها:

الطّريقة المستقيمة المحمودة، ولذلك قيل: فلان من أهل السّنة[٢].

وقالوا أيضاً:

السنّة: الطريقة المعتادة، سواء كانت حسنة أو سيّئة، مثل قول رسول الله ﷺ «مَن سنَّ سنةً حسنة فله أجرها وأجر مَن عَمِلَ بِها إلى يوم القيامة»[٣].

الأصوليون، الذين عدّوا «السنة» من مصادر التشريع، عرفوها هكذا:

ما صدر عن النبي الله ﷺ من قول، أو فعل، أو تقرير..[٤].

---

(١) منهج النقد في علوم الحديث/ ٢٨.
(٢) تهذيب اللغة، ج٤/ ٢٩٨.
(٣) إرشاد الفحول/ ٣٣.
(٤) الأحكام، للآمدي، ج١ /١٦٩.

قال العلاّمة المولى عبد الله بن محمد البشروي الخراساني (التوني):

هي قول النبي ﷺ، أو الإمام أو فعلهما أو تقريرهما[١].

وقال الميرزا القمي:

السنّة: هي قول المعصوم عليه السلام أو فعله أو تقريره غير العاديّين[٢].

وكثير من الأصوليين الشيعة لم يتعرضوا لتعريف السنة، ولعلّهم يعتبرون المقصود منها واضحاً.

ويمكن أن نقف بوضوح من خلال ما أوردوه، ومن خلال تعاريف أصوليي العامة على أن الأصوليين يتفقون على هذا المعنى.

والمحقق الحلي ذكر في عداد مصادر الأحكام اسم السنة، وعرفها:

وأما السنة فثلاثة: قول وفعل وتقرير[٣].

وقال العلاّمة المامقاني:

والأجود تعريف السّنة بأنّه: قول من لا يجوز عليه الكذب والخطأ وفعله وتقريره غير قرآن ولا عادي. وما يحكي أحد الثلاثة يسمى خبراً وحديثاً[٤].

ويظهر من بعض الكلمات الّتي نقلنا عن العلماء أنّهم يطلقون السّنة

---

(١) الوافية/ ١٥٧.

(٢) القوانين / ٤٠٩.

(٣) المعتبر ج١/ ٢٨، وفي توسيع مصداق السّنة يعدّ علماء العامة أفعال وأقوال الصحابة من السّنة أيضاً، وليس هنا مجال نقد هذه النظريّة، راجع: عدالة الصحابة والمرجعيّة السياسية في الإسلام، أحمد حسين يعقوب.

(٤) مقباس الهداية، ج١ / ٦٩.

على نفس قول المعصوم أو فعله أو تقريره، وبهذا المعنى ليس له إلاّ قسم واحد وهو الصحيح المصون عن الكذب والخطأ وبهذا يصير أخصّ مصداقاً من الحديث.

السنة عند الفقهاء:

أما الفقهاء فقد ذكروها ـ حيناً مقابل «البدعة» وعرفوا البدعة بقولهم:

ما خالف أصول الشريعة ولم يوافق السنّة[١].

وعلى ذلك فمعنى السنة:

كل شيء استفيد وجوبه من السنة ويمكن استنتاج هذا المعنى من بعض الأحاديث ظاهراً.

عن أبي جعفر عليه السلام قال:

ليس المضمضة والاستنشاق فريضة ولا سنّة، إنّما عليك أن تَغسل ما ظَهَر[٢].

قال شيخ الطائفة (رضوان الله عليه):

أي ليسا من السنّة التي لا يجوز تركها.

وعلّق عليه الشيخ الحرّ العاملي (رضوان الله عليه):

أقول: مراده بالسنّة ما علم وجوبه بالسّند وهو معنى مستعمل فيه السّنة في الأحاديث[٣].

جاءت السنة في مقابل البدعة في الأحاديث أيضاً:

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ج١/ ١٠٧، الأصول العامة للفقه المقارن/ ١٢١، إرشاد الفحول/ ٣١.

(٢) التهذيب ج١/ ٧٨، الاستبصار، ج١/ ٦٧.

(٣) وسائل الشيعة ج١/ ٤٣١، ط، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث.

قال رسول الله ﷺ: عمل قليل في سنّة خير من عمل كثير في بدعة(١).

ومن وجهة نظر الفقهاء فالذي يستعمل بكثرة هو «السنة بمعنى الاستحباب» ولذلك قالوا في تعريفها:

هي الطريقه المتبعة في الدين، من غير افِتراض ولا وجوب(٢).

وقد جاء هذا المعنى للسنة في نصوص الروايات وكلمات الفقهاء بصور شائعة حيث عنونوا في الكتب الحديثيّة للاستصحاب... وأوردوا أمثال الحديث التالي:

عن سماعة قال: سألته [عن أبي عبد الله عليه السلام] عنهما؟ [أي عن المضمضة والاستنشاق] قال: هما من السّنة، فإن نسيتهما لم يكن عليكَ إعادة(٣).

عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال:

المضمضة والاستنشاق ليسا من الوضوء(٤).

علّق عليه الشيخ الحرّ(ره):

أقول: حمله الشيخ على أنّهما ليسا من واجباته، بل من سننه(٥).

عن أبي عبد الله، عن آبائه، عن عليّ ـ (صلوات الله عليهم) أنّه قال:

---

(١) بحارالأنوار، ج١/ ٢٦، أنظر أيضاً: أحاديث أخرى في هذا الباب.
(٢) السنة قبل التدوين/ ٢١.
(٣) وسائل الشيعة، ج١/ ٤٣٠.
(٤) التهذيب، ج١/ ٧٨، وسائل الشيعةج١/ ٤٣١.
(٥) وسائل الشيعةج١/ ٤٣١.

السّنة سنّتان: سنّة في فريضة الأخذ بها هدى وتركها ضلالة، وسنّة في غير فريضة، الأخذ بها فضيلة وتركها إلى غيره خطيئة.

إن تعريف الفقهاء «للسّنة» إنما هو بالنظر إلى الناحية الفقهيّة غالباً ولمّا كان موضوع علم «الفقه» هو البحث عن حكم الشرع في أفعال العباد، وجوباً وندباً، أو إباحةً أو حرمةً أو كراهةً إلى غير ذلك من أقسام الحكم الشرعي، فقد عرفوا «السنّة» تعريفاً يتّفق وموضوع علمهم. . .

السنّه عند المحدّثين:

تعريف المحدثين «للسنّة» أشمل وأعم مفهوماً. وهذا التعريف العام الشامل بصورة دقيقة يقع في إطار الأهداف التي اتبعها المحدثون في تدوين مجموعة الآثار والأخبار.

قال الدكتور شعبان محمد اسماعيل:

لمّا كان هدف المحدثين هو: معرفة ما كان عليه رسول الله ﷺ عن أقواله وأفعاله وتقريراته، وصفاته الخلقيّة والخُلقَيّة، وكل ما نسِبَ إلى الرّسول ﷺ باعتباره قدوة حسنة، وأسوة يجب على المسلمين أن يتأسوا به في كلّ ما فعل وكل ما ترك. لمّا كان هدفهم هو هذا عرفوا السّنة بما يحقّق هذا الهدف فقالوا: السّنة هي ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خلّقية سواء كانَ ذلكَ قبل البعثة أو بعدها[1].

إن هذا التحليل صحيح تماماً ونظرة إلى العناوين والفصول التي

(١) دراسات حول القرآن والسّنة/ ٨٦ وراجع أيضاً: إرشاد الفحول/ ٣٣، أصول الحديث/ ١٩.

جاءت: الكتب والأبواب الّتي تحويها المجاميع الحديثية، ومحتوى المنقولات، تبيّن أن المحدثين كان عندهم مثل هذا الانطباع عن السّنة. وهو يوجد في عناوين أمثال: «سيرة النبي وسننه» و«جوامع آداب النبي وسننه» و«باب فيه سنن أمير المؤمنين عليه السلام»[1] و«كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال» و...

ولنضف الآن: أنّ ما سنتعرّض له في هذا البحث [تاريخ تدوين الحديث] هو هذا المعنى للسّنة، الّذي يقترب ـ إلى حدٍّ ما مصداقاً ـ لا مفهوماً من الحديث.

وبعبارة أخرى نحن نتحدث عن كيفية تدوين الأخبار والأحاديث والآثار التي تروي الأفعال والأقوال والتقارير الكاشفة عن أخلاق النبي وآله وسيرتهم وحياتهم صلوات الله عليهم أجمعين.

نظرة تاريخيّة لمفهوم السّنة:

قلنا: إن السّنة ـ من حيث اللغة هي «الطريقة المعهودة» ويعتقد بعض العلماء أن «السّنة» استعملت منذ البداية بهذا المعنى، وأنّ مفهوم السنة كان في البداية «الطريقة الدينيّة التي سلكها النبي صلى الله عليه وآله وسلم في سيرته المطهّرة.

وبناءً على ذلك: فالحديث كان عاماً، وأطلق على حكاية قول النبي وفعله وكانت السّنة تطلق على أفعاله صلى الله عليه وآله وسلم خاصّة. واستدلّ على هذا المطلب بهذه العبارة:

وفي ضوء هذا التباين بين المفهومين ندرك قول المحدثين أحياناً، هذا الحديث مخالف للقياس، والسّنة والإجماع، أو قولهم «إمام في الحديث، وإمام

---

(١) بحار الأنوار ج١٦/ ١٩٤، ج١٦/ ١، ج٧٦/ ٦٦، ج٤١/ ١٠٢.

في السّنة وإمام فيهما معاً، وأغرب من هذا كلّه أن أحد المفهومين يدعم الآخر، كأنّهما متغايران من كل وجّه، حتّى صحّ أن يذكر ابن النديم كتاباً بعنوان «كتاب السنن بشواهد الحديث»[١].

لكن الظاهر، أن هذا الاصطلاح لو كانَ متداولاً بين العلماء السابقين ـ ولأيّ سبب كان ـ فمن البعيد أن يكون موافقاً لنصوص الروايات.

فإذا كان النبي ﷺ يأمر الناس باتباع السّنة ويقول:

«عليكم بالسّنة، فعمل قليل في السّنة خير من عمل كثير في بدعة»[٢].

ويقول:

من تمسّك بسنتي في اختلاف أمتي كان له أجر مائة شهيد[٣]. و...

فهل المراد ـ فقط الأمر باتباع الأفعال والأعمال والتّمسك بالسيرة النبوية؟

من البعيد جدّاً أن يكون المراد هذا المعنى فقط!.

الشيخ المفيد رضوان الله عليه ـ في كتاب أصوله الذي وقفنا على مختصره فقط مع الأسف قال في باب مصادر الأحكام الشرعيّة:

اعلم أن أصول الأحكام الشرعيّة ثلاثة أشياء:

---

(١) علوم الحديث/ ٦، الفهرست/ ٢٣٠.

(٢) بحار الأنوار ج٢/ ٢٦١.

(٣) المصدر السابق نفسه.

كتاب الله سبحانه، وسنّة نبيّه ﷺ، وأقوال الأئمة الطاهرين من بعده (صلوات الله عليهم وسلامه).

يبدو أن مصطلح السنّة عند الشيخ يخصّ المروي عن النبي ﷺ كما استفاد من كلامه بعض المحققين وقال:

والملاحظ أنه عطف على السّنة أقوال المعصومين الأئمة الاثني عشر عليهم السلام ممّا يوحي أنّ مصطلح «السّنة» عنده يختص بالمروي عن الرسول ﷺ[1].

إن ما ذكرناه إلى هنا هو تعريف مصطلحات «الحديث» «الخبر» «الأثر» «السّنة» من وجهات نظر مختلفة، ويمكن الوقوف على أقوال أخرى في المصادر لا حاجة إلى البحث عنها[2].

مكانة السنّة:

الحديث والسنّة هما بيان للقرآن وتفسير لكلام الله سبحانه ومتمّمان للقوانين والضوابط والحقائق الكامنة في القرآن المجيد. وهما تفصيل للكثير المجمل، وبيان لبعض المهمات من الأمور، وتفسير للبواطن، وتقييد للأُمور المطلقة، وبالعكس، وبيان للكثير من المفاهيم الغريبة في الظاهر من محكم كتابه جلّ وعلا.

وعلى مرّ التاريخ تحدّث المؤمنون بالمعارف الإسلاميّة بإسهاب حول

---

(١) السيد الجلالي: نظرات في تراث الشيخ المفيد، ص١٩٣.

(٢) انظر: الاتجاهات الفقهيّة عند أصحاب الحديث/ ١٢، دراسات حول القرآن والسّنة/ ٨٠، الأصول العامة للفقه المقارن/ ١٤١، توثيق السّنة في القرن الثاني الهجري/ ١٢، كشاف اصطلاحات الفنون ج١/ ٧٠٣، مقباس الهداية ج١/ ٦٨، السنة قبل التدوين/ ٢١.

السّنة وموقعيتها وعلاقتها بالقرآن، وربّما حاول البعض عبر عصبية أو جهل النيل من المقام الرفيع للسّنة في إطار بيانها للمعتقد؛ لكّن الواعين ومن نوّر الله قلوبهم أدركوا أنّه وأمام هذا البحر من الأدلة القطعية في حجيّة السّنة وفاعليتها على صعيد نشر المعارف الإسلاميّة شيء لا يُعبأ بُه، وهو الأمر الّذي يدعونا لعدم الأخذ برأي الجاهلين[١].

ولهذه المواقف على ما يبدو جذور تعود إلى مواقف بعض القَرَشيين وبعض من ذوي الأهواء والميول السياسية في الصدر الأوّل من الإسلام؛ على أية حال نحن سنشير في فصول لاحقة إلى أُمور تصب في هذا الإطار، ونبين عبرها خواء هذه الادّعاءات.

وهذه واحدة من النصوص الجديرة بالذكر في التاريخ، يقول عبد الله بن عمرو:

كنت أكتب كلّ شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش، فقالوا: إنّك تكتب كلّ شيء تسمعه من رسول الله ﷺ وهو بشر يتكلّم في الغضب والرضا، فأمسكت عن الكتابة، فذكرت ذلك للرسول؛ فقال: أُكتب فوالّذي نفسي بيده ما خرج منّي إلاّ حقّ[٢].

ربّما تأمّل الرسول الأكرم محمّد ﷺ غد أُمّته حيث تتكرّر هذه الدعوات الفارغة فوقف على هذه الحقيقة المرّة عبر أفق الغيب والوحي فنراه يقول ﷺ:

---

(١) عنى مؤلف كتاب «حجيّة السّنة» القيّم في فصل تحت عنوان «في بيان الشُبه التي أوردها بعض من ينكر حجيّة السنّة والردّ عليها» إيراد آراء هؤلاء وقام بتفنيدها ودحضها بعناية فائقة جملة وتفصيلاً.

(٢) تقييد العلم/ ٨٠ ـ ٨١.

«ألا وإنّي قد أُوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم من حلال، فاحلّوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرّموه...»[١].

وقد تكرّرت هذه المقولة منسوبة إلى الرسول الأكرم ﷺ بعبارات مختلفة وفي مصادر عديدة، نشير إلى واحدة منها:

قال رسول الله ﷺ: يوشك الرجل متّكئاً في أريكته، يُحَدّثُ بحديث من حديثي فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله عزّ وجلّ فما وجدنا فيه من الحلال استحللناه وما جدنا فيه من حرام حرّمناه! ألا وإنّ ما حرّم رسول الله ﷺ مثل ما حرّم الله[٢].

إنّ مثل هذه الدعوات والصيحات الّتي تكرّرت بعد وفاة الرسول وتكرّرت مثيلاتها في القرون اللاحقة من قبل البعض، لم تكن إلاّ دعوات خبيثة تهدف إلى هجر الجزء الأعظم من مصادر المعرفة الإسلاميّة، ولا يسعنا المجال هنا الإشارة إلى النتائج الّتي تمخّضت عنها مثل هذه الدعوات، لكنّنا سنتطرق في بحث نتائج منع تدوين الحديث إلى بعضها.

ومن المناسب واللائق هنا قبل أن نطوي صفحة البحث هذه إيراد رأي أحد المحققين من أهل السّنة، حيث يقول الأُستاذ محمّد أبو شهبة ـ أُستاذ الأزهر:

قد ظهرت فئة ـ في القديم والحديث تدعو إلى هذه

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ج١/ ٣٧.

(٢) مسند أحمد بن حنبل ج٤/ ١٣١. المستدرك/ ١٩٢، ط ج، السنن الكبرى، ج ٩/ ٥٥٦.

الدعوة الخبيثة، وهي الاكتفاء بالقرآن عن الأحاديث، وغرضهم هدم نصف الدين أو إن شئت قلت: «تقويض الدين كلّه» لأنّه إذا أهملت الأحاديث، فسيؤدّي ذلك بلا ريب إلى استعجام معظم القرآن على الأمّة، وعدم معرفة المراد منه ـ وإذا أهملت الأحاديث، واستعجم القرآن، فقل على الإسلام العفا[١].

على أيّة حال أكّد المحقّقون والفقهاء والمحدّثون على المكانة الرفيعة للسّنة إلى جوار القرآن باعتبارها ساعداً قوياً، وحذروا من النتائج الوخيمة لاختلاق سنة وابتداعها. قال الزركشي:

اعلم أن القرآن والحديث أبداً متعاضدان على استيفاء الحق وإخراجه من مدارج الحكمة، حتّى أنّ كلّ واحد منها يخصّص عموم الآخر ويبيّن إجماله[٢].

أشار الأُستاذ محمّد يوسف موسى وفي مجال إيراد نقد الشافعي على هذه التصورات في كتابه القيّم «تاريخ الفقه الإسلامي» باختصار، نورده لعموم الفائدة والمناسبة:

إنّ القرآن لم يأت بكلّ شيء من ناحية، وفيه الكثير مما يحتاج إلى بيان من ناحية أُخرى، سواء في ذلك العبادات والمعاملات، ولا يقوم بذلك إلاّ الرسول ﷺ بحكم رسالته التي عليه أن يقوم بها، وفي هذا يقول عزّ من قائل في محكم كتابه ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[٣].

---

(١) في رحاب السنة/ ١٣.
(٢) البرهان، ج٢/ ٢٥٦.
(٣) النحل/ ٤٤.

ثم يقول الأُستاذ نفسه:

٧«لو رددنا السّنة كلّها لصرنا إلى أمر عظيم لا يمكن قبوله، وهو أن يأتي بأقلّ ما يسمّى صلاة أو زكاة، فقد أدى ما عليه، ولو صلّى ركعتين في كلّ يوم أو أيّام؛ إذ له أن يقول ما لم يكن فيه كتاب الله فليس على أحد فيه فرض، ولكن السّنة بيّنت لنا عدد الصلوات في اليوم وكيفياتها، والزكاة وأنواعها ومقاديرها والأموال الّتي تجب فيها»[١].

ولا يسعنا الإطالة في هذا الأمر أكثر لكنّه ليس بوسعنا أيضاً تجاهل حوار مهمّ يقودنا إلى عدد من الحقائق:

... بينما عمران بن حصين يحدّث عن سنّة نبينا ﷺ، إذ قال له رجل: يا أبا نجيد حدّثنا بالقرآن، فقال له عمران: أنت وأصحابك تقرأُون القرآن، أكنت محدثي عن الصلاة وما فيها وحدودها، أكنت محدثي عن الزكاة في الذهب والإبل وأصناف البقر وأصناف المال، ولكن قد شهدتُ وغبتَ أنت، ثمّ قال: فرض علينا رسول الله ﷺ في الزكاة كذا وكذا... فقال الرجل أحييتني أحياك الله[٢].

على أيّة حال فإن السّنة إضافة إلى تذليلها لبعض العقبات في طريق المعرفة القرآنيّة وعنايتها بتفصيل بعض المجملات وإرشادنا إلى حقائق قرآنيّة كامنة فهي بمعية كتاب الله أيضاً ستأخذ بأيدينا للتعرف على الدين

(١) تاريخ الفقه الإسلامي/ ٢٢٩، نقلاً عن «الأصول العامة للفقه المقارن»/ ١٢٥.
(٢) البرهان في علوم القرآن، ج٢/ ١٢٨.

الحنيف والإلمام بقوانينه وضوابطه وبلوغ الهدف من الحياة وتحقيق الهدف المنشود[١].

(١) لمزيد من الإيضاح راجع: الأُصول العامّة للفقه المقارن/ ١١٩ وما بعدها، وكتاب حجيّة السنّة للدكتور عبد الغني عبد الخالق. . .

الفصل الأول

تدوين الحديث

كيف وصل الحديث والسنة النبوية الشريفة لأيدي الأجيال المتأخرة عن عصر الصدور؟

وما هو موقف النبي ﷺ من تدوين وكتابة هذه الطائفة من الأخبار؟

وكيف كان يتعامل الصحابة مع هذا الكنز العظيم في ذلك الوقت وإبّان حياة رسول الله ﷺ؟

هذه وغيرها جملة من الأسئلة المطروحة حول مقطع من تاريخ الحديث ونشره، فلنر كيف أُجيب عن هذه الأسئلة.

يعتقد جماعة من العلماء والمحدثين من أبناء السنة أن الحديث لم يدوّن حتى أواخر القرن الهجري الأول، كما يعتقد آخرون بعوده إلى ما هو أكثر من ذلك، قال السيوطي:

وأمّا ابتداء الحديث، فإنه وقع على رأس المائة في خلافة عمر بن عبد العزيز بأمره [1].

كما ذكر آخرون ذلك أيضاً فنسبوا بداية عصر التدوين إلى عمر بن

---

(١) تدريب الراوي١/ ٩٤.

عبد العزيز، إلا انهم اختلفوا في كيفية شروعه في تدوين الحديث، وأنه لمن أوكل أمر ذلك؟[١]

فقال السيوطي وجماعة: إنه أعلن للملأ في ذلك.

غير أنه ورد في بعض النصوص: أنه كتب إلى علماء المدينة في تدوين وكتابة أحاديث النبي ﷺ خوفاً وحرصاً عليها من الضياع والتحريف[٢].

وروى البخاري أن عمر بن عبد العزيز كتب في ذلك رسالة إلى أبي بكر بن حزم مؤكداً ضرورة نشر العلم، كما أمره بعقد مجالس لتعليم الحديث وتذاكره في المساجد[٣]، فاهتم ابن حزم بذلك وجمع الأحاديث في كتاب[٤].

وورد في بعض النصوص الأخرى أنه أوكل القيام بهذه المهمة إلى كثير بن مرة[٥]، وورد في بعضها الآخر أنه أوكل ذلك إلى محمد بن شهاب الزهري [٦]، وقام بنشر كتابات الزهري في مختلف البلاد الإسلامية، فكان الزهري يذكر ذلك ويفتخر على غيره بكثرة رواية الحديث[٧].

---

(١) تدريب الراوي١/ ٩٤. الرسالة المستطرفة/ ٤.

(٢) تقييد العلم/ ١٠٦.

(٣) أبو بكر ابن حزم الخزرجي المدني، أمير المدينة ومن قضاتها، أثنوا عليه بكثرة العبادة والتهجد (انظر: الجرح والتعديل ٩/ ٣٣٧. تهذيب الكمال٦/ ١٥٨. سير أعلام النبلاء ٥/ ٣١٣. تاريخ الإسلام٥/ ٢٢٢).

(٤) تقييد العلم/ ١٠٥. صحيح البخاري١/ ٣٦، باب كيف يقبض العلم. الطبقات الكبرى٨/ ٤٨. أدب الإملاء والاستملاء/ ٤٤. إرشاد الساري ١/ ٦. تدوين السنة الشريفة/ ١٦.

(٥) كثير بن مرة الخضري من محدثي وفقهاء حمص، فإنه يقال أنه رأى في تلك البلاد سبعين من البدريين. انظر: تاريخ البخاري٧/ ٢٠٨. الجرح والتعديل ٢/ ١٥٧. أسد الغابة ٤/ ٢٣٣. سير أعلام النبلاء ٤/ ٤٦.

(٦) الطبقات الكبرى٧/ ٤٤٧. جامع بيان العلم١/ ٧٦.

(٧) تهذيب التهذيب٩/ ٤٤٩. الرسالة المستطرفة/ ٤. إرشاد الساري١/ ٦. تدوين السنة الشريفة: ١٦.

ومن ثمّ نجد أن علماء أبناء السنة ومحدّثيهم أخذوا يؤكدون على ما نهجه الزهري في كتابة وتدوين الحديث حتى اشتهر ذلك بينهم في جملة من آثارهم[١].

توفي عمر بن عبد العزيز عام ١٠١ من الهجرة؛ ولذا فعلى فرض إصداره أمراً في كتابة الحديث وتدوينه في آخر سنة من عمره، حينئذٍ سوف يكون عام ١٠١ من الهجرة عام بداية عصر التدوين بناءً على ما يعتقده البعض. إلاّ أنه ورد في بعض النصوص الأخرى أن عمر بن عبد العزيز وإن كان قد أصدر بذلك أمراً إلاّ أنه لم يوفق لتطبيقه، وعليه فقد ذهب جماعة إلى أن بداية عصر تدوين الحديث يرجع إلى وقت متأخر عن التاريخ المذكور.

ثم إنه ذكر البعض أن بداية عصر تدوين الحديث كان بأمر هشام بن عبد الملك وباهتمام محمد بن شهاب الزهري عام ١٢٤ للهجرة، وان جرى على ألسنتهم رجوع تاريخ ذلك إلى عام ١٠٤هـ، ١٠٥هـ، ١١٠هـ، ١٢١هـ، وغير ذلك[٢].

ونحن ـ وبعد كل ما ذُكر ـ بحاجة إلى التأمل قليلاً في هذه الآراء لنرى هل أن الأمر واقعاً كان كذلك؟ وهل أن الإسلام ـ دين الثقافة

---

(١) تاريخ التراث العربي١/ ٢٢١. مختصر تاريخ دمشق ٢٣/ ٢٣٤. وانظر أيضاً: الإمام الزهري وأثره في السنة (حارث سليمان الضاري) / ٢٩٥ فما بعد.

(٢) ذكر بعض أن الحديث لم يدوّن إلى ما بعد وفاة الحسن البصري (ت ١١٠هـ)، الرسالة المستطرفة/ ٨٠. دلائل التوثيق المبكّر: ٢٣٥. وقد ذكر الذهبي في موضع من تاريخه: أن بداية تدوين الحديث والفقه كانت سنة ١٤٣، تاريخ الإسلام/ ١٢، أحداث ١٤١ ـ ١٦٠هـ. وحكي عنه التصريح بأن ذلك كان سنة ١٣٢. تأسيس الشيعة/ ٢٧٩. ويقول أبو حاتم الرازي: إن أول من دوّن الحديث هو ابن جريح (ت ١٥٠هـ)، الجرح والتعديل١/ ١٨٤. تاريخ بغداد١٠/ ٤٠٠.
وعلى أية حال، فإن المتفق عليه بين كل هذه الأقوال هو عدم تدوين الحديث في القرن الأول الهجري. وسوف نذكر بعد هذا العرض أن المحققين من أبناء السنة المعاصرين حاولوا نقد هذه الآراء، وتوجيه القول بأن الحديث لم يدوّن حتى القرن الثاني.

والمدنية والنبي ﷺ مبلّغ العلم والثقافة ـ أكّد على ذلك؛ وهل أبدى النبي ﷺ نوعاً من التعاطف مع هذا الأمر؟ أليس في المنع من تدوين وضبط الحديث ـ بكل أشكاله ـ ضياع للحديث وضياع لقسم كبير من الثروة الثقافية؟

إن بعض المستشرقين وجمع من الكتّاب الذين يتصيّدون في الماء العكر حاولوا على ضوء هذه الرؤية ـ أي عدم تدوين الحديث في القرن الأول ـ وغيرها من القضايا التأكيد على ذلك وإنكار ونفي الحديث والسنة من الأساس، فلنرَ ما هي الحقيقة إذن؟

الكتابة والثقافة

لا ريب في أن للكتابة في اتساع رقعة العلم وخلود ما يترتب عليها من آثار ثقافية دوراً معروفاً، كما أن الكتابة والتدوين هي العلامة والمظهر البارز من مظاهر الحضارة والمدنية والعلم. لقد كانت الكتابة أهم الوسائل في ترسيخ الفكر والمعرفة ونقل المعارف والأخبار[١]، يقول الدكتور نور الدين عتر:

> **وهي من أهم وسائل حفظ المعلومات ونقلها للأجيال، وقد كانت أحد العوامل في حفظ الحديث، على الرغم مما وقع فيها من اختلاف الروايات، وتباين التوجهات، حتّى صنّفت فيها التآليف في القديم والحديث[٢].**

يقول أحد المحققين:

> **الخطّ مظهر من مظاهر التحضّر، وأثر من آثار الاجتماع والتمدّن؛ لذا سبق إليه الأُمم المتمدنة[٣].**

---

(١) رسم المصحف، دراسة لغوية تاريخية/ ٧.
(٢) منهج النقد في علوم الحديث/ ٣٩.
(٣) الحديث والمحدّثون/ ١١٩.

وعلى حدّ تعبير محقق آخر:

ممّا لاشك فيه أن الكتابة من أهم عوامل التوثيق إن لم تكن أهمها جميعاً[١].

إن نظرة سريعة وخاطفة في سماء الحضارات تعكس اهتمام تلك المجتمعات المتحضّرة بالكتابة والتدوين، وقد اعتبر الإنسان ذلك وسيلة من أجل نقل الثقافات وتدوين الحوادث والوقائع وضبطها والاستفادة منها.

وقد أقرّ القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة هذا العرف العقلائي والسيرة الحسنة وأكّد على ضرورة العمل بها[٢].

القرآن والكتابة

ذكرنا أن القرآن الكريم ـ هذا البلاغ الالهي الذي نزل لهداية الإنسان والارتفاع به إلى ذلك الكمال ـ بدأ إبلاغ رسالته بـ: «التعليم» و«القراءة» و«القلم»، وهكذا فقد أُعلن في الدين عن المقام الرفيع والمكانة السامية والهامة للكتابة بصدور أول بلاغ قيّم لرسول الله ﷺ. لقد أقسم الحق تبارك وتعالى[٣] بالقلم تعظيماً لشأنه، معتبراً ذلك من نعمه العظمى، فقرن تعالى نفسه بالقلم، فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ . . . ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾[٤].

يقول الخطيب البغدادي:

---

(١) توثيق السنة: ٤٣.

(٢) تقييد العلم/ ١١٧ ـ ١٤٦، باب فضل الكتب وما قيل فيها. وانظر أيضاً: لمحات من تاريخ الكتاب والمكتبات، الفصل الأول: تاريخ الكتاب، رسم المصحف.

(٣) القلم/ ١.

(٤) العلق/ ١ ـ ٤. وانظر: أدب الدنيا والدين/ ٦٨.

وقد أدبّ الله سبحانه عباده بمثل ذلك في الدين فقال: ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾[١].

هذا، مضافاً إلى أن وجود ألفاظ مختلفة من مادة «كتَبَ» في (٥٧) موضعاً، ولفظ «كتاب» في (٢٦٢) موضعاً ولفظ «أقلام» في بعض المواضع من القرآن الكريم، وهذا خير دليل على مكانة هذا المقام ومرتبته الرفيعة[٢].

يقول الخطيب البغدادي ـ بعد أن ذكر آية «الدين» التي فهم منها تأكيد القرآن على الكتابة:

فلمّا أمر الله تعالى بكتابة الدين حفظاً له، واحتياطاً عليه، وإشفاقاً من دخول الريب فيه، كان العلم، الّذي حفظه أصعب من حفظ الدَّين، أحرى أن تباح كتابته خوفاً من دخول الريب والشك فيه[٣].

وهكذا فقد اتضح أن القرآن الكريم كان أول من دلّ المسلمين ورغّبهم على الكتابة والتدوين، وأنه المنشأ في ذلك حيث أمضى السيرة والعرف العقلائي الثابت في الكتابة وتدوين العلم.

الكتابة والسنّة

نظراً إلى أن النبي الكريم ﷺ هو المبلّغ والمفسّر للقرآن ـ كتاب العلم والقلم والبيان ـ وأن فلسفة هذا الدين توسعة رقعة المعرفة ونشر العلم

---

(١) البقرة/ ٢٨٢. تقييد العلم/ ٧١.

(٢) انظر: مجلة المجمع العلمي العراقي «التدوين وظهور الكتب المصنّفة»: ٧، العدد ٢، للعام ٣١. الأستاذ صالح أحمد العلي، حيث ذكر وبشكل منسجم الآيات المتعلقة بالبحث، وبيّن عمل مادة «كتب» في مختلف تراكيبها، وتأثير ذلك في ثقافة التدوين بين المسلمين.

(٣) تقييد العلم/ ٧١.

كما قال ﷺ: «بالتعليم أُرسلت»[١]، حيث يشير ذلك إلى أن نشر المعرفة ومحو الجهل وتوعية البشرية كانت على رأس القائمة في دعوته، فهل مع ذلك كله يمكن أن يغفل ﷺ هذا الأمر ـ الكتابة ـ الهام في توسعة رقعة الثقافة والعلم، ولا يدعو أصحابه وأتباع دعوته إلى ذلك؟!

يقول عبد الله بن عمرو: قال رسول الله ﷺ: قيّدوا العلم.

قلت: يا رسول الله! وما تقييده؟ قال: الكتاب[٢].

وروي أن رجلاً من الأنصار كان يحضر مجلس رسول الله ﷺ فيسمع ما يقول وقد ضاق ذرعاً بنفسه لأنه لم يكن يستطيع أن يحفظ، فشكا إلى رسول الله ﷺ ذلك فقال له: استعن بيمينك[٣].

وقال ﷺ في بيان لعامة الناس يتعلق بوظائف الآباء مؤكداً على تلك الحقيقة:

حق الولد أن يحسن اسمه، ويزوّجه إذا أدرك، ويعلّمه الكتاب[٤].

وهكذا أكّد صلوات الله عليه على هذه الحقيقة الثقافية إلى حدٍ جعل فيه تعليم الكتابة فداء أسرى الحرب كما ذكر الكثير من المؤرخين، قال ابن سعد:

كان فداء أسارى بدر أربعة آلاف إلى ما دون ذلك، فمن لم يكن عنده شيء أُمِر أن يُعلّم غلمان الأنصار الكتابة[٥].

---

(١) سنن ابن ماجة١/ ٨٣. منية المريد/ ١٠٦.
(٢) تقييد العلم/ ٦٩. جامع بيان العلم١/ ٣١٩.
(٣) تقييد العلم/ ٦٦. سنن الترمذي ٥/ ٣٩، ح٢٤٦٦. محاسن الاصطلاح/ ٣٠١. وفي سنن الترمذي... وأومأ بيده للخطّ.
(٤) كنز العمال ١٦/ ٤١٧. بحار الانوار٨٠ / ٧٤. التراتيب الإدارية ٢/ ١٦٢.
(٥) الطبقات الكبرى ٢/ ٢٢.

وقال الماوردي:

قال عكرمة: بلغ فداء أهل بدر أربعة آلاف، حتّى أن الرجل ليفادى على أن يعلم الخّط[١].

وعلى هذا الأساس من التعاليم الشريفة اعتبر العلماء أمر الكتابة من أهم تعاليم الدين القويم وأبرز أسباب صيانة علوم الشريعة، وأكدوا على ذلك كثيراً، فقد كتب العلاّمة عبد الصمد الحارثي الهمداني يقول:

فالخط من أكبر المهمات الدينيّة والدنيوية، وعليه مدار أكثر الأمور الدينية والعلمية[٢].

وكتب الفقيه الكبير زين الدين بن علي «الشهيد الثاني» في أثره القيّم منية المريد يقول:

الكتابة من أجلّ المطالب الدينّية، وأكبر أسباب الملّة الحنيفيّة من الكتاب والسنة وما يتبعهما من العلوم الشرعية، وما يتوقّفان عليه من المعارف العقليّة، وهي منقسمة في الأحكام حسب العلم المكتوب: فإن كان واجباً على الأعيان فهي كذلك حيث يتوقّف حفظه عليها، وإن كان واجباً على الكفاية فهي كذلك، وإن كان مستحباً فكتابته مستحبّة[٣].

ومن أجل ذلك كان المسلمون يثنون على كتّاب العلم والمعارف بناءً على ما ورد من تعاليم في ذلك، ولأجل كل هذه التأكيدات والتنبيهات

---

(١) أدب الدنيا والدين/ ٦٨.
(٢) نور الحقيقة/ ١٠٨.
(٣) منية المريد/ ٣٣٩.

والتعاليم التزم المسلمون بكتابة وتدوين القرآن الكريم من دون أن يفرطوا في ذلك أبداً.

إذن، لا بدّ من الإجابة عن هذا التساؤل، وهو أنه لو كان الخط والكتابة والتدوين ظاهرة من ظواهر الحضارة والمدنية، وأن البشرية قد أفادت من ذلك نظراً لما تلعبه هذه الظاهرة من دور كبير في نقل الثقافة والعلم، وأن الله تعالى قد أقسم بالقلم وعظّم أمرالكتابة، وأن النبي ﷺ قد أمر بذلك، والقرآن الكريم أكّد على أُصول ورواكز الكتابة، فهل بعد ذلك كلّه يمكن تصوّر أن النبي ينهى عن كتابة وتدوين آثار رسالته، أو التسامح في ذلك؟

وبكلمة أخرى، إن الوقت حان لكي نتأمل في كيفية تدوين الحديث ونتابع مسيرته التاريخية، فلننظر إذن في ظل الشواهد والمستندات التاريخية ما هي الحقيقة، وعمّ كانت تكشف سنة رسول الله ﷺ من القول والفعل والتقرير؟

تدوين الحديث

أ ـ سنة رسول الله القولية:

إن ممّا لا يعتريه الريب وما تؤكده الكثير من النصوص والأحاديث التي تعكس اهتمام النبي ﷺ وأنه كان يأمر بكتابة وتدوين أقواله وأحاديثه، حيث كان صلوات الله عليه يأمر بذلك مباشرة أحياناً، وأخرى كان يجيب عندما يُسأل عن الكتابة بالإيجاب، وثالثة يثني على الكتّاب والمدونين: ورابعة يستخدم في كلامه أدوات الكتابة والتدوين، الخ. . . قال علي عليه السلام: قال رسول الله ﷺ: اكتبوا هذا العلم[١].

وقام صلوات الله عليه ذات يوم بعد فتح مكة بين الملأ من قومه وخطب فيهم، فقام إليه رجل من اليمن يُكنّى بأبي شاة، وقال: اكتب لي ذلك، فقال ﷺ: «اكتبوا لأبي شاة»[٢]، وهذا الحديث رواه كبار المحدّثين من علماء أبناء السنة مؤكدين صحته وثبوته، يقول عبد الله بن حنبل:

ليس يُروى في كتابة الحديث شيء أصحّ من هذا الحديث؛ لأنّ النبي ﷺ قال: «اكتبوا لأبي شاة»[٣].

---

(١) كنز العمال١٠/ ٢٦٢.

(٢) تقييد العلم/ ٨٦؛ المحدث الفاصل/ ٣٦٣.

(٣) مسند أحمد بن حنبل١٢/ ٢٣٥. تدوين السنة الشريفة/ ٨٨.

وكتب ابن الصلاح:

ومن صحيح حديث رسول الله ﷺ الدالّ على جواز ذلك حديث «أبي شاة اليمني» في التماسه من رسول الله ﷺ أن يكتب له شيئاً سمعه من خطبته عام فتح مكة، وقوله ﷺ: «اكتبوا لأبي شاة»[١].

وروي عن النبي ﷺ بطرق عديدة أنه قال:

قيّدوا العلم بالكتابة[٢].

وقال عبد الله بن عمرو قلنا: يا رسول الله نسمع منك ما لا نقدر على حفظه، أنكتب ذلك؟ فقال ﷺ:

بلى، اكتبوها[٣].

وقال أيضاً:

كنت أكتب كل شي أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش، فقالوا إنكّ تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ﷺ، ورسول الله بشر يتكلّم

---

(١) مقدمة ابن الصلاح/ ٣٦٥ طبع نور الدين، بعنوان: علوم الحديث/ ١٨٢.

(٢) تقييد العلم/ ٦٩. المحدث الفاضل/ ٣٦٥. محاسن الاصطلاح/ ٣٦٣ و٣٦٤. أدب الدنيا والدين/ ٦٦.

(٣) تقييد العلم/ ٧٤. محاسن الاصطلاح/ ٣٦٦. روي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص في تدوين الحديث عن رسول الله ﷺ بألفاظ مختلفة، وقد أكد العلماء على صحته ومتانته ودلالته على إباحة بل لزوم الكتابة صريحاً، قال أبو حفص البلقيني: حديث عبد الله بن عمرو بن العاص صحيح. ولذا رواه في مستدركه ١/ ١٨٦. محاسن الاصطلاح / ٣٦٤. وحكى الخطيب البغدادي أيضاً عن معافى بن زكريا أنه قال: وفي هذا الخبر دلالة واضحة على أنه من الصواب ضبط العلم وتقييد الحكمة بالكتاب ليرجع إليه الناسي فيذكر ما نسيه...
(تقييد العلم / ٨٠) وروى الحديث المذكور بعض علماء الشيعة (انظر: عوالي اللئالئ) ١/ ٦٨. بحار الأنوار ٢: ١٤٧). وكتب ابن أبي جمهور الإحسائي في نقل عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال: وفيه دلالة على الأمر بكتابة جميع أحاديث رسول الله ﷺ (انظر: عوالي اللئالئ ١: ٦٨).

في الغضب والرضا، فامسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فقال ﷺ: اكتب، فوالذي نفسي بيده ما خرج منه إلاّ حق[١].

وعن رافع بن خديج، أنه قال:

مَر علينا رسول الله ﷺ يوماً ونحن نتحدّث فقال:ما تحدّثون؟ فقلنا: ما سمعنا منك يا رسول الله ﷺ قال: تحدّثوا وليتبوّأ مقعده من كذب عليّ من جهنم، ومضى لحاجته وسكت القوم، فقال:ما شأنهم لا يتحدّثون؟ قالوا: للّذي سمعناه منك يا رسول الله قال ﷺ: إني لم أرد ذلك، إنّما أردت من تعمّد ذلك، فتحدّثنا[٢].

هذا، وكان النبي ﷺ يتحدث عن فوائد الكتابة في الدنيا والآخرة ويأمر بذلك، فيقول:

اكتبوا هذا العلم، فإنكم تنتفعون به إمّا في دنياكم أو في آخرتكم، وإن العلم لا يضيع صاحبه[٣].

ب ـ سنة رسول الله الفعليّة:

ثم إنه لا بدّ من أن نضيف إلى ما ذكرنا سيرة رسول الله ﷺ العملية، من قبيل كتابة الرسائل والمعاهدات، بل حتى أقواله وأحاديثه التي أملاها على غيره[٤]، فقد ورد عنه أنه ﷺ قال لعلي عليه السلام:

---

(١) المستدرك على الصحيحين ١ : ٦، تقييد العلم: ٨١ ـ ٨٨. مسند أحمد ٢ : ١٦٢. محاسن الاصطلاح: ٣٦٤.

(٢) المحدث الفاضل / ٣٦٩. تقييد العلم / ٧٢. محاسن الاصطلاح / ٣٦٦.

(٣) كنز العمال ١ : ١٥٧.

(٤) تعتبر الرسائل إلى حكام ذلك الزمان ورؤساء القبائل والمعاهدات التي عقدها مع قبائل اليهود و. . . =

يا علي اكتب ما أُملي عليك.

قلت: يا رسول الله أتخاف عليّ النسيان؟

قال: لا، وقد دعوت الله أن يجعلك حافظاً.[١]..

وبذلك ثبت أن سيرته صلوات الله عليه العملية قائمة أيضاً على ضرورة الكتابة والتدوين، وسوف نذكر نماذج لذلك لاحقاً.

ج ـ سنة رسول الله التقريرية:

لقد كان الكثير من الصحابة ملتزماً بكتابة وتدوين أحاديث النبي ﷺ، وكان النبي أيضاً يرغّبهم في الكتابة، وعلى أقل التقادير لم يكن ينهاهم عن ذلك، فكان سكوته عن فعلهم تقريراً وإمضاءً لذلك[٢]، يقول الدكتور نور الدين عتر:

كذلك وردت أحاديث كثيرة عن عدد من الصحابة تبلغ بمجموعها رتبة التواتر في إثبات وقوع الكتابة للحديث النبوي في عهده ﷺ[٣].

=من أهم الفصول الحيّة والمنيرة في حياة النبي ﷺ، وقد ذكر الرسائل المذكورة بعض المحققين، انظر: «الوثائق السياسية» للبروفسور محمد حميد الله، «محمد وزمامداران» لأحمد صابري الهمداني وهو بالفارسية. التوثيق المبكّر للسنة والحديث / ٣٦٧ فما بعد. أعيان الشيعة ١: ٢٤٣. مكاتيب الرسول، لمؤلفه المرحوم سماحة آية الله علي الأحمدي الميانجي؛ وهو من أوسع ما كتب في هذا المجال تحقيقاً، وقد اكتسى اليوم حلّة الطبع والتنقيح الشامل بعد ٣٩ عاماً من الطبعة الأولى، وهذا الكتاب موجود في الأسواق في أربعة مجلدات محققة وعلمية وقد استعرض الكاتب الرسائل والنصوص في الكتاب حيث عقد لذلك فصلاً قيّماً وهو الفصل التاسع في كتابة الحديث وآلياته «مكاتيب الرسول ١: ٣٥٧ ـ ٦٧٤».

(١) الإمامة والتبصرة من الحيرة / ١٨٣. بصائر الدرجات / ١٦٧. أمالي الصدوق / ٣٢٧. كمال الدين / ٢٠٦.

(٢) لا ريب في أن الكتابة والتدوين كانت من الأمور المتعارفة والطبيعية في زمان النبي وفي حياة الصحابة، وهذا ما أكّده الكثير من المحققين المعاصرين وتؤكّده بعض النصوص الواصلة لأيدينا، وسوف نتعرض لذكر ما نسب لبعض الصحابة في الكتب الرجالية والتاريخية تحت عنوان: «صحيفة» أو «نسخة» أو «كتاب»، وسوف نقف عندها ونحلل ذلك.

(٣) منهج النقد في علوم الحديث / ٤٠.

ويقول عبد الله بن عمر:

قال أتيت النبي ﷺ مع قوم أنا أصغرهم، فسمعته يقول مَنْ كذب عليّ متعمّداً فليتبوّأ مقعده، فأقبلت على صاحبي، فقلت: كيف تجترئون على الحديث عن رسول الله ﷺ وقد سمعتم ما قال، قالوا: يا ابن أختنا إنّا لم نسمع منه شيئاً، إلاّ وهو عندنا في كتاب[١].

وحينئذٍ يكون في سيرة النبي وسنته القولية والعملية والتقريرية دليل واضح وصريح على ضرورة الكتابة، وفيما يلي ـ مضافاً إلى أمر النبي ﷺ ودعوته إلى الالتزام بالكتابة والى تعليم الخط والكتابة، وكتابة الحديث والأخبار والحوادث والأحكام الشرعية وأحكام القضاء وإملاء الأحاديث والأقوال على بعض الصحابة ـ سوف نشير إلى بعض النصوص المدوّنة بإملاء رسول الله ﷺ التي هي في الحقيقة ـ كما أسلفنا ـ دليل صريح على سنته العملية صلوات الله عليه:

١ ـ صحيفة النبي ﷺ:

ومن جملة ما أملاه رسول الله ﷺ وكتبه أمير المؤمنين عليه السلام الصحيفة المنسوبة إلى أمير المؤمنين عليه السلام والتي أوردها علماء أهل السنة في كتبهم تحت عنوان «صحيفة علي»، وقد ذكرالمحققون كيفية ومفاد تلك الصحيفة[٢]، وذكر البعض اشتهارها، فقال: خبر صحيفة علي مشهور[٣].

---

(١) الكامل (لابن عدي) ١: ٢٢. تقييد العلم / ٩٨.

(٢) دلائل التوثيق المبكر / ٤٢٠ ـ ٤٢٣. صحائف الصحابة / ٤٩. معرفة النسخ والصحف الحديثية / ٢٠٦. دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه / ١٢٧.

(٣) السنة قبل التدوين / ٣١٧ ـ ٣٤٥.

وقيل فيما يتعلق بكيفيتها ومحتواها: وهي صحيفة صغيرة تشتمل على العقل ـ مقدار الديات ـ وعلى أحكام فكاك الأسير[١].

وكما أسلفنا أن هذه الصحيفة نسبت في مصادر أبناء السنة إلى علي عليه السلام، وكأن ظاهر بعض أخبار تلك المصادر يعطي تلقّي أمير المؤمنين الصحيفة المذكورة عن النبي صلى الله عليه وآله، وفي بعض المصادر تصريح بأنه عليه السلام ورثها عن رسول الله صلى الله عليه وآله، الاّ أنه في أغلب تلك المصادر نسبتها إلى علي عليه السلام[٢].

صحيفة النبي(ص) في المصادر الشيعية:

وأما المصادر والتراث الشيعي فإنه يشير وبوضوح من خلال النصوص الواردة بأن الصحيفة المذكورة كتبت في حضور رسول الله صلى الله عليه وآله، وأنها محفوظة في قائم سيف علي عليه السلام، فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام:

وجدت في ذؤابة سيف علي عليه السلام صحيفة..[٣].

وروى عن الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام أنه قال:

وجد في قائم سيف رسول الله صلى الله عليه وآله صحيفة فيها..[٤].

---

(١) الرحلة إلى طلب الحديث / ١٣١. شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد) ٤: ٧٥.

(٢) مسند أحمد بن حنبل ١: ١٠٦. فتح الباري ١: ١٨٣. معرفة النسخ والصحف الحديثية / ٢٠٦ ـ ٢٠٨. ويقول الدكتور امتياز أحمد: ومن المحتمل كما يشير الدكتور حميد إلى أنّ هذه الوثائق تنتمي أساساً إلى النبي صلى الله عليه وآله نفسه، وبعد وفاته أصبحت ملكاً للإمام علي عليه السلام... فعليّ باعتباره ابن عم النبي وزوج ابنته، ولكونه واحداً من الأعضاء المهمّين في عائلة النبي، فقد كان واحداً من أكثر الأشخاص احتمالاً بأن يكون لديه الوثائق التي في منزل النبي، وأكثر من هذا فلأنّ محتويات صحيفة عليّ اشتملت إلى حدّ ما على العديد من العبارات من دستور المدينة...»، (دلائل التوثيق المبكر / ٤٢٢، نقلاً عن صحيفة همام بن منبه / ٣٠ ـ ٣١)، وسوف نتحدث عن الصحيفة المذكورة لاحقاً.

(٣) الاختصاص / ٢٨٤. بحار الانوار٤٠/ ١٣٣.

(٤) الذرية الطاهرة / ١٢٦.

وعن أبي أيوب بن عطية أنه قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول:

إنّ علياً عليه السلام وجد كتاباً في قراب سيف رسول الله صلى الله عليه وآله(١).

وما جاء في هذه المصادر فيما يرتبط بفحوى ومضمون هذه الصحيفة يختلف تقريباً مع ما جاء في مصادر أبناء السنة، ومن هنا فإن كلام الدكتور رفعت فوزي صحيح، حيث قال:

...إذن، الذي نفهمه من الخصوصية أن هذه الصحيفة كانت عند رسول الله صلى الله عليه وآله وأعطاها لعليّ عليه السلام كرّم الله وجهه خاصة(٢).

هذا، وقد جمع السيد رفعت فوزي ـ من أبناء السنة والمحققين المعاصرين ـ النصوص الموجودة في كتب أبناء السنة المرتبطة بالصحيفة المذكورة، حيث أضفى عليها ترتيباً وتنسيقاً جديداً، فكان كذلك تحت عنوان: «صحيفة علي بن أبي طالب عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله»، وهذه الصحيفة منتشرة في الأسواق.

وعلى كل حال، فإن الذي ينبغي التأكيد عليه هو أن هذه الصحيفة والنصوص المرتبطة بها دليل قاطع وصريح على وقوع كتابة الحديث والمعارف في عصر النبي صلى الله عليه وآله، يقول السيد رفعت فوزي جامع نصوص هذه المجموعة وناشرها تحت العنوان الآنف ذكره:

وقد روى الإمام البخاري حديثاً من أحاديث الصحيفة في كتاب العلم، وترجم له بـ«كتابة العلم»

---

(١) المحاسن ١: ١٨. وانظر أيضاً: الكافي ٧: ٢٧٤. صحيفة الإمام الرضا عليه السلام / ٢٣٧، تحقيق مدرسة الإمام المهدي عليه السلام. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٤٠ و....

(٢) صحيفة علي بن أبي طالب / ٤١.

دلالة على جواز كتابة الحديث ردّاً على من كرهوا ذلك، ودلالة كذلك على أنّ الحديث فعلاً قد كتب بمرأى ومسمع من رسول الله ﷺ[١].

والحري بالذكر أن هذه الصحيفة هي غير كتاب علي عليه السلام الذي سوف نتحدث عنه لاحقاً.

ثم إن الأستاذ محمود أبو ريّة بعد أن نقل نصوصاً مختلفة تتعلّق بالصحيفة المذكورة تردد في ذلك، ومن جملة أسباب تردده ما أوضحه بقوله:

ومردّ شكّنا إلى أن علياً عليه السلام إذا كان قد أراد أن يكتب عن رسول الله ﷺ ما يراه نافعاً للدين وللمسلمين فلا تكفيه مثل هذه الصحيفة التي كان يضعها ـ كما يقولون ـ في قراب سيفه، وإنّما كان يكتب آلاف الأحاديث في جميع ما يهمّ المسلمين، وهو صادق في كل ما يكتب إذا أراد[٢].

وضعف هذا التصوّر واضح؛ إذ ليس كل ما جاء في هذه الصحيفة هو ما كتبه أمير المؤمنين عليه السلام لكي يصح مثل هذا التصوّر، هذا مضافاً إلى أن النصوص التي رواها الفريقان في مصادرهم لا تبقي محلاً لمثل هذا التشكيك، وأيضاً مضافاً إلى وجود قرائن تدل على أن هذه الصحيفة كانت عند رسول الله ﷺ فورثها علي عليه السلام، أو أنها كانت مكتوبة بإملاءٍ من رسول الله وبحضوره صلوات الله عليه فورثها علي عليه السلام.

---

(١) صحيفة علي بن أبي طالب عليه السلام / ٤١. (صحيفة علي بن أبي طالب عن رسول ﷺ، دراسة توثيقية فقهية، الدكتور رفعت فوزي عبد المطلب، القاهرة: دار السلام، ١٤٠٦).

(٢) أضواء على السنة المحمدية / ٩٦.

٢ ـ كتاب علي(ع):

لقد ورد ذكر هذا الكتاب في المصادر كثيراً، وكان مشهوراً بين المسلمين على نطاق واسع، قال الإمام الحسن المجتبى عليه السلام في حديث له عن الكتاب المذكور:

إن العلم فينا ونحن أهله، وهو عندنا مجموع كلّه بحذافيره، وإنه لا يحدث شيء إلى يوم القيامة حتى أرش الخدش إلا وهو عندنا مكتوب بإملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وخط علي عليه السلام بيده[١].

وورد عن الأئمة عليهم السلام في مناسبات عديدة ذكر هذا الكتاب كمّاً وكيفاً، فإنه وبنظرة سريعة في روايات أهل البيت عليهم السلام يتضح أن الكتاب المذكور كان موجوداً، وأنه عبارة عن مجموعة كبيرة ورد التعبير عنها بألفاظ وعناوين وأوصاف شتى مثل: «فيها علم كثير» و«صحيفة طولها سبعون ذراعاً» و«كتاباً مدروجاً عظيماً» و...، كما أنه ورد عنهم عليهم السلام أيضاً أن هذا الأثر الكبير كان بإملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وبخط علي عليه السلام، وأنهم ورثوه كابر عن كابر[٢].

وورد أيضاً ذكر هذا الكتاب في المصادر السنية وذكر أوصافه في نصوص مختلفة نظير قولهم:

... صحيفة علي... لأنّه جمع فيها عدّة أحكام[٣].

أو قولهم:

---

(١) الإرشاد / ٢٧٤. بحار الانوار ٤٤: ١٠٠.

(٢) رجال النجاشي / ٣٦٠. الفوائد الطوسية /٢٤٣. الذريعة ٢: ٣٠٦، تحت عنوان: «أمالي رسول الله صلى الله عليه وآله». أعيان الشيعة ١: ٩٣ فما بعد.

(٣) الأنوار الكاشفة / ٣٧.

هذه الصحيفة ففيها أمور كثيرة وموضوعات متعدّدة[١].

إن اختلاف النصوص في وصف هذه المجموعة الكبيرة دليل على أن هذه المجموعة كانت عظيمة ذات حقائق ومعارف في مختلف أبعاد الإسلام المرتبطة بالفقه والدين، ولا يبعد أن يكون المراد من بعض الأوصاف الواردة فيها بأنها «جامعة»[٢] و«صحيفة»[٣] هو ذلك.

كما أن التعبير عن ذلك بـ«أمالي رسول الله ﷺ» مقتبس من جملة أحاديث، منها ما روي عن أُم سلمة(رض) أنها قالت:

دعا رسول الله ﷺ بأديم وعلي بن أبي طالب عنده ـ فلم يزل رسول الله يملي وعلي يكتب حتّى ملأ بطن الأديم وأكارعه[٤].

وكيف كان، فما أسلفنا ذكره ما هو إلاّ نزر يسير ممّا ورد وصفه وذكره كراراً في أحاديث أهل البيت عليهم السلام، فقد ورد ذكر هذا الكتاب تارة ضمن الجواب عن أحكام في جملة أسئلة كان يطرحها السائلون، كما

---

(١) صحيفة علي بن أبي طالب عليه السلام / ٤١.

(٢) ورد في بعض الروايات أن: «كتاب علي سبعون ذراعاً». (بصائر الدرجات / ١٤٧).
وفي الجامعة أنها: «... صحيفة طولها سبعون ذراعاً». (الكافي ١: ٢٣٩. بصائر الدرجات / ١٥٢)
وقد حاول بعض الفضلاء دراسة الروايات الواردة في هذين العنوانين من حيث الحجم والمحتوى وسائر الخصوصيات الأخرى، فذهب إلى أنهما كتاباً واحداً، وهذا التصور صحيح (حقيقة الجفر عند الشيعة، أكرم بركات العاملي / ٩١ ـ ٩٣).

(٣) انظر كمثال: بصائر الدرجات / ١٥١. ونضيف على ذلك ما ورد في بعض الروايات التي تحدثت عن كتاب يحمل عنوان «الجفر» المنسوب إلى رسول الله ﷺ، وقد دار الحديث كثيراً عن ذلك، فذهب البعض إلى أن الجفر هو عبارة عن موضع لمجموعة من الكتب وليس كتاباً مستقلاً، ولكن ورد في بعض الروايات الأخرى أن الجفر عبارة عن كتاب، انظر تفصيل البحث في كتاب (حقيقة الجفر عند الشيعة / ٢٧ ـ ١٠١).

(٤) المحدث الفاضل / ٦٠١، وانظر أيضاً: الإمامة والتبصرة / ١٨٣ ـ ١٧٤، محاسن الاصطلاح / ٣٦٦ و....

وردت في المصادر الحديثية ـ خصوصاً كتاب «وسائل الشيعة» الشريف ـ الإشارة إلى ذلك في مواضع متفرقة منه[١].

٣ ـ مصحف فاطمة(ع):

كان عند فاطمة الزهراء عليها السلام كتاب من رسول الله صلى الله عليه وآله؟! ذكره العلماء والمحدّثون من الفريقين، يعرف بمصحف فاطمة عليها السلام سوف نذكره بعد ذلك وما يرتبط به من نصوص وأحاديث وأنه من جملة ما دوّنه الإمام علي عليه السلام، لكننا أوردناه هنا بناءً على قول الكثير من العلماء بأنه كان بإملاءٍ من رسول الله صلى الله عليه وآله، وعدّهم ذلك من السنّة التقريرية للنبي، كما أنه سوف يأتي البحث عنه عند البحث عن تدوين الحديث عند الشيعة أيضاً[٢].

تأمّل في بعض النصوص

والذي ينبغي ذكره ـ مضافاً على ما ذكرناه حتى الآن ـ أن النبي صلى الله عليه وآله على ما ورد في روايات عديدة ـ أمر بإبلاغ حديثه وأثنى على من ينشر ويبلّغ ذلك، باعتبار أن الكتابة والتدوين ومن ثم نشر ذلك هي الركن الركين في أمر التبليغ، فقد روي أنه صلى الله عليه وآله قال: «نضّر الله عبداً سمع مقالتي فبلّغها»[٣]، كما أنه صلوات الله عليه كان يكرّر قول «فليبلّغ الشاهد الغائب»[٤] كلّما فرغ من حديثه.

---

(١) لقد شخّص الفقيد الشيخ محمد باقر شريف زاده مواضع متفرقة ممّا جاء في وسائل الشيعة ووضع لها فهرستاً دقيقاً. وانظر آيات الأحكام للمولى محمد بن علي بن إبراهيم الاسترآبادي.

(٢) انظر الملحق الخاص بهذا الموضوع في خاتمة الكتاب.

(٣) الكافي ١: ٤٠٣. وسائل الشيعة ١٨: ٦٣. سنن ابن ماجة ١: ٨٤. سنن الترمذي ٥: ٣٠٤. جامع بيان العلم وفضله / ٧٠ (باب: دعاء رسول الله صلى الله عليه وآله لمستمع العلم وحافظه ومبلّغه).

(٤) انظر المصادر المتقدمة. وسائل الشيعة ١١: ٥٤٧. صحيح البخاري ٢: ١٠٢ (باب: ليبلّغ العلم الشاهد الغائب (النص والاجتهاد / ١٣٨. يادنامه) = تكريم (شيخ طوسي ٣: ٨٢٧) في مقال «اهتمام الرسول الأعظم بالحديث والتحديث»).

كما أنه ينبغي ذكر الروايات الواردة في أهمية ومكانة القلم والدواة وسائر وسائل التدوين والكتابة وبسط الكلام في ذلك؛ إذ من الواضح جدّاً كون تلك الأحاديث بصدد ترغيب الأُمة في الكتابة ومداولة أدواتها ممّا يدل على حسن الفعل في نظر الشارع المقدّس[١].

وقبل أن نجمع بساط البحث في هذا الفصل نرى من الضروري أن نشير إلى تأكيد وإصرار النبي ﷺ في آخر لحظات عمره الشريف على الكتابة وتدوين وصيته لكي لا تضلّ الامة من بعده، فقد اعتبر الكثير من المحققين ذلك دليلاً واضحاً وصريحاً على ضرورة الكتابة والتدوين، فلنبدأ بنقل هذا الحديث ومن ثم نرى فهم المحققين لذلك: روى عبد الله بن عتبة عن ابن عباس:

لمّا حضرت رسول الله ﷺ الوفاة وفي البيت رجال فيهم عمر الخطاب فقال رسول الله ﷺ: هلّم أكتب لكم كتاباً لن تضلّوا بعده! فقال عمر: إن رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع وعندكم القرآن، حسبنا كتابُ الله، فاختلف أهل البيت واختصموا، فمنهم مَنْ يقول قرّبوا يكتب لكم رسول الله ﷺ، ومنهم من يقول ما قال عمر، فلمّا كثر اللغط والاختلاف وغمّوا رسول الله ﷺ فقال: قوموا عنّي، فقال عبيد الله بن عبد الله: فكان ابن عباس يقول: الرزيّة كل الرزيّة ما حالَ بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم[٢].

---

(١) مجلة المجمع العلمي العراقي سنة ٣١ العدد ٣/ ٢، راجع مقالة: «التدوين وظهور الكتب المصنفة في العهود الإسلامية».

(٢) الطبقات لابن سعد ٢: ٢٤٤. المراجعات / ٣٥٥.

وردت هذا الرواية بألفاظ مختلفة في جملة كثيرة من المصادر[١]، ولسنا الآن في صدد دراسة فحوى هذا الحديث، إنما المهم بيان تأكيد النبي ﷺ على ضرورة كتابة وتدوين كلامه؛ ولذا سوف نورد نقل الحديث بألفاظ أُخرى، ونحاول التعليق عليه في الهامش.

قال ابن عباس:

لمّا حضرت رسول الله ﷺ الوفاة وفي البيت رجال فيهم عمر الخطاب قال رسول الله ﷺ: ائتوني بدواة وصحيفة أكتب لكم كتاباً لا تضلّون بعده، فقال عمر كلمة معناها أن الوجع قد غَلَبَ على رسول الله ﷺ، ثم قال: حسبنا كتاب الله، فاختلف من في البيت واختصموا فمن قائل يقول: القول ما قال رسول الله ﷺ، ومن قائل يقول: القول ما قال عمر، فلمّا أكثروا اللغط واللغو والاختلاف غضب ﷺ فقال: «فقوموا...»[٢].

وقد ورد التعبير في أمثال هذه الروايات تارة بقول بعض الحاضرين: «إن الوجع قد غلب على رسول الله»، وأُخرى ـ كما في بعض الروايات التي لم تصرح بذكر اسم المتفوّه بهذا الكلام الفاضح ـ بقوله: «هجر رسول الله»[٣] أو «إن رسول الله يهجر»[٤]. لقد صار هذا الموقف بوجه

---

(١) صحيح البخاري ٣: ١١١، ط ـ دار ابن كثير (=٤: ٧، ط ـ دار المعرفة). وانظر أيضاً: النص والاجتهاد / ٣٥٥، ط جديد. سبيل النجاة في تتمة المراجعات / ٢٦٢ فما بعد، وغير ذلك من المصادر الكثيرة.

(٢) شرح ابن أبي الحديد ١: ٥١.

(٣) صحيح البخاري ٤: ٣١، ط ـ دار الفكر. النص والاجتهاد / ١٥١.

(٤) مسند أحمد بن حنبل ١: ٣٥٥. صحيح مسلم ٢: ١٦، ط ـ الحلبي. صحيح مسلم (بشرح النووي) ١١: ٩٤. تاريخ الطبري ٣: ١٩٣. الكامل ٢: ٣٢٠ و٥: ٢٥١، ط ـ مؤسسة الرسالة.

النبي ﷺ أساس الكثير من الانحرافات التي لا مجال لذكرها[١]، غير أننا ننظر إلى هذا الكلام من منظار آخر ونستفيد منه باعتبار كونه مؤشراً يدل على ضرورة تدوين الحديث واهتمام النبي ﷺ وتأكيده على الكتابة، فالأمر في رأينا في غاية الوضوح، إلا أنه مع ذلك لا بأس بنقل ما صرح به بعض المحققين والمحدّثين في مقام التعليق على الحديث المذكور:

قال ابن حجر العسقلاني:

حديث ابن عباس الدالّ على أنه ﷺ همّ أن

---

(١) ما الذي أراد النبي ﷺ كتابته فعجّ المجلس بهذا اللغط، وبقي ذلك في صدره الشريف مجّرد أمنية؟ قال ابن عباس: قال رسول الله ـ بعد أن قالوا: «هجر رسول الله» ـ دعوني، فالذي أنا فيه خير ممّا تدعوني إليه، وأمر بثلاثٍ [أوصى بثلاثٍ] قال: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوَفْد بنحو ما كنت أجيزهم، وسكت سعيد عن الثالثة، فما أدري، أسكت عنها عمداً، وقال [سفيان] مرّة أو نسيها، وقال سفيان مرّة، وامّا أن تركها أو نَسيها. (مسند أحمد ١: ٢٢٢).
فهل هذه الثالثة نسيها ابن عباس أو راويها الآخر حقاً أم لم تحتفظ بها ذاكرة التأريخ، وبتعبير أدق: لم يكن المؤرخون قد رأوا المصلحة في نقل هذه الثالثة، كتب السيد عبد الحسين شرف الدين يقول: ليست الثالثة إلاّ الأمر الذي أراد النبي أن يكتبه حفظاً لهم من الضلال، لكن السياسة اضطرّت المحدّثين إلى نسيانه، كما نبّه إليه مفتي الحنفيّة في «صور» الحاج داوود الددا.) المراجعات / ٣٥٤، تحقيق: حسين آل راضي / ٣٥٤)، وذكروا أيضاً في توضيح بيان ما أراد النبي ﷺ أن يقوله: وأنت إذا تأملت في قوله ﷺ، ائتوني أكتب لكم كتاباً لنْ تضلّوا بعده، وقوله في حديث الثقلين: إني تارك فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا، كتاب الله وعترتي أهل بيتي، تعلم أن المرمى في الحديثين واحد، وأنّه ﷺ أراد في مرضه أن يكتب لهم تفصيل ما أوجبه عليهم في حديث الثقلين. وإنّما عدل عن ذلك؛ لأن كلمتهم تلك التي فاجأوه بها اضطرّته إلى العدول؛ إذ لم يبق بعدها أثر لكتابة الكتاب سوى الفتنة والاختلاف من بعده في أنّه هل هجر فيما كتبه ـ والعياذ بالله ـ أو لم يهجر، كما اختلفوا في ذلك، وأكثروا اللغو واللغط نصب عينه، فلم يتسنّ له يومئذٍ أكثر من قوله لهم: قوموا ـ كما سمعت ـ ولو أصرّ فكتب الكتاب للجّوا في قولهم هجر، ولأوغَل أشياعهم في إثبات هجره ـ والعياذ بالله ـ فسطّروا به أساطيرهم، وملأُوا طواميرهم ردّاً على ذلك الكتاب وعلى من يحتّج به. لهذا اقتضت حكمته البالغة أن يضرب ﷺ عن ذلك الكتاب صفحاً؛ لئلاّ يفتح هؤلاء المعارضون وأولياؤهم باباً إلى الطعن في النبوة، نعوذ بالله ونستجير بالله... فالحكمة ـ والحال هذه ـ توجب تركه؛ إذ لا أثر له بعد تلك المعارضة سوى الفتنة، كما لا يخفى. (المراجعات / ٣٥٦. وانظر أيضاً: النظام السياسي في الإسلام، أحمد حسين يعقوب / ١١٩. معالم الفتن، سعيد أيوب/ ٢٥٩ ـ ٢٦٧).

يكتب لأُمّته كتاباً يحصل معه الأمن من الاختلاف، وهو لا يهتمّ إلاّ بحقّ[١].

وكتب الشيخ محمد أبو زهو ـ بعد نقل الواقعة وكلام رسول الله ﷺ قال:

فقد همّ النبي ﷺ أن يكتب لأصحابه كتاباً حتى لا يختلفوا من بعده، والنبي ﷺ لا يهتمّ إلاّ بحق، فهذا منه ﷺ نسخ للنهي السابق في حديث أبي سعيد[٢].

وقال الدكتور رفعت فوزي:

ولو لم يكن النبي ﷺ يبيح الكتابة ما دعا إلى كتابة هذا الكتاب[٣].

وكتب الدكتور محمد عجاج الخطيب يقول:

«إنّ طلب الرسول هذا واضح في أنه أراد أن يكتب شيئاً غير القرآن، وما كان سيكتبه هو من السّنة، وإن عدم كتابته لمرضه[٤] لا ينسخ أنه قد همّ به،

---

(١) فتح الباري ١: ١٦٧.

(٢) الحديث والمحدثون: ١٢٤، سنتعرض لبحث هذا الحديث فيما بعد.

(٣) توثيق السنة في القرن الثالث الهجري أُسسه واتجاهاته/ ٤٧.

(٤) إن كلام الخطيب يوحي بأن شدة مرض النبي ﷺ سلب منه قدرة تدوين ذلك، إلا أن التأمل في ذلك لا يترك لذوي الدراسات في التاريخ والمدققين في الحوادث الواقعة أيام وفاة النبي مجالاً للتردد بأن عدم تدوين ذلك لم يكن بسبب مرض النبي، بل كان بسبب ما أُثير من ضوضاء والموقف القبيح لبعض الصحابة. وقد كانت هذه الفتنة مؤلمة إلى حدٍ دفعت نساء النبي إلى الإشفاق على النبي فصرن يصحن من وراء الستار: «... فقال النسوة: ائتوا رسول الله ﷺ بحاجته، قال عمر: فقلت: اسكتْنَ فإنكنّ صواحبه إذا مرضَ عصرتُن أعيُنكنّ، وإذا صح أخذتنّ بعنقه، فقال رسول الله ﷺ: هنّ خير منكم. قال العّلامة العسكري: في العصر الإسلامي الأول كانوا يعبّرون عمّن تتظاهر بحبّ رجلٍ ما بقولهم: إنكنّ صويحباته تشبيهاً لها بصويحبات يوسف» (الطبقات الكبرى ٢: ٢٤٣. عبد الله بن سبأ=

وكان في آخر أيام حياته عليه الصلاة والسّلام، فيفهم من هذا إباحته ـ عليه الصلاة والسلام ـ الكتابة في أوقات مختلفة ولمواضيع كثيرة، في مناسبات عدّة، خاصة وعامة»[1]. «... فقال النسوة: ائتوا رسول الله ﷺ بحاجته، قال عمر: فقلت: اسكتْنَ فإنكنّ صواحبه إذا مرضَ عصرتُن أعيُنكنّ، وإذا صح أخذتنّ بعنقه، فقال رسول الله ﷺ: هنّ خير منكم.

قال العّلامة العسكري:

في العصر الإسلامي الأول كانوا يعبّرون عمّن تتظاهر بحبّ رجلٍ ما بقولهم: إنكنّ صويحباته تشبيهاً لها بصويحبات يوسف.

وبعد أن سرد الكاتب المذكور هذا الحديث وجملة أخرى من الأحاديث أكّد على أننا نرى إباحة الكتابة ووقوعها في عصر النبي ﷺ في موارد عديدة من السنة النبوية الشريفة، ثم قال بعد بحث قيّم في موضع آخر من كتابه:

وأرى في حديث أبي شاة وفي حديث ابن عباس: «إيتوني الكتاب...» إذناً عاماً وإباحة مطلقة للكتابة...»[2].

=١:٧٩). وقد كانت هذه الفتنة مؤلمة إلى درجة كان ابن عباس ـ كما عن سعيد بن جبير ـ كلما يتذكر ذلك الموقف تسيل دموعه على خديه ويقول: يوم الخميس وما يوم الخميس... (مسند أحمد بن حنبل ١:٣٥٥. تتمة المراجعات «مطبوع مع المراجعات»/ ٢٦٤. المراجعات/ ٣٥٢، تحقيق حسين آل راضي. النص والاجتهاد/ ١٤٨، تحقيق أبو مجتبى.

(١) السنة قبل التدوين/ ٣٠٦.

(٢) المصدر السابق/ ٣٠٩.

وعلى كل حال فإن من الواضح جداً أن إرادة النبي ﷺ وتصميمه على كتابة وتدوين هذا الحديث ـ الذي لم يتم تدوينه وللأسف في ظل الأجواء التي اصطنعها ساسة ذلك الوقت ـ خير دليل على جواز الكتابة، وإن من العجب عدم استدلال الكثير من المحققين بذلك، وإغضاء البعض الآخر النظر، لكن لماذا؟ وكأنهم لو استدلوا به وأُزيلت الستائر وافتضحت الأسرار سوف يكون في ذلك الكثير من العار الذي ينبغي أن لا يكون، قال الدكتور يوسف العش محقق وناشر كتاب تقييد العلم للخطيب البغدادي ـ بعد أن ذكر جملة من الروايات الدالة على جواز كتابة وتدوين الحديث:

من العجب أن يكون سها عن بال الخطيب الاستشهاد بالكتاب الذي أراد الرسول أن يكتبه حين وفاته[1].

ولكن الأمر ذكره بعض الكتّاب:

والأعجب من الدارسين الجُدُد، الباحثين في موضوع تدوين الحديث، أنهم أغفلوا أمر هذا الحديث، مع أن دراستهم تبتني على التحقيق والاستيعاب، ومع أن تعليقة العشّ على (تقييد العلم) للخطيب الذي ذكره كانت وبلا شك أمام أعينهم وفي متناول أيديهم، فلم يذكروه سوى بعضهم في إشارات عابرة أو في الهوامش[2].

إن ما ذكرناه حتى الآن ليس إلاّ نزراً يسيراً من فيض كثير يثبت به جواز ووقوع الكتابة في عصر النبي ﷺ بوضوح، وقد لفت كثرة

(١) تقييد العلم/ ٨٦ (الهامش).
(٢) تدوين السنّة الشريفة/ ٨٥.

الأحاديث في هذا المجال أنظار العلماء والمحققين، فذكروا تأكيد النبي ﷺ على ضرورة كتابة الحديث ووجود الكتابة في عصره، يقول الدكتور نور الدين عتر:

وردت أحاديث كثيرة عن عدد من الصحابة تبلغ بمجموعها رتبة التواتر في إثبات وقوع الكتابة للحديث النبوي في عهده ﷺ(١).

وقال الدكتور صبحي الصالح:

ليس علينا ـ إذن ـ أن ننتظر عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز حتى نسمع للمرة الأولى ـ كما هو الشائع ـ بشيء اسمه تدوين الحديث أو محاولة لتدوينه...لأنّ كتبنا وأخبارنا ووثائقنا التاريخية لا تدع مجالاً للشك في تحقيق تقييد الحديث في عصر النبي ﷺ نفسه، وليس على رأس المائة الثانية للهجرة..(٢).

وكتب الدكتور مصطفي الأعظمي ـ بعد حديث طويل الذيل في إثبات كتابة الحديث في عصر النبي ﷺ، وبعد ذكره لجملة من الأبحاث الطويلة الأخرى ـ يقول:

وفي ضوء دراستنا هذه نستطيع أن نقول إنّ كل من نقل عنه كراهية كتابة العلم فقد نقل عنه عكس ذلك، ما عدا شخص أو شخصين، وقد ثبتت كتابتهم أو الكتابة عنهم(٣).

---

(١) منهج النقد في علوم الحديث/ ٤٠.

(٢) علوم الحديث ومصطلحه/ ٣٣.

(٣) دراسات في الحديث وتاريخ تدوينه ١: ٧٦.

وقال الدكتور الشيخ عبد الغني:

فقد كان أكثرهم (الصحابة) يبيح الكتابة ويحتفظ بالمكتوب منها، والبعض يكتب بالفعل[١].

وقال المحقق المصري والمحدث المتضلّع أحمد محمد شاكر:

وأكثر الصحابة على جواز الكتابة، وهو القول الصحيح[٢].

وبذلك كله اتضح أن الحديث كان يدوّن في عصر النبي ﷺ، وأنه صلوات الله عليه كان يؤكد على ضرورة الكتابة، وأيضاً كان ينبّه الأمة على ضرورة حفظ وصيانة ذلك.

وكيف كان فأدلة هذه الحقيقة ـ التي أوردنا بعضها ـ كثيرة لا مجال فيها للإنكار والترديد، كما أن كلمات بعض العلماء أمثال «غولدزيهر» وبعض المتأثرين بأفكار هؤلاء من المسلمين نظير «رشيد رضا» ليس لها ذلك الوقع حيث ذكروا بأن أحاديث جواز كتابة الحديث مجعولة وضعيفة[٣]. فقد علّق الكاتب نور الدين عتر على ما ذكره هؤلاء بقوله:

والحقيقة أن إنكار تقييد الحديث في عهد النبي ﷺ لا يمكن أن يأتي ممّن يتحاكم إلى الإنصاف ويسلك نهج العلم؛ فإن روايات كتابته قد تعدّد بالأسانيد الموثوقة الكثيرة جدّاً في مختلف مراجع السنة مما يبلغ بها درجة التواتر الذي يقطع من يطّلع عليه من العلماء، ويتحقق وقوع الكتابة للحديث في عهد النبي ﷺ[٤].

---

(١) حجية السنة/ ٤٤٨.

(٢) الباعث الحثيث/ ١٢٩.

(٣) انظر مقدمة «تقييد العلم/ ١٦ ـ ١٧» وعلوم الحديث ومصطلحه/ ٣٣، ورؤية رشيد رضا في مجلّة المنار العدد العاشر، المجلد العاشر/ ٧٦٣، والسنة قبل التدوين/ ٣٠٥.

(٤) منهج النقد في علوم الحديث/ ٥٠.

كما أن الشيخ محمد أبو زهو جاء بما ذكره رشيد رضا بالتفصيل وأورد عليه[١]. ومن هنا فلا ريب في قيام سيرة النبي ﷺ على كتابة وتدوين الحديث، وأنه صلوات الله عليه أمر بذلك وأكد على ضرورته، والآن قد حان الوقت لسرد الأحاديث الواردة عن النبي ﷺ في النهي والمنع عن كتابة الحديث بصورة خاطفة وسريعة.

رواية «منع التدوين» في الميزان

إلى هنا كان فيما ذكرنا دلالة واضحة على أن النبي ﷺ أمر بكتابة الحديث وأكّد ضرورته، هذا ومن جهة أُخرى ـ كما هو واضح ـ فقد منع الحكام والولاة ممّن جاء بعد النبي كتابة وتدوين الحديث والسنة، بل منع نشر وتبليغ ذلك حتى أنهم حذّروا البعض من عاقبة النشر والتبليغ. وقد حاول المحققون والمحدثون التمسك بروايات تدل على منع رسول الله ﷺ عن كتابة الحديث، إلا أن هذا الجهد لا فائدة فيه؛ لأنه لا يمكن أن يكون أكثر من تبرير للواقع لا غير. ومن العجيب أن كلاً من أبي بكر الذي كان أول من أحرق الأحاديث المدوّنة عن رسول الله[٢] وأمر الآخرين بإحراق ما لديهم من مكتوبات (وعمر بن الخطاب) الذي وسّع من رقعة هذا المنع وكان يسايس كل من يخالف حكومته (لم يتمسك أحد منهما بمنع النبي أو النهي الصادر عنه في ذلك)[٣].

وكتب في ذلك الفقيه الجليل المرحوم محمد باقر شريف قائلاً:

وعدم استناد أبي بكر في إحراق ما كتب نفسه ولا عمر في النهي عن الكتابة، والأمر بمحو ما كتب منه

---

(١) الحديث والمحدثون/ ٣٢٠ فما بعد.

(٢) تذكرة الحفّاظ ١: ٥. كنز العمال ١: ١٧٤. علوم الحديث ومصطلحه/ ٣٩.

(٣) تدوين السنة الشريفة/ ٤٣ فما بعد.

دليل على عدم صحة حديث أبي سعيد وروايات المنع..[١].

وقال الدكتور امتياز أحمد:

زد على كل هذا أن هؤلاء الذين كانوا قد وقفوا في معارضة كتابة الحديث كانت لهم أسبابهم الشّخصية في ذلك، بل وحتى الفاروق عمر الذي كان يعدّ من أشدّ معارضي الكتابة لم ينقل أو يستشهد بأيّ حديث للنّبي ﷺ يؤيّد وجهة نظره المعارضة للتسجيل[٢].

ثم إنه روي مخاتلة عمر بن الخطاب للصحابة في كتابة الحديث، فقد قيل له بأن يكتب الحديث، فأخذ يفكر في ذلك شهراً حتى وقف ذات يوم في الملأ العام وأعلن لهم منعه من تدوين الحديث ومحو كل ما كتب في ذلك[٣]. وهذا النوع من الأخبار يعطي جواز تدوين الحديث ويدل على عدم صدور منع من قبل النبي ﷺ، وإلاّ فلماذا كان عمر يخاتل أصحابه في ذلك؟ وهذه هي النكتة الأساسية التي بإمكانها أن تخدش في صدور جميع روايات المنع، مما لا يسوغ للمحقق المرور بذلك مرّ الكرام.

حديث أو أحاديث أبي سعيد الخدري

إن جميع ما روي من أحاديث في المنع من تدوين الحديث فاقد للاعتبار، فإن المحققين من علماء السنة لا يترددّون في ضعف هذه الأحاديث سوى حديث ـ أو بضع أحاديث ـ رواها أبو سعيد الخدري،

(١) آيات الاحكام للاسترآبادي ١: ١٣ (الهامش).
(٢) دلائل التوثيق المبكر للسنة النبوية/ ٢٣٩.
(٣) تقييد العلم/ ٤٩.

وحينئذٍ فإنا نعطي لمثل هذه الأحاديث الأهمية من دون أن نوجه لها النقد، يقول الدكتور مصطفي الأعظمي في كتابه القيِّم:

وليس هناك حديث واحد صحيح في كراهية الكتاب، اللهم إلاّ رواية أبي سعيد الخدري (رض) مع ما فيها من خلاف في وقفها ورفعها، وكذلك المعنى المراد منها»[١].

وكتب الدكتور رفعت فوزي يقول:

وعلى هذا، فلم يسلم من الضعف في هذه الأحاديث جميعها إلاّ حديث واحد تفرّد به رواته..[٢].

ولأجل أن نرى مدى حجية هذا الحديث ننقله هنا، فقد روي عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال:

لا تكتبوا عني شيئاً إلاّ القرآن، فمن كتب عني شيئاً غير القرآن فليمحه[٣].

وقد روي هذا الحديث بألفاظ مختلفة، والاختلاف في النقل هذا يدل على عدم الدقة في ضبط الحديث المذكور[٤].

سند الحديث:

إن الراوي الوحيد الذي روى هذا الحديث مرفوعاً إلى

---

(١) دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه ١: ٨٠.
(٢) تقييد العلم/ ٤٩.
(٣) صحيح مسلم ٤: ٢٢٨٩. مسند أحمد بن حنبل ٣: ٢١. تقييد العلم/ ٣٠.
(٤) انظر: مسند أحمد ٣: ١٢ و٥٦. مستدرك الحاكم ١: ١٢٧. تقييد العلم/ ٢٩. الكامل (ابن عدي) ٥: ١٧٧١. سنن الدارمي ١: ٩٨.

رسول الله ﷺ هو «همام بن يحيى»، قال الخطيب البغدادي:

تفرّد همام برواية هذا الحديث عن زيد بن أسلم هكذا مرفوعاً... ويقال: إن المحفوظ رواية هذا الحديث عن أبي سعيد الخدري من قوله غير مرفوع إلى النبي ﷺ[١].

لقد أسلفنا فيما تقدم نقل الكثير من كلمات الدكتور مصطفى الأعظمي فيما يرتبط بأحاديث منع التدوين للحديث، وفيما يلي ننقل شطراً من كلامه فيما يرتبط بهذا الحديث، قال:

وليس هناك حديث واحد صحيح... إلاّ رواية أبي سعيد الخدري... مع ما فيها من خلاف في وقفها ورفعها..[٢].

إن هناك اختلافاً في أن الحديث المذكور موقوف (بمعنى أنه منسوب إلى أبي سعيد لا إلى النبي ﷺ) أو مرفوع (بمعنى أنه منسوب إلى النبي ﷺ)، ولهذا الاختلاف تاريخ قديم. يقول الشيخ محمد أبو زهو ضمن حديثه عن تدوين الحديث:

على أنّ بعض العلماء يرى أن حديث أبي سعيد هذا موقوف عليه، وليس من كلام النبي ﷺ، قال ذلك البخاري[٣].

ونسب ابن حجر العسقلاني أيضاً إلى بعض متقدمي المحدثين من أن حديث أبي سعيد هذا موقوف، سيما إذا قارنّاه مع الأحاديث التي أسندت إلى رسول الله ﷺ الكتابة ورغّبت فيها، ثم قال:

---

(١) تقييد العلم/ ٣١ ـ ٣٢. توثيق السنة/ ٤٦. دراسات في الحديث النبوي ١: ٨٠.
(٢) دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه ١.
(٣) الحديث والمحدثون/ ١٢٤.

إن حديث أبي سعيد هذا موقوف عليه، فلا يصحّ الاحتجاج به[١].

ثم إنه مضافاً إلى ما في سند هذا الحديث ـ وهي نكتة حريّة بالتأمل تسقطه عن الاعتبار والحجية رأساً ـ لا بد من القول بأنه على فرض تسليم صدوره هل يمكن أن يكون الغرض منه المنع من تدوين الحديث؟ فإن أول ما يمكن التشكيك فيه هو أن أبا سعيد نفسه لمّا سئل عن سبب عدم التدوين، لم يستدل في مقام الجواب بحديث رسول الله ﷺ، بل قال:

لا نكتبكم، ولا نجعلها مصاحف..[٢].

ومن هنا فقد ذهب جماعة من المحدثين إلى القول بأن النهي الوارد في حديث أبي سعيد الخدري كان نهياً عن كتابته مع القرآن في صفحة واحدة، إذن فالمنع عن كتابة ذلك كان للاحتراز عن وقوع الخلط بين القرآن والحديث لا شيء آخر[٣].

ولا بد من إضافة شي آخر على ما ذكرنا، وهو أن مسلم بن الحجاج القشيري النيشابوري الذي روى هذا الحديث في صحيحه، أورده في باب تحت عنوان: «باب التثبت في الحديث»[٤]، ولم يعطه عنوان: «باب المنع من كتابة الحديث»، ومن الواضح أن الأساس في اختيار العناوين هو فهم المحدثين لأحاديث ذلك الباب[٥].

ثم إن البحث فيما يتعلق بهذا الحديث ـ وطرقه الأخرى وبلحاظ سنده ومتنه ـ طويل الذيل، ولنختم الحديث فيه بذكر كلمة لبعض المحققين، قال الدكتور رفعت فوزي:

---

(١) الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار/ ١٦ ـ ١٧.
(٢) تقييد العلم/ ٣٦.
(٣) تيسير الوصول ٣: ١٧٧. وانظر: الباحث الحثيث/ ١٢٧.
(٤) صحيح مسلم ٤: ٢٢٨٩.
(٥) هدي الساري ١: ٢٤. تدوين السنة الشريفة/ ٢٩٣.

والحديث الثاني رواه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه، هذا ضعيف عند أهل العلم، قال يحيى بن معين: بنو زيد بن أسلم ليسوا بشي، وقال أحمد: ضعيف... وضعّفه آخرون... فالحديث إذن ضعيف، لا يعتمد عليه[١].

وعلى كل حال فمن الواضح أنه لا سبيل للتشكيك ـ بلحاظ دراسة ونقد الأدلة والتحقيق الدقيق فيما تبقّى منها ـ في أن الحديث كان يكتب في عصر النبي ﷺ، وأنه صلوات الله عليه لم يمنع كتابة وتدوين الحديث وضبط العلم.

وأن ما نسب إليه ﷺ في هذا المجال لم يكن مشتملاً على أدنى شرائط صحة الحديث حتى يتمكن المحقق الاعتماد عليه، وأما سبب منع تدوين وكتابة الحديث بل حتى نشره بعد عصر النبي ﷺ، وأنه لماذا حاول الحكّام ـ وبكل ما أُوتوا من قوة ـ المنع من تدوين وكتابة الأحاديث؟ وما هو تبريرهم لذلك، وبعبارة أصح: ما هي الأوجه المصطنعة لتخريج ذلك؟ فهذا حديث آخر لا بد من بحثه في مقام آخر[٢].

---

(١) توثيق السنة/ ٤٦.

(٢) هناك أحاديث أخرى فيما يتعلق بمنع تدوين الحديث عن النبي ﷺ، وهذه الأحاديث كما أسلفنا سابقاً ـ لا يمكن التعويل عليها أبداً؛ لعدم اشتمالها على شرائط الصحة، انظر للاطلاع عن ذلك وكيفية نقدها: معجم ألفاظ أحاديث بحار الأنوار ١: ٢٢ (المقدمة بقلم الكاتب). تدوين السنة الشريفة/ ٢٩ فما بعد. توثيق السنة/ ٤٤ فما بعد. دراسات في الحديث النبوي ١: ٧٦ فما بعد.

الصحابة وتدوين الحديث

اتضح مما تقدم في البحث السابق أن النبي ﷺ كان يؤكد على كتابة الحديث ويأمر بذلك، وأن ذلك كان متداولاً في عصره الشريف، كما أنه صلوات الله عليه لم يكن يمنع عن الكتابة وتدوين الحديث، وأن الروايات المنسوبة إليه مفتعلة قطعاً وساقطة عن الحجية، وعليه فلا بد من التأمل والنظر بدقة في موقف الصحابة تجاه ذلك، وهل أنهم كانوا يهتمون بضبط وكتابة الحديث أم لا؟

إن التأمل في النصوص ودراسة المصادر المختصة بشؤون التدوين لا يدع مجالاً للشك والتردد في أن يكون الجواب عن ذلك بالإيجاب أيضاً. وأن النصوص القديمة تدل على أن الصحابة كانوا يدوّنون الحديث عملاً بتأكيد النبي وترغيبه في ذلك، فتارة يعبّر عن تلك النصوص بـ«الصحيفة» وأخرى بـ«النسخة» فلننظر في هذين المصطلحين.

١ ـ الصحيفة:

الصحيفة عبارة عن ورق مكتوب، جمعها صحف، والجمع القياسي «صحائف»[١]، وقد فسر ابن حجر العسقلاني الصحيفة بأنها ورقة

---

(١) العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي ٣: ١٢٠. تاج العروس ٥: ٢٤.

مكتوبة[١]، فالصحيفة في أصل الوضع اللغوي تطلق عل الورقة المكتوبة، ومن ثم وبكثرة الاستعمال صارت تطلق على الورق المكتوب أيضاً.

ورد في النصوص أن رسول الله ﷺ لما أصرعلى إبلاغ رسالته ـ على الرغم من تهديدات قريش وترغيباتها وما اقترحته عليه من المساومة معها وامتناعه عن ترك التبليغ ـ صممت قريش على التحالف ومواجهة رسول الله وأصحابه وعزلهم، فكتبوا معاهدة وعلّقوها في جوف الكعبة، فسميت هذه الورقة المكتوبة بالصحيفة[٢].

بناءً على ذلك، فالصحيفة في اصطلاح المحدّثين عبارة عن مكتوب يشتمل على حديث أو أحاديث رويت عن رسول الله ﷺ كتبت على ورقة أو أوراق[٣].

٢ ـ النسخة:

قد يعبر أحياناً في كتب الرجال ـ ضمن ترجمة أحوال المحدّثين والرواة ـ بالنسخة التي يدوّن عليها حديث أو أحاديث على ورقة أو أوراق، يقول بعض المحققين في علم الحديث:

«وعليه، فالصحيفة اصطلاحاً: ما تشتمل على حديث فأكثر ينتظمها، إسناد واحد، فهي لا تختصّ بموضوع أو باب من أبواب العلم، بل قد تشتمل على معاني أبواب كثيرة من العلم، كما في «صحيفة همام»...وعليه، فإذا كانت متعدّدة الأسناد فهي جزء»... ويطلق عليه تجوّزاً: النسخة»[٤].

---

(١) فتح الباري ١ . التراتيب الإدارية، عبد الحي الكتاني ١ : ٢٥٧ .
(٢) سيرة ابن هشام ١ : ٣٥٠، قال: . . . ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة؛ تاريخ الطبري ٢ : ٧٨ .
(٣) معرفة النسخ والصحف الحديثية، بكر بن عبد الله أبو زيد/ ٢٤ ـ ٢٥ .
(٤) معرفة النسخ والصحف الحديثية/ ٢٣ .

نضيف إلى ذلك أن الصحائف والنسخ تارة تنسب إلى كاتبها وأخرى تنسب إلى مُمليها، نظير صحيفة جابر التي كتبها تلميذه سليمان بن قيس الشكري.

ونحن هنا نحاول ـ من خلال إلقاء نظرة في المصادر الرجالية والتراجم و... ـ التعرّف على جماعة من الصحابة ممّن كتب الحديث ونسبت إليه صحيفة أو نسخة، ملتزمين في ذلك طريقة الألفباء، مع ذكر توضيحات رأيناها لازمة فأدرجناها ذيل أسمائهم[١]:

ـ أبو أُمامة الباهلي: صدي بن عجلان.

ـ أبو أيّوب الأنصاري: خالد بن زيد.

١ ـ أبو بكر بن أبي قحافة:

لا ريب في أن أبي بكر كان يكتب الأحاديث في حياة رسول الله ﷺ، فقد رود في بعض النصوص أنه كتب (٥٠٠) حديث من أحاديث النبي ﷺ، إلا أنه وبعد مدة من التأمل فيها أحرقها بعد وفاة رسول الله[٢]. ويعتقد بعض المحققين بأنه كان يكتب الحديث بعد وفاته صلوات الله عليه[٣]. وسوف نتحدث لاحقاً عن كيفية كتابة أبي بكر للحديث وعزمه على منع الكتابة وما رفعه من شعار في ذلك.

ـ أبو بكر الثقفي: نفيع بن مسروح.

٢ ـ أبو رافع:

وهو من أجلّة صحابة رسول الله ﷺ ومن ذوي السبق في الكتابة

---

(١) اعتمدنا في هذا المجال ما ذكره الدكتور محمد مصطفى الأعظمي في فهرسته، ورجعنا إلى المصادر التي ذكرها هو وإلى مصادر أُخرى من أجل تتميم وتنقيح البحث.

(٢) تذكرة الحفّاظ ١: ٥.

(٣) دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه ١: ٩٤.

والتأليف، وسوف نتحدث عنه مفصلاً عند البحث عن تدوين الحديث لدى الشيعة.

ـ أبو سعيد الخدري: سعد بن مالك.

٣ ـ أبو شاة الكلبي:

لما استقرّ المقام برسول الله ﷺ في مكة، قام في الملأ وخطب فيهم وتحدث عن مكانة مكة السامية وعن بعض الأحكام وسلوك المسلمين و...، فقام إليه أبو شاة الكلبي وكان من اليمن، فطلب من رسول الله ﷺ أن يكتبوا له ذلك، فأمر له رسول الله بكتابة ما قال[١]. ومن ثمّ عرف هذا الحديث بحديث «أبي شاة»[٢]. وقد استدل بهذا الحديث الكثير من العلماء على جواز بل لزوم كتابة الحديث، وسوف نشير فيما يأتي لذلك.

٤ ـ أبو هريرة الدوسي اليماني:

اشتهر بالرواية عن رسول الله ﷺ ومن جملة الرواة والمحدثين الذين اشتهروا بكثرة الرواية منجهة، وبالوضع من جهة أخرى[٣]. والمتوفر من النصوص أن أبا هريرة كان يحفظ الأحاديث في ذاكرته ولم يكن يكتب[٤]، كما أن هناك نصوصاً أخرى تدل على أنه كان يكتب الحديث[٥].

ويعتقد الدكتور محمد مصطفي الأعظمي أن الجمع بين هاتين

---

(١) الاستيعاب ٤: ٢٤٩. الإصابة ٧: ١٧١. أسد الغابة ٦: ١٥٨.
(٢) صحيح مسلم ٢: ٩٨٨. تقييد العلم/ ٨٦. المحدث الفاضل/ ٣٦٣. جامع بيان العلم ١: ٧٠.
(٣) انظر: أبو هريرة، العلاّمة سيد عبد الحسين شرف الدين. شيخ المضيرة أبو هريرة، محمود أبو رية.
(٤) جامع بيان العلم ١: ٧٤. فتح الباري ١: ٢١٥.
(٥) جامع بيان العلم ١: ٧٤. التراتيب الإدارية ٢: ٢٤٦.

الطائفتين من النصوص ممكن؛ وذلك بأن نقول: إن عدم كتابته للحديث كان في زمان النبي ﷺ، وكتابته ذلك كان بعد وفاته صلوات الله عليه[١].

لقد سمع الكثير من الناس حديث أبي هريرة وكتبوا عنه الصحائف والنسخ[٢]، وما أسلفنا ذكره يمكن أن يكون دليلاً على هذه الحقيقة، وهي أنه كان يكتب الحديث سواء في حياة رسول الله أو بعد وفاته.

٥ ـ أبو هند الداري:

وهو من قبيلة «دار»، وكان اسمه «بريراً» لكنه اشتهر بالكنية، وقد ذكرت المصادر الرجالية قصته مع تميم الداري أمام رسول الله ﷺ، وقضية طلبه قطعة من أرض الشام وقبول رسول الله ﷺ وكتابة عقد في ذلك. يقول ابن حجر بعد ذكر ما تقدم عنه: قد أعددت في ذلك رسالة بعنوان «الجليل يحكم بلا الخليل»[٣].

هذا، وقد وردت عن أبي هند روايات في المصادر الحديثية، وقد كتب أبو عبد الله مكحول الشامي كتاباً فيه أحاديث رواها أبو هند[٤].

٦ ـ أُبيّ بن كعب الأنصاري:

وهو صحابي جليل ومفسر فاضل، وكان من شيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. وسوف نتحدث عن أُبي بن كعب وقضية كتابته للحديث في فصل آخر من هذا الكتاب.

---

(١) دراسات في الحديث النبوي ١: ٩٧.

(٢) يمكن الإشارة إلى عدة رواة ممن روى عنه وكتب صحائف، منهم: أبو صالح السمّان، محمد بن سيرين، وهمام بن منبه. انظر: دراسات في الحديث النبوي١/ ٩٦ ـ ٩٩.

(٣) الإصابة ٧: ٣٧٤.

(٤) دراسات في الحديث النبوي ١: ٩٨. الإصابة ٧: ٣٧٤. تهذيب الكمال ٢٨: ٤٨.

٧ ـ أسماء بنت عميس:

كانت أسماء رضوان الله عليها من السابقات الأوائل في الإسلام، ووجهاً من الوجوه المعروفة في تاريخ هذا الدين المبين، ومن المهاجرات الصابرات قد تحملت الأذى في سبيل الدفاع عن حق الخلافة وخلافة الحق، وسوف نتحدث عنها وعن كتابتها للحديث لاحقاً.

٨ ـ أُسيد بن خضير الأنصاري:

وهو من الصحابة والوجوه المعروفة في المدينة، حاول أُسيد جاهداً في تنصيب أبي بكر بعد رسول الله ﷺ خليفة للمسلمين[١]، وكان من جملة من مشى مع عمر بن الخطاب إلى دار علي عليه السلام وجرّه إلى المسجد كرهاً[٢]. كتب أُسيد بعض أحاديث رسول الله ﷺ وبعض قضائه وقضاء الخلفاء من بعد[٣].

٩ ـ أنس بن مالك:

كان من الصحابة والمحدثين، اشتهر بخدمة رسول الله ﷺ. كان أنس حسن الخط[٤]، وكان يكتب ما يسمعه من رسول الله ﷺ من أحاديث ويصرّ على كتابته ويؤكد على أبنائه بكتابة ذلك[٥]، لئلاّ يضيع العلم، وقد كان هذا التأكيد والترغيب في الكتابة إلى حدّ روي أنهم قالوا: «كنّا لا نعدّ علم من لم يكتب علمه علماً...»[٦]، ومعنى ذلك: أننا لا

---

(١) تاريخ الأُمم والملوك، الطبري ٣: ٢٢١. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد ٢: ٣٩.
(٢) الإمامة والسياسة، تحقيق علي شيري ١: ٢٨. شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد ٢: ٥٠.
(٣) مسند أحمد ٥: ٢٢٦. دراسات في الحديث النبوي ١: ١٠٠. وانظر ترجمته في: تهذيب الكمال ٣: ٢٤٦. قاموس الرجال ٢: ١٣٨.
(٤) سير أعلام النبلاء ٣: ٤٠١.
(٥) طبقات ابن سعد ٧: ٣٦٨. تقييد العلم/ ٩٦.
(٦) تقييد العلم/ ٩٦. شرف أصحاب الحديث/ ٩٧.

نعتقد استقامة ودقة مثل هذا النقل. هذا وقد ورد في جملة من النصوص أن عند أنس مكتوبات كثيرة، يقول هبيرة بن عبد الرحمن:

كنّا إذا أتينا أنس بن مالك وأكثرنا عليه، أخرج إلينا مجال من كتب فقال: هذه كتب سمعتها من رسول الله ﷺ، وقرأناها عليه[١].

وقد كان لأنس مجالس يعقدها لكتابة الحديث، حيث كان يملي الأحاديث وغيره يكتب[٢]، وقد تعلّم خلق كثير منه الأحاديث وكتبها، كثمامة بن عبيد الله بن أنس الذي له «كتاب الصدقات» وكان أملاه عن أنس[٣]، وكثير بن سليم الراوي الذي روى عن أنس «النسخة»[٤].

١٠ ـ البرّاء بن عازب الأنصاري الخزرجي:

والبرّاء من صحابة رسول الله ﷺ وابن الصحابي عازب بن حارث، والبرّاء هذا من رواة حديث الغدير الذي رواه في مواضع مختلفة[٥]. كان البرّاء يؤكد على كتابة الحديث، وكان يعقد مجالس لروايته حيث كان يحدّث ويملي له طلاب الحديث[٦].

١١ ـ جابر بن سمرة السوائي:

وجابر هذا هو أيضاً من رواة حديث الغدير[٧]، وكان يكتب الحديث أيضاً.

---

(١) تقييد العلم/ ٩٥ ـ ٩٦.
(٢) تاريخ بغداد ٨: ٢٥٩. المحدّث الفاصل/ ٣٦٧.
(٣) الكفاية/ ٣٣١.
(٤) تهذيب التهذيب ٢: ٥٢. وانظر أيضاً: دراسات في الحديث النبوي ١: ١٠٢. معرفة الصحف والنسخ الحديثية/ ٩٩.
(٥) روى برّاء حديث الغدير بطرق مختلفة، انظر مصادر ذلك: الغدير (تحقيق مركز الغدير للدراسات الإسلامية) ١: ٥٠، والهامش من الصفحة/ ٥٢، وقد ورد فيها مصادر كثيرة ذكرت الحديث المذكور، باهتمام المحقق الكبير المرحوم السيد عبد العزيز الطباطبائي ٤.
(٦) سنن الدارمي ١: ١٢٨. تقييد العلم/ ١٠٥. دراسات في الحديث النبوي ١: ١٠٤.
(٧) مقتل الحسين، الخوارزمي ١: ٤٨. كنز العمال ١٣: ١٣٦. الغدير ١: ٥٧.

يقول عامر بن سعد بن أبي وقاص:

عن عامر بن سعد بن وقاص قال: كتبت إلى جابر بن سُمرة مع غلامي نافع: أن أخبرني بشيء سمعتَه من رسول الله ﷺ، قال: فكتب إليّ..[1].

١٢ ـ جابر بن عبد الله الأنصاري:

وكان صحابياً جليلاً من صحابة رسول الله ﷺ، ومحدثاً ومفسراً كبيراً ومن السابقين للدفاع عن الحق. كان جابر من المعمّرين، وكان يروي الظماء من عذب عين معارفه التي استقاها من آل رسول الله عليهم السلام. وسوف نتحدث فيما يأتي عن مقامه في كتابة الحديث.

١٣ ـ جرير بن عبد الله البجلي:

وهو صحابي، كان غير مستقيم في حياته، ترك نصرة علي عليه السلام ولجأ إلى الظلم[2]. كان جرير يكتب الحديث، ومن جملة ما ورد عنه أنه كتب إلى معاوية عندما اجتاح الجوع والجرب بعض البلاد، أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

من لم يرحم الناس لا يرحمه الله عزّ وجل قال: فأرسل إليه..[3].

١٤ ـ الحسن بن علي عليه السلام:

وهو السبط الأكبر والإمام بالحق في الأمة، كان عليه السلام يؤكد كثيراً على تدوين وكتابة الحديث، وسوف نتحدث عن ذلك بالتفصيل فيما يأتي.

---

(١) صحيح مسلم ٤: ١٤٥٣ و١٨٠٢. مسند أحمد بن حنبل ٦: ٩٣.
(٢) أُسد الغابة ١: ٥٢٩. الإصابة ١: ٥٨١. قاموس الرجال ٢: ٥٨٤.
(٣) مسند أحمد بن حنبل ٥: ٤٨٣. دراسات في الحديث النبوي ١: ١٠٦.

١٥ ـ خالد بن زيد:

الكنية التي اشتهر بها خالد بن زيد الأنصاري هي «أبو أيوب». كان من مشاهير الصحابة، اختار رسول الله ﷺ السكن في داره لما نزل بالمدينة. كان أبو أيوب راسخ الخطى على الصراط المستقيم حيث كان دائماً يرعى حرمة الحق، وسنتحدث عن دوره في كتابة الحديث لاحقاً.

١٦ ـ رافع بن خديج الأنصاري:

وهو من صحابة رسول الله ﷺ، ومن الذين شاركوا رسول الله في جميع حروبه عدا غزوة أُحد التي لم يسمح له بالحرب فيها لصغر سنّه[١]. أصابه رمح إثر الحرب بقي بعضه في بدنه حتى وافاه الأجل، وقد شهد له رسول الله ﷺ بأنه مات شهيداً[٢]. كان رافع ـ على ما قيل ـ مع علي عليه السلام في حرب صفين[٣]. كان رافع يكتب حديث النبي ﷺ ويحتفظ به لنفسه، فقد روي أن مروان تحدث ذات يوم عن حرمة مكة، فصاح به رافع بن خديج، وقال:

ما لي أسمعك ذكرت مكة وأهلها وحرمتها، فناداه رافع بن خديج: وقد حرّم رسول الله ﷺ ما بين لابتيها، وذلك عندنا في أديم خولانيّ، إن شئت أقرأتكه..[٤].

١٧ ـ زيد بن أرقم:

كان زيد بن أرقم من خزرج يثرب ومن أصحاب النبي ﷺ، وهو

---

(١) الإصابة ٢: ٣٦٢ الاستيعاب ٢: ٦٠.
(٢) المصادر السابقة.
(٣) سير أعلام النبلاء ٣: ١٨٢. الاستيعاب ٢: ٦٠.
(٤) مسند أحمد بن حنبل ٥: ١٣٣. تقييد العلم/ ٧٢. الوثائق السياسية/ ٦٤.

الذي فضح موقف المنافقين وأثنى على رسول الله ﷺ، وسوف نتحدّث عنه بتفصيل أكثر.

١٨ ـ زيد بن ثابت الأنصاري:

كان زيد من المفسرين والقرّاء ومن وجوه الصحابة كما أنه كان مورد اهتمام الخلفاء لجملة أُمور، حيث كانوا يجلّونه ويحترمونه كثيراً. وروي عنه أن النبي ﷺ أمره بتعلم اللغة السريانية ليقرأ مكاتبات اليهود إلى رسول الله ﷺ، فتعلم ذلك في أقل من نصف شهر. عرف بكونه كاتباً للوحي ومن جامعي القرآن الكريم. إلا أن في كل ذلك كلام وبحث[١].
روى عن زيد بن ثابت أنه قال:

إن رسول الله ﷺ أمرنا أن لا نكتب شيئاً من حديثه، فمحاه[٢].

يعتقد الدكتور الأعظمي أن سند هذا الحديث منقطع وضعيف وغير قابل للتعويل عليه. كما أن الدكتور الأعظمي نفسه يحتمل أن زيداً ـ بناءً على ما في بعض النصوص ـ كان يكتب آراءه وأفكاره ولم يكتب شيئاً من أحاديث رسول الله ﷺ، ثم نقل نصوصاً تدل على أن زيد بن ثابت كان يكتب الحديث. ومن اللافت للانتباه أنه كان يكتب أحياناً لعمر بناءً على طلب منه، ومن جملة ما كتبه كان أجوبة لمسائل طرحها عمر في مسألة إرث الجدّ، و..[٣].

ذكرنا أن الخلفاء كانوا يثنون على زيد ويرجعون إليه في المسائل

---

(١) فيما يتعلق بزيد بن ثابت وشخصيته وارتباطه بالحكومة والخلفاء بعد رسول الله ﷺ ونقد ودراسة ذلك، انظر: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي ٦: ٣٢١ ـ ٣٤٦. حقائق هامة حول القرآن الكريم/ ١٣٠. قاموس الرجال ٤: ٥٣٥ فما بعد.
(٢) تقييد العلم/ ٣٥.
(٣) دراسات في الحديث النبوي ١: ١٠٨.

الفقهية، وهو أول من كتب في الميراث. وقد ذكر أبو بكر محمد بن خير الأموي الإشبيلي كتاب الفرائض هذا في فهرسته وذكر سنده إليه[١]. كما ذكرت النصوص الروائية[٢] والمصادر الرجالية والتراجم هذه المجموعة الفقهية وأهميتها أيضاً[٣].

كان زيد ـ وكما أسلفنا ـ معروفاً بالعلم، وكان يتردد عليه الكثيرون وينهلون من علومه ويكتبون عنه الأحاديث، ومن جملة هؤلاء أبو قلابة (عبد الله بن زيد البصري) الذي كان مثابراً في كتابة وتدوين الحديث، وقد ترك نسخاً كثيرة[٤]. وكان أبو قلابة يكتب رواية زيد بن ثابت ضمن مكتوباته الأخرى[٥]. ومنهم أيضاً كثير بن أفلح الذي كان يقول:

كنّا نكتب عند زيد بن ثابت[٦].

١٩ ـ سبيعة الأسلمية:

وهي من رواة حديث رسول الله ﷺ، وزوجة سعد بن خولة. توفيت في حجة البلاغ. طلب يدها بعد وفاة سعد بشهر أو أقل بعض الناس، فأجاز لها رسول الله ﷺ ـ بناءً على بعض النصوص ـ الزواج[٧]. وعليه يكون النص الوارد في زواج سبيعة دليلاً فقهياً لمن يعتقد أن وضع الحمل عبارة عن انقضاء عدة النساء مطلقاً ـ سواء المطلقات منهن أو اللاّتي

---

(١) فهرست ابن خير الإشبيلي/ ٢٦٣.

(٢) ورد مطلع هذه الرسالة في بعض المصادر الحديثية، انظر: المعجم الكبير (الطبراني) ٥: ١٣٤. السنن الكبرى (البيهقي) ٦: ٤٠٤. دراسات في الحديث النبوي ١: ١٠٩.

(٣) سير أعلام النبلاء ٢: ٤٣٦. مختصر تاريخ دمشق ٩: ١٢١. لمزيد من معرفة زيد وما يرتبط به من معرفة الميراث ومعرفة فتاواه وموقف الأئمة عليهم السلام تجاهه، انظر: الصحيح من سيرة النبي الأعظم ٦: ٣١٧.

(٤) دراسات في الحديث النبوي ١: ١٤٤.

(٥) الكامل (ابن عدي) ١: ٢٠٨. دراسات في الحديث النبوي ١: ١٠٩.

(٦) تقييد العلم/ ١٠٢.

(٧) تهذيب الكمال ٣٥: ١٩٣. الموطّأ ٢: ٥٨٩. أسد الغابة ٧: ١٣٨.

توفي أزواجهن ـ وأيضاً يكون النص المذكور مفسراً لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾[١].

وقد سئلت سبيعة عن كيفية وتفاصيل هذه الواقعة فأجابت عن ذلك بالكتابة[٢]. سمع بعضهم الحديث عنها، كما أنها كتبت للبعض الأحاديث، ومن جملة من أخذ عنها: عبد الله بن عتبة[٣]، وعمر بن عبد الله بن الأرقم[٤]، وعمرو بن عتبة[٥].

٢٠ ـ سعد بن عبادة الأنصاري:

وهو سيد الخزرج ومن الصحابة والأنصار، كان قد تعلم الكتابة قبل الإسلام، وسعد من الأفراد القلائل الذين ذكروا تحت عنوان «الكامل»[٦]. عرف سعد بالسخاء والشجاعة، فقد ورد عن ابن عباس أنه كان بيد رسول الله ﷺ رايتان إحداهما للمهاجرين والأخرى للأنصار، فأعطى راية المهاجرين لعلي وراية الأنصار لسعد.

كان سعد بعد وفاة رسول الله ﷺ في فراش المرض فجمع الأنصار

---

(١) الطلاق/ ٤. أجمع الفقهاء على أن المرأة الحاملة لو طلقت كانت عدتها بوضع الحمل، وأما المتوفى عنها زوجها وهي حامل فإن إتمام عدتها بوضع الحمل على ما ذهب إليه فقهاء أبناء السنة، وأما بناءً على رأي فقهاء الشيعة فتمام عدتها أبعد الأجلين، بمعنى أنها لو وضعت الحمل قبل أربعة أشهر وعشرة أيام ـ التي هي عدة المتوفى زوجها ـ فإن عدتها بعد باقية، ولو كان ذلك بعد المدة المذكورة وجب عليها الصبر حتى تضع الحمل (التبيان ١٠: ٣٤. الجامع لأحكام القرآن ١٨: ١٦٥. الفقه على المذاهب الخمسة: ٤٣٢. زبدة البيان ٢: ٧٥٥. جواهر الكلام ٣٢: ٢٧٤).

(٢) الكفاية في علم الرواية/ ٣٣٧.

(٣) المصدر السابق.

(٤) صحيح مسلم ٢: ١١٢٢.

(٥) التهذيب ٨: ٦٢.

(٦) كان يقال لمن يعرف فن السباحة والرماية والكتابة «الكامل». طبقات ابن سعد ٣: ٦٠٤. الإصابة ٣: ٥٥.

في سقيفة بني ساعدة إلا أنه عجز عن القيام بشيء[١]. وافاه الأجل في خلافة عمر في البراري، فأشاع جهاز النظام الحاكم آنذاك بأن الجن قتلت سعداً[٢]. كان سعد يصرّ على كتابة الحديث وكانت معه نسخ كثيرة. يقول ابن حبان في ترجمة إسماعيل بن عمرو بن شرحبيل: صاحب الوجادات من كتب سعد الأنصاري[٣].

أورد أحمد بن حنبل قضاء رسول الله ﷺ تعويلاً منه على ما كتبه سعد، قال: إسماعيل بن عمرو بن قيس بن سعد بن عبادة عن أبيه أنهم وجدوا في كتب سعد بن عبادة الأنصاري: أن رسول الله ﷺ قضى باليمين مع الشاهد[٤].

وفي بعض النصوص ورد بدل لفظة «في كتب»، «في كتاب»، وإن كانت نتيجة ذلك بالنسبة لبحثنا واحدة، وهي أن سعد بن عبادة كان يكتب الحديث.

٢١ ـ سلمان الفارسي:

وهو صحابي جليل، سليم القلب، من حفّاظ الحديث وكتّاب الحقائق المروية عن رسول الله ﷺ. وسوف نتحدث في فصل آخر عن كتابته للحديث.

---

(١) فيما يتعلق بسعد والسقيفة وأصحابه وكيفية ذلك، انظر: قاموس الرجال ٥: ٤٨ فما بعد. سيره علوى (= السيرة العلوية)، محمد باقر البهبودي/ ٢٣ فما بعد (فارسيّ).

(٢) المعيار والموازنة/ ٢٣٢. أنساب الأشراف ١: ٢٥٠. سيره علوى (= السيرة العلوية)/ ٣١. قيل لمؤمن الطاق: لماذا لم يصرّ علي عليه السلام على إحقاق حقه ولم يخاصم فيه أحداً؟ قال: خاف أن يقتله الجن. انظر: شرح ابن أبي الحديد ١٧: ٢٢٣.

(٣) مشاهير علماء الأمصار/ ١٣٠.

(٤) مسند أحمد بن حنبل ٦: ٣٨٥. سنن الدارقطني ٤: ٤٤٤٧.

٢٢ ـ سائب بن يزيد:

كانت له مجالس لرواية الحديث، وكان له تلامذة يسمعون منه الحديث ويكتبونه. يقول ابن لهيعة: «كتب يحيى بن سعيد وهو من تلاميذه بعض أحاديث السائب، وأرسلها إلى أبي لهيعة»[١].

٢٣ ـ سمرة بن جندب:

كان سمرة قد رتّب أحاديث رسول الله ﷺ في مجموعة عبّرت عنها المصادر الحديثية والرجالية تارة بالرسالة[٢] وأُخرى بالنسخة[٣]. وقد ذكر ابن سيرين الرسالة المذكورة، وذكر أنها مليئة بالمعارف[٤]. روى أبناء سمرة هذه النسخة وأخذ عنهم الرواة والمحدثون فنشروه[٥]، كما أن الحسن البصري روى ذلك أيضاً[٦]. وعدّوا من رواة ذلك أيضاً راشد بن سعد المقرني الحمصي[٧]. هذا، وقد نقل أحمد بن عمرو البزاز في مسنده «البحر الزخّار» والمشهور بـ«مسند البزاز» من هذه الرسالة سبعين حديثاً. وأيضاً نقل أبو القاسم الطبراني في أثره القيم «المعجم الكبير» مائة حديث. وهناك روايات من هذه الرسالة نقلت في المجامع الحديثية في مواضع متفرّقة منها، وهذا كله يدل على شهرة الرسالة الحديثية المذكورة.

٢٤ ـ أبو سعيد، سعد بن مالك الخدري:

اشتهر أبو سعيد الخدري شهرة ملفتة للنظر بمنعه لتدوين الحديث،

---

(١) نقلاً عن الأموال، ابن زنجويه: ٣٩٣ و٣٩٥. دراسات في الحديث النبوي ١: ١١١. انظر لترجمة سائب: الإصابة ٢: ١٢. أسد الغابة ٢: ٤٠١. التاريخ الكبير: ١٥٠٤.
(٢) تهذيب التهذيب ١: ٥٤٤ و٢: ٦٣٠.
(٣) ميزان الاعتدال ٦: ٣٩٦.
(٤) تهذيب التهذيب ٢: ١٣٠.
(٥) التاريخ الكبير ١: ٢٦. طبقات ابن سعد ٦: ٤٢٧.
(٦) تهذيب التهذيب ١: ٥٤٤. طبقات ابن سعد ٧: ١٥٧.
(٧) سنن البيهقي ٩: ٥٩٩.

وقد ذكرنا الحديث المذكور الذي هو الحديث الصحيح الوحيد[١] إن صحت هذه الدعوى في موضوع منع التدوين. وحنيئذٍ فقد عُرف أبو سعيد بأنه من مانعي تدوين الحديث. إلا أن الدكتور محمد مصطفى الأعظمي يعتقد أن أبا سعيد كان يكتب الحديث أو لا أقل من أنه كان يكتبه ويحتفظ به لنفسه[٢]. وقد استظهرنا فيما سبق بأن الظاهر من كلام أبي سعيد هو احتمال تعلق المنع بكتابة وتدوين الحديث مقترناً بالقرآن، لا كتابة الحديث بشكل مستقل[٣].

٢٥ ـ سهل بن سعد الساعدي الأنصاري:

وسهل بن سعد أيضاً من كتّاب الحديث ورواته، وقد أخذ غير واحد عنه الحديث ورواه عنه. وقد اتخذت الحكومة آنذاك موقفاً تجاهه بسبب روايته الحديث. وسوف نتعرض فيما بعد لذلك.

٢٦ ـ شدّاد بن أوس بن ثابت الأنصاري:

كان شدّاد بن أوس من أجلّ صحابة رسول الله ﷺ، كما أنهم عدّوه من فقهاء الصحابة[٤]. كان يلتقي الشباب ويجلس معهم ويملي عليهم الحديث[٥]. وقد طلب منه جماعة أن يروي لهم كلاماً سمعه عن رسول الله ﷺ، فقال:

اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، وأسألك عزيمة الرشد، وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك..[٦].

---

(١) ذكرنا في مجلة علوم الحديث الفصلية (٢: ٣٦) أنه لم يثبت صدور ذلك عن رسول الله ﷺ، مضافاً إلى أن في الحديث احتمالاً آخر يخرجه عن الموضوع.

(٢) معرفة النسخ والصحف الحديثية/ ١٦١. دراسات في الحديث النبوي ١: ١١١.

(٣) دراسات في الحديث النبوي ١: ٩٥. مجلّة علوم الحديث الفصلية ٢: ٣٧.

(٤) سير أعلام النبلاء ٢: ٤٦٤. مختصر تاريخ دمشق ١٠: ٢٧٩.

(٥) دراسات في الحديث النبوي ١: ١١٢.

(٦) مسند أحمد بن حنبل ٥: ١٠٧. مختصر تاريخ دمشق ١٠: ٢٧٦. سير أعلام النبلاء ٢: ٢٦٥.

طلب معاوية أيام حكومته على الشام من شدّاد أن يرقى المنبر وينال من علي عليه السلام ويطعن فيه، إلاّ أنه أبى ذلك وتكلّم بكلام طعن فيه بمعاوية وأسخطه[١]، وعندما سأله معاوية عن حبّه له أو لعلي ومن هو الأفضل في نظره؟ أجابه شدّاد بفطنة وذكاء جواباً فيه تفضيل لعلي عليه السلام وساق الحديث معه بشكل جعله في أمان من غضب معاوية[٢].

٢٧ ـ شمعون الأزدي الأنصاري:

وهو من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله. كان شمعون مع الفاتحين للشام، فاختار الإقامة فيها، وكان من عظمائها[٣]. وكان أيضاً يكتب الأحاديث ويرويها، وقد ذكر بعض المحدثين: ركب أبو ريحانة البحر وكانت له صحف[٤].

٢٨ ـ أبو أُمامة، صدي بن عجلان الباهلي:

كان أبو أُمامة يؤكد على تدوين وكتابة الحديث، وقد ذكروا أن الحسن بن جابر سأل أبا أُمامة الباهلي عن كتابة وتدوين العلم [الحديث]، فقال: لا بأس [أُكتب][٥]. وقد ورد في بعض النصوص أن أبا أُمامة كان يملي الحديث وغيره يكتب، فقد ذكر عبد الرزاق أن القاسم بن عبد الرحمن الشامي كان يكتب أحاديث أبي أُمامة[٦].

٢٩ ـ الضحّاك بن سفيان الكلابي:

سأل الضحاك رسول الله صلى الله عليه وآله عن مسائل فكان النبي يجيبه عنها

---

(١) البيان والتبيين ٤: ١٣٢. أمالي الشيخ المفيد/ ٩٦.
(٢) مختصر تاريخ دمشق ١٠: ٢٨٠.
(٣) مختصر تاريخ دمشق ١٠: ٣٣٤. الإصابة ٣: ٢٨٩.
(٤) الإصابة ٣: ٢٩١. دراسات في الحديث النبوي ١: ١١٢. معرفة الصحف والنسخ الحديثية/ ١٦٩.
(٥) طبقات ابن سعد ٧: ٤١٢. سنن الدارمي ١: ٨٦. تقييد العلم/ ٩٨
(٦) المصنّف١/ ٥٠ ـ ٥١. دراسات في الحديث النبوي ١: ٩٢.

والضحاك يملي ذلك ويكتبه، وكان إذا سئل عما سمعه عن النبي يأتيهم بما كتبه ويقرأه عليهم. كانت للضحاك مكانة عند رسول الله ﷺ دون سائر العرب، ولقد سأل الضحاك رسول الله عن المرأة هل ترث من دية زوجها؟ فأجابه النبي بالإيجاب[١].

وبعد مرور أيام منع عمر المرأة من دية زوجها، فكتب الضحاك إليه بأنه سأل في ذلك رسول الله ﷺ فأجابه بالإيجاب، وحينئذٍ ورّثت زوجة أشيم بن الضبابي دية زوجها[٢].

٣٠ ـ عائشة بنت أبي بكر:

كانت لعائشة بعد وفاة رسول الله ﷺ مكانة خاصة، وكان الجهاز الحاكم يرعاها رعاية خاصة، كما أنها كانت مرجعاً للمسلمين في معرفة الأحكام الشرعية والقضايا المرتبطة بالدين والقرآن[٣]. وقد ذكر المؤرخون أن عائشة تجيد القراءة ولها قدرة على الخطابة والكلام، إلا أن في كتابتها للحديث كلام[٤]. كان لعائشة اهتمام بالغ برواية الحديث، وكانت تملي الأحاديث على بعض الصحابة فيكتبونه ويروونه عنها[٥]. وقد تركت رواية عائشة للحديث آثارها في الشؤون القرآنية والدينية والفقهية. وعليه فعائشة كانت تؤكد على كتابة الحديث وروايته.

---

(١) الرسالة، الشافعي/ ٤٢٦. مسند أحمد بن حنبل ٤: ٤٨٥.

(٢) سنن ابن ماجة ٢: ٨٨٣. المصنف٣/ ٣٩٧. سنن الترمذي ٤: ٤٢٥ و. . .نذكّر بأن الفقهاء يعتقدون أن إرث الدية يشمل جميع الورثة، ويعتقد بعض فقهاء العامة أن المرأة لا ترث من دية زوجها المقتول؛ وذلك لانقطاع العصمة بينهما هنا (المغني ٦: ٢٢٠٦. الفقه الإسلامي وأدلته ٨: ٢٦٣) ولكن الشيخ الطوسي ادعى الإجماع على ذلك، واستدل عليه برواية عن علي عليه السلام (الخلاف ٤: ١١٤) التهذيب ٩: ٣٧٩. من لا يحضره الفقيه ٤: ٢٢٦. مرآة العقول ٢٣: ٢٠٥، وفيها أقوال أخرى.

(٣) أحاديث أُم المؤمنين عائشة ١: ٨٧ فما بعد.

(٤) فتوح البلدان: ٦٦٢. دراسات في الحديث النبوي ١: ١١٣.

(٥) دراسات في الحديث النبوي ١: ١١٤. مرويّات أُم المؤمنين عائشة في التفسير: ١٦.

ومن جملة من كتب عنها الحديث زياد بن أبي سفيان وعروة بن الزبير، فقد روى الأخير عنها في التفسير فقط ٩٢ خبراً[١]. وممن روى عنها القاسم بن محمد بن أبي بكر، أبو سلمة بن عبد الرحمن، ذكوان، مسروق بن الأجدع و... سواء كان ذلك رواية عن رسول الله ﷺ أو رأياً رأته وفتيا. والمجال لا يتسع للحديث عن كيفية تبلور النصوص المكتوبة تأريخية كانت أو فقهية أو تفسيرية وما تركته من آثار هامة[٢].

٣١ ـ عبد الله بن أبي أوفى:

كان عبد الله فيمن شارك في صلح الحديبية وبيعة الرضوان. وكان مقيماً في المدينة حتى وفاة رسول الله ﷺ، ثم رحل عنها إلى الكوفة وعاش فيها حتى أواخر حياته، فكان آخر صحابي مات في الكوفة[٣]. كان سالم بن أبي أُمية كاتباً لعبد الله[٤] قد كتب عنه الأحاديث[٥]. وروى أحد صحابة سالم بن أمية أن عبد الله كتب أحاديث في الجهاد وبعث بها إلى عبيد الله وطلبت منه أن يكتبها لي[٦]. وكان عمرو بن عبيد الله أيضاً من جملة الذين كتب عبد الله إليهم الأحاديث[٧].

٣٢ ـ عبد الله بن الزبير:

وقد عدّوا عبد الله بن الزبير أيضاً ممن يعتقد ضرورة كتابة

---

(١) مرويّات أُم المؤمنين عائشة في التفسير: ١٦.
(٢) انظر: أحاديث أم المؤمنين عائشة ١: ٣٥٩.
(٣) أُسد الغابة ٣: ١٨١. الإصابة ٤: ١٦. تهذيب التهذيب ٣: ٩٥. الوافي بالوفيات ١٧: ٧٨. تهذيب الكمال ١٤: ٣١٧.
(٤) تهذيب التهذيب ٢: ٢٥٦.
(٥) تهذيب التهذيب ٣: ٩٥.
(٦) مسند أحمد بن حنبل ٥: ٤٧.
(٧) صحيح مسلم ٣: ١٣٦٢. المستدرك ٢: ٨٧. الكفاية في علم الرواية: ٣٣٦.

الحديث[١]. ومن جملة ما ترك عبد الله من آثار رسالة فيها أحاديث عن رسول الله ﷺ[٢].

٣٣ ـ عبد الله بن عباس:

وهو من خيرة المفسرين والمحدثين والصحابة. كان ابن عباس يؤكد على كتابة الحديث. بذل ابن عباس قصارى جهده مستعيناً بالبيان والبنان من أجل نشر وترويج الحديث والتفسير، وسوف نتحدث في مقام آخر ـ عند التعرض للبحث عن تدوين الحديث لدى الشيعة ـ عن مكانة ابن عباس في تدوين الحديث.

٣٤ ـ عبد الله بن عمر:

كان عبد الله بن عمر من مشاهير الفقهاء والمحدثين في تاريخ الإسلام. وكأنه مدين في هذه المعروفيّة والشهرة لأبيه عمر بن الخطاب. ومما ساعد على هذه الشهرة مشاركته في الميدان الثقافي والاجتماعي واهتمامه بالمسائل والقضايا خصوصاً الفقهية منها.

كان لعبد الله بن عمر شخصية عجيبة، فهو غالباً ما كان يتخذ موقفاً ممزوجاً بالسكوت وسلوكاً متلوناً ورمزياً. وكان لفقهه وثقافته وفكره أثر في بلورة الفقه من بعد حياته[٣].

وكيف كان، فقد كان عبد الله بن عمر ممن التزم كتابة الحديث، وقد ذكر المحدثون أنه كان يدوّن الأحاديث النبوية ويجمعها[٤]. وكانت معه كتب ونسخ من الحديث ينظر فيها قبل أن يأتي إلى الملأ[٥]. وأيضاً كانت

---

(١) تاريخ تدوين الحديث ١: ١١٥.
(٢) مسند أحمد بن حنبل ٤: ٥٦٨. تعليقات سنن الدارقطني: ٤٦٤، ط. الهند.
(٣) انظر: موسوعة فقه عبد الله بن عمر، عصره وحياته، محمد رواسي قلعه جي (مقدمة المؤلّف).
(٤) دراسات في الحديث النبوي ١: ١٢٠.
(٥) التاريخ الكبير ١: ٣٢٥. دراسات في الحديث النبوي ١: ١٢٠. تاريخ الإسلام، الذهبي ٤: ٤٤٠.

معه نسخة من كتاب الصدقات لأبيه التي هي في الحقيقة نسخة من كتاب الصدقات للنبي ﷺ[١]. وقد كانت ترده أسئلة من البعض فكان يجيب عنها بالكتابة[٢]. وكان أحياناً يكتب أحاديث عن النبي ويرسلها إلى صحبه[٣]. روى نافع غلام عبد الله أحاديث عنه، يقول الذهبي:

وروى الواقدي عن جماعة قالوا: كان كتاب نافع الّذي سمعه من ابن عمر صحيفة كنّا نقرؤها[٤].

وقد نسب إلى ابن عمر أيضاً مخالفته ومنعه لكتابة الحديث، لكن لا أصل لهذه النسبة.

قال الدكتور مصطفى الأعظمي:

وقيل: إنه كان يعارض تقييد العلم، وليس هناك تصريح من ابن عمر بهذا الصدد[٥].

وبما أن لعبد الله بن عمر خلافاً مع أبيه في كثير من المسائل الفقهية وفي كثير من الرؤى[٦] فلا يبعد أن تكون هذه القضية أيضاً إحدى موارد خلافه مع أبيه.

٣٥ ـ عبد الله بن عمرو بن العاص:

كان عبد الله بن عمرو مشهوراً في تدوين الحديث، والحديث المشهور عن رسول الله ﷺ الذي قاله لعبد الله في جواب سؤاله الذي سأله:

---

(١) دراسات في الحديث النبوي ١: ١٢٠، نقلاً عن الأموال لأبي عبيد: ٣٩٣.
(٢) مسند أحمد بن حنبل ٢: ١٣٧.
(٣) المصدر السابق: ٢١٨
(٤) دراسات في الحديث النبوي ١: ١٢١ نقلاً عن تاريخ الإسلام، الذهبي ٥: ١١.
(٥) دراسات في الحديث النبوي ١: ١٢١.
(٦) موسوعة فقه عبد الله بن عمر: ٢٤.

يا رسول الله أكتب ما أسمع منك؟

قال: نعم.

في الرضى والغضب؟!

قال: نعم، فإني لا أقول إلاّ حقّاً[١].

هو من جملة الأدلة القاطعة الدالة على تأكيد رسول الله في أمر الكتابة وتدوين الحديث.

كان عبد الله بن عمرو بن العاص مثابراً وجاداً في كتابة الحديث، وقد ذكر هذه الخصيصة غير واحد، كما أنهم صرحوا بكتابته للحديث[٢]، وهناك نصوص تؤكد حضوره مجلس رسول الله ﷺ وكتابته لما كان يملي من الأحاديث[٣]. كان لعبد الله معرفة باللغة السريانية[٤]، وقد ذكروا معرفته لبعض كتب أهل الكتاب أيضاً وتسلطه عليها[٥]؛ ولذا فقد عدّوه من جملة من له دور في ترويج ونشر الاسرائيليات في الثقافة الإسلامية[٦].

ويعتقد البعض أن عبد الله بن عمرو بن العاص كتب نسخة في مغازي رسول الله ﷺ وسيرته، ومن هنا لم يستبعدوا أنه كتب أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ[٧].

كان عبد الله بن عمرو يملي كتابة الحديث على جماعة كثيرة؛ لذا فقد روى عنه الحديث مكتوباً جماعة، منهم: شعيب بن محمد بن

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ٢: ٣٩٥. سير أعلام النبلاء ٣: ٨٩.
(٢) المحدّث الفاصل: ٣٦٨. تقييد العلم: ٨٢.
(٣) مسند أحمد بن حنبل ٢: ٤٠٣. سير أعلام النبلاء ٣: ٨٩.
(٤) طبقات ابن سعد ٤: ٢٦٦.
(٥) مسند أحمد بن حنبل ٢: ٢٠٠. تذكرة الحفاظ ١: ٤٢.
(٦) الاسرائيليات وأثرها في كتب التفسير: ١٤٣.
(٧) دراسات في الحديث النبوي ١: ١٢٤. ذكر الدكتور محمد مصطفى الأعظمي أن عبد الله بن عمرو روى فصولاً من سيرة رسول الله ﷺ، وقد جعلنا ذلك من المؤيدات لما ذكروه.

عبد الله بن عمرو، وعبد الرحمن بن سلمة الجمحي، وعبد الله بن رباح الأنصاري، وشفي بن ماتع، و..[١].

ثم إن جملة ما نسب إلى عبد الله بن عمرو بن العاص من الصحائف مجموعة تحمل عنوان: «الصحيفة الصادقة»، وهي أشهر صحيفة مدوّنة بيد الصحابة في العصر النبوي[٢]. وقد ذكر عبد الله هذه الصحيفة كراراً ومراراً وكان يفتخر بها، ويصرح بأنها كانت بإملاء من رسول الله ﷺ[٣]، وأيضاً كان عبد الله بن عمرو في بعض الأحيان يلمّح بأنه كان لوحده في مجلس رسول الله ﷺ عند سماعه لمضمون هذه الصحيفة[٤]. وأما ترتيب الصحيفة المذكورة وكيفيتها ففيه كلام وبحث طويل، فقد ذكر البعض أن هذه الصحيفة تحتوي على ألف حديث[٥]. وأورد أحمد بن حنبل مقاطع من هذه الصحيفة في مسنده بطرق وأسناد متعددة[٦]. وقد عنون العلامة الجليل هاشم معروف الحسني الصحيفة المذكورة بـ«الصحيفة المزعومة»، كما أنه يعتقد أن هذه الصحيفة ممّا عثر عليه عبد الله بن عمرو بن العاص في حرب اليرموك وأنها من آثار الأمم السالفة ساقها في قالب الحديث[٧]. وعلى أي حال فإن ذلك لا يؤثر في النتيجة التي استحصلناها؛ وهي تأكيده على ضرورة الكتابة وبأنه كان يكتب الحديث[٨].

---

(١) دراسات في الحديث النبوي ١: ١٢٤ و١٢٥. صحائف الصحابة: ٧٢.
(٢) التشريع والفقه في الإسلام تاريخاً ومنهجاً: ٧٥.
(٣) سنن الدارمي ١: ٨٦. المحدث الفاصل: ٣٦٦. تقييد العلم: ٨٤. جامع بيان العلم وفضله ١: ٣٠٥.
(٤) سير أعلام النبلاء ٣: ٨٩. أسد الغابة ٣: ٣٤٦.
(٥) معرفة النسخ والصحف الحديثية: ١٧٩ نقلاً عن أسد الغابة ٣: ٣٤٧.
(٦) مسند أحمد بن حنبل ٢: ١٥٨ فما بعد، وطبع مؤسسة الرسالة ١١: ٦٧١ فما بعد.
(٧) دراسات في الحديث والمحدثين: ٢١. تاريخ الفقه الجعفري: ١٣٩. نذكر بأن عبد الله كان قد شارك في فتح الشام وحرب اليرموك في خلافة أبي بكر، وأنه عثر في هذه الحرب على هذه الصحيفة التي هي مما تركه السلف، وعليه يكون النقل من هذه الصحيفة مواجهاً لنوع من التشكيك في روايته عنها. (أسد الغابة ٣: ٣٤٧. فتح الباري ١: ١٦٦. الاسرائيليات وأثرها في كتب التفسير: ١٤٦).
(٨) فيما يتعلق بهذه الصحيفة وطرقها انظر: معرفة النسخ والصحف الحديثية: ١٨٠ والمصادر التي تقدم ذكرها.

٣٦ ـ أبو موسى الأشعري عبد الله بن قيس:

ذكروا أن عبد الله الأشعري لم يكن يسمح بكتابة الحديث[١]، فقد أورد الخطيب البغدادي نصوصاً تدل على تأكيد أبي موسى الأشعري على حفظ الحديث دون كتابته[٢]، كدعوته كل من سمع منه الحديث وكتبه وتأكيده لهم على هجر وترك كل ما كتبوه، وقد تعرض الدكتور محمد مصطفى الأعظمي لتلك النصوص إلا أنه يعتقد أن أبا موسى كان يكتب الحديث، مستدلاً على ذلك بنسخة كتبها أبو موسى بطلب من عبد الله بن عباس تشتمل على أحاديث سمعها عن رسول الله ﷺ[٣].

٣٧ ـ عبد الله بن مسعود:

وهو من قرّاء القرآن ومن المفسرين وكبار علماء الصحابة. وحياة ابن مسعود حرية بالبحث والدراسة من جهات مختلفة. وقد ورد النقل عنه فيما يرتبط بكتابته الحديث بنحوين: ففي بعض النصوص دلالة على أنه كان يكتب الحديث ويؤكد على نشره وروايته، فقد ورد أن عبد الرحمن أخرج كتاباً وأقسم بأنه بخط عبد الله بن مسعود[٤]. وفي آخر دلالة على أنه توجد عنده نسخ من الحديث[٥]. كما أن تلامذته قد اهتموا أيضاً بتدوين ونشر العلم وطلبه[٦]. وقد ورد في نصوص أخرى أن مع ابن مسعود نسخاً ومخطوطات في الحديث والفقه[٧]. وأوضح من كل ذلك دلالة موقف الخليفة الثاني الذي اتخذه تجاه ابن مسعود وجماعة آخرين بسبب رواية

---

(١) تقييد العلم: ٤٠.
(٢) المصدر السابق.
(٣) مسند أحمد بن حنبل ٥: ٥٣٩. السنن الكبرى ١: ١٥١.
(٤) جامع بيان العلم وفضله ١: ٣١١. المصنف لابن أبي شيبة ٩: ٥٠.
(٥) دراسات في الحديث النبوي ١: ١٢٧.
(٦) تاريخ بغداد ١٣: ٢٣٤. جامع بيان العلم وفضله ١: ٩٤. تهذيب الكمال ٢٧: ٤٥٤.
(٧) انظر: تاريخ الفتوى ٣: ١٥. دراسات في الحديث النبوي ١: ١٥٤.

الحديث وكتابته حيث أودعهم السجن[١]. ومما ذكرنا يتضح اهتمام ابن مسعود وعزمه على كتابة ورواية الحديث.

إلا أنه مع ذلك هناك نصوص أُخرى تدل على إتلافه لنسخة من الحديث أو لنسخ أحاديث وأنه قد عزم على إخفاء ذلك، وقد تعرض لذكر أمثال هذه النصوص كل من «تقييد العلم» للخطيب و«جامع بيان العلم وفضله».

هذا، وفي ظننا أن قليلاً من التأمل في النصوص يعطي أن هدف ابن مسعود من إتلاف نسخ الحديث كان لنكتة أخرى. وقد ورد في بعض النصوص أنه جيء بنسخة من الشام، وكان الذي جاء بها قد تعجب من مضمونها، ولما نظر ابن مسعود فيها، قال: «إنما هلك من كان قبلكم من أهل الكتاب باتباعهم الكتب وتركهم كتاب الله».

وورد في نص آخر أن ابن مسعود لما نظر فيها محا متنها بالماء وقرأ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾[٢] ثم قال:

القلوب أوعية فاشغلوها بالقرآن، ولا تشغلوها بما سواه[٣].

ويدل مضمون هذه النسخة على أن ما جاء فيها كان يشتمل على أمور غريبة لا تصدّق، مما دعا ابن مسعود إلى محوها، هذا من جهة. ومن جهة أخرى ونظراً إلى استشهاد ابن مسعود بالآية واستناده إلى أن السالف من الأمم ضلت بتركها للأديان، مضافاً إلى أن هذه النسخة جيء بها من الشام، حينئذٍ لا يبعد اشتمالها على أمور غير مستقيمة واتجاهات فكرية أُخرى، ومن جملة ذلك الكتب التي تركتها الأمم السالفة، وبذلك تتضح هذه النكتة عند التأمل في كلام ابن مسعود حيث يقول ـ على ما في بعض النصوص ـ:

---

(١) تاريخ دمشق ٣٩: ١٠٨. الكامل لابن عدي ١: ١٨.
(٢) تقييد العلم: ٥٤ ـ ٥٦. جامع بيان العلم وفضله ١: ٢٨٣.
(٣) يوسف/ ٣.

أشعث بن سليم عن أبيه قال... فدخلت المسجد ذات يوم، فإذا غلام يتخطّى الخلق، يقول: أجيبوا عبد الله بن مسعود في داره، فانطلق الناس، فذهبت معهم، فإذا تلك الصحيفة بيده، وقال: «ألاّ إنّ ما في هذه الصحيفة فتنة وضلالة وبدعة، وإنّما هلك من كان قبلكم من أهل الكتاب باتّباعهم الكتب وتركهم كتاب الله، وإني أخرج على رجل يعلم منها شيئاً إلاّ دلّني عليه، فوالذي نفس عبد الله بيده لو أعلم منها صحيفة بدير هند لأتيتها ولو مشياً على رجلي، فدعا بماء فغسل تلك الصحيفة[١].

ولذلك يقول أحد رواة هذه النصوص:

نرى أن هذه الصحيفة أخذت من أهل الكتاب، فلهذا كره عبد الله النظر فيها[٢] وكيف كان، فإنه يمكن القول بأن ما دعا ابن مسعود لاتخاذ موقف صارمٍ تجاه الاسرائيليات ومنعه لرواية مثل تلك الأمور هو انزعاجه الخاص حيال ذلك[٣].

٣٨ ـ عتبان بن مالك الأنصاري:

كان عتبان أنصارياً من الخزرج والبدريين، وكان قد تولى إمامة الجماعة لقبيلته (بني سالم). ذهب إليه شخص ـ كان قد سمع منه الحديث

---

(١) تقييد العلم: ٥٥.

(٢) جامع بيان العلم وفضله ١: ٢٨٣.

(٣) تحدثنا في موضع آخر عن موقف ابن مسعود تجاه الاسرائيليات، وأثبتنا أن موقفه كان سلبياً (تاريخ التفسير، التفسير في عصر الصحابة) وقد ورد في بعض الروايات أن بين الأحاديث التي محيت كانت هناك روايات تشتمل على فضائل أهل البيت عليهم السلام، وسوف نتحدث عن ذلك لاحقاً.

كثيراً ـ وطلب منه أن يروي له حديثاً، فروى عتبان له الحديث وكتب ذاك الشخص الحديث[١]. وقد ذكر الخطيب البغدادي هذا النص في فصل مدوّنات الصحابة، وقد عدّ الدكتور الأعظمي عتبان بن مالك طبق هذا النص في عداد كتّاب الحديث[٢].

٣٩ ـ علي بن أبي طالب عليه السلام:

كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أكبر وأعظم مدافع وحافظ للسنة الشريفة، كما أنه أكبر مفسِّر ومبيِّن لها. وسوف نتحدث مفصلاً عن مكانته عليه السلام في رواية ونشر وكتابة الحديث وعن حراسته وصيانته لسنة رسول الله صلى الله عليه وآله.

٤٠ ـ عمر بن الخطاب:

سعى عمر بن الخطاب في ترسيخ دعائم السياسة التي انتهجها أبو بكر بعد رسول الله صلى الله عليه وآله في منع الكتابة وتدوين الحديث، وقد وسّع من أطر هذه السياسة بعد خلافته. مع هذا كله، فإن النصوص التاريخية تدل على أنه كان يكتب الحديث في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله بل حتى بعد وفاته. ومن هنا فقد حاول المحققون من علماء أبناء السنة ـ أو بالأحرى الموجّهون لسياسة الخلفاء ـ جاهدين ليجدوا محملاً يحملون عليه موقف الخليفة ويجدوا توجيهاً يوجّهون به ذلك[٣].

وقد جمع عمر جميع الأحاديث المتعلقة بجمع الصدقات ودوّنها،

---

(١) صحيح مسلم ١: ٦١. تقييد العلم: ٩٤.

(٢) دراسات في الحديث النبوي ١: ٩٤.

(٣) سوف نتحدث فيما بعد عن هذه التوجيهات والتخريجات. ومما يذكر أن الدكتور محمد الأعظمي أورد روايات تدل على منع عمر لكتابة الحديث، وذكر أنها ضعيفة لا يمكن الاستناد إليها، ثم ذكر من جهة أخرى قرائن تدل على تدوين عمر ونشره للحديث وأنه كان يسعى لذلك. (دراسات في الحديث النبوي ١: ١٣٧). وبالطبع هذه الدعوى لا تنطبق كثيراً مع الشواهد التاريخية.

وهذا ما استدل به العلماء كراراً. واستعرض نافع بن عبد الله بن عمر هذه النسخة أيضاً[١].

وهناك بعض النصوص الأخرى التي تدل على أنه كان يكتب أحاديث عن رسول الله ﷺ[٢].

كان عمر في بداية الأمر من خلافته قد عزم على كتابة الحديث وإملائه، ولذلك صار يماري الصحابة، إلا أنه وبعد شهر ـ على ما في بعض النصوص ـ عزم على منع كتابة ورواية الحديث[٣]، وكتب في ذلك كتاباً بعثه إلى نواحي البلاد بمحو ما كتبوه من أحاديث[٤]. وطبقاً لما في بعض النصوص الأخرى أنه أمر بحرق جميع ما كتبه الناس بعدما أحضروه ونظر فيه[٥]. وهذا كله يدل على أن تدوين الحديث كان متعارفاً، وأن عمر نفسه كان من جملة الذين كتبوا الحديث، ومن هنا فإنه ـ كما أسلفنا ـ لم يكن في حوزته ما يدل على منع رسول الله ﷺ عن الكتابة، وأن منع عمر عن ذلك كان قائماً على أساس المصالح، ولذلك فقد أصّر على موقفه المذكور الذي خلّف آثاراً سيئة كثيرة.

٤١ ـ عمرو بن حزم الأنصاري:

كان عمرو بن حزم من صحابة رسول الله ﷺ وممن حضر غزوة الخندق، وقد ابتدأ نصرته لرسول الله ﷺ في مشاركته له في الحروب. اختاره النبي ﷺ ليكون والياً على أهل نجران، وكتب له كتاباً في أحكام

(١) مسند أحمد بن حنبل ١١ :٢٨. وانظر أيضاً: الكفاية في علم الرواية: ٣٥٤.
(٢) دراسات في الحديث النبوي نقلاً عن الأموال، أبو عبيد: ٣٩٣. التاريخ الكبير ١ :٢٨٣.
(٣) تقييد العلم: ٤٩.
(٤) المصدر السابق: ٥٣.
(٥) المصدر السابق: ٥٢.

الطهارة والصلاة والغنائم والصدقات والديات و. . .وبعثه معه[١]، وقد ذكر الدكتور محمد مصطفى الأعظمي أن عمرو بن حزم جمع بعض رسائل وكتب رسول الله ﷺ في كتاب، وقد روى الكتاب المذكور ولده محمد بن عمرو. كما أنه طبع ضمن كتاب ابن طولون (أعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين)[٢].

٤٢ ـ السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام:

تحدثنا في أكثر من مناسبة عن مصحف فاطمة عليها السلام وطبيعته[٣]. كان هذا المصحف دائماً عند الأئمة الأطهار عليهم السلام توارثوه عن فاطمة المطهرة. أملى الصحيفة المذكورة رسول الله على فاطمة عليها السلام وكتبها علي عليه السلام بيده الشريفة[٤]. ويمكن أن يستفاد من بعض النصوص المتفرقة أن مع السيدة الزهراء عليها السلام صحائف أخر تشتمل على إرشادات وكلمات نورانية لرسول الله ﷺ[٥]. وسوف نتحدث مفصّلاً عن ذلك في فصل آخر[٦].

٤٣ ـ فاطمة بنت قيس:

كانت فاطمة من ذوات الفطنة والذكاء والعقل حتى أنهم أثنوا عليها.

---

(١) أسد الغابة ٤: ٢٠٢. الجرح والتعديل ٦: ٢٢٤. الوثائق السياسية: ٢١١. سفراء النبي ﷺ ١: ٨٨١ ـ ٩٠٠، بحث الكتاب المذكور قصة بعثه عمرو بن حزم إلى اليمن والكتاب الذي كان معه وغير ذلك تفصيلاً.

(٢) دراسات في الحديث النبوي ١: ١٣٩.

(٣) مجلة علوم الحديث (بالفارسية) ٢: ٢٥.

(٤) الكافي ١: ٤٤٠. بصائر الدرجات: ١٥٧. و. . . ذكرنا في هذه المقالة ـ واستناداً إلى بعض الروايات وتحقيق بعض العلماء بأن هذه الصحيفة كانت بإملاء من رسول الله ﷺ، وسوف نتحدث عن ذلك لاحقاً.

(٥) الكافي ٢: ٦٦٧. مسند أحمد بن حنبل ٦: ٤٠٣. تاريخ الإسلام، الذهبي ٣: ٢٨٤. المعجم الكبير ٢٤: ٢٧٠. دلائل التوثيق المبكر للسنة: ٥١٨.

(٦) انظر الملحق الخاص بهذا الموضوع في خاتمة الكتاب.

وكانت فاطمة مشهورة بمعرفة الحديث، فقد كانت تمليه على تلامذتها إلى جانب ما كانت تعقده من حلقات الدرس ورواية الحديث. وكان أبو سلامة عبد الله بن عبد الرحمن ممن كتب مجموعة أحاديث أملتها عليه[١].

٤٤ ـ محمد بن مسلمة الأنصاري:

كان محمد بن مسلمة من الصحابة والأنصار لرسول الله ﷺ، اشترك في جميع حروب النبي عدا تبوك. مات في المدينة وكان ممن اختار السكوت وعدم نصرة الإمام علي عليه السلام في حروبه التي خاضها زمان خلافته، فكان في زمرة القاعدين[٢]. ذكروا أن في غمد سيفه كانت صحيفة فيها أحاديث لرسول الله ﷺ[٣].

٤٥ ـ معاذ بن جبل:

كان معاذ من صحابة رسول الله ﷺ ومن الخزرج، وكان من جملة السبعين الذين بايعوا رسول الله في مكة قبل هجرته صلوات الله عليه. شارك معاذ في الحروب مع رسول الله ﷺ[٤]، إلا أن معاذاً لم يثبت على الصراط المستقيم، فكان ممن أعان على الانحراف وتحريف الحقائق[٥]. بعث رسول الله معاذ بن جبل إلى اليمن وأرفقه بكتاب فيه بعض الأحكام[٦]. كان مع موسى بن طلحة نسخة من الكتاب

---

(١) صحيح مسلم ٢: ١١١٤. مسند أحمد بن حنبل ٧: ٥٦٣. طبقات ابن سعد ٨:

(٢) أسد الغابة ٥: ١٨٧. التاريخ الكبير ١: ٢٣٩.

(٣) المحدث الفاصل، نقلاً عن دراسات في الحديث النبوي ١: ١٤٠.

(٤) أسد الغابة ٥: ١٨٧. التاريخ الكبير ٧: ٣٥٩.

(٥) الاختصاص: ١٨٤. معجم رجال الحديث ١٨: ١٨٣. وقد وردت في بحار الأنوار نصوص حرية بالاهتمام تكشف عن حقيقة معاذ، كما أنها تحلل الوضع التاريخي بعد حياة رسول الله ﷺ. وانظر: مستدركات علم رجال الحديث ٧: ٤٣٦، وقد تعرض فيه الكاتب لجميع المطالب المذكورة.

(٦) أسد الغابة ٥: ١٨٨. كنز العمال ٢: ٤٩٤. وقد تعرض محمود شيت الخطّاب في أثره القيّم (سفراء النبي ١: ٧٣٤ فما بعد) مفصلاً إلى قضية معاذ وسفره إلى اليمن والكتاب الذي كان معه مستدلاً على ذلك بنصوص من مراجع قديمة.

المذكور[١]. كما أنه كانت مع كتب معاذ بن جبل عند عبد الله بن عائذ أيضاً[٢].

وحينئذٍ يكون معاذ ممن يحمل آثاراً مدوّنة ومن الناشرين والمبلغين لها. وكان معه أيضاً نسخاً مدونة للحديث.

٤٦ ـ ميمونة بنت الحارث الهلالي:

كانت ميمونة إحدى زوجات النبي ﷺ، تزوجها رسول الله بعد أن اقترحت عليه الزواج بها، فكان ذلك في السنة السابعة للهجرة. وقد روي عن عائشة أنها قالت فيها: «كانت [ميمونة] من أتقانا»[٣]. روى عن ميمونة جماعة كثيرة من بينهم ابن أُختها المفسر الكبير عبد الله بن عباس. أملت ميمونة أحاديث كثيرة، وكان عطاء بن يسار يكتب ذلك لها. وقد روى بعض تلك الأحاديث عمر بن إسحاق بن يسار عن كتاب عطاء[٤].

٤٧ ـ النعمان بن بشير الأنصاري:

كان النعمان من الصحابة، وكان خزرجياً. وكان والياً على حمص في ذلك الوقت[٥]. كتب النعمان الحديث ورواه، كما أنه كتب عنه الحديث جماعة ورووه، منهم: قيس بن الهيثم والضحاك بن قيس وحبيب بن سالم و..[٦].

٤٨ ـ واثلة بن الأسقع:

أسلم واثلة قبل غزوة تبوك واشترك فيها. كان واثلة فقيراً. هاجر بعد

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ٦: ٣٠٠.
(٢) دراسات في الحديث النبوي ١: ١٤٠. نقلاً عن المحدث الفاصل.
(٣) تهذيب التهذيب ٦: ٥٦١.
(٤) مسند أحمد بن حنبل ٧: ٤٦٧. دراسات في الحديث النبوي ١: ١٤٢.
(٥) أسد الغابة ٥: ٣١٠.
(٦) مسند أحمد بن حنبل ٤: ٣٤٨. دراسات في الحديث النبوي ١: ١٤٢.

وفاة رسول الله ﷺ إلى الشام وبقي فيها عمره ثم توفي، وكان آخر صحابي مات فيها[١]. كان واثلة يؤكد على رواية وإبلاغ الحديث، وأيضاً كان يملي الحديث ويكتبه الحاضرون عنده[٢].

كان هذا ملخصاً لأسماء وكتب صحابة رسول الله ﷺ الذين سعوا جاهدين في كتابة وتقييد الحديث. ومجموع هذه النصوص يدل على التزام الصحابة بكتابة الحديث في حياة رسول الله ﷺ وبعد وفاته أيضاً، هذا في الوقت الذي لم يكن النظام الحاكم آنذاك يبدي ارتياحاً لكتابة الحديث ولا لنشره وروايته. ونحن نؤكد على أنه لا يوجد نص شرعي واحد يدل على حظر كتابة الحديث، وأنه لم يردنا حديث عن النبي ﷺ يمنع عن ذلك، وإلاّ فليس من الممكن تشمير كل هؤلاء الصحابة عن سواعدهم واهتمامهم بكتابة الحديث وقيام سيرتهم على العمل بما يخالف كلام رسول الله ﷺ. ثم إنه لا ريب في أن كل ما ذكره المحققون من نصوص تاريخية هو النزر اليسير من الفيض الكثير، كما أنه يدل على عدم توقف عملية الكتابة للحديث وروايته، وإلاّ لما كانت هذه الظاهرة بهذا الشكل الواسع والمتعارف والعام.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣: ٣٨٦. الإصابة ٦: ٤٦٢. مختصر تاريخ دمشق ٢٦: ٢٣٧.

(٢) سير أعلام النبلاء ٣: ٣٨٦. تقييد العلم: ٩٩ (الهامش).

منع تدوين الحديث

تبريرات وانتقادات

اتضح مما تقدم ـ ومن خلال ما ذكرنا من نصوص وأدلة ـ أن الحديث كان يدوّن في عصر رسول الله ﷺ، وأنه صلوات الله عليه كان يؤكد على كتابة الحديث، كما أن الصحابة أيضاً كانوا يكتبون الحديث، بل إن بعضهم كان يؤكد على كتابته. ومن جهة أخرى اتضح أيضاً أن كتابة وتدوين الحديث بل حتى روايته كان أمراً محظوراً بعد حياة رسول الله ﷺ، وأن بعض من كان يدوّن أو يروي الحديث ـ كما سوف يأتي ـ منعته الدولة آنذاك عن ذلك.

كما أنه اتضح أيضاً مما أسلفنا أن هذا المنع لا أساس له شرعاً، بمعنى أن المانعين عن ذلك لا دليل لهم يثبت الحظر بنص وارد عن رسول الله ﷺ، ومن هنا لم يستندوا إلى كلام رسول الله في ذلك أبداً. وكان ذلك من جملة ما اعتمدنا في إثبات هذه الحقيقة لدى نقدنا لروايات المنع؛ ليتضح عدم استقامة هذا الكلام[1].

فلنرَ كيف بدأ الحظر عن كتابة الحديث؟ وما هي جذور ذلك وكيف اتسعت رقعته؟ وكيف وجّهه الذين استحسنوا مثل هذا الأمر؟

---

(١) فصلنامه علوم حديث ٢: ٣٤.

بداية منع التدوين:

إن لظاهرة حظر كتابة وتدوين الحديث، وبعبارة أخرى: إن لعدم ضرورة كتابة وضبط كلام رسول الله ﷺ جذور ضاربة في الأذهان وفي زمان رسول الله ﷺ. فقد كانت قريش تحمل مثل هذا التصوّر ـ لأي سبب كان ـ ولم تكن تسمح بكتابة كلام رسول الله ﷺ، قال عبد الله بن عمرو بن العاص:

كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ وأريد حفظه، فنهتني قريش وقالوا: تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ بشر يتكلّم في الرضا والغضب؟! قال: فأمسكت، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: أكتب، فوالذي نفسي بيده ما خرج منه إلاّ حقّ [وأشار بيده إلى فيه][(١)].

ويعتقد بعض المحققين أن هذا المقطع من النص ـ أي قولهم: إن رسول الله بشر يتكلم في الغضب والرضا ـ هو السبب في موقف قريش حيال كلام وحديث رسول الله ﷺ، بمعنى أن هؤلاء كانوا يرون أن ما يروى من كلام النبي ﷺ إنما هو كلام يصدر في قوم عن رضا رسول الله عنهم وفي آخرين عن غضبٍ غضبه عليهم، فكان هذا الموقف عملياً نوع بُعد نظرٍ من أجل الحفاظ على موقعية ومقام جماعة، وإزالة للموانع من أجل كسب المناصب والحكم[(٢)]. وكأن هذا التحليل لا يبعد عن الصواب

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ٢: ١٦٢. تقييد العلم: ٨١ ـ ٨٨. المستدرك على الصحيحين ١: ١٨٧، [١: ١٠٦] مجلة علوم الحديث ٢: ١٧.

(٢) معالم المدرستين ٢: ٤٣. يعتقد بعض المحققين أن كلاماً من هذا القبيل في زمان رسول الله ﷺ ينشأ من بغض بعض القرشيين له، فإنهم وإن كانوا بحسب الظاهر يتظاهرون بالإسلام إلا أنهم ليسوا على اعتقاد راسخ بحسب الباطن برسول الله ودينه، فكان حسدهم وبغضهم لا يسمح لهم بانتشار اسم وحديث رسول الله ﷺ، وقد تعرّض لما ذكرناه في المتن الكاتب اللبيب السيد سعيد أيوب، انظر: معالم الفتن المجلد الاول.

كثيراً، خصوصاً مع أخذ موقف قريش من رسول الله أيام وفاته بنظر الاعتبار، وأيضاً بالنظر إلى النصوص التي تكشف عن الأغراض السياسية لتلك الحادثة.

لكن مما يذكر أن الحقيقة التي كان يعيشها الكثير من القرشيين وموقفهم تجاه رسول الله ﷺ كانت على التحديد كذلك، بمعنى أنهم لم يتمتعوا بتصور صحيح عن مكانة النبوة، ولم يكن لديهم إدراك صحيح عن أهمية ومكانة كلامه صلوات الله عليه.

عند انتقال رسول الله(ص) إلى الرفيق الأعلى:

لقد تجلّت معالم هذا النوع من التفكير مرة أخرى وبشكل غير مناسب وغريب ومؤسف عند ارتحال رسول الله ﷺ، يقول ابن عباس:

«لمّا حضرت رسول الله ﷺ الوفاة وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطّاب قال رسول الله ﷺ: ائتوني بدواة وصحيفة أكتب لكم كتاباً لا تضلوّن بعده، فقال عمر كلمة معناها أنّ الوجع قد غلب على رسول الله ﷺ، ثم قال: حسبنا كتاب الله...»[1].

لقد ذكرنا فيما تقدم قول بعضهم الوارد في روايات مختلفة:

«إن الوجع قد غلب على رسول الله...»، والذي كان المتفوّه به مجهولاً على ما في بعض النصوص الأخرى، حيث قال: «هجر رسول الله» أو «إن رسول الله يهجر»[2].

---

(١) صحيح البخاري ١: ٥٤. صحيح مسلم ٣: ١٢٥٨. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد ٦: ٥١. مسند أحمد بن حنبل ١: ٣٥٥، و٥: ٣٥١، ط ـ مؤسسة الرسالة. النص والاجتهاد: ١٥٢. صراع الحرية في عصر المفيد: ٨٨. الإيضاح: ٣٥٩. مجلة علوم الحديث ٢: ٢٨. وغير ذلك من المراجع الكثيرة.

(٢) انظر: مجلة علوم الحديث ٢: ٢٨ ـ ٢٩ (وما ذكرنا من المراجع في الهامش).

إن الموقف المذكور ـ وبلا ريب ـ كان يخطط لمرحلة ما بعد حياة النبي ﷺ، إلا أنه وقبل كل شيء كان بداية موقف صريح اتخذه أرباب السياسة في المجتمع المسلم الحديث التأسيس من أجل تثبيت دعائم السياسة والثقافة للمجتمع المسلم في المستقبل.

وعلى كل حال، فإن مع ذلك كله يمكن القول بأن ظاهرة منع كتابة وتدوين الحديث لم تكن بالشكل الحازم والجدي، وأنه لا نجد أثراً لعدم كتابة الحديث وتدوينه بشكل عملي، بل في النصوص دلالة على أن الخليفة الأول كان يكتب الحديث أيضاً. وأن العزف على وتر الحظر كان بعد كتابة وتدوين الحديث، فقد ورد في المراجع الحديثية والتأريخية أن عائشة كانت تقول:

«جمع أبي الحديث عن رسول الله ﷺ وكانت خمسمائة حديث، فبات ليلة يتقلّب كثيراً، قالت: فغمّني، فقلت: أتتقلّب لشكوى أو لشيء بلغك؟! فلمّا أصبح قال: إي بنيّة هلمّي الأحاديث التي عندك، فجئته بها، فدعا بنار فحرقها، فقلت لِمَ أحرقتها؟ قال: خشيت أن أموت وهي عندي، فيكون فيها أحاديث عن رجل قد ائتمنته ووثقت ولم يكن كما حدّثني، فأكون قد نقلت ذاك، فهذا لا يصح، والله أعلم...».

وروي أيضاً:

أن أبا بكر جمع الناس بعد وفاة نبيهم، فقال: إنكم تحدّثون عن رسول الله ﷺ أحاديث تختلفون فيها والناس بعدكم أشدّ اختلافاً، فلا تحدّثوا عن رسول الله شيئاً، فمن سألكم فقولوا: بيننا وبينكم كتاب الله، فاستحلّوا حلاله وحرّموا حرامه[1].

---

(١) تذكرة الحفّاظ ١: ٥ و٣. علوم الحديث ومصطلحه: ٣٩.

إذن، فما الذي أثار القلق لدى الخليفة الأول؟ وفي رواية أي شيء اختلف عليه الناس في الأيام الأولى من وفاة رسول الله ﷺ؟ ألم يكن هذا النص مدعاة للتأمل؟! وهل كان المطروح على بساط البحث في تلك الأيام شيء غير قضية الخلافة والإمامة؟ إن لحن كلام أبي بكر ليس إلا أنغام تناسبت مع الأنغام التي ترنم بها مَن مَنع كتابة الكتاب قبل وفاة النبي ﷺ. إن ذيل كلام أبي بكر لغريب حيث يذكّرنا بكلام رسول الله ﷺ المعجز عندما قال: «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول بيننا... يقول: بيننا وبينكم كتاب الله ـ عز وجل ـ فما وجدنا فيه من حلال استحللناه، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه، ألا وإنّ ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله»[١]. وقد روي هذا الحديث في مراجع كثيرة وعن طرق مختلفة، مما لا يبقي في نفس الفطن اللبيب شكاً بأن رسول الله ﷺ كان يرى بعين البصيرة موقف طلاّب الخلافة من بعده، فصار يدعو الناس إلى اليقظة والصحوة. وقد ذكر البيهقي هذا الحديث ـ علاوة على ما في السنن ـ وأورده أيضاً في كتابه القيّم «دلائل النبوة»، وكتب الشيخ محمد أبو شهبة بعد ذكر الحديث يقول:

الحديث ثابت من جهة النقل والرواية، ومعناه ثابت من جهة العقل والدراية، والكتاب الكريم يؤيّده، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[٢] وقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[٣][٤].

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ٤: ١٣١ و٥: ١١٦، ط ـ دار إحياء التراث العربي. سنن أبي داود ٢: ٦١٠. سنن الدارمي ١: ٩٦. سنن البيهقي (السنن الكبرى) ٩: ٥٥٦. دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة ٦: ٥٤٩. المستدرك على الصحيحين ١: ١٩١.

(٢) النحل/ ٤.

(٣) الحشر/ ٧.

(٤) دفاع عن السنة: ٢١٦.

جهود لتحريف معنى الحديث:

إن ما ذكرنا حتى الآن بمكان من الوضوح وفيه غنىً عن البيان ولا مجال فيه للشك والترديد؛ ذلك أن اللغويين فسروا الأريكة بـ: كرسي الحكم، السرير في حجلة، وقيل هو كل ما اتكئ عليه من سرير أو فراش أو منصّة، أو أنه مطلق السرير[١]، كما أن الشافعي أيضاً فسره بذلك[٢]، إذ من الواضح أن الحديث الآنف الذكر كناية عن السرير والاتكاء على مسند القدرة ودفة الحكم؛ فإن في التعبير بـ«يوشك» إشعار بسرعة تحقق هذا الشعار، وما جاء في آخر كلام أبي بكر ـ تحديداً ـ مطابق لتنبؤ رسول الله ﷺ، فإنه لم يتفوه غيره أحد ـ من حيث قرب عهده برسول الله ـ بمثل هذا الكلام، وهذا وغيره لا يدع مجالاً للشك بأن النبي كان يقصد أبا بكر في كلامه، غير أن البعض حاول جاهداً القول بأن المراد بالأريكة «أصحاب الترفّه والدعة الذين لزموا البيوت لم يطلبوا العلم من مظانّه»[٣].

ومن الواضح أن هذا التفسير بعيد عن الحقيقة، فإن التدبر في كلام رسول الله ﷺ يدل بوضوح على أن من يجلس على دفة الحكم هو الذي له قدرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن يدعو الناس للرجوع إلى القرآن في حل المشكلات والحصول على أجوبة الأسئلة، والذي يمنع من الرجوع إلى الحديث النبوي، فهل أصحاب الترف والدعة هم المتكئون على الأريكة والذين لزموا البيوت كذلك؟! إن النصوص المتعددة والمختلفة الواردة في المراجع الكثيرة المتقدمة تدل بوضوح على أن مصداق كلام

---

(١) العين ٥: ٤٠٤. النهاية ١: ٤٠١. لسان العرب ١: ١٢٢.

(٢) الرسالة: ٩١.

(٣) حكى أبو عبد الله بن محمد بن أحمد القرطبي هذا التفسير للحديث عن أحمد بن محمد الخطابي من كبار المحدثين من علماء أهل السنة (الجامع لأحكام القرآن ١: ٣٨) ووافقه عليه بعض المحققين المعاصرين وحكاه. (دفاع عن السنة: ١٠. دراسات حول القرآن والسنة: ١١٦).

رسول الله ﷺ هو رجل واحد، وذاك هو الذي يمنع من الرجوع إلى حديث رسول الله لا غير.

تفاقم ظاهرة منع الكتابة ايام خلافة عمر:

اشتد منع رواية وتدوين الحديث أيام خلافة عمر الذي وقف وبقوة حيال رواية وتدوين الحديث، هذا مع أنه كان بداية أمره مهتماً بكتابة وضبط الحديث.

وكأن المسلمين لم يحملوا بيان الخليفة الأول وموقفه من ذلك محمل الجد، فإنه مضافاً إلى موقف الإمام علي عليه السلام ومن وافقه على موقفه من الحديث هناك من اهتم أيضاً برواية الحديث وكتابته. يقول ابن سعد:

«إن الأحاديث كثرت على عهد عمر بن الخطّاب، فناشد الناس أن يأتوه بها، فلمّا أتوه بها أمر بتحريقها، ثم قال: مثناة كمثناة أهل الكتاب»[١].

استدعى عمر جملة من محدثي ورواة الكوفة إلى المدينة، منهم قرظة بن كعب، فأمرهم بالتوقف عن رواية الحديث[٢]. لذا فقد ذكروا أن قرظة لما رجع من السفر وطُولب برواية الحديث، كان يقول: بأن عمر نهانا عن ذلك[٣]، بل ذكروا أن قرظة نفسه قال:

فما حدّثت بعده حديثاً عن رسول الله ﷺ[٤].

قال الخطيب البغدادي: «إن عمر بن الخطاب بلغه أنه قد ظهر في أيدي الناس كتب فاستنكرها وكرهها، وقال:

---

(١) طبقات ابن سعد ٥: ١٤٠ (في ترجمة القاسم بن محمد بن أبي بكر).
(٢) تذكرة الحفّاظ ١: ٤ ـ ٥. المستدرك ١: ١٨٢. جامع بيان العلم وفضله ٢: ٩٨٨.
(٣) المصدر السابق ١: ٧.
(٤) جامع بيان العلم وفضله ٢: ٩٩٨.

أيها الناس إنه قد بلغني أنه قد ظهرت في أيديكم كتب، فأحبّها إلى الله أعدلها وأقومها، فلا يبقين أحد عنده كتاب، إلاّ أتاني به، فأرى فيه رأيي» قال: فظنّوا أنه يريد أن ينظر فيها ويقوّمها على أمر لا يكون فيه اختلاف، فأتوه بكتبهم فأحرقها بالنار، ثم قال: «أمنية كأمنية أهل الكتاب»[١].

وقد ورد في بعض النصوص الأخرى:

أن عمر بن الخطاب أراد أن يكتب السنن فاستشار في ذلك أصحاب رسول الله ﷺ، فأشاروا عليه أن يكتبها، فطفق عمر يستخير الله فيها شهراً، ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له، فقال: إنّي كنت أردت أن أكتب السنن، وإني ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً فأكبّوا عليها وتركوا كتاب الله تعالى، وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء أبداً[٢].

وفيما ذكرنا ـ من جهة ـ دلالة على أنه كانت بين الناس مدوّنات ونسخ كثيرة قبل أن يمنع عمر بن الخطاب كتابة الحديث. ومن جهة أخرى فإن تفكير عمر بخطر كتابة الحديث، ومخاتلته الصحابة في ذلك وعزمه بعد ذلك على المنع، وعدم استناده في ذلك المنع إلى أي دليل شرعي، كل ذلك دليل على أن عمر قد استبدّ في تنفيذ ما فكّر به وعزمه على ذلك فقط. وقد اعترف بهذه الحقيقة بعض محققي أبناء السنة، فقد كتب الشيخ محمد أبو زهو: وقد كان هذا رأياً من عمر(رض) يتناسب وحالة الناس في ذلك الوقت[٣].

---

(١) تقييد العلم: ٥٢. طبقات ابن سعد ٥: ١٨٨ (مع اختلاف يسير).
(٢) المصدر السابق: ٤٩. جامع بيان العلم وفضله ١: ٢٧٥ و٢٤٧.
(٣) الحديث والمحدثون: ١٢٦.

وهكذا كان، فقد ضرب عمر المتمرّدين عن طاعته بالسوط أو حكم عليهم بالسجن، قال عبد الرحمن بن عوف:

ما مات عمر بن الخطاب حتّى بعث إلى أصحاب رسول الله ﷺ، فجمعهم من الآفاق عبد الله، وحذيفة وأبا الدرداء وأبا ذرّ وعقبة بن عامر، فقال: ما هذه الأحاديث التي أفشيتم عن رسول الله ﷺ في الآفاق؟! قالوا: أتنهانا؟! قال: لا:! أقيموا عندي، لا والله لا تفارقوني ما عشتُ، فنحنُ أعلم نأخذ عنكم ونردّ عليكم، فما فارقوه حتّى مات[١].

وكان كما أراد، فقد رفع الكثيرون يدهم عن رواية الحديث[٢]، وهناك أيضاً غيرهم ممن كان لا يروي الحديث إلا في المواطن التي يأمن البطش فيها[٣].

يقول الشعبي:

قعدت مع ابن عمر سنتين أو سنةً ونصفاً، فما سمعته يحدّث عن رسول الله ﷺ شيئاً إلاّ هذا الحديث.

وقال أيضاً:

جالستُ ابن عمر سنةً، فلمْ أسمعه يذكُرُ حديثاً عن رسول الله.

وقال سائب بن يزيد:

---

(١) مختصر تاريخ دمشق ١٧: ١٠١.

(٢) انظر: جامع بيان العلم وفضله ١: ٢٦٨ فما بعد، باب كراهية كتابة العلم وتخليده في الصحف.

(٣) المصدر السابق: ٢٨١.

«خرجت مع سعد (رض) إلى مكة، فما سمعتُهُ يحدّث حديثاً عن رسول الله ﷺ حتى رجعنا إلى المدينة»[١].

وكان الأمر كما ذكرنا، فإن بلغ سمع السلطة أن شخصاً فعل خلاف ميلها في ذلك عوقب عليه، فقد روى الذهبي أن عمر أودع كلاً من ابن مسعود وأبي الدرداء وأبي مسعود الأنصاري السجن، وقال لهم:

إن عمر حبس ثلاثة: ابن مسعود وأبا الدرداء وأبا مسعود الأنصاري، فقال: قد أكثرتم الحديث عن رسول الله ﷺ[٢].

وبذلك اتضح أن عمر كان يمنع رواية الحديث وكتابة كلام رسول الله ﷺ، وأنه كان يؤكد ويقول: «لا تكتبوا الحديث، وأقلّوا من نقله»[٣]. وكتب في ذلك كتاباً إلى كافة البلاد بترك هذه الطريقة، فإنْ كان لشخص نسخة أو صحيفة فليمحها[٤].

منع الحديث أيام خلافة عثمان:

كان عثمان المرشح الوحيد الذي تسنى به الحكم عن طريق الشورى السداسية التي فرضها عمر، حيث وافق على أحد الشروط المهمة، أي «العمل بسيرة الشيخين»[٥]، السيرة التي لا ريب في عدم تمكنه من

---

(١) سنن الدارمي ١: ٣٢٦ و٣٢٨. سنن ابن ماجه ١: ٢٤. المحدث الفاصل، رقم (٧٣٩).
(٢) تذكرة الحفّاظ ١: ٧.
(٣) تاريخ ابن كثير (البداية والنهاية) ٨: ١٠٧.
(٤) جامع بيان العلم وفضله ١: ٢٧٥. تقييد العلم: ٥٢.
(٥) شكّل عمر آخر لحظات حياته شورى لتتكفل أمر الخلافة بعده. ولم تتمخض الشورى إلا عن تنصيب عثمان، ولم يكن ذلك ببعيد عن نظر الإمام علي الثاقب حيث قال: «حتى مضى لسبيله، جعلها في جماعة زعم أني أحدهم، فيا لله والشورى». وقد تفطن ابن عباس أيضاً إلى هذه الخدعة. وفي ذلك اليوم الشديد الذي ذل فيه العزيز مدّ عبد الرحمن يده إلى علي عليه السلام ليبايعه على أن يعمل بالكتاب=

مخالفتها وسلوك طريق غير طريقها، ولذا قال عثمان فيما يرتبط بالحديث وتدوينه وروايته: لا يحلّ لأحد يروي حديثاً لم يسمع به في عهد أبي بكر ولا عهد عمر..[١].

هذا وكأن مع كل ذلك لعل هناك نوع تسامح في خلافة عثمان بالنسبة لرواية الحديث، وأن بعض من لم يكن يتمكن من الخروج من المدينة خرج منها، وأفرج عن المحبوسين، ولكن هل كان بإمكان الجميع رواية الحديث ونقل كلام رسول الله ﷺ؟ كلا، فإنه روي أن أبا ذر كان جالساً عند الحجرة الوسطى، وكان الناس حوله يسألونه ويجيبهم، فوقف إلى جانبه رجل فقال له:

إن أبا ذرّ كان جالساً عند الجمرة الوسطى وقد اجتمع الناس يستفتونه، فأتاه رجل فوقف عليه، ثم قال: ألم تُنْهَ عن الفتيا؟

فرفع رأسه إليه، فقال: أرقيب أنت عليّ؟ لو وضعتم الصمصامة على هذه ـ وأشار إلى قفاه ـ ثم ظننْت أني أنفذ كلمة سمعت من رسول الله ﷺ قبل أن تجيزوا عليّ لأنفذتها[٢].

=وسنة رسول الله ﷺ وسيرة الشيخين، فرفض علي عليه السلام الشرط الأخير ووافق على العمل بكتاب الله وسنة رسوله وقال بأنه يعمل برأيه واجتهاده. وأما عثمان فوافق على كل ذلك، فجنى على الحق مرة أخرى وقتل، ولم يرع حق الخلافة أو يستقيم أمرخلافة الحق. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد ١: ١٨٥ ـ ١٨٨. خلافت وولايت از ديدگاه قرآن وسنت: ٢٦٦. فروغ ولايت: ٢٤٩. علي بن أبي طالب لـ «عبد الفتاح عبد المقصود» ١: ٤١١ فما بعد.

(١) الطبقات الكبرى ٢: ٣٣٦. مسند أحمد بن حنبل ٤: ٦٤ (الهامش).

(٢) الطبقات الكبرى ٤: ١٦٨. سنن الدارمي ١: ١٣٢.

لقد قررت السلطة آنذاك تبعيد أبي ذر إلى الشام ليكون تحت رحمة سيف معاوية لصراحته وكشفه للستار وفضحه للحكومة وروايته لحديث رسول الله ﷺ أمام مفسري وعلماء السلطة أمثال كعب الأحبار. إلاّ أن شيئاً من ذلك لم يتم، فقد كانت عيون معاوية تتابعه وتلاحقه في كل مكان، حتى أنهم أبلغوا الناس بعدم مجالسته. يقول الأحنف بن قيس:

أتيت الشام فجئت فإذا رجل لا ينتهي إلى سارية إلاّ فرّ أهلها، يصلّي ويخفّ صلاته، قال: فجلست إليه، فقلت له: يا عبد الله من أنت؟!

قال: أنا أبو ذرّ،

فقال لي: فأنت من أنت؟

قال: قلت: أحنف بن قيس.

قال: قم عنّي لا أعديك بشرّ.

فقلت له: كيف تعديني بشرّ؟

قال: إنّ هذا ـ يعني معاوية ـ نادى مناديه، ألاّ يجالسني أحد[1].

وأخيراً فقد كان مصير عثمان أن ابتلي بعواقب خطط لها، فلم تمض إلا أيام قلائل وإذا بمعاوية عضّ على الحكم بالخداع والمكر وأصدر حكماً كما أصدر أسلافه بمنع رواية الحديث: روى ابن عدي عن إسماعيل بن عبيدالله:

أن معاوية نهى أن يحدّث عن رسول الله ﷺ بحديث إلاّ حديث ذُكر على عهد عمر فأقرّه عمر[2].

---

(١) طبقات ابن سعد: ١٦٨.

(٢) مسند أحمد بن حنبل ٤: ٩٩، تذكرة الحفاظ ١: ٧٧.

ولكن لماذا؟ إنه نفس الكتاب الذي كان أصدره عثمان ونتيجة طبيعية لما قام به، بمعنى أن كل من يكون مع السلطة والدولة يُسمح له برواية الحديث وإلاّ فلم يسمح لأحد بذلك، فقد كتب لعبد الله بن عمر رسالة جاء فيها:

«لئن بلغني أنك تحدّث لأضربنّ عنقك»[١].

وجاء في نص آخر لعبد الله بن عمرو بن العاص قال:

«إن يريد هذا أن يمنعني أن أحدّثكم»[٢].

وهكذا فقد سار معاوية على طريق أسلافه، فإن رواية الحديث وكتابته منعت تماماً سوى أيام قلائل وهي فترة حكومة الحق وولاية علي عليه السلام حيث لم يمنع فيها ذلك عملياً ورسمياً، لكن مع هذا الفارق وهو أن الحديث في عصر بني أمية خصوصاً في عصر معاوية قد زادت رقعة خطره وجعله وتزويره، فقد سعى معاوية ـ من جهة ـ وبواسطة البيانات التي كان يصدرها إعلان مهدورية دم رواة فضائل علي عليه السلام، ومن جهة أخرى صار يعمل على وضع الحديث وجعله، وفي هذا المجال اتسعت رقعة وضع واختلاق الاسرائيليات[٣].

الأمراء ومن يحذو حذوهم:

ذكرنا أن بعض الصحابة لم يتأثروا بالحظر المذكور للحديث، وكانوا يبادرون إلى نشر الحق وروايته في كل فرصة تسنح لذلك. مما يذكر بهذا الصدد أيضاً أن الجهاز الحاكم كان يسمح برواية الحديث للأمراء خاصة،

---

(١) وقعة صفين: ٢٢٠. الغدير في الكتاب والسنة والأدب ١٠: ٣٥٢.

(٢) الغدير ٤: ٤٨٦، نقلاً عن المستدرك. الاسرائيليات وأثرها في التفسير: ١٥١. نقلاً عن مسند أحمد بن حنبل ١٠: ٩١.

(٣) سوف نشير إلى جميع ذلك خلال البحث عن آثار منع التدوين.

وسبب ذلك واضح، كما أنه كان يسمح بذلك لمن يحذو حذو الأمراء ويرقص على نغمات عزفهم. قال عمر لشخص ـ [وكأنه ابن مسعود] ـ وكان يفتي الناس ويروي الحديث[١].

ولما سئل عبد الله بن عمر عن ذلك، قال: اذهب إلى هذا الأمير، الذي تقلّد أُمور الناس ووضعها في عنقه[٢].

وكان هشام بن عروة يقول أيضاً: هذا من خاص السلطان.

وكان زيد بن ثابت يعتقد أيضاً بأن بعض الفتاوى في قسم من الأمور مختصة بمعاوية[٣].

مضافاً إلى ذلك كله، فإن الجهاز الحاكم كان قد سمح بالفتوى ورواية الحديث لجماعة فقط، منهم: عائشة[٤]، فقد كانت تتمتع عائشة ولأسباب خاصة بحق الفتوى إذ كانت محوراً لذلك[٥]، ولذلك كان جماعة منهم زيد بن ثابت يحسدها على ذلك.

وكان زيد بن ثابت صريحاً في توجهه ونهجه مع الجهاز الحاكم آنذاك، فقد لعب دوراً في ترسيخ دعائم الدولة، يقول ابن الأثير فيه:

كان زيد عثمانياً، ولم يشهد مع علي شيئاً من حروبه[٦].

وقيل فيه أيضاً:

---

(١) المصنف ٨: ٣٠١ و١١: ٣٢٨. أخبار القضاة ١: ٨٣. الصحيح من سيرة النبي الأعظم ١: ٧٩.
(٢) التراتيب الادارية (نظام الحكومة النبوية) ٢: ٣٦٧.
(٣) الصحيح من سيرة النبي الأعظم: ٧٨ ـ ٨٠.
(٤) طبقات ابن سعد ٤: ١٨٩.
(٥) مسند أحمد بن حنبل ٥: ١٨٥.
(٦) أسد الغابة في معرفة الصحابة ٢: ٣٤٨.

وكان زيد بن ثابت عثمانياً يحرّض الناس على سبّه عليه السلام[١].

وكان من الطبيعي أن يتسنّم مسند القضاء والإفتاء، فكان رئيساً للقوة القضائية والفتوى والقراءة في عهد عمر وعثمان[٢].

ومن هنا كان عبد الرحمن بن عوف مجازاً في رواية ما سمعه عن رسول الله صلى الله عليه وآله والإفتاء على ضوئه[٣].

وكان أبو موسى الأشعري أيضاً يمتاز بذلك[٤].

أبو هريرة أيضاً رغم أن عمر لم يسمح له في بداية الأمر برواية الحديث[٥] لكنه سمح له فيما بعد[٦].

وهكذا فقد بقيت رواية الحديث وتدوين مآثر رسول الله صلى الله عليه وآله في بوتقة الحظر، ومنع الحكام والولاة الناس من رواية وتدوين الحديث عدا أيام خلافة علي عليه السلام.

ولم يستطع رواية الحديث والإفتاء سوى جماعة قليلة ممن وافق الحكومة في رأيه وعمله، كما أن عدّة نفر رووا الحديث واهتموا بتدوينه ولم يأبهوا بالجو الحاكم وأوامر الحكومة.

توجيهات وتبريرات

ولننظر الآن ما هو السبب الذي دعا أولئك الذين شمروا عن

---

(١) بحار الأنوار ٣٤: ٢٩٦.
(٢) الصحيح من سيرة النبي الأعظم (نقلاً عن حياة الصحابة ٣: ٢٨٨). الطبقات الكبرى ٤: ١٧٥.
(٣) حياة الصحابة ٣: ٤٩٦. نقلاً عن الطبقات الكبرى ٢: ٣٤٠.
(٤) مسند أحمد بن حنبل ٤: ٥٣٤، ح ١٩٠١١.
(٥) سير أعلام النبلاء ٢: ٦٠٠ فما بعد.
(٦) المصدر السابق: ٦٠٣. السنة قبل التدوين: ٤٥٨. الصحيح من سيرة النبي الأعظم ١: ٨٤.

سواعدهم للعمل بالنهي عن كتابة الحديث وتدوينه، وما هو التوجيه الذي يمكنهم به تبرير فعلهم ذلك؟ وبعبارة أخرى: ما هي التبريرات التي سعى كل من عمل جاهداً توجيه هذا النوع من الحظر بها؟

اختلاط الصحيح بالسقيم:

ذكرنا أن أول من رفع شعار منع رواية الحديث هو أبو بكر، فقد جاء في ذيل كلام له مع عائشة أنها قالت:

«فقلت: لم أحرقتها؟ قال: خشيت أن أموت وهي عندي، فيكون فيها أحاديث عن رجل قد ائتمنته ووثقت به ولم يكن كما حدّثني، فأكون قد نقلت ذاك. فهذا لايصح».

وفي كلام للخليفة الأول أيضاً قاله في ملأ من الناس:

إنكم تحدّثون عن رسول الله ﷺ أحاديث تختلفون فيها، والناس بعدكم أشدّ اختلافاً فلا تحدّثوا عن رسول الله ﷺ شيئاً، فمن سألكم فقولوا: بيننا وبينكم كتاب الله، فاستحلّوا حلاله وحرّموا حرامه.

فإن كان ما روي حقاً من كلام الخليفة الأول فهو عجيب حقاً، وإن كان من اصطناع أصحاب التبرير أضافوه إلى كلامه فهو أعجب.

نقد هذه الرؤية:

قالت عائشة: «بات أبي ليلة يتقلّب، ولمّا أصبح قال: كذا....

السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو أن الخليفة الأول إذا لم يكن يشعر بارتياح لما أخذه وسمعه عن الآخرين، فلماذا أحرق الجميع؟ ولماذا أحرق

بعض ما رواه هو بنفسه مباشرة ودون واسطة؟ وهل يمكن تصديق أن الكثير من روايته كانت مع الواسطة مع ما يدّعيه من القرب لرسول الله ﷺ؟! هذا مضافاً إلى أنه كان يقول بأنه يخشى الوثوق برواية هؤلاء خوفاً من أن تكون روايتهم للحديث غير صحيحة، والسؤال المطروح هو أن الكذب في الخبر والسهو في النقل هل يسقطانه عن الحجية رأساً؟ أليس مفاد هذا الكلام سقوط خبر الثقة عن الحجية؟ وحينئذٍ لا يمكن التعويل على ما في حوزتنا من أخبار، وأنه لا بدّ من النظر إلى تلك الأخبار بعين الشك والترديد. وهل ما ذكرناه وأثبتنا به كتابة حديث رسول الله ﷺ في حياته صلوات الله عليه وأنه ﷺ كان يأمر بذلك، هل كان يعلم به الخليفة الأول أم لا؟ أليس هذا نوعاً من المواجهة لموقف رسول الله من الحديث؟

ثانياً: إن كلام أبي بكر هذا لو وافق عليه مؤيدوه يلزم منه إسقاط الصحاح والمسانيد رأساً عن الحجية، لوجود احتمال الخلل في جميع الأخبار، فكأن الخليفة لا علم له بسيرة العقلاء والمسلمين القائمة على العمل بخبر العادل والثقة، كما أنه لا يعلم أن النبي ﷺ كان يعتمد على تلك الإخبارات في حروبه و... وأنه كان يتثبّت في خصوص خبر الفاسق فقط.

إن من الطريف أن الخليفة كان يحتمل في كل إخبار الكذب وعدم الصحة مع أنه كان يروي كل ذلك عن الصحابة، في حين أن أمثال أبي حاتم الرازي وابن حجر العسقلاني وغيرهم... يعتبرون الصحابة كلهم عدولاً وأنه لا يجوز في حقهم الكذب أو التشكيك في مروياتهم[1].

فالأمر في حق الصحابة كما أخبر به ابن الأثير حيث قال:

اتفّق أهل السنة على أن الجميع عدول... ولا

---

(١) الجرح والتعديل ١: ٧. الإصابة ١: ١٦٢.

يحتاج أحد منهم مع تعديل الله إلى تعديل أحد من الخلق..[1].

وحينئذٍ تكون شهادات القوم في حق الصحابة كلها معارضة لكلام الخليفة الأول، وكأنه كان يعرف الصحابة أفضل من ابن حجر و...!!.

هذا، مضافاً إلى أن الخليفة كان شاكاً في كل ما في حوزته من أخبار، وأن شكه هذا يسقط الحديث ـ في نظره ـ عن الحجية والاعتبار، فكيف يكون هذا الأمر في رأي الآخرين؟ هل إن مجرد الشك في حجية ذلك يبرر موقفه من تلك الثروة التي تركها رسول الله ﷺ حين قام الخليفة بإحراقها؟ لقد كان بإمكان الخليفة السماح برواية الأحاديث وعدم الحياد عن رأيه في تلك الأخبار، هذا كله مضافاً إلى ما ذكرناه مراراً من أنه لا يوجد أيّ دليل شرعي يسمح بحظر كتابة الحديث وروايته.

ويمكن أن يكون الداعي لكلام الخليفة وتفوهه بمثل: «لا تحدّثوا عن رسول الله» وتأكيده على قول القائل «حسبنا كتاب الله» هو اختلاف الناس في الرواية.

والجواب عليه أولاً: إن رسول الله ﷺ عندما أمر بكتابة ورواية الحديث وبعث المنذرين والمبشرين في كافة البلاد كان على علم باختلاف الرواية والأنظار، ولذا كان يؤكد على الصدق في الحديث ويحذّر من الكذب، فلماذا خالف الخليفة سيرة رسول الله في ذلك؟ بعدما كان بإمكانه أن يدعو الرواة ويحثّهم على الصدق في الرواية، وأيضاً كان بإمكانه أن يأمر بتشكيل لجنة تدرس الأحاديث وتضعها في ميزان يكون في كفته الأخرى أحاديث صحيحة أخرى، علماً بأن الناس لم يتفرّقوا بعد وكان الوضع العام يساعد على القيام بذلك.

---

(١) أسد الغابة ١: ١١٠.

وثانياً: ما الذي كان كتبه الخليفة؟ هل كان كلاماً ناقصاً لا ربط له بحياة الإنسان ولا بالأحكام الإلهية؟ إن من البعيد أن يكون الأمر كذلك، بل كان في الكثير منه أحكام وقضايا ترتبط بحياة الإنسان وأنها رويت عن رسول الله ﷺ، فلماذا أتلفها جميعاً، أو أمر بإتلافها؟

وأخيراً فمن العجيب ما في ذيل كلامه حيث قال: «بيننا وبينكم كتاب الله»، وهذا ما أكثرنا الحديث فيه، فلنترك البحث فيه الآن ونخوض في الكلام السامي والخالد لرسول الله ﷺ ألا وهو حديث الثقلين الذي صرح فيه بعدم انفكاك الكتاب عن السنة وأن هذا الترابط مما لا ينكر، ونحن نكتفي في المقام بالإشارة إلى أهمية السنة بنقل كلام أحد الصحابة حيث انتقد نظرية «حسبنا كتاب الله»، كان عمران بن الحصين[١] بينما عمران بن حصين يحدّث عن سنة نبيّنا ﷺ إذ قال له رجل: يا أبا نجيد، حدّثنا بالقرآن!

فقال له عمران: أنت وأصحابك تقرأُون القرآن، أكنت محدّثي عن الصلاة وما فيها وحدودها، أكنت محدّثي عن الزكاة في الذهب والإبل والبقر وأصناف المال؟ ولكن قد شهدت وغبت أنت، ثم قال: أفرض علينا رسول الله ﷺ في الزكاة كذا وكذا، وقال الرجل: أحييتني أحياك الله[٢].

وجاء في نص آخر: فقال عمران بن الحصين:

إنك رجل أحمق، أتجد الظُهر في كتاب الله أربعاً لا يُجهر فيها بالقراءة، ثم عدّد عليه الصلاة والزكاة

---

(١) صحابي أسلم عام فتح خيبر، وكانت بيده يوم فتح مكة راية خزاعة، توفي عام ٥٢هـ.ق، في البصرة (أسد الغابة ٤: ٢٨٤. سير أعلام النبلاء ٢: ٥٠٨. الطبقات الكبرى ٤: ٢٨٧. موسوعة عظماء حول الرسول ٢: ١٣٨٨).

(٢) الكفاية في علم الرواية: ٤٨. المستدرك على الصحيحين ١: ١٠٩.

ونحو هذا، ثم قال: أتجد هذا في كتاب الله مفسّراً، إن كتاب الله تعالى أبهم هذا، وإن السنة تفسّر هذا[١].

وأعتقد أننا في غنى عن الخوض في هذا البحث مفصّلاً لوضوحه، كما أني أستبعد عدم التفات الخليفة إلى هذه النقطة وغيرها من النقاط، ولذا فإنه لا ريب في أن الذي أقلق أبي بكر وجعله يفكر فيه إلى الصباح وأسهره لا بد أن يكون أمراً وسرّاً آخر، وهذا ما سنتحدث عنه لاحقاً[٢].

النهي عن ترك القرآن والاشتغال بغيره:

قال المانعون عن تدوين الحديث في تبرير النهي المزعوم والمدافعون عن أعمال المانعين: إن النهي عن الحديث رواية وكتابة لا يتعدّى كونه إطاراً من أجل صيانة الساحة المقدسة للقرآن والحديث عن الاندراس، بحيث لا تشتغل الأمة بغير القرآن أو تعرض عنه مما يؤدي إلى التقليل من مكانة القرآن الرفيعة وتحول الأذهان والألسنة نحو الحديث.

قال الخليفة الثاني في موضع من كلامه وذكرنا بعضه سابقاً:

... إني كنت أردت أن أكتب السنن، وإني ذكرتُ قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً فأكبّوا عليها، وتركوا كتاب الله تعالى، وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء أبداً[٣].

وقد وافق بعض العلماء والمحدثين على هذا التبرير الذي وجّه به الخليفة حظره لكتابة الحديث، فقال الخطيب البغدادي:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١: ٣٩. الموافقات في أصول الشريعة ٤: ٢٦.

(٢) سوف نشير إلى هذا الموضوع في بحث آخر. انظر: مجلة ميراث جاودان، العدد: ٣٣: ١١ ـ ١٢ فما بعد، عنوان المقال: «تاريخ تفسير».

(٣) تقييد العلم: ٤٩. جامع بيان العلم وفضله ١: ٢٧٤. المصنف ١: ٢٥٧. ورد في بعض النصوص إن ذيل الحديث: «والله لا أشوب كتاب الله بشيء أبداً».

فقد ثبت أنّ كراهة مَن كره الكتاب من الصدر الأوّل إنّما هي لئلاّ يُضاهى بكتاب الله تعالى غيره أو يشتغل عن القرآن بسواه[١].

وممن وافق على التوجيه المذكور الدكتور نور الدين عتر، قال:

«العلّة التي تصلح لذلك في اختيارنا هي خوف الانكباب على درس غير القرآن، وترك القرآن، اعتماداً على ذلك»[٢].

وقد ذكر السيد ضياء العمري أيضاً ضمن حديثه عن بعض التبريرات هذه الرؤية ونسبها أيضاً إلى «الرامهرمزي»[٣].

ولكن لما كانت سنّة رسول الله ﷺ مفسرة ومبيّنة للقرآن فهل يمكن مع ذلك تصور أن يكون العمل بالسنّة مانعاً عن القرآن والعمل به أو طرحه في زاوية النسيان؟ انها كلمة حق يراد بها باطل، إذ إن التأكيد على العمل بالقرآن ضمن هذه السياسة ليس شيئاً سوى إبطال السنّة باللحاظ الذي سوف نذكره لاحقاً. أليست السنّة عدلاً للقرآن؟ ألم يرد عنه صلوات الله عليه أنه قال: «أُوتيت القرآن ومثله معه»، وأن شطراً كبيراً منها وارد في الترغيب لفهم القرآن وفي إطار فهم مطالبه وكيفية الحصول على طرق ترشد إلى الأخذ بتعاليمه؟ فهل يكون من أخذ بذلك قد أعرض عن القرآن أو تعدّى السنّة بفهمه للقرآن؟ وهل يصدق هذا الكلام في حق من بلغ بالصحابة إلى درجة العصمة وأثبت عدالتهم جميعاً ولم يجوّز عليهم الخطأ والاشتباه؟ وهل أن هؤلاء تركوا القرآن؟ بمعنى هل إنهم كانوا يرتكبون الحرام الصريح

(١) المصدر السابق: ٥٧.
(٢) منهج النقد في علوم الحديث: ٤٣.
(٣) بحوث في تاريخ السنة المشرفة: ٢٩١.

والقطعي؟ أليس في الاعتقاد بذلك طعن على الصحابة؟ وهل يمكن تصوّر كون الصحابة بعملهم بالحديث قد أعرضوا عن القرآن، ولا ريب أن من بينهم من أعار قلبه للحق واتبع القرآن واستقام فكره، وهم ليسوا بالقلائل؟! وهل كان التابعون لهم كذلك؟ أليس في ذلك نوعاً من الإهانة للمسلمين؟

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾[١].

تدبر في كلام:

ذكرنا إلى ههنا أدلة سيقت لتوجيه منع التدوين وإتلاف ما دوّن من نسخ حديثية، ومن جهة أُخرى فإن من جملة تبريرات منع كتابة الحديث وروايته على تعدد نصوصه واختلاف عباراته ـ ما ورد عن الخليفة الأول كما في بعض النصوص انه قال بعد إحراق نسخ الحديث: «مشناة كمشناة أهل الكتاب»، وفي بعض المراجع ورد: «مثناة كمثناة»، ويعتقد المحققون أن الصحيح هو ما ذكرنا، أي: «مشناة» لا «مثناة»[٢].

فكيف ورد هذا العنوان في الثقافة اليهودية؟

ينقسم علماء اليهود في تقسيم أولي عام إلى «قرّائين» و«ربانيين»، وقد عرف القسم الأول بهذه الخصيصة وهي أنهم يعتقدون بالكتابة ولا يعرفون مصدراً للمعرفة سوى التوراة.

وعلى العكس منهم أصحاب القسم الثاني الذين يعتقدون بضرورة الكتابة والتدوين. وما يعبّر عنه بـ«التلمود» هو عبارة عن نسخة فيها روايات يعتقدون أنها كالتوارة. والتلمود مجموعة روايات يقال لها «المشناة»، وشرح ذلك يعبّر عنه بـ«الجمار»، وحيث إنها جمعت في موضع واحد

---

(١) الكهف/ ٥.

(٢) الصحيح من سيرة النبي الأعظم ١: ٥٩، بحوث مع أهل السنة والجماعة: ٩٧. الإسلام عقيدة وشريعة: ٤٩٢.

سميت بـ«التلمود»[١]. وحينئذٍ ـ وكما احتمل ذلك بعض المحققين[٢] لا يبعد أن تكون عقيدة الخليفة ورؤيته ـ أي عدم كتابة شيء سوى كتاب الله تعالى ـ مستقاة من كعب الأحبار الذي كان له علاقة متينة مع الخليفة، والذي كان يعتبره الخليفة أحد حلاّلي العقد الفكرية، وأحد المجيبين عن أسئلته، ومن هنا فهو يعتقد أن الأحاديث لا بد أن تبقى في الصدور ولا يكتب منها شيء؛ ولذلك رفع شعار «مشناة كمشناة أهل الكتاب»، ومن هنا عبر عن موقفه ذلك، فمنع الكتابة والرواية من الأساس.

النقطة الأخرى التي يمكن الوقوف عندها في كلام الخليفة هي جعل السنة الشريفة لرسول الله ﷺ كـ«مشناة اليهود» التي كانت عبارة عن نصوص وتفسيرات لعلماء اليهود وليست كلاماً موحى به، ولذا فإن «القرّاء» يعتبرون ذلك من وضع وجعل فقهاء بني إسرائيل، ولم يعطوهم حق كتابة ذلك لئلاّ يكون مصدراً ومرجعاً قبال كتاب الله. فهل يعترف الخليفة بهذه المشاكلة ويعطي كلام رسول الله ﷺ هذه المكانة؟ وأخيراً كيف يرى ضرورة الكتابة والتدوين؟[٣] أو إنه كان يرى أن رواية حديث رسول الله ﷺ واتساع رقعته في المجتمع يسبب مشاكل لجهاز الحكومة مما ساقه إلى اختلاق ذلك؟

هذا الأمر حري بالتأمل، وسوف نشير إليه لاحقاً. ونضيف إلى ذلك أن مصطلح «السنة» مصطلح معروف وواضح لدى المسلمين في أنه مختص

---

(١) تاريخ تمدن (ويل دورانت) ٢: ٦٧٥. مدى سلطان الإرادة في الطلاق في شريعة السماء وقانون الأرض ١: ١١٠. جهان مذهبي ٢: ٦٠٢. بحوث مع أهل السنة والجماعة: ٩٧ (نقلاً عن الفكر الديني الاسرائيلي: ٧٩).

(٢) الصحيح من سيرة النبي الأعظم ١: ٢٧ (الهامش من الطبعة الأولى). بحوث مع أهل السنة والجماعة: ٩٧.

(٣) صرّح بعض المحققين بعقيدة عمر بالنسبة إلى سنة رسول الله ﷺ. انظر: التاريخ السياسي للإسلام (تاريخ الخلفاء): ٨٢.

بحديث رسول الله ﷺ، وحينئذٍ فالتعبير المذكور للخليفة وتطبيقه مع السنة كان مما طرحه الخليفة الثاني ولأول مرة[١].

أكتاب يوازي كتاب الله تعالى؟!

حاول بعض المانعين عن التدوين في تبرير كلامهم تارة بقولهم إن هذا المنع والحظر كان بلحاظ تنزيه كتاب الله عن كلام مَن سوى الله تعالى لئلاّ يكون هناك كتاب آخر يجري على ألسنة الناس ويرسخ في الأذهان غير كتاب الله، فقد ذكروا أنه ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال بعد النهي المذكور:

أكتاب مع كتاب الله؟ امحضوا كتاب الله وأخلصوه[٢].

ونحن لا نستبعد صدور مثل هذا الكلام لكننا نعتقد أن رسول الله قال ذلك من أجل حفظ كتاب الله تعالى من الأفكار الدخيلة، كما أنه أكّد ضرورة ذلك كي لا يكون أي كتاب آخر عدلاً له ولو كان من الكتب السماوية السابقة.

وبعبارة أخرى: هناك قرائن وشواهد كثيرة تدل على عثور جماعة من الصحابة على حديث أو أحاديث من التوراة و... حتى أنهم كانوا يبهرون بذلك ويروون أموراً كان قد عرفها رسول الله ﷺ ومنع من روايتها، ومن ثم أكد على النكتة المذكورة وهي أنه لا كتاب يعادل كتاب الله[٣]، ونذكر هنا نماذج لذلك:

قال عبد الله بن ثابت الأنصاري: ـ خادم النبي ﷺ ـ:

---

(١) الإسلام عقيدة وشريعة: ٤٩٢. السنة النبوية وعلومها: ١٨.
(٢) تقييد العلم: ٣٤.
(٣) المصنف ١٠: ٣١٣، عن جابر. مسند أحمد بن حنبل ٤: ٣٧٦.

«جاء عمر بن الخطّاب إلى النبي ﷺ ومعه (جوامع من التوراة) فقال: مررت على أخ لي من قريظة فكتب لي جوامع من التوارة أفلا أعرضها عليك؟! فتغيّر وجهُ رسول الله ﷺ، فقال [الأنصاري]: أما ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟! فقال عمر رضيت بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمّد رسولاً.

فذهب ما كان بوجه رسول الله ﷺ، فقال ﷺ:

والذي نفسي بيده لو أنّ موسى أصبح فيكم ثم اتبعتموه وتركتموني لضلَلْتم، أنتم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين[١].

وورد في نص آخر:

«نَسخَ عُمرَ كتاباً من التوراة بالعربية، فجاءَ به إلى النبي ﷺ فجَعَلَ يقرأ ووجه رسول الله ﷺ يتغيّر، فقال رجل من الأنصار: ويحك يا ابن الخطاب ألا ترى وجْهَ رسول الله ﷺ؟! فقال رسول الله: لا تسألو أهل الكتاب عن شيء، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلّوا، وإنكم إمّا أن تكذبوا بحق أو تصدّقوا بباطل، والله لو كان موسى بين أظهركم ما حلّ له إلاّ أن يتبعني»[٢].

وورد في نص آخر:

---

(١) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ١٠: ٤٢٠.

(٢) المصدر السابق: ٤٢١.

«إن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتابٍ أصابه من بعض أهل الكتب، فقرأه على النبي ﷺ، فغضب وقال: «أمتهوّكُون فيها يا ابن الخطّاب، والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقيّة، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكُم بحق فتكذّبوا به، أو بباطل فتصدّقوا به، والذي نفسي بيده، لو أنّ موسى كان حيّاً، ما وسعه إلاّ أن يتبعني»[١].

وجاء في نص آخر عن عمر أنه قال:

انطلقت أنا فانتسخت كتاباً من أهل الكتاب، ثم جئتُ به في أديم، فقال لي رسول الله ﷺ: ما هذا في يدك يا عمر؟ قال: قلت: يا رسول ﷺ كتاب انتسخته، لنزداد به علماً إلى علمنا، فغضب رسول الله ﷺ حتّى احمرّت وجنتاه، ثم نودي بالصلاة جامعة! فقالت الأنصار: أغضب نبيكم ﷺ: السّلاح، السّلاح، فجاؤوا حتى أحدقوا بمنبر رسول الله ﷺ، فقال: أيها الناس إني أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه، واختصر لي اختصاراً، ولقد أتيتكم بها بيضاء نقيّة، فلا تتهوّكوا ولا يقربكم المتهوّكون[٢].

والنصوص في ذلك كثيرة، وقد وردت في مصادر عديدة[٣]، وهي

---

(١) المصدر السابق: ٤٢٠، مسند أحمد بن حنبل ٣: ٣٨٧ = (٢٣: ٣٤٩).

(٢) المصنف ١٠: ٤١٩. تقييد العلم: ٥٢. وانظر أيضاً: جامع بيان العلم وفضله ٢: ٨٠٦.

(٣) انظر النصوص الواردة في هذا الشأن في كل من: المصنف ١٠: ٤١٩، فما بعد. و٩: ٤٧. جامع بيان العلم وفضله ٢: ٨٠٥. النهاية في غريب الحديث والأثر (ابن الأثير) ٥: ٢٨٢. لسان العرب ١٢: ٤٠٠. مجمع الزوائد ١: ٤١٩. مسند أحمد بن حنبل ٤: ٣٧٦. سنن الدارمي ١: ٧٨. حجية السنة: ٣١٧.

تدل من جهة على أن المجتمع المسلم آنذاك كانت ثقافته متخالطة بالفكر الدخيل، ومن جهة أخرى فإنها ظاهرة في أن كل من نظر فيها بهت وصار يعمل بها، فكلام رسول الله ﷺ في الحقيقة عبارة عن المنع من اختلاط القرآن مع أي شيء آخر بحيث لا يكون عدلاً ومساوياً للكتاب الله، وليس ذلك أمراً بالمنع عن كتابة الحديث.

وبالطبع فإن الخليفة كان يشعر ويعيش تلك الظروف والأحوال أكثر من غيره، لذا فنحن نعتقد أنه ليس من البعيد أن يكون الخليفة متأثّراً بأفكار اليهود في قضية عدم كتابة الحديث.

التباس القرآن بالحديث:

أحد التبريرات وأقدمها في قضية منع الكتابة أو عدم التدوين هو الحيلولة دون امتزاج القرآن والتباسه بالحديث، بمعنى أن كتابة الحديث لو صارت متعارفة ورائجة ـ كما ظنّه جماعة أو حاولوا إفهام الناس ذلك ـ لخلط الصحابة وعامة الناس القرآن بالحديث جرّاء عملية التدوين، ولصارت عملية فرز القرآن ومعرفة متنه عن الحديث صعبة، ولزالت هذه المعجزة الخالدة للقرآن، فقد ورد ذيل عبارة لعمر بن الخطاب في كلمة قالها عندما أمر بإتلاف نسخ الحديث وإحراقها، قال:

...وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيءٍ أبداً[١].

وبناءً على هذا النقل فإننا نجد تبرير هذا الكلام في عبارةٍ لأبي سعيد الخدري عندما طولب بكتابة حديث أو إملاء حديث: لا نكتبكم، ولا نجعلها مصاحف[٢].

---

(١) تقييد العلم: ٤٩، حجية السنة: ٣٩٥.

(٢) تقييد العلم: ٣٦.

أو قال:

«أتجعلونها مصاحف، أو تريدون أن تجعلوها مصاحف»[١].

أو قال:

«لَنْ نكتبكم، ولَن نجعله قرآناً»[٢].

وقد علّق حسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي على أحد أقوال أبي سعيد التي تدل على منع الكتابة للحديث وحظرها بقوله:

«وحديث أبي سعيد... أحسب أنه كان محفوظاً في أول الهجرة وحين كان لايؤمن الاشتغال به عن القرآن»[٣].

ويعتقد الخطيب البغدادي أيضاً كذلك، أى عدم الكتابة كان في صدر الإسلام أو ان الأحاديث الدالّة على الاعتقاد السائد يومئذٍ القائم على عدم التدوين يقول:

قد ثبت أن كراهة من كره الكتاب من الصدر الأوّل، إنّما هي لئلاّ يضاهى بكتاب الله تعالى غيره...ونهي عن كتب العلم في صدر الإسلام وجدّته لقلّة الفقهاء في ذلك الوقت والمميزين بين الوحي وغيره...فلم يؤمن أن يلحقوا ما يجدون من الصحف بالقرآن ويعتقدوا أن ما اشتملت عليه كلام الرحمن[٤].

---

(١) المصدر السابق: ٣٧. جامع بيان العلم ١: ٢٧٣.
(٢) المصدر السابق: ٣٨. سنن الدارمي ١: ٨٣، ح٤٧١.
(٣) المحدث الفاصل بين الراوي والواعي: ٣٨٧.
(٤) تقييد العلم: ٥٧.

وكتب ابن صلاح أيضاً ـ بعد أن أورد نصوصاً تجيز كتابة الحديث ـ يقول في مقام الجمع بين تلك الروايات وروايات المنع:

...أو نهى عن كتابة الحديث حين خاف عليهم اختلاط ذلك بصحف القرآن العظيم..[١].

وكتب الدكتور صبحي الصالح أحد المحققين المعاصرين أيضاً يقول:

... فنهى الرسول ﷺ عن كتابة الأحاديث أوّل نزول الوحي مخافة التباس أقواله وشروحه وسيرته بالقرآن[٢].

لقد استخدموا التوجيه المذكور في تعليل أحاديث النهي عن الكتابة من جهة، وفي توجيه عدم الكتابة في القرن الأول والنهي عنها من لدن الخلفاء من جهة أخرى، فلنرَ ممّ يستمدّ هذا التوجيه كل هذه المتانة والصحة؟!

نقد وإبطال:

إن القرآن الكريم ومن دون شك قمة الفصاحة والبلاغة، وكما أنه لا يضاهيه نظير أو عدل على الإطلاق مهما كان ذلك الكلام، وهذه الحقيقة أوضح من أن تبيّن أو يؤكد عليها، ومن هنا فإن قضية التباس القرآن بالحديث وعدم إمكان تمييز أحدهما عن الآخر باطلة من الأساس، وقد أشار إلى نقد وزيف هذه الحقيقة جماعة من المفكرين منهم محمود أبو ريّة، قال:

وقد ذكروا أن نهي النبي ﷺ عن كتابة حديثه

---

(١) مقدمة ابن الصلاح: ٣٨٧ (تحقيق بنت الشاطىء). علوم الحديث: ١٨٢ (تحقيق نور الدين عتر).
(٢) علوم الحديث ومصطلحه: ٢٠.

إنمّا كان لخوفه من اختلاط الحديث بالقرآن، وهو سبب لا يقتنع به عاقل عالم، ولا يقبله محقق دارس، اللهم إلاّ إذا جعلنا الأحاديث من جنس القرآن في البلاغة، وأن أسلوبها في الإعجاز من أسلوبه، وهذا ما لا يقرّه أحد حتّى الذين جاؤوا بهذا الرأي؛ إذ معناه إبطال معجزة القرآن وهدم أصولها من القواعد(١).

وكتب العالم الفقيد والمحقق العلاّمة هاشم معروف الحسني يقول:

إن الذين يحاولون أن يعتذروا عنه [عمر بن الخطاب] ويقرّون المرويات التي تنصّ على أنه خاف أن يختلط الحديث بالقرآن، هؤلاء يسيئون إليه من حيث لا يقصدون؛ لأنّه لم يكن قصير النظر، ولا محدود التفكير، ولا جاهلاً بأساليب البيان وبلاغة القول، ويعلم جيداً أن القرآن قد استولى على النفوس، وتحكّم بمشاعرهم وأحاسيسهم، وكانَ له الأثر البالغ في سير الدعوة وانتشارها، هذا بالإضافة إلى وجود الفوارق الكثيرة بين الأسلوبين التي لا تخفى على أحد منهم(٢).

فلا بد من التساؤل بأن قبول هذه النظرية والتسليم بها ألا يعني قبول وجود عدل للقرآن أم لا؟ وهل التسليم بذلك ينتهي بنا إلى القول بإمكان تحريف القرآن؟ هناك رأي يذهب إلى أن هذا الأمر باطل قطعاً لمعارضته

(١) أضواء على السنة المحمدية: ٥١.
(٢) دراسة عن الحديث والمحدثين: ٢٣.

وتضاده مع الوعد الإلهي بحفظ آيات القرآن وما بين الدفتين، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[١].

الأمر الآخر هو أن الخوف من التباس القرآن بالحديث كان يخالج الصدور، فهل ينحصر طريق ذلك بعدم تدوين الأحاديث والتفريط بها وإلقاء سنة رسول الله ﷺ لقد قال: «امحضوا كتاب الله واخلصوه»[٢]. كما أنه قد نفّذ هذا الكلام بعد قضية منع الحديث وحصل الميز بين الحديث والقرآن ولم تحصل أية مشكلة. نعم، هناك جماعة أكّدوا في ذلك الوقت ـ أي وقت تدوين الحديث ـ على هذه النقطة، فامتنعوا عن كتابة الحديث إلى جانب القرآن. فقد ذكر المحدثون أن إبراهيم بن يزيد النخعي كان يكره كتابة الحديث على نسخ فيها القرآن[٣].

وقد نهى الضحاك بن مزاحم الهلالي (م ـ ١٠٥) عن كتابة الحديث في نسخ كتب عليها القرآن، وكان يقول:

لا تتخذوا كراريس، ككراريس المصاحف[٤].

بناء على ذلك يكون القرآن في أمان من التزوير، وأيضاً يكون الحديث محفوظاً ولم يفّرط فيه، وحينئذٍ فالأمر كما وصفه السيد هاشم معروف الحسني حيث قال:

فقد كان بالإمكان لو كانت النوايا طيبة، التفرّغ إلى جمع الحديث وتدوينه بعد تدوين القرآن الكريم والتثبّت من إحصائه في مجموعة واحدة بواسطة

---

(١) الحجر/ ٩.
(٢) مسند أحمد بن حنبل ٣: ١٢. تقييد العلم: ٣٤.
(٣) تقييد العلم: ٤٨. سنن الدارمي ١: ٨٢.
(٤) المصدر السابق: ٤٧.

لجنة مختارة من الأمناء المعروفين بالوثاقة والاستقامة، ولو فعلوا ذلك لقطعوا الطريق على كل أفّاكٍ أثيم، وعلى المرتزقة الذين شوّهوا معالم السنة، وطمسوا من أضوائها النيّرة، وألصقوا فيها من الموضوعات التي جرّت على المسلمين أسوأ أنواع البلاء، وفرّقتهم شيعاً وحزباً[1].

وعلى كل حال فنحن ـ وعلى أساس نقد وإثبات زيف الآراء والنصوص المختلفة التي أسلفنا ذكرها الواردة في النهي عن الكتابة ـ لا نعتقد صدور أي حديث ينهى عن الكتابة.

كما أنه لا دلالة لبعض النصوص التي نعترف بوجود معنى دقيق ومستقيم لها على النهي عن الكتابة أصلاً.

وأخيراً ـ وكما أشرنا إلى ذلك ـ نؤكد وقوع حقيقة أُصيبت بها الثقافة الإسلامية، تلك الحقيقة المرّة، الحبلى بالأضرار والمخزية والتي أعقبتها أحداث مرة، ألا وهي الحيلولة دون التدوين للحديث ورواية ونشر سنة رسول الله ﷺ، مما اضطر ذلك جماعة إلى تطهير ساحة الماضين وتبرئة ذممهم مما جرى، واصطناع روايات وتبريرات وتحاليل مختلفة. هذا، وإلا فإن هناك أسراراً وألغازاً من وراء هذا الحظر والمنع سوف نتعرض للحديث عنها لاحقاً.

عدم معرفة الناس بالكتابة:

أسند بعض المتقدمين النهي عن التدوين للحديث إلى عدم معرفة الصحابة والمسلمين بالكتابة، فقد روى ابن قتيبة حديثاً لأبي سعيد الخدري

(١) دراسة عن الحديث والمحدثين: ٢٣.

يدل على منع الكتابة، وروى أيضاً حديثاً آخر عن عبد الله بن العاص يدل على ضرورة ولزوم الكتابة، ولا أقل من أنه يدل على إباحة الكتابة والتدوين، ومن ثم حاول توجيه عدم هذا الانسجام بين هذين الحديثين فقال:

كان الصحابة أميين لا يكتب منهم إلاّ الواحد والاثنان، وإذا كتب لم يتقن[١].

كما أن ابن حجر العسقلاني اعتقد ذلك أيضاً، فكتب يقول:

اعلم أن آثار النبي ﷺ لم تكن في عصر الصحابة وكبار تابعيهم مدوّنة في الجوامع، ولا مرتّبة... لأنهم كانوا لا يعرفون الكتاب[٢].

هذا، وقد ذكرنا فيما سبق بأن النص الشرعي الدالّ على عدم جواز كتابة الحديث غير تام من الأساس، كما أننا نقدنا الحديث الوحيد الذي استدل به المانعون، ألا وهو حديث أبي سعيد الخدري، ولكننا نود التساؤل والتأمل في هذا التصور ودراسته على ضوء النصوص التاريخية.

ومما تقدّم اتضح أن هؤلاء كانوا يعتقدون أن جهل الناس آنذاك وعدم معرفتهم بالكتابة صار ذريعة في توجيه ما اعتقدوه، فلنرَ إلى أيّ مدى يستند الاعتقاد المذكور إلى الحقيقة، ومن ثم نتابع دراسة سائر النكات الأخر. وعلى الرغم من أن الحقيقة المشار إليها قطعية ومقبولة وهي أن الكتابة لم تكن رائجة ومتعارفة في المجتمع الجاهلي ولم يكن يعرف ذلك الكثير من الناس، إلا أنه بناءً على النصوص التاريخية لا يمكن الموافقة على أن

(١) تأويل مختلف الحديث: ١٩٣.
(٢) هدي الساري (مقدمة فتح الباري): ٤.

العارفين للكتابة لم يكن يتجاوز عددهم السبعة عشر شخصاً كما ذكر ذلك الواقدي[١].

ثم إن بعض الناقدين والمفكرين ـ علاوة على تسليمهم قلّة العارفين بالكتابة ـ صاروا في صدد كتابة قائمة بأسماء عدد كثير كانوا على معرفة بالكتابة مستندين في ذلك إلى النصوص التاريخية[٢].

هذا، وقد تعرض الكاتب هاشم معروف الحسني إلى هذه النكتة أيضاً، فلم يوافق ـ استناداً إلى بعض النصوص ـ على ما ذكره البلاذري في فتوح البلدان بالنسبة للعدد الذي ذكره ممّن كان له معرفة بالكتابة، وإن أكد على أن الكتابة آنذاك لم تكن بالنحو الشائع بين الناس[٣].

إلا أن نطاق دائرة الكتابة اتسع بظهور الإسلام وتأكيد رسول الله ﷺ، وأصبحت الدور والمساجد تشهد تعليم العلم والكتابة، فازداد عدد الذين لهم قدرة على الكتابة، ولذا فإنه لا يمكن أبداً أن نسند عدم الكتابة في المجتمع المسلم آنذاك وتأخير عجلة هذه الحركة العلمية ـ على فرض صدور النهي عن الكتابة من النبي ﷺ ـ إلى عدم توفر الأيدي الكاتبة[٤]. هذا، مضافاً إلى عمل الكثير من الذين أسلموا وعرفوا تأكيد الإسلام على الكتابة بذلك من دون ريب، فهل من المعقول أن نقول: إن عدم المعرفة بالكتابة ـ التي لم تتم كما يزعمون ـ لا زالت باقية، وإن المسلمين والصحابة لم يكن لهم معرفة بالكتابة، ولم يقدموا على تعلم

---

(١) فتوح البلدان: ٤٥٧. العقد الفريد ٤: ١٥٧.

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٨: ١١٠ فما بعد (مقال جواد علي وهو بحث مفيد ودقيق واستدلالي).

(٣) تعرض لبحث النكتة المذكورة كثير من المؤلفين المعاصرين بحيث انجر بهم البحث تارة إلى الإفراط وأخرى إلى التفريط. انظر: عصر النبي: ٤٣٥. المفصل في تاريخ العرب ٨: ١٠٥ فما بعد. تاريخ سياسى إسلام ١: ١٣٤. موسوعة التاريخ الإسلامي ١: ٧٥ فما بعد.

(٤) دراسة في الحديث والمحدثين: ١٧ ـ ١٩.

الكتابة؟ وهل يصح أن نقول إن النبي ﷺ لم يهتم بهذا الأمر الهام والمصيري؟ وكما أسلفنا إن رسول الله ﷺ كثيراً ما كان يؤكد على ضرورة الكتابة وتعلّم العلم، بحيث جعل فك قيد الأسارى وفداءهم أن يعلّم كل واحد منهم عشرة من المسلمين الكتابة والقراءة[١]. وهكذا بلغ عدد كتّاب الوحي والقرآن عدداً ملفتاً للنظر[٢].

ثم إن الكاتب محمد عجاج الخطيب لم يوافق ابن قتيبة على ذلك، فكتب يقول:

لا يمكننا أن نسلّم بهذا قلةّ الكتّاب بعد أن رأينا نيفاً وثلاثين كاتباً يتولّون الوحي للرسول الكريم وغيرهم يتولّون أموره الكتابية الأخرى، ولا يمكننا أن نعتدّ بقلّة الكتاب وعدم اتقانهم لها (الكتابة)..[٣].

وقد تعرّض أيضاً في موضع آخر إلى أن ما ذكروه تبرير قديم لا قيمة له، ومن ثم أكّد على منعه، وصرح بأن ما ذكروه من دليل مصطنع لمنع التدوين وحصره بشحة الكتّاب آنذاك غير مقبول أصلاً[٤]. لكن مع ذلك نرى أن من المستحسن الإشارة إلى عدّة نكات في هذا المجال:

١ ـ أن النهي عن الكتابة ـ على فرض تسليمه ـ سوف يكون بنفسه ناقضاً للتبرير المذكور، إذ إن تسليم النهي عن الكتابة يستبطن ـ وبلا ريب ـ في ذاته شيوع ووجود الكتابة، وإلاّ فكيف يصح النهي عنه؟!.

---

(١) طبقات ابن سعد ٣: ١٤. أدب الدنيا والدين: ٦٨.

(٢) اهتم الصحابة بأمر رسول الله ﷺ بشأن كتابة الوحي، وأمثال هؤلاء الكتّاب الذين بلغوا أربعين شخصاً عرفوا بكتّاب الوحي (تاريخ القرآن: ٩١ عبد الله الزنجاني). تاريخ قرآن: ٢٥٧. مباحث في علوم القرآن: ٦٩.

(٣) أصول الحديث علومه ومصطلحه: ١٥٤.

(٤) السنة قبل التدوين: ٣٠١ ـ ٣٠٢.

٢ ـ ما روي عن النبي ﷺ أنه قال:

«لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن «يدل بوضوح على وجود كتّاب يكتبون فنهاهم رسول الله عن ذلك، وإلا فما المانع الذي كان يمنع النبي من التأكيد على الكتابة أيضاً ومن دعوة الصحابة إلى الدقّة في الضبط والكتابة لئلاّ يضيع شطر كبير من العلوم ومعارف الدين كما كان يؤكد على ضرورة كتابة الوحي؟!

قال الدكتور مصطفى الأعظمي:

وإن أنكرنا معرفتهم بالكتابة فكيف نحكم بكتابة القرآن نفسه؟! أما كان الصحابة يكتبون القرآن أوّلاً بأوّل؟ ثم ما معنى: ولا تكتبوا عنّي شيئاً سوى القرآن؟! إذا كان الناس لا يقدرون على الكتابة فلا داعي للمنع البتة... إذن لا محيص من القول بأنه كان هناك عدد وافر من الذين كانوا يجيدون القراءة والكتابة حتى في عصر الصحابة أنفسهم، وسياسة النبي ﷺ التعليمية التي آتت أكلها في عهد النبي ﷺ نفسه لا بدّ أن تكون قد أنتجت أضعاف ذلك بعد وفاته ﷺ[1].

وكتب الدكتور الشيخ عبد الغني عبد الخالق في نقد ذلك:

... إن العمدة ـ في ثبوت النهي ـ حديث أبي سعيد الخدري[2]، والمتبادر منه: أنه أجاز كتابة

(١) دراسات في الحديث النبوي ١: ٧٣.

(٢) تعرضنا كثيراً للحديث عن حديث أبي سعيد الخدري وأوضحنا عدم دلالته على المطلوب مع فرض صحة السند، انظر: مجلة علوم الحديث الفصلية، العدد ٢: ٣٥ فما بعد.

القرآن لمن نهاه عن كتابة السنة، فلو كانت علّة النهي خوف الخطأ في الكتابة، فكيف يجيز لهم كتابة القرآن[١].

وحينئذٍ فالتوجيه المذكور باطل من الأساس حيث لم يُعر له العلماء والمحدثين ـ خصوصاً المعاصرين منهم ـ تلك الأهمية.

٣ ـ إن التوجيه المذكور إنما يكون نافعاً ـ كما أسلفنا ـ فيما إذا سلّمنا بصدور النهي عن النبي في الكتابة، وإلاّ فمن الواضح أنه لن يكون لهذا التوجيه مجال في المقام.

ونضيف على كل ذلك فنقول: إننا لو سلّمنا فرض عدم المعرفة للكتابة والجهل بها في أيام بعثة النبي ﷺ بل وحتّى في زمان رسالته صلوات الله عليه، فهل من الممكن أن نقول إن حالة الجهل بقيت ثابتة في المجتمع المسلم آنذاك ليكون نهي الخليفة مستنداً إليها؟ وبعبارة أخرى: لماذا نهى الخليفة عن الكتابة؟ هل كان هو الآخر يفكّر هكذا؟ وهل يمكن تعليل فعله بمثل هذا التعليل غير المقبول؟ هذا كله في الوقت الذي نعلم تفشّي العلم وازدياده بين المسلمين بسرعة فائقة، وأن التعليم والتعلّم زمان رسول الله ﷺ كان ظاهرة واسعة قد شقت طريقها إلى المساجد حيث صارت مراكز للتعليم والتعلّم[٢].

اختلاف القرآن والحديث في الكتابة:

لا ريب في أن رسول الله ﷺ قد أمر بضبط وكتابة القرآن الكريم، وقد تقدم منا سابقاً أن كتّاب الوحي كانوا يزيدون على الأربعين شخصاً، وحينئذٍ ألم يحن وقت هذا التساؤل وهو أنه لماذا يؤكد رسول الله ﷺ على كتابة القرآن دون السنة بل وينهى عن كتابتها؟

---

(١) حجية السنة: ٤٣٠ ـ ٤٤٤.

(٢) التراتيب الإدارية ١: ٤١. علوم الحديث ومصطلحه: ١٧.

وقد أدى هذا التساؤل بالعلماء إلى التأمل والتدبر، بل دعا آخرين إلى ذلك، إلا أن البعض ـ وعلى فرض كون الأمر كذلك ـ مروا بهذا التساؤل مرور الكرام لئلاّ يواجهوا العقبات الصعبة من خلال الجواب، وفريق ثالث تعرّضوا لهذا التساؤل إلا أنهم وللأسف تصنعوا القول؛ لعدم وقوفهم على الحقيقة.

ومن الذين طرحوا هذا التساؤل الدكتور عبد الغني عبد الخالق، فأجاب عنه قائلاً:

١ ـ لكون ترتيب الآيات الإلهية في السور أمراً توقيفياً، بل إن ترتيب السور أيضاً كذلك؛ بناء على قول، ويبدو أنه الأصح.

٢ ـ لكون القرآن ـ الذي هو أعظم كتاب إلهي ومعجزة رسول الله ﷺ والمعجزة الخالدة إلى يوم القيامة ـ هو برهان النبوة ودليل الرسالة.

٣ ـ لأنه أساس وأصل الشريعة، وإليه تستند عقائد المؤمنين؛ فإن ضياعه يعني ضياع جميع التعاليم الدينية.

ولهذا أمر رسول الله ﷺ بكتابة وتسجيل القرآن وضبطه بدقّة. في حين أن السنة ليست كذلك. من هنا فقد جوّزوا نقلها بالمعنى من ناحية، ومن ناحية أخرى اعتبروا القرآن طريقاً لإثبات السنة. وبهذه البساطة حلّوا المشكلة، ونضيف إلى ذلك أن صغر حجم القرآن بالنسبة للسنة ممّا يجعل تدوينة أمراً ممكناً بخلاف السنّة.

هذا، ما ذكره الدكتور عبد الغني في كتابه القيم حجية السنة، وهذا الكتاب يدل وبوضوح على دقّة الكاتب واستقامته ونضجه الفكري، لكن مع

كل ذلك كانت نظرته للكتابة خاطفة وضعيفة الأساس بحيث يبهت لها القارئ، وأظن أن الذي دعاه إلى كل هذا التسامح تعبّده بصحة رواية النصوص القديمة وتصحيحه لرواية أبي سعيد الخدري. . . مما أدّى ذلك به إلى القطع بأن النبي ﷺ نهى عن كتابة الحديث. وهو كغيره لم يسمح لنفسه أن ينقد التراث القديم، وحيث إنه يعتقد صحة ذلك كله ابتلي بلوازمه، فمن العبث ما يبذلونه من جهود من أجل التخلّص من تلك اللوازم، وهو وأمثاله كالجالس على غصن شجرة وصار ينشره بالمنشار من أصله.

ثم إنه لو كان ترتيب آيات القرآن توقيفياً، فأيّ دليل هذا على وجود الكتابة؟! بمعنى أننا لو لم نكن نعتقد بذلك فهل كان بإمكاننا الاعتقاد بعدم ضرورة الكتابة؟ والآن وبعد أن اعتقدنا ذلك كيف يمكن أن نستنتج من ذلك عدم ضرورة كتابة السنة؟ ألا يمكننا أن نقول إن تبعثر الآيات وعدم ترتيبها يجعل أمر الكتابة أكثر ضرورة، والأمر بها أكثر وجوباً وأخطر أهمية؟

إن كون القرآن الكريم معجزة خالدة وعدم وجود نظير لآياته وسوره جعل القرآن في أمان من الضياع وصانه من الدخائل، وهذا على خلاف السنة، فإنها ـ وكما وصفها الأستاذ عبد الغني ـ دائماً في معرض الجعل والوضع والتزييف كما يشهد التاريخ بذلك بوضوح، وحينئذٍ فلا بد أن تكون كتابتها وضبطها أكثر دقّة وخطورة.

ومن الغريب ما كتبه الأستاذ عبد الغني من كتاب قيم لإثبات حجية السنة وجعلها إلى جانب الكتاب العزيز مصدراً من مصادر التشريع، والحق أنه أجاد، إلا أني لا أعلم لماذا مرّ بهذا البحث مروراً خاطفاً، حيث أعطى للقرآن هذا المقام الرفيع والهام ـ باعتباره مصدراً للتشريع ـ ولما وصل إلى السنة يقول: «ولم تكن السنة بهذه المثابة». . . وهذا معناه أنه لا مكانة

للسنة، ولا ضرورة للكتابة، ولا. . .فمن الغريب ما كان منه: «ما هكذا يا سعد تورَد الإبل»[١]. هذا مع ما تقدم من الرواية عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ألا إني أُوتيت القرآن ومثله معه»[٢]، بمعنى أن السنة عدل القرآن وإلى جانبه تعدّ مصدراً من مصادر التشريع.

ولا ينقضي العجب أيضاً مما ذكره الأستاذ عبد الغني في نهاية المطاف من أن القرآن لما كان حجمه أقل من السنة أُمر بكتابته، وأما السنة فإنها لما لم تكن إلى هذه الدرجة من الكِبَر والسعة لم يؤمر بكتابتها، بل لا بد أن يقال: لما كان القرآن أقل حجماً وكان حفظه أيسر لم يكن هناك حاجة إلى الكتابة كما في السنة التي لها حجم واسع وليس العكس.

وبذلك اتضح بطلان ما ذكره عبد الغني من تعليلات، هذا بناءً على ما تقدم منا كراراً من تسليم فرض النهي عن الكتابة وعدم الأمر بها، وإلاّ فبناءً على ما ذكرنا غير مرة من قطعية صدور الأمر بالكتابة من النبي ﷺ فإنه لا أساس للنهي عن الكتابة، كما أنه لا يمكن الموافقة على كلام مثل هذا.

ثم إن من جملة المؤلفين المتأخرين ـ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني الذي كتب في نقد ورد كتاب محمود أبو ريّة ـ ممن نهج المنهج المذكور حيث أكد أيضاً على أن النبي ﷺ لم يصدر عنه ما يدل على الكتابة وضبط الحديث وأنه لم يأمر بذلك أو يُلزم به، وذلك لأمرين: أحدهما: أن الحديث كان مروياً ومنتشراً على أوسع نطاق ممكن بحيث لا يمكن جمعه وتدوينه.

والآخر: إن حفّاظ القرآن من الصحابة قد قتلوا في الحرب، وأما حَفَظَة السنة فلم يقتلوا. . . .

---

(١) موسوعة أمثال العرب ٣: ٢٦٠. وهو مثل «يضرب للرجل يقصر في الأمر إيثاراً للراحة على المشقة».
(٢) مسند أحمد بن حنبل ٤: ١٣١.

وعلى كل حال فإن مثل هذه الاستدلالات الواهية لا تحمل سوى عنوان «الغريق يتشبث بكل قشّة»، وحينئذٍ فبحث ذلك ممّا لا ضرورة له. وعلى كل حال، فما معنى قوله: «الحديث اتسع نطاقه ولم يمكن جمعه»؟ هل يمكن أن يكون اتساع رقعة الحديث معلّلاً لعدم الكتابة بل للنهي عن الكتابة؟ ومن أين استكشف السيد المعلمي استشهاد حفّاظ القرآن وأما حفّاظ الحديث والسنة فلا؟

الحفظ بديل الكتابة:

أسند بعض العلماء عدم الكتابة أو حقيقة عدم التدوين إلى أن قوّة حافظة وذاكرة من كان يعيش في ذلك الزمان في حفظ ما كانوا يتعلمونه جعلتهم في غنى عن الكتابة، ومن هنا فإنهم كانوا يكتفون برواية الحديث تعويلاً على ذاكرتهم، حتى أنهم كانوا يرون تذاكر الحديث منهجاً مرغوباً وحسناً ويمتنعون عن الكتابة بل يرون التقيد به أمراً غير مرغوب فيه، يقول أبو نضرة قيل لأبي سعيد:

...أكتبنا، قال لن نكتبكم، ولكن خذوا عنّا، كما كنّا نأخذ عن نبي الله ﷺ[1].

وفي رواية أخرى قال:

...كان نبيكم ﷺ يحدّثنا، فنحفظ عنه فاحفظوا عنّا كما حفظنا عن نبيكم ﷺ[2].

وجاء في خبر آخر:

عن أبي بردة قال: كتبت حديث أبي موسى أنا

(١) تقييد العلم: ٣٧. جامع بيان العلم: ٢٧٢. المصنف (لابن أبي شيبة) ٩: ٥٢.
(٢) تقييد العلم: ٣٦. المحدث الفاصل: ٢٧٩. سنن الدارمي ١: ٨٣. جامع بيان العلم ١: ٢٧٣.

ومولى لنا. قال: فظّن أني أكتب حديثه، فقال: يا بني أتكتب حديثي، قلت: نعم، قال: جئني به، قال: فأتيتُهُ به فنظَر فيه فمحاه، وقال: يا بني احفظ كما حفظت[١].

وكتب ابن صلاح في مقام الجمع بين نصوص الإباحة ونصوص النهي، قال:

ولعلّه ﷺ أذن في الكتابة عنه لمن خشي عليه النسيان، ونهى عن الكتابة عنه من وثِقَ بحفظه مخافة الاتكال على الكتاب[٢].

ومن الغريب أن العلماء الذين ذكروا كل هذه النصوص أثنوا على ذلك، فكأن التعويل على النسخ المدونة والعلم المقيد في نظر هؤلاء أمر خلاف القيم، يقول ابن الأثير:

وكان اعتمادهم أولاً على الحفظ والضبط في القلوب والخواطر، غير ملتفتين إلى ما يكتبونه، ولا معوّلين على ما يسطّرونه، محافظة على هذا العلم، كحفظهم كتاب الله عزّ وجلّ، فلمّا انتشر الإسلام، واتّسعت البلاد وتفرّقت الصحابة في الأقطار، وكثرت الفتوح، ومات معظم الصحابة، وتفرّق أصحابهم وأتباعهم، وقلّ الضبط، احتاج العلماء إلى تدوين الحديث وتقييده بالكتابة..[٣].

ومن الواضح أن حكم ابن الأثير في تعويل الصحابة على الحفظ دون

---

(١) تقييد العلم: ٤٠. وانظر: جامع بيان العلم ١: ٢٧٦. المصنف ٩: ٥٢.

(٢) مقدمة ابن الصلاح: ٣٨٧ (تحقيق بنت الشاطىء). علوم الحديث: ١٨٢، (تحقيق نور الدين عتر).

(٣) جامع الاصول ١: ٤٠.

الكتابة لا أساس له، فإنه تقدم عنّا أن كثيراً من الصحابة كانوا يكتبون الحديث، وأن الكثير منهم أيضاً صار يماشي الجهاز الحاكم آنذاك ـ بسبب سياسة التخويف والتطميع و. . . ـ فامتنع عن الكتابة. والأمر الأكثر غرابة دعوى ابن الأثير من أن الصحابة في بداية الأمر كانوا يعولون على الحفظ في الصدور ولم يعولوا على شيء مما يكتبونه ليصونوا العلم والحديث، أليس من الغريب ما قاله؟ فهل يصح أن يقال إن الحفظ في الذاكرة أرسخ وأكثر دواماً من الكتابة في تحقيق غرض الصيانة للحديث؟ أيّ عاقل يوافق على مثل هذا الكلام؟ لننظر فيما قاله السيد رفعت فوزي أحد المحدّثين المصريين المعاصرين، قال:

يقول أحمد بن حنبل: إن يحيى بن سعيد القطّان أثبت من وكيع وعبد الرحمن بن مهدي وزيد بن هارون وأبي نعيم هؤلاء أئمة لأنه كان يضمّ إلى حفظه كتابة ما يسمعه[١].

ومن الطريف ما قاله ابن الأثير في نهاية المطاف:

ولعمري إنّه الأصل، فإن الخاطر يغفل، والذهن يغيب، والذكر يهمل، والقلم يحفظ ولا ينسى[٢].

ومن جملة ما استدل به ابن حجر أيضاً على عدم الكتابة سعة وشيوع الحفظ وأُنس الأذهان به في ذلك الوقت[٣]، ووافقه السيوطي على ذلك[٤].

ومن المحققين المعاصرين الدكتور محمد أبو زهو فهو الآخر أيضاً وافق على هذا التعليل، فكتب يقول:

---

(١) توثيق السنة في القرن الثاني الهجري: ١٦٢. الجرح والتعديل ١: ٢٤٨.
(٢) جامع الأصول ١: ٤٠.
(٣) هدي الساري (مقدمة فتح الباري) ١: ٤.
(٤) تدريب الراوي ١: ٤٠.

...وشيء آخر جعل النبيّ ﷺ ينهاهم عن كتابة الحديث هو المحافظة على تلك الملكة التي امتازوا بها في الحفظ، فلو أنهم كتبوا لاتكلوا على المكتوب وأهملوا الحفظ، فتضيع ملكاتهم بمرور الزمن[١].

وكتب الدكتور الشيخ عبد الغني أيضاً يقول:

انه نهى عن كتابتها خوف اتكالهم على الكتابة وإهمالهم للحفظ الذي هو طبيعتهم وسجيّتهم؛ وبذلك تضعف فيهم ملكته[٢].

وحينئذٍ يتضح من كل ما ذكرناه استناد المبرّرين إلى هذا النحو من التبرير تارة وأخرى إلى نهي النبي ﷺ عن الكتابة، وثالثة استنادهم إلى موقف المسلمين من ذلك. ولقد أشرنا خلال البحث ـ وأرجعنا القارئ إليه كثيراً ـ إلى أن أصل النهي عن الكتابة مرفوض أساساً، كما أن النصوص الواردة وما لها من مضامين عاجزة عن إثبات صدور النهي عن الكتابة من قبل رسول الله ﷺ، وعلى فرض تسليم صدور النهي عنه ﷺ فهل من الممكن الاعتراف بما برّره به هؤلاء الكتّاب؟ ألم يكن من الأفضل لهؤلاء أن يذهبوا إلى أن الفطنة والحنكة تكمن في تأكيد النبي ﷺ على الكتابة فضلاً عن الحفظ في الذاكرة ليكون صيانة الحديث والسنة أكثر اطمئناناً وأكثر رسوخاً؟

وعلى أية حال، فإن كانت الكتابة تجلب الثقة بالمكتوب لأن الحافظة تزول تدريجاً بسبب الثقة والتعويل على الكتابة، فلماذا كل هذا التأكيد على كتابة القرآن وكتابته آية آية بكل دقة واهتمام؟ لا بد أن يكون الجواب منهم

---

(١) الحديث والمحدثون: ١٤٣.

(٢) حجية السنة: ٤٢٨.

أن السنة تختلف عن القرآن، وأن كتابة السنة لم تكن لها تلك الضرورة والاقتضاء ولا تلك المكانة التي للقرآن و... ولنبحث إذن الوجه الآخر لهذه الدعوى لنرى ما تستبطن من الحقيقة.

مما لا ريب فيه أن الأمة التي كانت تعيش في الجزيرة العربية ذلك الوقت كانت تتمتع بحافظة وذاكرة خارقة، ومن الطبيعي أنه لم يكن الجميع كذلك كما سنذكر نماذج لذلك، إلا أنه من البعيد تصديق وجود شخص أو أشخاص كانوا يرجّحون الحفظ على الكتابة، أو تصديق أن يكون سبب عدم الكتابة صيانة ملكة الحفظ من الزوال، أو لأنهم كانوا لا يكتبون المعارف والعلوم تعويلاً على ذاكرتهم القوية وارتياحهم لأمر الحفظ.

ثم إن الكتابة كانت أمراً متعارفاً زمان الجاهلية لمن كان له خبرة الكتابة حيث كانوا يكتبون الأشعار الجاهلية[١]، ومضافاً إلى كتابتهم للشعر ـ الذي كان في غاية الأهمية وكانوا يعتبرون ذلك أكبر فضيلة ومكرمة لقبائلهم[٢] ـ كانوا أيضاً يكتبون الحروب والمفاخر والمناقب ويضبطون الأوقات الحاسمة والمصيرية[٣]، كما أنهم كانوا يكتبون المعاهدات والأيمان والأحلاف و..[٤].

الامر الآخر، هو أن الظروف الاجتماعية والموقعية التي كان يعيشها العرب زمان الجاهلية كانت بنحوٍ جعلتهم يتمتعون بحافظة وذاكرة قوية خارقة[٥]، لكن ليس بمعنى أن الجميع كانت له هذه الخصوصية، فقد ذكر

---

(١) انظر الكتاب القيم، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية: ١٠٧ فما بعد، وقد تعرض لذكر نماذج كثيرة في إثبات كتابة الشعر أيام الجاهلية.

(٢) البيان والتبيين ١: ٤٥. و٤: ٨٣. العمدة (ابن رشد) ١: ٦٦. الأمثال العربية والعصر الجاهلي، محمد توفيق أبو علي: ٧١ وما بعدها.

(٣) مصادر الشعر الجاهلي: ١٦٥.

(٤) المصدر السابق: ١٦٦.

(٥) حجية السنة: ٤٠٣ ـ ٤٠٤.

المؤرخون والمحدثون أن عمر بن الخطاب كان قد استغرق في حفظ سورة البقرة اثني عشر عاماً فلما تعلّمها نحر فداءً[١]، وحينئذٍ فهل من الصحيح أن يمنع الخليفة الكتابة مع مثل هذه الذاكرة التي كان غيره قطعاً يتمتع بمثلها أيضاً لغرض صيانة الذاكرة؟ وهل أضاع أحد حديثاً حفظه؟[٢] وهل كان الذين حفظوا الحديث واثقين من بقاء ما حفظوه على ما هو عليه؟

إن الذين جاؤوا بهذا التعليل رووا موقف أبي بكر تجاه رواية الحديث وأثنوا عليه، فقد قال أبو بكر مُعلّلاً ما فعله بنسخ الحديث التي كان دوّنها: «أنا لا أطمئنّ بهذه النقول»، وقال أيضاً:

«خشيت أن أموت وهي عندي، فيكون فيها أحاديث عن رجل قد ائتمنته ووثقت، ولم يكن كما حدّثني...» و«أحاديث تختلفون فيها، والناس بعدكم أشدّ اختلافاً...»[٣].

ومعنى ذلك أن كل ما كتبوه ونقلوه من ذاكرتهم على الورق لم يكن لدى الخليفة موثوقاً به لطرو السهو والخطأ عليه. والنتيجة: هي أن دعوى وجود من له ذاكرة قوية مجّرد دعوى، وعلى فرض وجود هكذا أشخاص لهم ذلك؛ فإن هناك من لا يكتفي بها من دون كتابة.

الأمر الآخر هو أن علماء الرجال ـ في مبحث الجرح والتعديل ـ قدحوا في كثير من الرواة لمجرّد غلبة النسيان عليهم، فلم يأخذوا بما رووه من نصوص، كما أنهم أثنوا على كل من كان يحفظ ويكتب الحديث إلى

---

(١) شرح نهج البلاغة (ابن أبي الحديد) ١٢: ٦٦. تاريخ الإسلام (عهد الخلفاء الراشدين): ٢٦٧. سيرة عمر لابن الجوزي): ١٦٥. الدرّ المنثور ١: ٢١.

(٢) المحدث الفاصل: ٣٨٢. تقييد العلم: ٥٩.

(٣) تذكرة الحفاظ ١: ٥.

جانب ذلك، فأخذوا بروايته ووثقوا به، وهذا كله لا يعدو كونه نظرية وكلاماً لا أساس له وتبريراً لا وجه له[١].

ولقد أشار إلى ما ذكرنا بعض المحققين في علوم الحديث المعاصرين حيث تطرقوا إلى ما ذكره علماء المحدثين من أبناء السنة في تبرير عدم كتابة الحديث، إلا أنهم لم يرتضوا ذلك وأخذوا في نقده، فقد كتب الدكتور الأعظمي يقول:

...كان العرب يحفظون دواوينهم وقصائدهم عن ظهر قلب، وكانوا بعيدين عن كثير من المشاكل الحضارية. وعلى هذا فمن الجائز جدّاً أنه كان هناك أناس يمتازون بقوة الذاكرة الخارقة مع العلم بأن هذا لا ينفي وجود أناس آخرين مصابين بضعف الذاكرة؛ إذ العبرة بالغالبية العظمى. وعلى كلٍ فهذه العلّة غير كافية لإثبات عدم احتياجهم إلى كتابة الأحاديث؛ إذ مع ذاكرتهم كانوا يكتبون الأشعار وما شاكل ذلك[٢].

وقد طرح الأستاذ يوسف عش أيضاً كلام ابن حجر وبعض المعاصرين بهذا الصدد وتناوله بالنقد، قال:

ولئن كان هذا الرأي يفخر بالحافظه العربية، التي لا تحفل بالتقييد؛ لأن لها من قوتها ما يسعفها

---

(١) توثيق السنة في القرن الثاني الهجري: ١٦٢ ـ ١٦٣. من السيرة الحسنة التي كان الصحابة يعمل بها أحياناً في قبول الرواية ما قيل من أن علياً عليه السلام كان يلزم الرواة أن يقسموا على صحة ما رووه، وليس ذلك إلا لعدم تعويلهم على حفظهم، انظر: اهتمام المحدثين بنقد الحديث سنداً ومتناً: ٣١ فما بعد. منهج نقد المتن عند علماء الحديث النبوي: ٦٨ فما بعد. جهود المحدثين في نقد متن الحديث النبوي الشريف: ١٠٢ فما بعد.

(٢) تقييد العلم: ٨ (المقدمة).

بالتقاط العلم وعدم نسيانه، فهو ييسر سبيل الطعن على علم العرب، فذاكرة أكثر الناس أضعف من أن تتناول مادّة العلم بأجمعه، فتحفظها من الضياع وتقيها من الشرود، ومهما قويت عند أناسٍ، فلا بدّ أن تهن عند آخرين، فتخونهم وتضعف معارفهم. هذا، والعلم يأبى الخيانة، ويبتغي الإخلاص، فلا يضر التقييد، ولا حافظ من ضياعه إلاّ التدوين[١].

والطريف أن الموجّهين قد عوّلوا على ما للعرب من قدرة في الحفظ، وكأن الإسلام وتعاليمه لا شمولية لها وليس أنها لا تختص بزمان أو مكان أو شعب، وكأن المتكلمين بسائر اللغات ليسوا بمسلمين.

وحينئذٍ فما هو سبيل الحل الذي وضعه المانعون عن التدوين ـ الذين اكتفوا بذاكرة العرب الخارقة دون الكتابة ـ لغير العرب؟.

وكأن هذا التعليل أوهى وأضعف تعليلاً من بين التعليلات المختلفة المذكورة في عدم التدوين. لذا فنحن لا نعلم أن الذي روى عن أبي سعيد عندما قيل له اكتب لنا حديثاً فإنا لا نقدر على الحفظ، فقال له: «لَن نكتبكم... ولكن احفظوا عنّا كما حفظنا»[٢] هل هو حقاً كلامه أو أنه كلام مفترى عليه؟! وأنه لو كان كلامه فهل قاله مجارياً فيه سياسة الحاكم أو إنه كان يؤمن بهذا النوع من رواية الحديث؟.

ألم يعلم أبو سعيد بالذي شكى إلى رسول الله ﷺ عدم حفظه، فقال له ﷺ: «... اِستعنْ بيمينك»[٣].

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) المصدر السابق: ٣٧ فما بعد.

(٣) المصدر السابق: ٦٦. سنن الترمذي ٥: ٣٩.

ألم يكن حرياً بهؤلاء أن يتخذوا رسول الله ﷺ أُسوة لهم، وأن يعملوا بسيرة العقلاء، ويؤكدوا على الكتابة، بل يكتبون تراث رسول الله بأنفسهم ويمنعون من ضياع ذلك؟

تأمل آخر:

ذكرنا أن للموضوع المطروح في المقام ـ بناءً على النصوص الروائية والتاريخية ـ حيثيتين:

١ ـ النهي الصادر عن رسول الله ﷺ في الكتابة من أجل صيانة قوة الذاكرة.

٢ ـ عدم كتابة الصحابة والتابعين الكبار تعويلاً منهم على الحفظ والذاكرة، وقد ذكرنا بعض النماذج التي كانت كذلك، بمعنى أنهم كانوا لا يكتبون الحديث، وسوف نتعرض لذكر من كان يأسف ـ في الزمان اللاحق على زمان صدور الرواية ـ على ضياع النسخ، وقد كان أبو موسى الأشعري ممن يمحو الحديث بعد أن يحفظه[١].

ثم إنّا نعتقد ـ كما أسلفنا ذلك ـ بأن ظاهرة عدم الكتابة لم تكن ظاهرة عامة وجماعية، بل ظاهرة حكام وسلطة، ولذا فإن الكثير من الناس صاروا يتقربون إلى الجهاز الحاكم، وأما من لم تكن له قدرة مواجهة الحاكم خوفاً من صولته فقد كان يسعى جاهداً في إيجاد علاقات تقربه من النظام أو كان يتظاهر بالقرب منه، وحينئذٍ لم يدوّنوا شيئاً أو يمحون ما كانوا قد كتبوه أو كانوا يلتمسون الوجوه لذلك، وبالطبع فإنهم ندموا على فعلهم فيما بعد عندما تبدّل الزمان وتغيّرت الأمور السياسية أو لم يكن للنظام تلك القدرة والصولة أو...

(١) المحدث الفاصل: ٣٨١. الرامهرمزي (ذكره ذيل عنوان «من كان يكتب فإذا حفظه محاه» عن جماعة، فقد ذكر أن الأشعري كان من هؤلاء).

يقول عروة بن الزبير:

كتبت الحديث ثم محوته، فوددت أني فديته بمالي وولدي وأني لم أمحه[١].

وإلاّ فمن لا يعلم أن الكتابة أفضل وأقوم ما يمكن استخدامه في حفظ وصيانة العلم والمعارف والتراث والثقافة، وأن كلّ ما لم يدوّن زال أثره على مرور الزمان!؟ ولقد صدق ابن المبارك حيث قال: «لَوْلا الكتاب ما حَفِظْنا»[٢].

وإن الحق ما يفعله المحدّثون حيث إنهم لم يعوّلوا على مصادر ونصوص الذين لم يدوّنوا أو لم يدققوا في الضبط والكتابة. يقول عبد الله بن أحمد بن حنبل:

ما رأيت أبي ـ على حِفظه ـ حدّث من غير كتاب، إلا أقّل من مائة حديث[٣].

ولقد اتّهم ابن شعبة بعض الرواة بعدم الصدق في الحديث، وذلك لحرقهم النسخ التي بأيديهم وروايتهم للحديث عن ظهر غيب[٤].

ومسك الختام في المقام ما قاله الإمام الصادق عليه السلام جعفر بن محمد لأبي بصير: «اكتبوا فإنكم لا تحفظون حتى تكتبوا»[٥]، هذه هي رسالة الأئمة الصادقين، فلمثل هذا فليعمل العاملون.

---

(١) تقييد العلم: ٦٠.
(٢) تقييد العلم: ١١٤.
(٣) أدب الإملاء والاستملاء: ٤٧.
(٤) تاريخ المدينة المنورة ١: ١٢٣.
(٥) الكافي ١: ٤٢.

الاحتياط في الدين:

ذكرنا أن عمر بن الخطاب لم يكتف في نهيه عن التدوين بإصدار كتاب وما شابه ذلك، بل إنه منع ونهى عن كتابة الحديث بل ونهى عن روايته، وأنه عاقب على ذلك بالحبس و... لقد اشتهر عمر بمنعه لكتابة الحديث حتى كأن النهي عن الكتابة لم يكد ينفك عن اسمه. وحينئذٍ ـ وكما ذكرنا ـ فإن أكثر التبريرات هي تبريرات لفعل عمر، وليست نظرة واقعية لأصل الظاهرة، وسوف نذكر في تقريب هذا التعليل كلاماً للخطيب البغدادي وبعض آخر من العلماء، الذي هو غريب حقاً:

إن قال قائل: ما وجه إنكار عمر على الصحابة روايتهم عن رسول الله ﷺ وتشديده عليهم في ذلك؟

قيل له: إنّما فعل ذلك عمر احتياطاً للدين وحسن نظر للمسلمين؛ لأنه خاف أن يتواكلوا عن العمل ويتّكلوا على ظاهر الأخبار، وليس حكم جميع الأحاديث على ظاهرها، ولا كل من سمعها عرف فقهها: فقد يرد الحديث مجملاً ويستنبط معناه وتفسيره من غيره، فخشي عمر أن يحمل حديث على غير وجهه أو يؤخذ بظاهر لفظه والحكم بخلاف ما أخذ به[١].

هذا، ولقد تململ بعض العلماء أيضاً من حكاية التعليل المذكور، فقد كتب ابن عساكر قضية نهي عمر لبعض الصحابة عن الكتابة ومنهم ابن مسعود، حيث قال في توجيه ذلك:

لم يكن هذا من عمر على وجه التهمة، وإنّما أراد التشديد في باب الرواية لئلاّ يتجاسر أحد إلاّ على رواية ما تحقق صحتّه[٢].

---

(١) شرف أصحاب الحديث: ٨٨ ـ ٨٩.

(٢) تاريخ دمشق ٣٩: ١٠٨.

وهذا الكلام يدل على أن عمر كان قلقاً قد أهمه أمر سلامة النصوص وتهذيب الدين عن الدخائل، وإنه إنما منع رواية الحديث احتياطاً منه في معارف الدين، وقد وافق على التعليل المذكور السيد محمد الخطيب أيضاً، حيث صرح أن نهي عمر عن التدوين ورواية الحديث مختص ببعض من لا دراية له بالأحاديث وفهمها فهماً دقيقاً، ومن لم يتثبّت في الرواية[١].

نقد هذه الرؤية:

لا ريب في أن النبي ﷺ قد رخّص في كتابة الحديث، حتى أن من يعتقد بصدور النهي عن ذلك لا يعتقد استمرار ذلك النهي، وإنهم يعتقدون قطعية صدور الأمر بعد زمان رسول الله ﷺ بالكتابة أو جواز ذلك، وأن الأحاديث الصادرة في النهي قد نسخت[٢]. فهل كان الخليفة أشد حرصاً على صيانة الدين من رسول الله ﷺ، وأنه كان أكثر احتياطاً على سلامة الدين من النبي ﷺ؟ فإن النبي يؤكد على ضرورة الكتابة ويأمر بها وبترويجها وينادي بذلك بأعلى صوته، فيقول: «نضّر الله عبداً سمع مقالتي فبلّغها»، وكرر القول في آخر كلامه كل مرة فقال: «ألا فليبلّغ الشاهد الغائب»[٣]، فهل كان كل ذلك خلافاً للاحتياط؟ وهل يصح أن يغفل النبي لو كان هناك أدنى خطر يتوجه للدين بالكتابة والرواية ومع ذلك يأمر بالكتابة والتدوين؟ ولو كان في عدم الكتابة والرواية احتياطاً في الدين فلماذا رفض الكثير من الصحابة الالتزام به؟[٤] حيث نادى أبو ذر بصوت رفيع: لو وضعتم الصمصامة على هذه ـ وأشار إلى قفاه ـ ثم ظَننْتُ أني أنْفذُ كلمة سمعت من رسول الله ﷺ قبل أن تجيزوا علّي لأنفذْتها[٥].

---

(١) السنة قبل التدوين: ١٠٥ ـ ١٠٦.

(٢) منهج النقد في علوم الحديث: ٤٢. الباعث الحثيث: ١٢٧. الحديث والمحدثون: ١٢٤. السنة قبل التدوين: ٣٠٧. تاريخ المذاهب الفقهية: ٢٤. علوم الحديث: ٨.

(٣) انظر: مجلة علوم الحديث (الفصلية) العدد ٢: ٢٦. وسائر المراجع المذكورة فيها.

(٤) مجلة علوم الحديث (الفصلية) العدد ٣: ١٠، مقال «تدوين الحديث».

(٥) طبقات ابن سعد ٢: ٣٥٤.

النكتة الأخرى التي دعت بعض المحدثين وذوي التبرير إلى التأمل فيها حيث حاولوا أن يجدوا لذلك مخرجاً: هي أن عمر لم يمنع وينهى عن تدوين الحديث إلاّ الصحابة! بمعنى أن الصحابة في نظر الخليفة لا تثبّت لهم في الرواية وأنهم كانوا يجعلون الحديث ويضعونه و. . .، كما أنهم كانوا يخطئون ويشتبه عليهم الحديث، فإذا كان الأمر كذلك فكيف هو الحال بالنسبة إلى الخليفة نفسه؟ ألم يكن حرياً بالخليفة أن ينصح الصحابة ويذكّرهم بالتثبّت في الكتابة والرواية وتجنب الكذب والتسامح في النقل، وأن يمنع كل من لم يرتض هذه الطريقة ويعاقبه، وأن لا يقف هذا الموقف من السنة فيمنع عن الكتابة ورواية الحديث.

ابن حزم ورأيه في ذلك:

قلنا فيما سبق إن هذا الأمر دعا جماعة إلى التأمل فيه، وكان ابن حزم من أولئك، فإنه لما رأى أن نتيجة تسليم ذلك لا يمكن الالتزام بها لوهنها ذهب إلى إنكارها وعدم التسليم بها، فإنه بعدما تعرض لموقف عمر مع ابن مسعود وغيره وأنه نهاهم عن الرواية وحبس المخالفين لأمره ناقش في السند وخدشه ثم في المتن؛ لأن غرض الخليفة من ذلك أحد أمور:

١ ـ إما أنه كان يتهم الصحابة، وهذا مما لا يصح تسليمه.

٢ ـ أو أنه كان ينهى عن رواية الحديث ونشره وتبليغ سنة رسول الله ﷺ وأنه كان يأمر المسلمين بكتمان ذلك وعدم ذكره، وهذا خروج عن الإسلام، وقد عصم الله تعالى أمير المؤمنين عن مثل ذلك.

٣ ـ أنه لو كان الصحابة متهمين بالكذب فإن عمر أحدهم، وهذا لا يرتضيه مسلم.

٤ ـ وإما أنه لو كان قد حبسهم والحال أنهم غير متهمين فهذا ظلم لهم.

هذا، وقد حاول ابن حزم تبرير أصل النهي لكن بدون تسليم استخدام الغلظة في ذلك والحبس، فهو يقول بأن ما نهى عنه عمر إنما هي نصوص وأخبار الماضين من الأمم، لا أنه نهى عن رواية سنة رسول الله ﷺ[١].

إلاّ أن الظاهر عدم إمكان إنكار استعماله الشدة والحبس ولا أصل النهي بمثل هذا التعليل.

ثم إن ابن حزم يعتمد طريقاً واحداً لرواية وقع في سندها شعبة فلم يصححها، إلاّ أن من الواضح أن نهي عمر عن الكتابة وتشدّده في ذلك لا ينحصر نصه برواية وقع في طريقها شعبة، فقد روى الحاكم في مسنده ذلك وصححها بناءً على ما شرطه الشيخان في صحة الأحاديث[٢].

ووافقه الذهبي في ذيل المستدرك على الصحيحين أيضاً[٣]. ورواه في كتابه الآخر كذلك[٤]. ولكن الأمر لو كان كذلك وكان النقل صحيحاً ولم ينكره أحد وإن الكثير قد رووه، حينئذٍ فإن على ابن حزم وأمثاله الالتزام بلوازم ذلك.

موقف آخر:

إنه لما رأى البعض أن عاقبة تسليم هذه النصوص وما يترتّب عليها أمر صعب وغير مقبول، صاروا بصدد العزف على وتر آخر فقالوا إن النهي إنما كان عن الإكثار في الرواية لا عن أصل الرواية، قال ابن قتيبة:

---

(١) الاحكام في أصول الأحكام ١: ٢٥٦. ويعتقد الدكتور محمد أبو شهبة أيضاً ذلك وأن النص المذكور مجعول (دفاع عن السنة: ٢٨٠).

(٢) هذا في الوقت الذي يعترف فيه المحدثون ـ القدماء منهم والمعاصرون ـ بأن الاسرائيليات ورواية أخبار السلف قد اتسع نطاقها أيام خلافة عمر، وسوف نتحدث عن ذلك.

(٣) المستدرك على الصحيحين ١: ١٩٣.

(٤) تأويل مختلف الحديث: ٣٩.

كان عمر شديد الإنكار على من أكثر الرواية، وكان يأمرهم بأن يقلّوا الرواية يريد بذلك ألاّ يتّسع الناس فيها، ويدخلها الشوب، ويقع التدليس والكذب من المنافق، والفاجر، والأعرابي[١].

وقال الحاكم النيسابوري بعد ذكره لرواية:

... إنكار عمر أمير المؤمنين على الصحابة كثرة الرواية عن رسول الله ﷺ[٢].

ثم إن الأُستاذ نور الدين عتر لم يعتبر طريقة عمر هذه مجرد نهج للحيلولة دون اتساع رقعة الكتابة والرواية، بل اعتبر أهم ما انتهجه الصحابة في الرواية هو قلّة الرواية، فهو يعتقد أن الصحابة لم يكثروا في الرواية لئلاً يظهر في روايتهم الخطأ والنسيان أو يكون في روايتهم الكذب على رسول الله ﷺ[٣].

هذا، ولكن واقع التأريخ ـ الذي يروي لنا موقف الخلفاء المتشدد ومنهم عمر ـ يخالف ذلك تماماً، حيث إن الصحابة فهموا من نهي عمر النهي البات مطلقاً عن الكتابة ورواية الحديث مطلقاً، لذا فإن قرظة بن كعب يقول:

فما حدّثت بعده حديثاً عن رسول الله ﷺ[٤].

وكان أبو هريرة أيضاً من جملة المهددين فإنه قال بعد عصر عمر:

---

(١) تذكرة الحفّاظ ١: ٧.
(٢) تأويل مختلف الحديث: ٣٩.
(٣) المستدرك على الصحيحين ١: ١٩٣.
(٤) جامع بيان العلم وفضله ٢: ٩٩٨.

لقد حدّثتكم بأحاديث لو حدّثتُ بها زمن عمر لضربني عمر بالدرّة[١].

وفي نص آخر ورد عنه أنه قال:

ما كنا نستطيع أن نقول: قال رسول الله ﷺ حتّى قُبِضَ عمر[٢].

وقد ذكرنا أن عروة بن الزبير كان يأسف على ما محاه من الأحاديث، وكل ذلك يدل على أن النهي عن التدوين ورواية الحديث كان أمراً عاماً وجماعياً، وأن ما برّر به هؤلاء تلك النصوص غير وجيه.

والآن نطرح هذا التساؤل، وهو أن الإقلال ما هو؟ وما هو المقدار الذي يكون عند الخليفة إقلالاً وما هو المقدار الذي يكون إكثاراً؟ ثم إنه ما الفرق بين الإقلال والإكثار في رواية حديث وسنة رسول الله ﷺ الذي هو نور وهداية؟ ألا يمكن تصور رواةً ضابطين في النقل والرواية بحيث يكونون من المكثرين في الرواية ومن الصادقين؟!

ألم يكن من الأفضل أن يأمر الخليفة بالصدق قولاً وكتابة والتثبت في ذلك؟ وعلى أي حال، فهذه النكتة حَرِيَّةٌ بالتأمل، ولذا فإن ابن حزم يعتقد ـ بعد طرح مثل هذه التساؤلات ـ بأن نسبة ذلك إلى عمر لا أساس لها من الصحة أصلاً.

فإنه ـ مضافاً إلى ما ذكرنا ـ لا يعدو أن يكون كلام رسول الله ﷺ إما خيراً أو شراً، فالإكثار من الخير خير كذلك، وقليل الشر شر كذلك.

وعلى أي حال، فما هو الإكثار والإقلال كماً وكيفاً؟ومن هنا فإن من

---

(١) المصدر السابق: ١٠٠٣.

(٢) البداية والنهاية ٨: ١٠٣.

يعتقد استحباب الإقلال من الرواية في نظر ابن حزم لا يستند في ذلك إلى برهان أو أساس[١].

وتأمل ابن عبد البر أيضاً فيما ذكرنا حيث إنه يعتقد أن موقف عمر كان للحيلولة دون إشاعة الكذب على رسول الله ﷺ ولم يكن نهياً عن رواية الحديث وانتشاره، وإلا فإن الأمر أوضح من الشمس في أن كلام رسول الله ﷺ لا يعدو أحد أمرين: إما خير أو شر، فإن كان خيراً ـ كما هو كذلك ـ فالإكثار منه ونشره فضيلة أخرى، وإن كان شراً ـ وهو ليس شراً قطعاً وقولاً واحداً ـ فإنه يمكن تصور أن يكون مراد عمر هو: قولوا الشر ولكن أقلّوا ولا تكثروا، وعليه فإنه من الواضح أن كل ما قاله عمر كان من أجل الحيلولة دون تفشي الكذب و..[٢].

ومع هذا، فإن جميع هذه التعليلات ـ طبقاً لما ذكرنا آنفاً ـ لا تنتهي إلى شيء؛ ذلك أن نهي عمر كان نهياً عاماً، وأنه لم يسمح بالرواية إلاّ لنفر قلائل ممن يسير باتجاه إرضاء الجهاز الحاكم، فلا بد من البحث عن سر منع التدوين ورواية الحديث في غير ذلك، وسوف نتعرض لذلك لاحقاً.

---

(١) الاحكام فى اصول الاحكام ١: ٢٥٢ فما بعد.

(٢) جامع بيان العلم ٢: ١٠٠٧ ـ ١٠٠٨.

منع تدوين الحديث

أسرار وألغاز:

تحدّثنا في البحوث السابقة حول قضية منع تدوين ونشر الحديث النبوي، ومحاولات التبرير التي قدّمها محدّثو أهل السنة لإضفاء المتانة والحكمة على هذا الموقف، وتناولنا ذلك بالنقد والتحليل. وقد اتضح ممّا ذكرنا أن تلك التبريرات لم تصمد أمام النقد والتمحيص الموضوعي.

وعليه فإنه لا بدّ وأن يكون لقضية منع تدوين ونشر الحديث أسباب وعوامل أخرى، سنشير إليها فيما يلي:

التحوّل السياسي ونتائجه:

لقد صرّح النبي الأكرم ﷺ بالإمامة والخلافة من بعده ومنذ الأيام الأولى لإعلانه الدعوة وصدعه بالرسالة[١]، وعيّن للأمة مستقبل الزعامة. وهذه التأكيدات والتصريحات تتجلّى في مواضع مختلفة من سيرة

---

(١) إشارة إلى الحديث المشهور جدّاً (بدء الدعوة) أو (حديث الدار) حيث قال النبي العظيم لعشيرته بعد أن عرض الدعوة عليهم وأجابه على ذلك علي عليه السلام: «إن هذا أخي ووصيي وخليفتي» وانظر: تاريخ الطبري ٢: ٦١٢. إحقاق الحق ٤٢٣ ـ ٤٣٠ و٣: ٥٦٠) من مصادر عديدة من أهل السنة المراجعات: ٩٨ تحقيق حسين الراضي. سبيل النجاة في تتمة المراجعات: ٦٨ والذي طبع مع المراجعات.

رسول الله ﷺ، وقد بلغت أوجها في حادثة «غدير خم» بحيث لم يبق أي شكّ وانمحى كلّ إبهام وغموض عن مستقبل قيادة الأمة الإسلامية[١].

وبالإضافة إلى توضيح النبي ﷺ فكرة القيادة من بعده وتعيين مصداقها أوضح حركة النفاق التي كانت متسترة تحت عناوين كبيرة موهمة. فهو من ناحية فضح حركة النفاق بتعريفه (الشجرة الملعونة)[٢] المتخفّية في المجتمع. ومن ناحية أخرى بتعريف منزلة أهل البيت عليهم السلام بيّن المكانة الرفيعة لقادة المستقبل الأصيلين اللائقين بأخذ زمام قيادة الأمة[٣].

أجل، بعد أن التحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى[٤] لم تتحقق عملياً أهدافه السامية، وسارت الزعامة السياسية باتجاه آخر وتحولت

---

(١) انظر: المجموعة النفيسة (الإمام علي في الكتاب والسنة)، فصل الإمامة ٢: ٢٣، فما بعد حيث تمّ جمع ذلك على أساس التسلسل التاريخي استناداً إلى مصادر الفريقين. وأيضاً راجع: تحليل قسم من ذلك في مجلة علوم الحديث الفصلية العدد ٣: ٣٧. مقالة «واقعة الغدير، أوج تبليغ الولاية».

(٢) الاسراء: ٦٠ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ كان النبي جالساً ذات يوم وهو مغموم، وعندما سئل عن سبب غمّه قال: «إني أُريت في المنام كأنّ بني أُميّة يتعاورون منبري هذا» (الدر المنثور ٤: ١٩١. نور الثقلين ٣: ١٧٩. تفسير القرآن العظيم (لابن كثير) ٣: ٥٢، و...) حينذاك تلا النبي ﷺ هذه الآية على الناس، والنبي الأكرم ﷺ بنقله للرؤيا وقراءة هذه الآية القرآنية لم يدع مجالاً للشك في أن الذين يعتلون وينزون على منبر النبي هم مصداق (الشجرة الملعونة).
وقد أوضح العلاّمة الكبير السيد محمد حسين الطباطبائي ـ مضافاً إلى نقل الروايات ـ وعلى طريقته المحكمة في تفسير القرآن بالقرآن ومن خلال التأمل في سياق الآيات ولحن الآية أن مصداق هذه الفتنة هو حركة النفاق و(بنو أمية) (الميزان ١٣: ١٣٦). وقد تحدّثنا في موضع آخر عن هذه الآية وآراء المفسرين المختلفة حول الآية وهدفها (تاريخ التفسير: التفسير في عصر الصحابة)، مجلّة (ميراث جاويدان) العدد ١١: ٤٠ ـ ١٢.

(٣) لا شك في أن رسول الله ﷺ قد اتخذ بعض الإجراءات الذكية تجاه القيادة المستقبلية على أثر هذه الآية الإلهية. وأن آية التطهير من هذه الجهة تعدّ منبّهاً (انظر: المقالة المذكورة: ٤١). وفي موضع آخر وضّحت ذلك بصورة أكثر تفصيلاً في مقالة: «التفسير المأثور: القدرات، الحاجات والعصر»، في (ذكرى الخاتمي) مجموعة المقالات العلمية التحقيقية في ذكرى تخليد آية الله السيد روح الله الخاتمي الاردكاني (٦٨٦ وما بعد) يادنامه خاتمى ـ مجموعه مقالات علمى وتحقيقى در بزرگداشت آيت الله حاج سيد روح الله خاتمى اردكانى).

(٤) الكلمات الأخيرة التي قالها رسول الله ﷺ قبيل رحيله إلى الآخرة: «إلى الرفيق الاعلى».

الأوضاع السياسية ووقع ما لم ينبغِ أن يقع، فأضحت اليوم أمة ومدّعو الإمامة خلفاء وذاكرة تاريخية لأمة، حكم في مقابل ما دعا إليه النبي الناس طوال ثلاث وعشرين سنة، حكّام وخوف من تزلزل حكومة وعدم استحكام أسس الخلافة و...

وحسب تصوري أنه ينبغي البحث هنا عن الجذور الأساسية والرئيسية لمنع تدوين ونشر الحديث، لا في موضع آخر، وسنحاول في هذه الدارسة كشف النقاب شيئاً ما عن هذه الحقيقة التي لا ريب في أنّها تخفّت تحت عناوين مختلفة.

١ ـ المنع من نشر فضائل علي وأهل البيت(ع):

ذكرنا أن النبي ﷺ قد أكّد على المكانة الرفيعة للقيادة، وقد حدد المصداق اللائق بالقيادة من بعده مراراً على مرأى من الناس في مناسبات عديدة، وكان يتحدّث كثيراً عن فضائل ومناقب علي ﷺ حتى وصل هذا البلاغ أوجه في «غدير خم»، كل ذلك كي لا يقع الناس والمؤمنون في حبائل الفتنة نتيجة لانحرافهم الفكري والعملي فسلكوا طريقاً آخر. ولم يكتف بذلك بل راح يستشرف المستقبل ويفكر على المدى البعيد، فأراد وللمرة الأخيرة أن يركّز هذه الحقيقة التي سعى جاهداً للتأكيد عليها طوال عمره الشريف، وحاول أن يسجّلها ويثبّتها مكتوبة في آخر لحظة من حياته، لكن قد حال دون ذلك الضوضاء والجو الذي أثاره شيوخ القبائل من جهة، ومن جهة أخرى رجالات السياسة الذين كانوا قد دبّروا خطة لمواجهة استعدادات رسول الله ﷺ للمستقبل، وجرحوا قلب رسول الله بكلمات نابية ومؤلمة، ومنعوه من أن يبيّن مرة أخرى مسألة إمامة الأمة وقيادة المجتمع ويثبّتها تحريراً[1].

---

(١) لقد أشرنا في موضع من هذه المقالة إلى هذه الحادثة الشهيرة جداً والقصة مليئة بالشجون، وأوردنا عليها بعض الملاحظات: مجلة علوم الحديث العدد ٢: ٢٨ وما بعدها.

ثم إن منع النبي ﷺ عن تعيين أمر الخلافة وكتابة ذلك حقيقة واضحة للعيان ولاسيما مع الالتفات إلى سير الأحداث ومواقف رجال السياسة، وقد أشار إلى ذلك صريحاً بعض علماء أهل السنة منهم الحاج داوود ددا مُفتي الأحناف في مدينة صور بلبنان[١].

بل قد ورد في كلمات وأقوال عمر نفسه بصورة صريحة بأنه إنما قام بمنع النبي ﷺ من كتابة الكتاب في اللحظات الأخيرة من عمره لكي لا تصير الخلافة إلى علي، ففي محاورة دارت بينه وبين ابن عباس صوّر فيها كيف أن وصول الخلافة إليه كان بإرادة الله ردّاً على أدلّة ابن عباس في أن النبي كان قد أراد الخلافة لعليّ، يقول:

إن رسول الله ﷺ أراد أمراً وأراد الله غيره، فنفذ مراد الله تعالى ولم ينفذ مرادُ رسوله..[٢].

هكذا كانت حقيقة الحال؛ وهم أنفسهم كانوا على علم بأن اقتلاع هذه القضايا الحقّة من أذهان الناس وألسنتهم ليس بالأمر الهيّن، من هنا فإنهم حين أخذوا بمقاليد الأمور سعوا جاهدين بشتى الأساليب غير المقنعة إلى إسكات الناس تجاه ما صنعوا، وحاولوا إسباغ عنوان الصلاح والمصلحة العامة عليه، وأن يبذلوا كل ما في وسعهم لتوطيد أسس حكومتهم، ولا بد من أن يتخذوا موقفاً قبال تلك التصريحات والتأكيدات النبوية وأن يجيبوا على ما يطرح من تساؤلات، وأن ينبروا لردّ كل من يثير سؤالاً في أوساط المجتمع الإسلامي من خلال ما ينشره من التعاليم النبوية حول علي وأهل البيت عليهم السلام.

إن السياسة والزعامة والاحتفاظ بالحكم ومراعاة المصالح يقتضي محو ما كان من الأمور غضّاً طرّياً من الأذهان وواقع الحياة، ليهنأ بذلك بالهم.

---

(١) المراجعات: ٣٥٤.

(٢) شرح نهج البلاغة (ابن أبي الحديد) ١٢: ٧٨ ـ ٧٩.

وقد حلّل الأستاذ محمد تقي شريعتي سير الأحداث بعد الرسول ﷺ بدقة وعمق، فكتب:

لقد ألمحنا سابقاً إلى أنهم قد منعوا النبي عندما أراد أن يكتب شيئاً في آخر ساعة من حياته بحجة كون النبي في حال المرض وحسبنا كتاب الله. غير أنهم قد التفتوا إلى وجود أحاديث أخرى توضح ما كان يروم النبي كتابته في تلك الظروف؛ ولهذا حظروا رواية ونقل الحديث وكتابته ومنعوا ذلك بشدة(١).

وقد كتب العالم اللبناني الراحل هاشم معروف الحسني ـ المحقق المتضلّع في تاريخ الإسلام وكيفية نشوء الأفكار والآراء في المئة الأولى من التاريخ الإسلامي ـ حول منع تدوين الحديث وعلله الأساسية:

ولو تقصّينا الأسباب التي يمكن افتراضها لتلك الرغبة الملحّة في بقاء السنة في طيّ الكتمان لم نجد سبباً يخوّله هذا التصرّف، ولا نستبعد أنه كان يتخوّف من اشتهار أحاديث الرسول في فضل عليّ وأبنائه.

وقد عزّز السيد هاشم معروف الحسني رؤيته بالاستناد إلى بيان يمكن أن يعلّل موقف المنع، فكتب:

ويؤكّد ذلك ما رواه عبد الرحمن بن الأسود عن أبيه: ان علقمة جاء بكتب من اليمن أو مكة تحتوي

---

(١) الخلافة والولاية على ضوء القرآن والسنة (محمد تقي شريعتي): ١٥٦. وحول هذا الكتاب القيم راجع: كتاب في ذكرى الاستاذ محمد تقي شريعتي: ٤٦٧، مقالة «نظرة حول الخلافة والولاية على ضوء القرآن والسنة»، «نگاهى به خلافت وولايت از ديدگاه قرآن وسنت» محمد علي مهدويراد.

على طائفة من الأحاديث في فضل أهل البيت عليهم السلام فاستأذنّا على عبد الله بن مسعود فدخلنا عليه ودفعنا إليه الكتب، قال: فدعا الجارية ثم دعا بطست فيه ماء، فقلنا له: يا أبا عبد الله انظر فيها؛ فإن فيها أحاديث حساناً فلم يلتفت، وجعل يميثها في الماء ويقول: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾[١]، القلوب أوعية فأشغلوها بالقرآن[٢].

وهناك أشار المحقق المذكور إلى انحراف عبد الله بن مسعود عن ولاية علي عليه السلام، وقد صرّح بأنه كان عنده تنسيق مع الطرف الآخر في مقابل الإمام عليه السلام وكان يدور في فلك الخلافة. وقد اختار هذه الرؤية قسم من المحققين والباحثين وأكدّوا عليها. وقد استند بعضهم إلى الرواية المتقدّمة لبيان وتوضيح وتأييد هذه الرؤية، حيث كتب:

...كما أن موضوعها يرتبط بأهل البيت عليهم السلام، وكأنّ الراوي اعتنى بهذه النقطة، فاستعمل عطف البيان للتأكيد على المراد بأهل البيت، وليلفت نظر عبد الله بن مسعود إلى أنهم أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم لكن عبد الله بن مسعود لم يعر اهتماماً وأباد الصحيفة[٣].

وأعتقد أن ملاحظة الأحداث بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم واقتضاءات الحكم وكثرة الأحاديث النبوية حول الإمام علي وأبنائه عليهم السلام وما طرحه

---

(١) يوسف/ ٣.
(٢) دراسات في الحديث والمحدّثين: ٢٢. راجع الحديث في: تقييد العلم: ٥٤.
(٣) تدوين السنة الشريفة: ٤١٢.

النبي ﷺ من توجيهات وتأكيدات كل ذلك لا يُبقي مجالاً للشك في هذه الحقيقة، ولاسيما مع استمرار المنع أيام حكومة بني أُمية وسعة نفوذهم في حكومة الخلفاء.

وستأتي الإشارة والتنبيه منا على تلك النقاط خلال البحث.

أحد الفضلاء رغم قبوله بأن منع نشر فضائل أهل البيت عليهم السلام وبيان منزلتهم هو أحد أسباب منع تدوين الحديث لم يذعن بأنه العامل الوحيد لمنع التدوين أو من أهمها مستدلاً بما اعتمده بعض أصحاب هذه الرؤية، فإنه غيّر موقفه وطفق ينتقد ما نقلناه عن عبد الرحمن الأسود ورفضه[1].

وقد أشار بشكل خاص إلى النقطة الأخيرة في كلام هاشم معروف الحسني، وكتب: أولاً ـ إن المصادر الحديثية والتاريخية أكّدت هذه الحقيقة، وهي أن ابن مسعود كان يؤكّد على كتابة وضبط الحديث. وعلى أثر ذلك تعرّض للسجن من قِبل الخليفة.

ثانياً ـ إن هذا النقل أيضاً ورد في «غريب الحديث» لابن سلام، وذيله لا علاقة له بأهل البيت.

ثالثاً ـ إن ما جاء في هذا النقل لا ينسجم مع موقف ابن مسعود في نشر فضائل أمير المؤمنين وأهل البيت عليهم السلام حيث كان يؤكّد على ذلك، وقد نقل الكثير من فضائلهم وسعى جاهداً في نشر فضائل أمير المؤمنين؛ لاحظ منها: ما نقله عن رسول الله ﷺ أنه قال:

---

(١) وكتب العلاّمة السيد مرتضى العسكري بعد بحث مفيد حول منع الحديث: «ينبغي أن لا ننسى أن المنع من التدوين كان بداعي الحيلولة دون نشر فضائل علي عليه السلام، ولاسيما أيام معاوية حيث كان يؤكّد على كتمان فضائل أمير المؤمنين، وكان يسبّ هذا الرجل العظيم على المنابر» (معالم المدرستين ١: ٦٤، وانظر أيضاً: بحوث في الملل والنحل ١: ٦٨ ـ ٦٩).

من زعم أنّه آمن بي وبما جئت به وهو يبغض علياً فهو كاذب ليس بمؤمن[١].

وأيضاً قال:

كنّا أيام رسول الله ﷺ نعرف المنافقين ببغضهم لعليّ عليه السلام[٢].

ويقول ابن مسعود:

لقد سمعت من رسول الله ﷺ أنه قال: الأئمة من بعدي اثنا عشر، تسعة منهم من ذرّية الحسين عليه السلام تاسعهم المهدي[٣] و....

أضف إلى ذلك أنه قد ظهر بالتحقيق الوسيع والدقيق أن فقه عبد الله بن مسعود قريب جدّاً من فقه أهل البيت عليهم السلام، وأيضاً أن السيد المرتضى قد صرّح بنقاوة ابن مسعود وفضله وإيمانه وتكريم الرسول ﷺ له، قال:

لا خلاف في أن ابن مسعود قد مضى من الدنيا ممدوحاً[٤].

وبناءً على ما قلناه فمن المحتمل ـ على فرض صحة هذا النقل ـ أن يكون المراد من الأحاديث التي أتلفها ابن مسعود القصص وأخبار الأمم السالفة، ويمكن أن يجعل مؤيداً لهذا الاحتمال ما ورد في آخر كلام الراوي

---

(١) المناقب، للخوارزمي: ٣٥.
(٢) الدر المنثور ٦: ٥٦٦.
(٣) كفاية الأثر: ٢٣.
(٤) الشافي في الإمامة ٤: ٨٣.

حيث قال إن ابن مسعود كان يقرأ قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ. . .﴾[١] أثناء محو سطور تلك الكتابة[٢].

وبعد أن طرح المؤلف عدّة احتمالات حول الرواية ومعناها، أضاف بأن هذا الكلام مجرّد دعوى، قال:

إن كون منع تدوين الحديث لغرض القضاء على فضائل علي لا يناسب الحظر العام من قبل الحكومة، والدليل أخصّ من المدّعى؛ إذ يمكن للخليفة أن يقوم بجمع كل ما كتب ويتلف ما يتعلّق بفضائل علي عليه السلام ويسمح بنشر الباقي[٣].

تأمّل فيما تقدّم

لا ريب في أن عبد الله بن مسعود كان من مدوّني السنة النبوية وأنه كان يؤكد على كتابة وضبط الحديث كما تقدمت منا الإشارة لذلك كثيراً[٤]. وأما بالنسبة لشخصية ابن مسعود وموقفه من الخلافة فالحديث فيه طويل الذيل، فما ذكره الكاتب هاشم معروف الحسني كان تعويلاً منه على تقييم من المحدث الجليل الفضل بن شاذان كما نص الكشّي على ذلك[٥]، فقد ورد في النص المذكور أن الفضل بن شاذان قارن بين ابن مسعود وحذيفة، فقال تعويلاً منه على أفضلية حذيفة:

لم يكن حذيفة مثل ابن مسعود؛ لأنّ حذيفة كان

---

(١) يوسف/ ٣.

(٢) منع تدوين الحديث (أسباب ونتائج): ٥٧ ـ ٦٤. وفي إطار استدلال الكاتب على ما طرحه من أن ابن مسعود نقل فضائل كثيرة، أورد حشداً كبيراً من الروايات. وما ذكر عبارة عن خلاصة لبحثه في عدّة صفحات.

(٣) المصدر السابق: ٦٦.

(٤) المجلة الفصلية: علوم الحديث ٣: ٣٣.

(٥) اختيار معرفة الرجال: ٣٨. (الطبعة الأخرى ١: ١٧٨).

زكيّاً، وابن مسعود خلط ووالى القوم ومال معهم وقال بهم.

وقد اعتقد الرجاليون صحة هذه المقارنة حيث قاموا بمقارنة بين المدح الوارد في حقه وبين ما ذكره الفضل فقدّموا كلام الفضل على ذلك[١].

ثم إن السيد الخوئي والعلاّمة الشوشتري يعتقدان جدلية ما ذكره السيد المرتضى تجاه العامة، إلا أن التدبّر في ذلك الفصل وفيما ذكره في آخر البحث من تأكيده على رسوخ إيمانه يدلّ على اعتقاد السيد المرتضى بكل ما أورده في حق ابن مسعود، وأنه لم يذكر ذلك الكلام جدلاً.

وحسب تصوري أن كلام المحدث الجليل الفضل بن شاذان ـ حتى مع ما احتمله العلاّمة الشوشتري من عدم كونه جدلياً ـ سوف يكون متعارضاً مع الروايات الكثيرة التي رواها ابن مسعود في فضل علي عليه السلام، وان موقفه تجاه عمر والخليفة الثالث وغير ذلك يدل بوضوح على مواجهته للخلفاء وعلى مخالفته ورفضه للجهاز الحاكم[٢].

إلى هنا قد يشكك في انحراف ابن مسعود ومسالمته للجهاز الحاكم، فلنتأمل في الرواية المذكورة قليلاً، فإنه قد ورد في نص آخر منها أن عبد الرحمن بن الأسود روى عن أبيه أنه قال: «عن عبد الرحمن بن أسود عن أبيه قال جاء رجل من أهل الشام إلى عبد الله بن مسعود ومعه صحيفة فيها كلام من كلام أبي الدرداء وقصص من قصصه فقال: يا أبا عبد الرحمن! ألا تنظر ما في هذه الصحيفة من كلام أخيك أبي الدرداء؟ فأخذ الصحيفة فجعل يقرأ فيها وينظر، حتّى أتى منزله فقال:

---

(١) قاموس الرجال ٦: ٦٠١. معجم رجال الحديث ١١: ٣٤٥.

(٢) وردت هذه النصوص بكثرة في بحار الأنوار، وفي مستدركات علم الرجال ٥: ١٠٧ و١٠٨. ومستدرك سفينة البحار ٤: ٤٢٥. وقد بحث العلامة الأميني ما يتعلق بشخصية ابن مسعود، انظر: الغدير ٣: ٩ فما بعد.

يا جارية ائتيني بالأجانة مملوءة ماءً. فجاءت بها. فجعل يدلكها ويقول: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ **أقصصاً أحسن من قصص الله تريدون؟! أو حديثاً أحسن من حديث الله تريدون؟!**[1].

فهل ما جاء في الصحيفة كان في فضائل أهل البيت عليهم السلام حقاً؟ ألم تكن هذه الرواية وأضرابها دليلاً على أن ذلك إما أنه لم يكن كذلك أو إنه إذا كان كذلك فهو بظن الراوي كان من الأحاديث الحسان ولم يكن في الواقع منها فهو كما جاء في بعض النصوص الأخرى «مما لم يصدّق» و«من المضلاّت» و«من الفتن والبدع»[2].

ثم إنه في تصوري ـ مضافاً إلى ذلك ـ أننا لو ربطنا بين هذه النصوص المختلفة وبين الأحداث والقضايا المختلفة، واعتقدنا بوجود علاقة بين تلك الصحف وبين أهل البيت عليهم السلام وأنها كانت فيهم وسلّمنا محو ابن مسعود لتلك السطور، فهل يمكن مع ذلك أن يقال بأن في تلك الواقعة دلالة على انحراف ابن مسعود عن خط أهل البيت عليهم السلام؟! لو أدركنا ظروف تلك المرحلة، وعلمنا بأن ابن مسعود هذا عوقب بالسجن بتهمة كتابة الحديث أو إفراطه في الرواية، ومن جهة لو أدركنا أن ابن مسعود لم يكن في مستوى أبي ذرّ أو عمّار وسلمان في رسوخ القدم في الإيمان حين كان أمثال أبي ذر وعمار وسلمان كالجبل الذي لا تهزّه العواصف، وأنه يخاف أن يعود مرة أخرى إلى موضع نجا منه و... وحينئذٍ فهو يتظاهر بالميل إلى الجهاز الحاكم ويعدل سلوكه طبقاً لرغبة

(١) تقييد العلم: ٥٤. جامع بيان العلم وفضله ١: ٢٨٣.
(٢) تقييد العلم: ٥٥.

الحكّام، ويقول ما يملوه عليه. يقول الحارث بن سويد سمعت عبد الله بن مسعود يقول:

ما من ذي سلطان يريد أن يكلّفني كلاماً يدرأ عنّي سوطاً أو سوطين إلاّ كنت متكلّماً به[١].

لقد حجّ ابن مسعود مع عثمان فلما أتمّ عثمان صلاته في منى أتمّ معه ابن مسعود صلاته أيضاً[٢]، فقيل له: ألم تقل بأن النبي ﷺ قصّر صلاته في منى وكذلك فعل أبو بكر؟! فقال:

بلى وأنا أحدّثكموه الآن، ولكن عثمان كان إماماً فما أخالفه، والخلاف شرّ[٣].

وحينئذٍ، فإن ابن مسعود بسلوكه هذا ـ محوه للحديث من تلك الصحيفة ـ إنما أراد مجاراة الحكومة بذلك ولم يكن معتقداً به، ولا أنه بحسب الحقيقة يريد إظهار ونشر فضائل أهل البيت عليهم السلام، وكم لذلك من نظير، فإن التاريخ حافل بالنماذج العملية لهذه التبعية والانقياد للحكام التي لا تنبع من الاعتقاد بهم.

أخصية الدليل من المدّعى:

كان الكاتب المذكور قد ذكر أن جعل دليل منع الكتابة والتدوين كان لغرض الحيلولة دون نشر فضائل علي وأهل بيته عليهم السلام، وقال بأنه دليل

---

(١) المحلى ٧: ٢١٢، المسألة ١٤٠٩. كان عبد الله بن عمر يعمل بهذا الاحتياط، فإنه بعدما يصلي مع جماعة الناس وينصرف إلى داره يعيد ما صلاه ويصلي ركعتين (المحلى ٤: ٧٠. الغدير ٨: ٤٥).

(٢) إتمام الصلاة في منى من جملة ما خالف به عثمان صريحاً سنة رسول الله ﷺ، فإن الكثير من الصحابة خالفوه في ذلك واعترضوا صريحاً عليه ومنهم عبد الله بن عباس، عبد الله بن عمر، عروة بن الزبير، أنس بن مالك و... انظر: كنز العمال ٨: ٢٣٨. الغدير ٨: ١٤٥. النص والاجتهاد: ٤٠٥. السنن الكبرى ٣: ٢٠٦.

(٣) المصدر السابق.

أخص من المدّعى وأنه غير صحيح؛ لأن ذلك يعني أن الذين منعوا الكتابة إنما منعوا كتابة ورواية جميع أحاديث النبي ﷺ، ولا يمكن أن يكون الغرض من هذا المنع بهذا الشكل الواسع هو الحيلولة دون نشر الفضائل التي تشكّل كمّاً قليلاً من الأحاديث والسنة النبوية الشريفة.

في نقد هذا الكلام:

لقد أكّدنا كثيراً على أن تصريحات وتأكيدات رسول الله ﷺ فيما يتعلّق بالزعامة والخلافة من بعده بلغت حدّ الاستفاضة، إلا أن الخلافة من بعده أخذت مسيراً آخر، فإن الحفاظ على ما تبلور آنذاك لم يكن بالأمر السهل؛ ذلك أن أهم ما كان قد شغل بال الحكّام والسياسيين بعد رسول الله ﷺ هو حفظ وصيانة كيان الحكومة، وحينئذٍ فإن نشر فضائل علي عليه السلام والنصوص الواردة عن النبي ﷺ في لياقة الإمام عليه السلام معناه إبطال كل ما تبلور في تلك البرهة، وأن الحكّام لا بدّ لهم من التفكير في حيلة للحيلولة دون كل ما يشكّل عقبة أمام الحكم والمنع من كل سؤال أو شبهة في ذلك.

وحينئذٍ فإن الحيلولة دون نشر فضائل علي عليه السلام أمر في حدّ ذاته يكون داعياً وباعثاً على التساؤل، ويكون حجر عثرة في طريق الحكومة، فلا يكون الدليل أخصّ من المدّعى، فإن هذه القاعدة متينة في الأبحاث وفي إثبات النظريات العلمية، أما أنها تجري في عالم السياسة فلا، ذلك أن عالم السياسة له قواعده وأصوله، وهو أمر آخر.

لقد احتفظ لنا التاريخ بين دفّتيه بحوادث ووقائع كثيرة بإمكانها أن تدل على أن السياسيين قد أحسنوا درك المقولة القائلة «الملك عقيم» فإنهم وبأدنى شك أو ظنّ يعملون على تصفية المخالفين لهم وبشكل وحشي وفجيع. نضيف على ذلك كله أن رواية الحديث ـ وكما أسلفنا ذلك مراراً ـ

كانت تتم داخل إطار خاص، وهو الإطار الذي يرتضيه الجهاز الحاكم[١]، ومن هنا قال عمر:

أقلّوا الرواية عن رسول الله ﷺ إلاّ فيما يعمل به[٢].

لقد كان الجهاز الحاكم آنذاك يعلم ماذا يفعل، فإنه كان يهدف إلى الحفاظ على كيان الحكومة وإزالة العقبات عن طريقه، وأما لماذا أنه يعمل على إعلان ذلك ولماذا صار يعمل بشكل تنكشف به الستائر وتعرف الألغاز!؟

لو أن الحديث كان يروى وكانت الأُمة ـ وطبقاً لما كان يروى من أحاديث ـ تسأل عمّا يجري في المجتمع، وكانت تجيب النصوص الواردة عن النبي عن هذه التساؤلات فإن من الواضح جدّاً أن الحكومة لا يمكنها ممارسة الأعمال السياسية.

ولقد ذكرنا أن الذي دعا أبا بكر أن يفكّر به إلى حدٍّ أرّقه هو الاختلاف في مسألة الخلافة، وإلاّ فالأُمة لم تكن آنذاك قد اختلفت في الصلاة ولا كان من الممكن اختلافها في ذلك، وقد توصل إلى إدراك هذه الحقيقة بعض علماء أهل السنة، فقد أشار إليها بعضهم فقال:

فإن كان لمرسل بن أبي مليكة أصل فكونه عقب الوفاة النبويّة يشعر بأنه يتعلّق بأمر الخلافة، كأن الناس عقب البيعة بقوا يختلفون يقول أحدهم أبو بكر أهلها؛ لأنّ النبي ﷺ قال كيت وكيت. فيقول

---

(١) مجلة علوم الحديث (الفصلية) العدد ٥: ١٩.

(٢) ذكرنا هذا التوجيه سابقاً وتقدم منا نقده، مجلة علوم الحديث، العدد ٦: ٢٠. والحديث في البداية والنهاية ٨: ١٠٧.

آخر: وفلان قد قال له النبي ﷺ كيت وكيت، فأحبّ أبو بكر صرفهم عن الخوض في ذلك وتوجيههم إلى القرآن و..[١].

إن هناك نصوصاً من التاريخ تشهد على أن الحكومات لم تكن تكشف الستار عمّا كان يجري من أوضاع، فهي لم تكن لتسمح بنشر فضائل علي عليه السلام التي تكشف عن مقامه العلمي الرفيع ولم تطق ذلك، بل هي لا ترتضي ولا تطيق سوى ما يدور في فلكها. وكان كل ذلك بالنسبة لمن تأمل في الحكومات وما يقوم به الحكام من تبريرات في مواجهاتهم للمعارضين لهم أمراً متصوراً ومفهوماً.

وإليك نماذج من ذلك (بتعليق واختصار منا):

دخل شخص إلى المدينة فرأى أُبيّ بن كعب، فسأله عما حدث بعد النبي؟ فلما امتنع أُبيّ عن الجواب قال الرجل ثانية: ما جرى لكم أنتم الصحابة؟ لماذا لا تقولون الحق؟ حينها اكتفى أُبيّ بقول: «هلك أصحاب العقدة وربّ الكعبة، أما والله ما عليهم آسى، ولكن آسى على مَنْ أهلكوا...» ولمّا اجتمع الناس وطالت الأعناق، أخذ أُبي يشقّ طريقه إلى داره.

قال الرجل كان أُبي يمشي وهو يقول: «والله لئن عشت إلى هذه الجمعة لأقولنّ فيها قولاً لا أبالي أستحييتموني عليه أو قتلتموني و...».

---

(١) الأنوار الكاشفة: ٥٩، وهذا الكتاب رد على كتاب أضواء على السنة المحمدية. وعنوانه الكامل: الأنوار الكاشفة لما في كتاب أضواء على السنة من الزلل والتضليل والمجازفة للشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلي اليماني.

وعندما خرجت منها يوم الخميس كانت الأزقّة مزدحمة بالناس، فلما سألت عن ذلك؟

قالوا: فإنه مات سيد المسلمين اليوم أبيّ بن كعب(١).

وقال ابن أبي الحديد:

وقد صح أن بني أُمية منَعوا من إظهار فضائل علي عليه السلام، وعاقبوا على ذلك الراوي له، حتّى أن الرجل إذا روى عنه حديثاً لا يتعلّق بفضله بل بشرائع الدين لا يتجاسر على ذكر اسمه، فيقول: عن أبي زينب(٢).

وروى الزبير بن بكّار:

عندما كان سليمان بن عبد الملك ولياً للعهد دخل المدينة وصار ينظر في الأماكن الأثريّة والتاريخية وما تركه الرسول صلى الله عليه وآله في أُحد وقبا و...فيسأل عن أمور ويسمع الجواب، ومن ثم يأمر بكتابة سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم قال: إنه كتب ذلك تعويلاً منه

---

(١) اختلفت رواية هذه الحادثة، وما ذكرناه كان جمعاً بين اثنتين من الروايات؛ انظر ما يلي: الطبقات الكبرى ٣: ٥٠٠، تهذيب الكمال ٢: ٢٧٠، سير أعلام النبلاء ١: ٣٩٩، تقريب المعارف: ٢٦٢، بحار الأنوار ٣١: ٢٦٩، و٢٨: ١١٨ ـ ١٢٢. وذكر في الهامش تفصيل الحادثة من كتب أهل السنة؛ الإيضاح: ٣٧٣، حلية الأولياء ١: ٢٥٢.
وقد ذكرت في موضع آخر وفي شرح حال أبي بن كعب كيف أنّ تلك النقولات لا تبقي مجالاً للشك لمن له تدبر في التاريخ، والحوادث بعد النبي صلى الله عليه وآله وما بعد السقيفة في أن أبي بن كعب بعد هذا الاعلام قد انتهى ذكره (التفسير في عصر الصحابة، محمد علي مهدويراد) وقد قام بعض المحلّلين بدراسة هذه المسألة صريحاً: السيرة العلوية، محمد باقرالبهبودي: ٣٣، بحار الأنوار ٢٨: ١٢٢. الهامش. تاريخ الإسلام السياسي والثقافي، صائب عبدالحميد: ٣٦٢.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤: ٧٣.

على الصحاح فأمر بكتابة ذلك له، فلما نظر في ذلك خطر بباله الأنصار في العقبتين وبدر و... فتأمل قليلاً وقال: بأن لا فضل لهؤلاء [يعني الأنصار]. قال أبان: إن الحق ما كتب. قال الزبير: بأن سليمان محا كلّ ما كتب، وقال: بأنه سوف يتكلّم مع الأمير في ذلك لعلّه لا يوافق على كتابته ونشره، ولما قال سليمان لعبد الملك ما كان رآه، قال عبد الملك: لا حاجة لنا في كتاب ليس لنا فيه فضل[١].

فالحكّام الذين لم يكونوا ليطيقوا كلام الانصار كيف بهم يطيقون نشر فضائل علي وآل علي عليه السلام؟ فقد كان موقفهم في مقابل نشر فضائل علي وأهل بيته شديداً للغاية، وكان هذا المنع والمواجهة المعادية تشتدّ وتتأزّم كلما ابتعد ذلك عن عصر الرسول صلى الله عليه وآله.

إن في متابعة ومشايعة أهل البيت عليهم السلام التي تنتهي إلى مجالسة رسول الله مع محبي أهل البيت وشيعتهم يوم القيامة إلى جانب الحوض هي إحدى المؤشرّات الرائعة التي تعكس مكانة آل علي عليه السلام، ومن جملتها أيضاً ذيل حديث الثقلين الذي روي بألفاظ مختلفة. وقد ذُكرت هذه الحقيقة في مجلس عبيد الله بن زياد الذي قام بتكذيبها بكل ما أوتي من قوة، فلما بلغ مسامع أنس بن مالك ذلك؛ جاء أنس وقال: . . . لقد حدّثنا عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وأوعدناه، فقال ابن زياد: كذلك ولكنك شيخ قد خرفت، قال زيد: إني قد سمعته أذناي، ووعاه قلبي من رسول الله صلى الله عليه وآله و. .[٢].

---

(١) الموفقيات: ٢٨.

(٢) كتاب السنة ٢: ٣٢٢. قال ناصر الدين الألباني: إن رجال سند هذا الحديث من الثقاة، وانظر: معالم الفتن ٢: ٣١١.

وقال السيد سعيد أيوب:

... وكان تكذيب ابن زياد بالحوض تكذيباً له ثقافته الواسعة على أرضٍ اتخذت من قبل ثقافة سبّ أمير المؤمنين علي عنواناً لها... ووجهاً على هذه الأمور...فإن طائفة الحق كان يدوّي في أسماعهم قول النبي ﷺ: اسمعوا... قالوا... سمعنا، فقال: إنه سيكون عليكم أمراء، فلا تعينوهم على ظلمهم، فمن صدقهم بكذبهم فلن يرد عليّ الحوض... وكان في ذاكرتهم أيضاً قوله ﷺ: إني تارك فيكم الثقلين، أحدهما أكبر من الآخر؛ كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، وإنهم لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض و..[1].

إن هذه الأمور وغيرها من التأملات في واقع التاريخ الإسلامي ومواقف الحكّام وغيرها كلها تدل على أن قضية خلافة علي عليه السلام والحضور السياسي لأهل بيته في الساحة والمجتمع هي قضية جدّية، وأن قضية منع تدوين الحديث ونشر مناقب وفضائل علي وأهل بيته عليهم السلام لا يعدو أن يكون تدبيراً سياسياً دقيقاً من أجل تثبيت دعائم الحكومة وعزل الرقيب عن الساحة، كما ستأتي الإشارة إليه.

٢ ـ عدم المصلحة في كشف الأسرار

لقد أسس رسول الله ﷺ بإبلاغ رسالته ديناً عالمياً شمولياً لكل زمان، فإنه ﷺ في هذا الدين الإلهي قام بإبلاغ رسالته وما فيها من تعاليم دينية وأخذ أيضاً على عاتقه قيادة وزعامة الأمة، وهو كسائر الناس له حياة

(١) معالم الفتن ٢: ٣١٣.

ظاهرية محدودة إلاّ أن دينه قد اتخذ صيغته الأبدية والأزلية، هذا كله من جهة، ومن جهة أخرى تجربة التاريخ في كيفية استمرار أئمة وقادة الثورات واستمرار حركتهم قضية واقعة لا محالة، ومن هنا فقد حسب رسول الله لما بعد حياته أيضاً حساباً، فقد حدّد صلوات الله عليه محاور الخلاف الواقع في الأمة وتحدّث عن أهم القضايا التي تلعب دوراً في تحديد المسيرة، كما أنه عرّف بالأشخاص الذين يكون لهم الدور في ذلك[١].

وأصرح كلام عن رسول الله ﷺ في هذا المجال وفيما يكون بعده، من تفرقّ وطرق ومذاهب، قال ﷺ:

تكون بين أمتي فرقة واختلاف، فيكون هذا وأصحابه على الحق يعني علياً[٢].

ورواية التفرّق والاختلاف لأُمة من الأمم ونجاة أمة أخرى هي من الروايات المشهورة، بل المتواترة إجمالاً التي سلّم بها الجميع مع ما فيها من كلام[٣]، فإن فيها إشارة إلى أنه سوف توجد أحداث داخلية ونفاق في الأمة، ومن جهة أخرى تنهى عن وقوع الاختلاف والتفرق وتوصي بالوحدة، وفي كل ذلك دلالة على أن مستقبل الأمة الإسلامية بحاجة إلى تأمل وأنه يستدعي إثارة المخاوف، قال ابن مسعود: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: أيها الناس إن فيكم منافقين، فمن سميت فليقم، قم يا فلان، ثم يا فلان، حتى عدّ ستاً وثلاثين[٤].

---

(١) وضح الأستاذ سعيد أيوب أركان هذا البحث الهام والقيم في كتابه: معالم الفتن، كما أننا نوصي بقراءة كتاب نظرات في حركة الإسلام وتاريخ المسلمين ١: ١٣٧. خصوصاً الفصل الذي يتعلق بالبحث.

(٢) كنز العمال ١١: ٦٢١، رقم: ٣١٢١٠.

(٣) إن قوله ﷺ: «افترقت أمة أخي موسى على إحدى وستين فرقة، وافترقت أمة أخي عيسى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلّها هالكة إلاّ فرقة واحدة...» فيه دلالة على نجاة أمة وضلال أمم أخرى، انظر: افتراق المسلمين على ثلاث وسبعين فرقة (للشيخ الصافي الگلبايگاني). لمحات في الكتاب والحديث والمذهب: ٢٥ ـ ٥٢.

(٤) الخصائص الكبرى ٢: ١٧٤، وانظر أيضاً: تفسير ابن كثير ٢: ٣٨٤. معالم الفتن ١: ٥٤.

إن أمثال هذه النصوص كثيرة، وكلّها يدل على افتعال وجوه وشخصيات ليس لها واقع في زمان رسول الله ﷺ وأن الناس يعرفونهم تعويلاً على حديث رسول الله.

كما أن بعض الآيات قد تحدّثت بشكل عام عن وجود وجوه وشخصيات منافقة ومزوّرة كشف عنها تفسير وتأويل رسول الله ﷺ لتلك الآيات.

ثم إنه بناءً على ما هو التحقيق أن المصحف الذي أتى به علي عليه السلام إلى الخلفاء بعد السقيفة والذي رفضوه وقالوا بأنهم في غنى عنه، هو مصحف يشتمل ـ عدا متن القرآن الذي هو عبارة عن كتاب الله الموجود بلا زيادة أو نقصان ـ على تفسير وتأويل وبيان الأحداث والأمم وكثير من المصاديق التي اكتفى القرآن بالإشارة إليها[١].

هذا، مضافاً إلى أن رسول الله ﷺ قد ترك في حديثه ذكراً فيه للكثير من الناس والصحابة بالاسم والعلامة، كما أنه تحدّث عن قريش خصوصاً ما يحدث من بني أمية ورؤوسهم، فمن ذلك على سبيل المثال لا الحصر التام:

١ ـ عندما نظر إلى أبي سفيان وابنه معاوية وأخيه وأحدهما قائد والآخر سائق، فقال:

اللهم العن القائد والسائق والراكب[٢].

---

(١) لقد تعرضت لهذا الموضوع في موضع آخر وذكرت مصادره: المجلة الفصلية الميراث الخالد، العدد ١٤: ١٨ «مقالة تاريخ التفسير: التفسير في عصر الصحابة»، وأيضاً انظر: الاحتجاج ١: ٦٠٧ مطبعة الأسوة للنشر». بحر الفوائد، الآشتياني: ٩٩. حقائق هامة حول القرآن الكريم (جعفر مرتضى العاملي): ١٥٧...

(٢) كتاب صفين: ٢٢٠، وقد اشتهر هذا اللعن... فقد اشتهر عن محمد بن أبي بكر أنه كتب لمعاوية: وأنت اللعين ابن اللعين (المصدر نفسه: ١٣٢. جمهرة رسائل العرب ١: ٥٦٢).

٢ ـ أنه ﷺ قال:

إذا رأيتم معاوية وعمرو بن العاص مجتمعين ففرّقوا بينهما؛ فإنّهما لن يجتمعا على خير[١].

٣ ـ وقال ابن عباس:

كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فسمع رجلين يتغنّيان وأحدهما يجيب الآخر... فقال النبي ﷺ: انظروا من هما؟! قال: فقالوا: معاوية وعمرو بن العاص، فرفع رسول الله ﷺ يديه فقال: اللهم أركسهما ودعّهما إلى النّار دعّاً[٢].

هذا وغيره قليل من كثير، نظير ما قاله ﷺ في «حزب الطلقاء» ومن حالفهم.

ثم إنا نعلم ما سعى إليه الجهاز الحاكم آنذاك في إعادة وتثبيت موقعية بني أمية، خصوصاً ما فعله عمر من أجل تثبيت مكانة «حزب الطلقاء» في الجهاز الحاكم والدولة الإسلامية.

ولكن لماذا كل ذلك؟ إن من الواضح أن ذلك إنما كان من أجل طرد وعزل الرقيب والمعارضة عن الساحة[٣] و...إذ إن الاهتمام بكبار الصحابة وعيونهم أمثال: أبي ذر وسلمان وعمار و...هو بمثابة تبليغ الفضيلة

---

(١) المصدر السابق: ٢١٨.

(٢) المصدر السابق: ١٤٠. مسند أحمد بن حنبل ٤: ٤٢١. وانظر محاولات المؤلفين في إسدال الستار على هذه الرواية وتحريفها وما يكون من نظائرها في كتاب: الغدير ١٠: ١٤٠ فما بعد.

(٣) إن متابعة الجهاز الحاكم لبني أمية وإعطاءهم المكانة الاجتماعية من قبل الحكام وذوي النفوذ السياسي من أرباب السقيفة والتغاضي عن سفاهتهم وظلمهم هو في الواقع من الأمر العجاب، انظر في هذا المجال البحث التحليلي الدقيق للأستاذ سعيد أيوب والأستاذ محمد تقي شريعتي في كتابه القيم (الخلافة والولاية من منظار القرآن والسنّة): ١٤٣. وأيضاً: المواجهة مع رسول الله وآله، الفصل السادس (لأحمد حسين يعقوب الأردني).

ونشرها في علي وآل علي عليهم السلام و... إذن، فلا بدّ للجهاز الحاكم من البحث عن مفرّ وطريق للخلاص والتفكير في حلّ.

إن من الواضح أن منع نشر كل ذلك بحاجة إلى من يكشف عنه أسراره ويرفع عنه أستاره، ليعلم الناس أن لكل ذي فضل فضله كي لا يتساءلوا ماذا جرى وماذا سيكون؟ وأنه لماذا يكون لعلي كل هذه العظمة والرفعة، ولا يقام له أقل وزن أو احترام، يقول الزهري نقلاً عن عروة:

كان لعلي وجه من الناس حياة فاطمة، فلمّا توفّيت فاطمة انصرفت وجوه الناس عن عليّ[1].

لقد فعلوا ذلك لئلاّ تتراءى أمام أعينهم تلك القمم الشمّاء، ولكي لا تعرف الوجوه على حقائقها ولا ترفع الأستار وتظهر قبائح أهل النيران، وتسلط الأضواء على سيرتهم القبيحة.

إن ما ذكرناه إلى هنا ـ والذي انجّر شيئاً ما إلى التفصيل ـ إنما هو لأجل أن نقول إن أهم أسباب منع التدوين ونشر الحديث هو التكتّم على حقائق الأشخاص وعدم كشف الستائر عن كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولا تظهر أمام الأبصار المناقب والثناء الذي قاله في بعض الناس والتقبيح والذمّ الذي قاله في آخرين، وقد التفت إلى هذه الحقيقة بعض العلماء والمحققين في تاريخ الإسلام، فكان من جملة ما استدلّوا به هذا النص التاريخي والروائي: قال عبد الله بن عمرو بن العاص:

كنت أكتب كلّ شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أريد حفظه، فنهتني قريش، فقالوا: إنك تكتب كلّ شيء تسمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ورسول الله بشر، يتكلّم في الغضب والرضى، فأمسكت عن الكتاب،

(١) تاريخ الطبري ٣:٢٠٨. صحيح البخاري ٣:٢٠٢. تاريخ الأحمدي: ١٣٤.

فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: اكتب، فوالذي نفسي بيده: ما خرج منّي إلاّ حق[١].

هذا، ويعتقد بعض الباحثين بأن شطراً من هذا الكلام ـ أي قوله: رسول الله بشر يتكلّم في الغضب والرضا ـ يدلّ على ما تكنّه قريش وتصبو إليه تجاه كلام رسول الله ﷺ، بمعنى أنها لا ترتضي رواية كلام لرسول الله قاله في الرضا في جماعة وفي الغضب في آخرين، وكانت تعتبر ذلك نوعاً من التكهّن بالمستقبل ونوعاً من الحصانة للأشخاص على المدى البعيد وإزالة للعقبات عن طريقهم تمهيداً لحصولهم على القدرة والسلطة بعد النبي ﷺ[٢]، وقد وجد هذا التدبير السياسي مصداقيته.

وها قد انكشف الستار عن أولئك الذين تحدّث عنهم رسول الله في الغضب ـ والذين قد صرّح أحياناً بدورهم في المستقبل ـ ظهرت للملأ حركتهم الفكرية والاجتماعية، وتسلّموا زمام الحكومة، فلا بدّ من أن يجدوا طريقاً للخلاص من ذلك، فكان الطريق السياسي هو منع رواية حديث رسول الله، وكل من امتنع وعصى لقي جزاءه، خصوصاً من كان يحمل أسراراً ـ بحيث لو عُرفت وظهرت لأدّى ذلك إلى مشاكل وعقبات بالنسبة للجهاز الحاكم ـ فإنها كانت تستعمل في حقه التهديدات، وأحد النماذج البارزة لذلك حذيفة، فقد قال:

لو كنت على شاطئ نهر وقد مددتُ يدي لأغترف فحدّثتكم بكل ما أعلم ما وصلت يدي إلى فمي حتّى أُقْتَل[٣].

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ٢: ١٦٢. تقييد العلم: ٨١ ـ ٨٨. المستدرك على الصحيحين ١: ١٠٦.
(٢) معالم المدرستين ٢: ٤٣. معالم الفتن ١: ٣٦٠.
(٣) كنز العمال ١٣: ٣٤٥، ح ٣٦٩٦٩.

وكان حذيفة بن اليمان من الذين ألقى إليهم رسول الله ﷺ أسراراً كثيرة، فقد عقد بينه وبين عمار الأخوّة، وعلّمه الكثير من الحقائق والمعارف، حتى أنه كان يعرف بصاحب سرّ رسول الله ﷺ[١]، وكان مشهوراً بمعرفة الأشخاص، ولذا فقد كان الناس يأتونه كثيراً ويسألونه عن الأحداث والوقائع وما ينبغي فعله، وإليك نموذجاً لذلك قالت بنو عبس لحذيفة:

إن أمير المؤمنين عثمان قد قتل، فما تأمرنا؟

قال: آمركم أن تلزموا عمّاراً.

قالوا: إن عمّاراً لا يفارق علياً.

قال: إن الحسد أهلك الجسد، وإنّما ينفركم من عمّار قربه من علي، فوالله لَعَلِيٌّ أفضل من عمّار أبعد ما بين التراب والسحاب، وإن عمّاراً لمن الأخيار، وهو يعلم أنّهم إن لزموا عمّاراً كانوا مع علي و..[٢].

ولذا فقد كان تحت المراقبة المستمرة والشديدة، وكانت عيون الحكومة عليه كثيرة؛ فإن تفوّه بشيء وشوا به إلى الخليفة[٣]. فقد رأى

---

(١) الإصابة ٢: ٣٣٢. صحيح البخاري ٢: ٣٠.

(٢) مجمع الزوائد ٧: ٤٨٨.

(٣) بقي علي عليه السلام في واقعة تبوك بالمدينة، وكان المنافقون قد اشتدّ سعيهم ضدّ رسول الله ﷺ، وكان جماعة من أولئك المنافقين بين صفوف المسلمين يحيكون المؤامرات، منها عزمهم على قتل النبي، فلما علم النبي بذلك قال لأصحابه إن أراد أحدكم أن يسير في الوادي فليفعل كذا، وكان النبي يسير على الروابي والتلال وسار معه عمار وحذيفة، فاغتنم المتآمرون الظلام واقتربوا من رسول الله، فأمر رسول الله حذيفة أن يضرب جمل أحدهم حيث كان قد اقترب، فلما علموا أنهم قد انكشفت فعلتهم خافوا ورجعوا، فقال النبي لحذيفة، يا حذيفة أعرفتهم؟ قال: فلان وفلان، فقال النبي: إنهم كانوا قد قصدوا إلقائي في الوادي... وقد حاول المؤرّخون تحريف هذه الواقعة من جهة وعدم الاهتمام بها، ومن جهة أخرى حاولوا أن يذكروا بأن المتآمرين كانوا من الأنصار (مختصر تاريخ دمشق ٦: ٢٥٣) انظر الواقعة بالتفصيل في: السيرة الحلبية ٣: ١٤٣. دلائل النبوة ٥: ٢٥٧. وانظر لتفصيل=

حذيفة يوماً أحد هؤلاء وكان قد أفشى ما أسرّ له إلى عثمان، فقال حذيفة له: سمعت رسول الله يقول: «لا يدخل الجنّه قتّات»[١].

بناءً على ذلك، فلا ريب في أن رفع بعض الشعارات من قبيل «حسبنا كتاب الله» والقيام ببعض الإجراءات نظير منع التدوين ورواية الحديث كلّها كانت تدابير سياسية تتخذ للحيلولة دون الإضرار بأصول الخلافة والتي تؤدي إلى تزلزل أركان الحكومة وكشف للوجوه الحاكمة ووضع المنافسين أمام الأعين، يقول الكاتب المصري الفطن السيد سعيد أيوب:

ومن الآثار الجانبيّة لمبدأ عدم الرواية، أن هناك أنماطاً بشرية لعنهم رسول الله ﷺ وحذّر منهم وطرد بعضهم، فهؤلاء ضاع ما صدر من التحذير ضدهم، ومع مرور الأيام نسي الناس ما روي فيهم فتقلّدوا مراكز الصدارة في فترة من الفترات..[٢].

وعليه، فلا بدّ من الالتزام بعدم رواية كلام رسول الله ﷺ وإبطال مفعول ما روي وتحريفه وتبديل محتواه بنحو آخر، ولذا فإنهم مضافاً إلى منعهم للكتابة واعتبارهم كلام رسول الله ﷺ كلام بشرٍ ناشئاً من الغضب والرضا قاموا بجعل أحاديث رووها علّهم بذلك يسقطوا كلام رسول الله عن الاعتبار، فقد رووا عن النبي ﷺ أنه قال:

اللهمّ، إنّما محمد بشر يغضَبُ كما يغضَبُ البشر،

=القضايا المرتبطة بتلك الحادثة ودور حذيفة فيها، والخوف من حذيفة علّه يكشف عن الأسرار في يوم ما، خصوصاً خوف عمر من ذلك و... انظر: نظريات الخليفتين ٢: ١٢٩ ـ ١٤٠ (نجاح الطائي).

(١) مسند أحمد بن حنبل ٦: ٥٣٩ و٥٥٠. وأيضاً انظر: تاريخ الإسلام السياسي والثقافي: ٣٦٣. وفيه تحليل دقيق وقيّم لهذه الواقعة. معالم الفتن ١: ٤٠٥ فما بعد.

(٢) معالم الفتن ١: ٣٣٢.

وإنّي قد اتّخذتُ عندك عهداً لن تخلفنيه، فأيّما مؤمنٍ آذيتُهُ، أو سببته أو جَلَدْتُه، فاجْعَلْها له كفّارةً وقربَةً تقرّبه بها إليك يومَ القيامة[١].

وأوردوا أنه قال:

...أيّما عبدٍ مؤمن سببته فاجعل ذلك له قربةً إليك يوم القيامة[٢].

وهذا النبي الذي وصفه الجهاز الحاكم بذلك في سبيل تبرئة ساحته، هو هذا النبي الذي قال الله تعالى في حقه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٣]. وقال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾[٤]، وقال: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾[٥]، وهو صلوات الله عليه الذي قال: «لم يكن النبي سبّاباً ولا فحّاشاً»[٦].

وهكذا فقد صوروا شخصية النبي ﷺ العظيمة والمنزّهة بالعصمة، تلك الشخصية الصامدة والصابرة المطهّرة بأنها شخصية ضعيفة تنفعل بالغضب ويفقد صاحبها سيطرته على نفسه ويسبّ ويضرب بالسوط و... لكن كل ذلك يتبدّل إلى سبب في القرب و....

فالعجب كل العجب من هذا التبديل والتحريف والتأويل! وهذا يعني أن الأمة يجب أن تكون أولاً جاهلة بأن الذين بيدهم زمام الأمور مَن هم؟ وأن النبي ﷺ ماذا قال في حقهم؟ وأن هؤلاء هم الذين لعنهم رسول الله، ولو أزيل الستار قليلاً عن ذلك، فعليهم أن يعلموا بأن ذلك لا يسبب مشكلة، فهو ليس قدحاً في حق هؤلاء فحسب، بل نوع تقرّب و....

---

(١) صحيح مسلم ٤: ٢٠٠٨.
(٢) المصدر السابق.
(٣) القلم/ ٤.
(٤) النجم/ ٣.
(٥) آل عمران/ ١٥٩.
(٦) صحيح البخاري ٤: ٥٥ (كتاب الآدَاب).

٣ ـ تثبيت العمل بالرأي وإزالة العقبات من أمامه:

لقد كان النبي ﷺ رسول الحق وزعيماً للأمة، فهو قائدها السياسي ومرجعها الفكري، فهو المبلّغ للدين والمفسر للشريعة، وهو الذي تحلّ بيده مشاكل الحياة البشرية، فهو القائم بأمر الحكومة وهداية الأُمة وبيده تحل العقد الفكرية والأزمات العقائدية؛ وهو الذي يجيب على أسئلة الأُمة الفكرية والثقافية. . . .

لقد اتخذت السياسة للمجتمع بعد وفاته ﷺ مسيراً ومنحى آخر، فتولّى زمام الأمور أُناس لا معرفة لهم بالدين ولا يفهمونه فهماً صحيحاً، وليس لهم اطّلاع تامّ بالكتاب المبين وتفسيره ولا بالسنة الشريفة لرسول الله ﷺ.

وهذه الحقيقة في غاية الوضوح، والنصوص الواردة في ذلك كثيرة إلى حدّ لا يبقى معه أي ريب. هذا، ومن جهة أخرى فإن الأمة ترى هؤلاء الذين جلسوا على مسند الحكم في مقام ومكانة رسول الله ﷺ؛ ولذا فهم يتوقّعون منهم حلّ مشاكلهم الفكرية بحيث تتجلّى سنّة رسول الله في حلّ هذه العقد والمشكلات، وتتوقّع منهم أيضاً التحدّث بكلام الله تعالى، وأخيراً فالأمة تتوقّع من هؤلاء أن لا يفتوا بما ينافي كلامهم وسلوكهم كلام رسول الله ﷺ.

وهكذا فقد اتسع نطاق الجهاز الحاكم وتغيّر الزمان وازدادت حاجات الأُمة، وصار الناس يطالبون تجاه كل حدث وكل فعل يفعله الجهاز الحاكم بمعرفة سبب ذلك ومبرّره.

وأما الجهاز الحاكم فقد راح يعزم على القيام بأمور جديدة في إدارة أمور المجتمع، وكثيراً ما كان يرى الصحابة وغيرهم من عامة الناس أن كل ذلك مضاداً ومعاكساً لما رأوه أو سمعوه من رسول الله ﷺ، بحيث كانوا

يعترضون عليهم مستندين في ذلك إلى نصوص من كلام النبي ﷺ، وأحياناً كانوا يصرّحون بانحرافهم.

ومن أجل ذلك كلّه فقد فكر الحكّام في المفرّ من هذه المشكلة وفي رفع الموانع والعقبات وتذليل الصعوبات فمنعوا تدوين الحديث وروايته والبحث والتدريس في هذا المجال. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فتحوا باب الرأي والتأويل من أجل تبرير سلوكهم.

وفيما يلي نذكر نصوصاً ـ مع الاختصار والإيجاز ـ تدل على ما ذكرنا: لمّا عزم عمر على رجم امرأة حامل ادّعى زوجها أنها زنت، اعترضه معاذ بأنها لا ترجم حتى تضع ولدها، وبعد أن ولدت طفلها ارتفع شك زوجها[١].

وقد عزم عمر على قتل رجل ذمي فنبهّه أبو عبيدة بن الجّراح إلى خطئه في ذلك، فرجع عمر عن عزمه[٢].

كما أنه عزم على قتل امرأة وضعت لستة أشهر، فتراجع عن ذلك بعد ما استدل له بآية من الكتاب العزيز فتنبّه إلى خطئه[٣].

ومن العجيب أن رجلاً كان قد سأل عمر أنه كان جنباً ولم يجد ماءً، فأجابه عمر بسقوط الفرض عنه في هذه الحال، فذكّره عمّار بكلام رسول الله ﷺ، وأثبت له أنه إلى أي حدٍّ قاصر في فهم الدين[٤].

وهذه الموارد أكثر من أن تذكر[٥]، وفي هذا دلالة على أن الأمة

---

(١) السنن الكبرى ٧: ٣٤٣. شرح نهج البلاغة (ابن أبي الحديد) ١٢: ٢٠٢. الإصابة ٣: ٤٢٧.
(٢) السنن الكبرى ٨: ٣٨. كنز العمال ١٥: ٩٤.
(٣) الدر المنثور ٦: ٤٠.
(٤) صحيح مسلم ١: ٣٥٥. مسند أحمد بن حنبل ٥: ٣٢٩. السنن الكبرى ١: ١٣٤. الغدير ٦: ١٢٠.
(٥) الغدير ٦: ١٢٠ فما بعد. نظريات الخليفتين ٢: ١٧٥ فما بعد (نجاح الطائي).

كانت تردّ على عمر وتنقض رأيه بكلام رسول الله ﷺ، وتعلن للملأ عدم معرفته بالدين.

فكانت الخطوة الأولى التي بدأ بها هي منع رواية حديث رسول الله ونشره، ومن ثم بدأت التهديدات. وذات يوم دخل على عمر رجل فسأله مسألة أجابه عمر عنها، فاعترضه السائل بكلام لرسول الله فشتمه عمر وأغلظ في كلامه معه[١].

وفي موارد أُخر يرفع عمر سوطه ويؤدّب السائل[٢].

إن عمر يريد إفهام الأمة بأنه قادر على صنع القرار والاجتهاد على خلاف كلام النبي، وأنه لا يحق لأحد الاعتراض عليه، وكلامه الذي قال فيه «متعتان كانتا على عهد رسول الله وأنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما» مشهور ولا يحتاج إلى دليل ومرجع.

وكيف كان فإنه على صعيد الفكر الديني وجدت ظاهرة قبال التأكيد على العمل بنصوص الكتاب والسنة وإسناد الأحكام إلى هذين المرجعين العظيمين، وقد عبّر العلماء عن هذه الظاهرة بالاجتهاد بالرأي، قال المحقق الشيخ عبد الهادي الفضلي:

والسبب الذي يمكن أن يستفاد في ضوء تسلسل الأحداث من (السقيفة) إلى اعتبار (الاجتهاد بالرأي) هي لكي تقلّ النصوص وبخاصة تلكم التي تثبت أحقية أهل البيت بإمامة المسلمين فيتركّز مبدأ الرأي، وتتم الاستفادة منه في المجال السياسي[٣].

---

(١) سنن أبي داود ٢: ٢٠٨، ح ٢٠٠٤.
(٢) حجية السنة: ٣٧٢.
(٣) دروس في فقه الإمامية ١: ١١١ (الدكتور عبد الهادي الفضلي).

تأملات فيما تقدم:

إن من الواضح جداً لدى من نظر في تاريخ الإسلام وتأمل في أحداثه ووقائعه التي جرت بعد زمان رسول الله ﷺ وجود ظاهرتين مختلفتين تماماً: الأولى ظاهرة التعويل والاعتماد على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ والتي تؤكد على ضرورة العمل بهما والتأمل فيهما سواء فيما ورد من تفسير كتاب الله أو تدوين وكتابة سنة رسول الله.

والظاهرة الثانية التي رفع أصحابها شعار «حسبنا كتاب الله»، فهي من جهة تمنع من التدبر في كتاب الله وتفسيره، ومن جهة أخرى تمنع عن كتابة وتدوين سنة رسول الله ﷺ، وتعوّل في التعبير عن آرائها الشرعية على المصلحة والرأي.

ومن الواضح أن السبّاق إلى الظاهرة الأولى وإمامها الأول هو علي بن أبي طالب عليه السلام، وإلى الثانية عمر بن الخطاب[1].

قال الثعالبي الفارسي في أثره القيّم في تاريخ الفقه مستدلاً ببعض المصادر القديمة:

فإنّ كثيراً من أولئك السابقين الأولين خرجوا إلى الجهاد في سبيل الله ابتغاء مرضاة الله، فجنّدوا الأجناد واجتمع إليهم الناس، فأظهروا بين ظهرانيهم كتاب الله وسنة نبيّه، ولم يكتموهم شيئاً علموه. وكان كلّ جند منهم طائفة يعلمون كتاب الله وسنة نبيه ويجتهدون برأيهم فيما لم يفسّره

(١) تعرض لهذا البحث مفصّلاً بعض العلماء وأشار إليه آخرون: دروس في فقه الإمامية ١: ٤٩ فما بعد. منع تدوين الحديث: أسباب ونتائج: ٨٥ فما بعد (علي الشهرستاني) أثر القرآن في تطور النقد العربي: ٣١ فما بعد (الدكتور محمد زغلول سلام).

لهم القرآن والسنّة تقدّمهم عليه أبو بكر وعمر وعثمان[١].

وقال الدكتور محمد الروّاس قلعه جي:

إنّ الأستاذ الأوّل لمدرسة الرأي هو عمر بن الخطاب؛ لأنه واجه من الأمور المحتاجة إلى التشريع ما لم يواجهه خليفة قبله ولا بعده[٢].

وذكر أحمد أمين بأن كثيراً من الصحابة كانوا إذا لم يجدوا نصاً من الكتاب أو السنة أخذوا بالرأي، وأضاف:

ولعلّ عمر بن الخطاب كان أظهر الصحابة في هذا الباب، وهو استعمال الرأي، فقد روي عنه الشيء الكثير... ـ ثم أضاف قائلاً: ـ بل يظهر لي أن عمر كان يستعمل الرأي في أوسع من المعنى الذي ذكرنا؛ ذلك أن ما ذكرنا هو استعمال الرأي حيث لا نصّ من كتاب ولا سنّة، ولكنا نرى عمر سار أبعد من ذلك، فكان يجتهد في تعرّف المصلحة التي لأجلها كانت الآية أو الحديث، ثم يسترشد بتلك المصلحة في أحكامه..[٣].

إن السيد أحمد أمين لم يجرؤ أو لم يستسغ أن يقول بأن عمر لما كان يرى المصلحة في الشيء يعرض عن نصوص القرآن والسنة، إلا أن السيد خالد محمد خالد استساغ ذلك فصرّح به وقال:

---

(١) الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي ١: ٣٧١ (الثعالبي).
(٢) موسوعة فقه إبراهيم النخعي ١: ٨٥ (محمد الرواس قلعه جي).
(٣) فجر الإسلام: ٢٣٦ ـ ٢٨٣.

لقد ترك عمر بن الخطّاب النصوص الدينيّة المقدّسة من القرآن والسنة عندما دعتْه المصلحة لذلك، فبينما يقسم القرآن للمؤلّفة قلوبهم حظّاً في الزكاة ويؤدّيه الرسول ويلتزمه أبو بكر، يأتي عمر فيقول: إنّا لا نعطي على الآكام شيئاً، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر و..[١].

إنّ الموقف الذي اتخذه الأئمة المعصومون عليهم السلام في نقد وردّ وإثبات زيف العمل بالرأي وتأثيره في الفقه والتشريع هو موقف راسخ وصحيح قبال مثل هذا الهرج والمرج والتلاعب بأحكام الله، وليس موقفهم في إطار منع التدبّر في النصوص والاستفادة الصحيحة من ذلك والاجتهاد الواعي[٢].

فقد ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في خطبة قالها ـ كما عن أبي طالب المكي ـ في وصف العلماء [أو المراؤون من العلماء] الذين يفتون الناس بآرائهم (وقد ذكرها السيد الرضي في نهج البلاغة) قال عليه السلام:

ورجل قمش جهلاً، موضع في جهّال الأمة، عادٍ في أغباش الفتنة، عمٍ بما في عقد الهدنة، قد سمّاه أشباه الناس عالماً وليس به، بكّر فاستكثر من جمع، ما قلّ منه خير مما كثر، حتى ارتوى من آجن، واكتنز من غير طائل، جلس بين الناس قاضياً، ضامناً لتخليص ما التبس على غيره، فإن نزلت به إحدى المبهمات هيّأ لها حشواً رثّاً من رأيه ثم قطع به، فهو من لبس الشبهات في مِثل نسج العنكبوت.

---

(١) الديمقراطية أبداً: ١٥٥.

(٢) انظر في ذلك الروايات الكثيرة الواردة في المراجع الحديثية. وسائل الشيعة ٢٥: ٣٥. مستدرك الوسائل ١٧: ٢٥٢ فما بعد.

منع كتابة الحديث

النتائج والآثار

تعرّفنا إلى هنا على بداية قضية منع الكتابة وكيفية تدوين الحديث، ووقفنا على تعليلات المبرّرين لهذه السياسة، وشرعنا في نقدها ودراستها، وأخيراً فقد تعرفّنا على كل ما خطر ببالنا بحثه من أرضية ذلك والأغراض المقصودة وراء منع الكتابة وأسراره وألغازه، وكل ما له دخل في معرفة سبب أو أسباب ذلك، وعلى كل حال فإن قضية منع الكتابة وتدوين الحديث وروايته حقيقة لها واقعها في تاريخ الإسلام، وهي حقيقة مرة ومكتنزة بالأضرار والمفاسد، ولها عواقبها المشؤومة.

ثم إنّ ممّا ذكرنا وأكّدنا ضرورته هو أن قضية منع كتابة الحديث وروايته كانت ظاهرة عليها طابع رضى السلطة، ولذا فإن الظاهرة المذكورة لم يتسع نطاقها من جهة، ومن جهة أخرى امتناع كل من كان قد خالف هذه السياسة ولم يلتزم بالأمر الصادر بمنع الكتابة ورواية الحديث، بل أصّر على توسعة رقعة نشر الحديث، فإن مع كل ذلك فقد كانت ظاهرة منع الكتابة ظاهرة حكومية وان الحكومة كانت تصرّ على ذلك، وكان عاقبة ذلك أن كلّ ما كان يدوّن ويكتب لم ينتشر بصورة صحيحة، وكل ما ينشر لم يشق طريقه في جميع خبايا المجتمع وكان محدوداً.

والآن نريد الحديث عن عواقب ونتائج كل ما ذكرنا وتحدثنا عنه ونفصّل الحديث عمّا يترتب على ذلك من نتائج، علماً بأن ما سوف نذكره وما نأتي به من أدلّة لدعم وتوضيح ذلك غيض من فيض، وأن في هذا النزر اليسير ما يدل على عمق آثار هذه الظاهرة المدمرة للثقافة وعلى مخلّفاتها ونتائجها المرّة والأليمة.

١ ـ ضياع الكثير من الأحاديث:

من الطبيعي أن أول ما يترتب على ظاهرة منع كتابة وتدوين الحديث ونشره هو ضياع ثروة عظيمة وكمّ هائل من أحاديث النبي ﷺ، وزوال مظاهر سنته الشريفة، مما ينتهي ذلك إلى حرمان الأمة الإسلامية من شطر كبير من السنة المطهرة لرسول الله ﷺ.

فقد تقدم أنّا ذكرنا أن أبا بكر كان قد كتب ٥٠٠ حديث عن رسول الله ﷺ[١] كان قد أحرقها جميعاً بعدما أصدر أمراً بمحو ما كُتب في ذلك. يقول حفظة السنة الشريفة والمحدثون أنه يوجد في المجاميع الروائية حالياً ١٤٢ حديثاً عن أبي بكر[٢]، فيكون ما أتلفه مما كتبه من حديث رسول الله ﷺ ٣٥٨ حديثاً.

وكتب السيوطي يقول:

السبب في قلّة ما روي عن أبي بكر الصديق، مع تقديمه وسبقه وملازمته للنّبي ﷺ أنّه تقدّمت وفاته قبل انتشار الحديث واعتناء الناس بسماعه وتحصيله وحفظه[٣].

---

(١) تذكرة الحفاظ ١: ٥. مجلّة علوم الحديث (الفصلية)، العدد ٥: ١١.

(٢) أسماء الصحابة الرواة: ٥٧.

(٣) تدريب الراوي ٢: ٦٧٧.

وقد تفوّه بمثل ذلك غيره أيضاً[١]، وفي الجميع دلالة على أن الخليفة كان يحفظ في صدره غير ذلك من الأحاديث الكثيرة، لكن حيث إنه لم تتوفّر الأرضية لروايته لم ينشر ولم يسجّل.

تقول أم سلمة زوجة الرسول الكريم ﷺ في هذا الشأن:

دعا رسول الله ﷺ بأديم وعلي بن أبي طالب عنده، فلم يزل رسول الله ﷺ يملي وعلي يكتب حتى ملأ بطن الأديم وظهره وأكارعه[٢].

وقال ﷺ في علي عليه السلام ـ الذي اتبعه اتباع الفصيل إثر أمه ـ:

ما علمت شيئاً إلاّ علّمته علياً، فهو باب مدينة علمي[٣].

فلنرَ كم عدد الروايات التي رواها هذا الرجل العظيم عن رسول الله ﷺ، وبعبارة أخرى: ما هو عدد الروايات التي رويت من معادنها الأولى والتي تحتوي على علم رسول الله والحقائق الإلهية مما رواه أبناء السنة في مراجعهم الحديثية؟.

يقول ابن حزم:

علي بن أبي طالب (رض)، خمسمئة حديث وستة وثلاثون حديثاً[٤].

ومن العجيب أنه ورد في تلك المراجع عن أبي هريرة ـ الذي كان مع

---

(١) توضيح الأفكار (الصنعاني): ٤٢٩. وركبت السفينة: ١٢٩، نقلاً عن: عمدة التحقيق في شارة الصديق.

(٢) أدب الإملاء والاستملاء: ٨٣. دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه ١: ١٢٧.

(٣) إحقاق الحق ٥: ٥٠١. و٤: ٢٥٨، نقلاً عن مناقب علي بن أبي طالب للمغازلي.

(٤) اسماء الصحابة الرواة: ٤٤.

رسول الله ﷺ عامين فقط ـ ٥٣٧٤ حديثاً في حين أن ما أوردوه عن علي عليه السلام الذي كان مرافقاً لرسول الله ﷺ طيلة مدة بعثته الشريفة ـ ٥٣٦ حديثاً.

وقد تنبه الأستاذ محمد أبو زهرة الكاتب المصري لهذه النكتة فقال:

وأنه يجب علينا أن نقرّر هنا أن فقه علي وفتاويه وأقضيته لم ترو في كتب السنة بالقدر الذي يتفق مع مدّة خلافته، ولا مع المدة التي كان منصرفاً فيها إلى الدرس والإفتاء في مدّة الراشدين قبله، وقد كانت حياته كلّها للفقه وعلم الدين، وكان أكثر الصحابة اتصالاً برسول الله ﷺ، فقد رافق الرسول وهو صبي قبل أن يبعث، واستمر معه إلى أن قبض الله تعالى رسوله إليه؛ ولذا كان يجب أن يذكر له في كتب السنة أضعاف ما هو مذكور فيها[1].

إن متابعة دراسة هذه الحقيقة مؤلمة ومؤسفة للغاية، فإنه لم يرو عن السيدة الزهراء عليها السلام من الرواية إلا النزر اليسير، لأنها لم تعش بعد رسول الله ﷺ إلا قليلاً.

وروي عن الإمام الحسن بن علي عليه السلام ثلاث عشرة رواية.

وروي عن الإمام الحسين الشهيد عليه السلام ثماني روايات[2].

في الوقت الذي يقول أبو العباس احمد بن محمد بن سعيد (ابن عقدة):

---

(١) الإمام الصادق عليه السلام: ١٦٢.

(٢) المراد بذلك ورودها في مراجع العامة بناءًا على أساس بعض النصوص نظير ما حكاه ابن حزم.

أنا أجيب في ثلاثمائة ألف حديث من حديث أهل البيت خاصّة[١].

وكان أبيّ بن كعب من وجوه الصحابة المعروفة، الذي أثنى عليه رسول الله وبارك له في علمه، فقال:

«ليهنك العلم أبا المنذر»[٢].

وشهد له عمر بذلك أيضاً، فقال:

«اللهم غفراً، إنا لنعلم أن الله قد جعَل عندك علماً، فعلّم الناس ما علمت»[٣].

هذا مضافاً إلى أن أُبيّ كان من أفضل قرّاء القرآن وكتّاب الوحي ومن الملازمين لرسول الله ﷺ، ومع ذلك كله يقول ابن حزم إنه وصلنا من أُبي ١٦٤حديثاً[٤]، سلمان الذّي قال رسول الله ﷺ فيه أنه:

«أدرك العلم الأوّل والعلم الآخر»[٥].

وقال أيضاً:

«... أدرك العلم الأوّل والآخر، بحر لا يُنزف»[٦].

وقالت عائشة:

كان لسلمان مجلس من رسول الله ﷺ ينفرد به بالليل حتّى كاد يغلبنا على رسول الله ﷺ[٧].

---

(١) تاريخ بغداد ٦: ١٥١. سير أعلام النبلاء ١٥: ٣٤٦.
(٢) مسند أحمد ٥: ١٤٢. المستدرك للحاكم ٣: ٣٠٤. سير أعلام النبلاء ١: ٣٩١.
(٣) المستدرك ٢: ٢٢٥. سير أعلام النبلاء ١: ٣٩٧.
(٤) اسماء الصحابة الرواة: ٥٤. ويعتقد الذهبي أنه ورد عنه في الصحاح الستة ما يقرب من ستين رواية. سير أعلام النبلاء ١: ٤٠٢.
(٥) سير أعلام النبلاء ١: ٥٤١.
(٦) طبقات ابن سعد ٢: ٤١. حلية الأولياء ١: ١٨٧. سير أعلام النبلاء ١: ٥٤٢.
(٧) الاستيعاب ٢: ١٩٦.

ولنتأمل في كلام ابن حزم حيث قال:

«سلمان الفارسي ستون حديثاً»[١].

وروي عن أبي ذرّ ـ الناطق بالحق والدائر مداره الذي لم يرضخ أبداً لأوامر منع كتابة ورواية الحديث ـ ٢٨١ حديثاً.

ولا بدّ من إضافة القول بأن هناك عدداً كثيراً من الصحابة أيضاً لم يرو عنهم في المجاميع الروائية حديثاً واحداً، ومن هؤلاء: زياد بن حنظلة التميمي الذي روي أنه كان مع رسول الله ﷺ في جميع الحروب وقد شهدها كلّها[٢]، وثمامة بن عدي ـ الذي كان من أوائل المهاجرين ومن المشاركين مع رسول الله في بدر[٣] ـ فإنه لم يرو له رواية واحدة، و....

وعلى كل حال، فإن منع الكتابة ونشر ورواية الحديث كانت ظاهرة من ظواهر ذلك العصر التي كان للسلطة فيها تدخل مباشر، ولذا فإن من الطبيعي وجود رواة امتنعوا عن كتابة الحديث بسبب الخشية من سطوة السلطة، ووجود آخرين لأجل الطمع أو الارتباط بالسلطة و... وبالنتيجة ذهاب شطر كبير من سنة رسول الله ﷺ.

ثم إنا ذكرنا أن عمر دعا جماعة من محدثي ورواة الكوفة ـ منهم: قرظة بن كعب ـ إلى المدينة فنهاهم عن رواية الحديث، قال قرظة بن كعب:

فما حدّثت بعده حديثاً عن رسول الله ﷺ[٤].

---

(١) اسماء الصحابة الرواة: ٧٤. قال الذهبي: روي عن سلمان في مسند بقيّ بن مخلد (٦٠) حديثاً، وروى عنه البخاري ستة أحاديث ومسلم ثلاثة.

(٢) المصدر السابق.

(٣) تذكرة الحفاظ ١: ١٠٦. الإصابة ٢: ٤٨١.

(٤) تذكرة الحفاظ ١: ٥ ـ ٤. المستدرك ١: ١٨٢. جامع بيان العلم وفضله ٢: ٩٩٨.

وذكروا في نصٍ آخر أنه قال:

وإن كنت لأجلس في القوم فيذكرون الحديث عن رسول الله ﷺ وإنّي لمن أحفظهم له، فإذا ذكرتُ وصية عمر سكت[١].

وقال يحيى بن سعيد:

أدركت الناس يهابون الحديث حتى كان الآن حديثاً قال: ولو كُنّا نكتب لكتبت من علم سعيد وروايته شيئاً كثيراً[٢].

وقال عروة بن الزبير:

كتبت الحديث ثم محوته، فوددت أنّي فديته بمالي وولدي وأني لَم أمحه[٣].

وقال هشام بن عروة:

إنه [= عروة] أحرقت كتبه يوم الحرة[٤]، وكان يقول: وددت لَو أن عندي كتبي بأهلي ومالي[٥].

وقال يزيد بن هارون:

حفظت ليحيى بن سعيد ثلاثه آلاف حديث، فمرضت فنسيت نصفها[٦].

---

(١) سنن الدارمي ١: ٦٠.
(٢) طبقات ابن سعد ٥: ١٤١. جامع بيان العلم وفضله ١: ٢٩١.
(٣) تقييد العلم: ٦٠. جامع بيان العلم وفضله ١: ٣٢٦.
(٤) وكانت هذه الواقعة عام ٦٣ للهجرة حيث داهمت الجيوش القادمة من الشام المدينة فقتلوا وأفسدوا.
(٥) الطبقات ٩: ١٧٥. المصنف (عبد الرزاق) ١١: ٤١٥. جامع بيان العلم وفضله ١: ٣٢٦.
(٦) تذكرة الحفاظ ١: ١٣٩.

وذكروا أن الشعبي قال:

ما كتبت سوداء في بيضاء إلى يومي هذا، ولا حدّثني رجل بحديث قطّ إلاّ حفظته، ولا أحببت أن يعيده عليّ، ولقد نسيت من العلم ما لو حفظه أحد لكان به عالماً[١].

وقد أتلف عبيدة بن عمرو السلماني ـ وكان من فقهاء الكوفة وعنده نسخ كثيرة ـ النسخ التي كانت عنده قبل وفاته، وقال:

أخشى أن يليها أحد بعدي فيضعونها في غير موضعها[٢].

وروى شعبة بن الحجاج عن منصور بن المعتمر أنه قال:

ما كتبت شيئاً قط... ووددت أني كتبت وأن عليّ كذا أو كذا؛ قد ذهب عنّي مثل علمي[٣].

كما أنّا أسلفنا أن ابن مسعود كانت عنده صحيفة فيها الأحاديث الحسان فمحاها، و....

كان هذا كله شيئاً يسيراً وهو من الشواهد والقرائن التي بإمكانها أن تكون دليلاً واضحاً على ضياع قسم كبير من المعارف الدينية والتعاليم النبوية، ولذا فإن كلام الدكتور أكرم ضياء العمري في المقام متين، قال:

لا شك أن العدد الأكبر من الصحابة لم تصل إلينا بواسطتهم أحاديث مروية عن رسول الله ﷺ[٤].

---

(١) المصدر السابق: ٨٤.

(٢) طبقات ابن سعد ٧: ١٢٧.

(٣) تقييد العلم: ٦٠. تذكرة الحفاظ ١: ١٢٧. سير أعلام النبلاء ٥: ٤٠٥. المحدث الفاصل: ٣٨٠.

(٤) (بقي بن مخلد القرطبي): ١٩. وراجع أيضاً: اسماء الصحابة الرواة: ١٠.

وحينئذٍ فلا بدّ من القول بأن الأيام لم تمض إلاّ وأخذت معها شطراً واسعاً وكبيراً من العلوم وزالت آثار الدين ومعالمه.

قال السيد رشيد رضا ـ وكلامه هنا دقيق جداً ـ:

...ونحن نجزم بأننا نسينا وأضعنا من حديث نبينّا حظّاً عظيماً؛ لعدم كتابة علماء الصحابة كلّ ما سمعوه..[1].

إلاّ أن كلامه آخر البحث مما لا ينقضي منه العجب، قال:

ولكن ليس منه ما هو بيان للقرآن أو من أمور الدين....

فمن أين أتى رشيد رضا بذلك؟ وما هو دليله على أن ما ضاع لم يكن من الدين أو القرآن أصلاً؟

إلى هنا نكتفي بما ذكرنا في تصوير هاتين الحقيقتين «عدم الكتابة» و«المنع من رواية الحديث» اللتين مهّدتا الأرضية لضياع قسم واسع من السنة الشريفة، علماً بأن هناك قرائن وأدلة دامغة أكثر بكثير مما ذكرناه في هذا المجال.

٢ ـ اتساع رقعة الوضع والجعل في الأحاديث:

لا ريب في أن لجعل الحديث ووضعه أُصولاً وجذوراً منذ زمان النبي ﷺ[2]، فإن الكذب والافتراء على النبي بوضع الحديث قد وصل

---

(١) المنار ٦: ٢٨٨.

(٢) لقد حاول الكتّاب والمحققون من علماء أهل السنة إرجاع تاريخ وضع الحديث إلى زمان متأخر عن زمان رسول الله ﷺ، بل حتى عن زمان الصحابة. والذهاب إلى هذا القول قبل أن يكون مستنداً إلى واقع صادق وأدلة مثبتة لذلك، هو مجرد كلام مبني على فرض مسبق يتعلّق بالصحابة، وهو أنهم جميعاً عدول، وحينئذٍ فهم لا يخطؤن أبداً ولا يكذبون، وبالنتيجة فهم لا يكذبون على رسول الله. =

في زمان حياته صلوات الله عليه حدّاً أنه قام بينهم خطيبا فقال:

أيها الناس! قد كثرت عليّ الكذابة، فمن كذب عليّ متعمداً فليتبّوأ مقعده من النار.

وقد روى هذه الرواية محدّثو الفريقين[١]، كما صرّح بتواترها بعض العلماء.

=وفيذلك كتب السيد مصطفى السباعي يقول: «ليس من المعقول أن يقترف أحد من الصحابة على الرسول، أو يخوضوا في الكذب عليه، وهم الذين سمعوه أكثر من مرة يقول: «من كذب عليّ متعمّداً فليتبوّأ مقعده من النار». ومن غير المعقول أيضاً أن يجازف أحد منهم بالنور النبوي الذي خالط قلبه وروحه ليطفئه بوضع حديثٍ في سبيل دعم فكرة أو للانتصار على حزب أو التقرّب من شخصٍ...» (السنة ومكانتها في التشريع: ٧٦).

وحاول أيضاً غير أولئك إرجاع تاريخ هذه الظاهرة إلى عصر ما بعد الفتنة ـ على حد تعبيرهم ـ أي بعد عام ٤٠ للهجرة أو حتى بعد عام ٧٠ أيضاً ـ كما حاول البعض سحبه إلى ذلك الوقت ـ لئلاّ يمس ذلك الساحة المقدسة للصحابة (الحديث والمحدثون، محمد أبو زهو: ٤٨٠) السنة قبل التدوين (محمد عجاج الخطيب): ١٨٧. بحوث في تاريخ السنة المشرفة: ١٥. الاسرائيليات والموضوعات: ٣٢. الوضع في الحديث ١: ١٧٥ فما بعد. انظر في نقد ذلك: الغدير ٥: ٢٠٨ فما بعد. الموضوعات في الآثار والأخبار (هاشم معروف الحسني): ٩٠ ـ ١٥٢. المعجم المفهرس لألفاظ أحاديث بحار الأنوار ١: مقدمة الكتاب (محمد علي مهدوي راد)، وقد بحثنا ظاهرة الوضع وأرضية الداوعي لذلك وطرق معرفة الوضع وتأثيره في تطور بعض الاعتقادات في الثقافة الإسلامية، وقد طرحنا ذلك مراراً في الجامعة، نسأل الله تعالى إعادة النظر في ذلك والتوفيق.

(١) وردت هذه الرواية في المراجع الحديثية لأهل السنة بطرق عديدة، وقد ذكر ابن الجوزي أن الحديث المذكور رواه (٩٨) صحابياً، ثم تعرّض مفصّلاً لطرق الحديث المذكور (الموضوعات ١: ٥٣، فما بعد ـ طبع المكتبة التدمرية)، وقد ذكروا في هذه النصوص الجوّ الذي صدر فيه الحديث. وقد نقده بعض الباحثين (المصدر المتقدم: ١٥، الهامش. لمحات في تاريخ السنة: ٢٩).
وعلى كل حال، فإن صدور الرواية قطعي سواء كانت خلفيتها مسلّمة أم لا. وقد بحثت المراجع الشيعية كيفية الصدور ـ مع أخذ ظاهرة الكذب والجعل بعين الاعتبار ـ فذكر ذلك أقدم المراجع وهو كتاب «مختصر إثبات الرجعة» و«إثبات الرجعة» للفضل بن شاذان (مجلة تراثنا، العدد ١٥: ٢٠٢) وقد رواه عن سليم، والرواية موجودة، في كتاب سليم (المصدر السابق ٣: ٩٧٠ ـ ٩٧٣. وانظر أيضاً: بصائر الدرجات: ١٩٨. إكمال الدين: ٢٨٤. نهج البلاغة: ٣٢٥. الأصول من الكافي ١: ٦٢. مقباس الهداية ١: ١١٥. مستدركات المقباس ٤: ٦٢. نقلاً عن المراجع الكثيرة. تفسير العياشي ١: ٢٤٦. شرح ابن أبي الحديد ١١: ٣٨) مما يذكر أن مراجع أهل السنة ذكرت حديث «من كذب عليّ...» بدون المقدمة التي ذكرناها في المتن.

قال الشهيد الثاني ـ رضوان الله عليه ـ:

حديث من كذب عليّ متعّمداً... يمكن ادّعاء تواتره، فقد نقله عن النبي ﷺ من الصحابة الجمّ الغفير، وقيل الرواة منهم له اثنان وستون صحابياً[١].

وقال العالم الجليل الميرزا حبيب الله الخوئي:

هذا الحديث النبوي ممّا رواه الكلّ، وادعّى تواتره، واستدل به على وجود الأخبار الكاذبة ردّاً على من أنكر وجودها أو استبعدها[٢].

وحينئذٍ فعلى كل حال، إمّا أن تكون هذه الرواية صحيحة فهي تدل على وجود أشخاص كانوا يكذبون فنهاهم النبي عن ذلك وحذّرهم، أو تكون غير صحيحة فهي بنفسها تدل على وجود الكذب.

كتب السيد جمال الدين القاسمي أيضاً يقول:

إنّ حديث من كذب عليّ... في غاية الصحة ونهاية القوّة حتّى أطلق عليه جماعة أنّه متواتر[٣].

وقال الرجالي والفقيه الشيعي الكبير العلامة المامقاني ـ بعد بحث نافع في التواتر وأقسامه، ذكر بمناسبة عرض نماذج للمتواتر اللفظي ـ:

... نعم: حديث من كذب عليّ متعّمداً فليتبوّأ مقعده من النّار، يمكن ادعّاء تواتره، فقد نقله عن النبي ﷺ اثنان وستون صحابياً، ولم يزل العدد

---

(١) الرعاية في علم الدراية: ٦٩.
(٢) منهاج البراعة ١٤: ٢٩.
(٣) قواعد التحديث: ١٧٩.

الراوي له في ازدياد، وظاهر أن التواتر يتحقق بهذا العدد، بل بما دونه[١].

وقال ابن الصلاح ضمن حديثه عن التواتر وعرض نماذج لذلك:

... نعم حديث «من كذب عليّ متعمّداً فليتبوّأ مقعده من النار» نراه مثالاً لذلك [أي للمتواتر]؛ فإنه نقله من الصحابة(رض) عنهم العدد الجمّ، وهو في الصحيحين مرويّ عن جماعة منهم[٢].

والرواية المذكورة ـ التي تحدث عنها المحدثون بهذه الصراحة وأكدوا تواترها ـ تدل على أن لجعل الحديث أصولاً وجذوراً في ذلك الزمان، وعلى وجود جماعة آنذاك مهمّتهم وضع الحديث.

قال أحمد أمين في كلام متين له في هذا المجال:

نشأ من عدم تدوين الحديث في كتاب خاص في العصور الأولى واكتفاؤهم بالاعتماد على الذاكرة، وصعوبة حصر ما قال رسول الله ﷺ أو فعل في مدّة ثلاثة وعشرين عاماً من بدء الوحي إلى الوفاة، أن استباح قوم لأنفسهم وضع الحديث ونسبته كذباً إلى رسول الله ﷺ.

هذا، وقد اتسعت رقعة الوضع بعد وفاة رسول الله ﷺ وبعد ذلك اتسعت رقعة منع التدوين والرواية، قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في الخطبة التي ذكرنا: ثم كذب عليه من بعده..[٣].

---

(١) مقباس الهداية في علم الدراية ١: ١٢٣.
(٢) علوم الحديث لابن صلاح (مقدمة ابن صلاح): ٢٦٩، تحقيق نور الدين عتر.
(٣) الأصول من الكافي ١: ٦٢.

وقال ابن عباس:

إنّا كنّا نحدّث عن رسول الله ﷺ إذ لم يكن يكذب عليه، فلمّا ركب الناس الصعب والذّلول تركنا الحديث عنه[١].

وهكذا فقد اتسعت رقعة الجعل والوضع وترعرع في مهد التأريخ افتعال الحديث والكذب، وصار ذلك ظاهرة تمثّلت بأشكال مختلفة، وقد لعبت هذه الظاهرة ـ وللأسف ـ دوراً في التأثير على آثار ومآثر الثقافة الإسلامية. ولا ريب فإن أهم سبب في بروز هذه الظاهرة هو منع التدوين والرواية. وعندما لم تدوّن الأحاديث حتى حين صدور الرخصة في الرواية والكتابة وبعد سنوات عديدة صار الكثير ـ ولدواعٍ وأغراض متعدّدة، وتعويلاً منهم على ذاكرتهم ـ بصدد الجعل والوضع، قال الفقيه المصري المعاصر الشيخ محمد علي سايس في هذا المجال:

نشأ من عدم تدوين الحديث واكتفاء الصحابة بالاعتماد على الذاكرة، وصعوبة ما قال رسول الله ﷺ وفعل في مدة ثلاثة وعشرين عاماً من بدء الوحي إلى الوفاة أن وجد أعداء الإسلام الذين غلبوا على أمرهم من اليهود والفرس والروم منفذاً يدسّون منه على المسلمين ما يفسد دينهم... وقد سدّت في وجوههم أبواب الكتاب، إلاّ أن يلجوا على المسلمين من باب السنة الفسيح، فألفوا الجمعيات لوضع الأحاديث في التشبيه والتعطيل وتحريم الحلال وتحليل الحرام. ثم كثر الوضع كثرة مزعجةً مروعة بتصدّع الوحدة الإسلامية وظهور الفرق الدينيّة..[٢].

---

(١) للتعرف على دواعي الجعل والوضع انظر: دليل القضاء الشرعي ٣:٣٣. الموضوعات في الآثار والأخبار: ١٢٤. منهاج البراعة ١٤:٣٦. أضواء على السنة المحمدية: ١١٨.

(٢) دليل القضاء الشرعي ٣:٣١. نقلاً عن تاريخ الفقه الإسلامي: ٦٨.

والكلام المذكور لهذا الكاتب متين، ذلك أن المعاندين ومحاربي الثقافة الذين شمروا عن سواعدهم ليقضوا على عظمة الدين، والذين يأسوا من التلاعب بالقرآن وآيات الكتاب العزيز حيث تقصر أيديهم عن ذلك لما رأوا كل ذلك أقبلوا على السنة، وقام فيهم أشخاص يحملون عناوين معيّنة كالمحدّث وشيخ الحديث والصحابي، حيث حدّثوا كثيراً وفي أمور شتى تعويلاً منهم على ذاكرتهم وبذريعة أنهم لم يكتبوا الحديث وأن هذه التعاليم كانت في صدورهم، وهكذا فقد اتسعت رقعة الوضع والجعل.

ولنذكر كلام العلاّمة السيد عبد الحسين شرف الدين ـ الذي كان وبحق شرفاً للدين وناموساً للمسلمين ـ فإنه يعتقد أن منع الخلفاء للكتابة ورواية الحديث أمر اجتهادي قبال النص من رسول الله ﷺ على الكتابة ورواية الحديث، قال:

ولا يخفى ما قد ترتّب على هذا من المفاسد التي لا تتلافى أبداً. فليت الخليفتين صبّرا نفسيهما مع علي بن أبي طالب وسائر الذين يدعون ربهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه من آل محمد ﷺ والخيرة من أصحابه في حبسهم على جمع السنن والآثار النبوية وتدوينها في كتاب خاصٍ يرثه عنهم من جاء بعدهم من التابعين فتابعيهم في كل خلف من هذه الأمّة... ولو فعلا ذلك لعصما الأُمة والسنّة من معرّة الكاذبين بما افتأتوه على رسول الله ﷺ؛ إذ لو كانت السنن مدوّنة من ذلك العصر في كتاب تقدّسه الأمة لأرتج على الكذّابين باب الوضع، وحيث فاتهما ذلك كثرت الكذابة على النبي ﷺ، ولعبت في الحديث أيدي السياسة، وعاثت به ألسنة الدعاية

الكاذبة، ولاسيما على عهد معاوية وفئته الباغية، حيث سادت فوضى الدجالين، وراج سوق الأباطيل، وقد كان في وسع الخليفتين وأوليائهما أن يكفوا الأمة شرّ هؤلاء بتدوين السنن على نحو ما ذكرناه، وما كان ليخفى عليهم رجحان ذلك، ولعلّ مطامعهم التي تأهبّوا وأعدّوا وتعبّأوا لها لا تتّفق مع كثير من النصوص الصريحة المتواترة التي لا بدّ من تدوينها لو أبيح التدوين؛ لكونها مما لا يجحد صدوره، ولا يكابر في معناه. ومن ها هنا أُتينا، فإنّا للّه وإنّا إليه راجعون[1].

لقد جرى هذا الكلام على قلمه الشريف جرّاء ما كان يعاني من ألم وحرقة، وكلامه هذا يفصح عن نفسه بنفسه، ذلك أن هذا العَلَم كان من أعرف أهل زمانه في درك الإسلام وتاريخ الإسلام وبالأحاديث ونتائج ما اتخذه الخلفاء من قرارات، والكلام المذكور الذي ذكرناه هنا باختصار، ونظراً إلى ما يلعبه «عدم الكتابة» في «الجعل» و«الوضع» وما يتعقّب ذلك من نتائج بإمكانه أن يكون حجة دامغة بلحاظ إشراف هذا العَلَم الكبير التام على تأريخ الإسلام.

وكتب العالم المصري النبيه محمود أبو رية، يقول:

كان من آثار تأخير تدوين الحديث وربط ألفاظه بالكتابة إلى ما بعد المئة الأولى من الهجرة وصدر كبير من المئة الثانية أن اتسعت أبواب الرواية وفاضت أنهار الوضع بغير ضابط ولا قيد، حتى قد

(١) النص والاجتهاد: ١٤٣ ـ ١٤٤. (تحقيق: أبو مجتبى).

بلغ ما روي من الأحاديث الموضوعة عشرات الألوف، لا يزال أكثرها منبّثاً بين تضاعيف الكتب المنتشرة بين المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها[١].

وبإمكاننا مشاهدة نماذج هذه التوسعة لرواية الحديث بعد منع التدوين في كثرة ما رواه أمثال أبي هريرة على ما ستأتي الإشارة إليه، قال المحقق الفقيد الناقد هاشم معروف الحسني:

ولو وقف المسلمون بعد وفاة الرسول ﷺ من السنة موقفاً سليماً وعملوا على تدوينها وجمعها من صدور الحفّاظ قبل أن تأكلهم الحروب والغزوات، وقبل أن تعبث بها أيدي الدساسين والمخرّبين، لو وقفوا منها هذا الموقف لقطعوا الطريق على هؤلاء وغيرهم من المرتزقة الذين كانوا يتقرّبون إلى الحكّام بوضع الأحاديث التي تمسّ أقربائهم السياسيين ويؤيّد عروشهم، ولكن الحكام بعد وفاة الرسول ﷺ بدلاً من أن يفسحوا المجال لجمعها من الصدور قبل أن تعبث بها الأيدي، منعوا من تدوينها وجمعها في الكتب بحجة المحافظة والحرص على كتاب الله كي لا تحتل مكانته من القلوب والنفوس، كما تحدّد أكثر الروايات موقف الخليفة الثاني من هذه المسألة..[٢].

كما أن الكاتب أحمد أمين يعتقد أن من جملة أسباب ودواعي الجعل والوضع هو عدم الكتابة والتدوين لتلك المجاميع الحديثية.

---

(١) أضواء على السنة المحمدية: ١١٨. وأيضاً: ٢٨٥ ـ ٢٨٦.

(٢) دراسات في الحديث والمحدثين: ٩ ـ ١٠.

والنكتة الحرية بالتأمل والاهتمام في كلام وآراء العلماء والمحققين، الدور الذي لعبته أيادي الحكّام والجبارين الأثيمة والخبيثة في ظاهرة جعل ووضع الحديث في سبيل استغلال هذه الأجواء وليتمكّنوا من جعل الأحاديث ونشرها في ظل الكتمان وانعدام الحقائق.

لقد استأجر هؤلاء الأُجراء ممّن له طمع من الرواة ودعاة الحديث والزهد فأضافوا آلاف الأحاديث على المجاميع الروائية، فصاروا بصدد طرد المنافسين عن الساحة وافتعال أحاديث للوجوه البارزة التي تدعم سياسة منع التدوين ممّن كان طريداً عن الساحة، واصطناع وجوه دينية واجتماعية لهم.

ولا ريب في أنه لو كانت كل تلك الفضائل المروية عن رسول الله ﷺ في جماعة كثيرين آخرين لما وجد هؤلاء فرصة اختلاق كل ذلك أبداً، ولو كانت الأحاديث في متناول الأمة إذ سمعت رسول الله ينادي في الملأ وفي المحلّة والمسجد عندما رأى أبا سفيان على رحله وابنيه سفيان ومعاوية معه أحدهما يقود والآخر يسوق قال:

«اللهم العن القائد والسائق والراكب»[1].

فلا يبقى مجال لأبي هريرة أن يختلق الحديث وينسبه إلى رسول الله وينشره بين الناس، حيث يقول:

«إن الله ائتمن على وحيه ثلاثة: أنا وجبرئيل ومعاوية، وكاد أن يبعث معاوية نبياً...».

فأين معاوية من الأمانة، وأين معاوية من أن يبعث نبياً؟

هذا وقد روى السيوطي الحديث المذكور فقال:

---

(١) وقعة صفين: ٢٢٠.

قال النسائي وابن حبّان: هذا الحديث باطل موضوع(١).

وللأستاذ المرحوم محمد تقي شريعتي إشارة ظريفة تتعلّق بالنكتة المذكورة، فقال:

لقد ارتكب الذين منعوا رسول الله ﷺ من أن يكتب كتاباً أواخر حياته ظلماً قبيحاً، والذين منعوا من بعد ذلك كتابة الحديث وروايته حيث أدّى فعلهم إلى إرهاق المسلمين بل ضياعهم، وذلك أنهم منعوا من جهة رواية وكتابة الحديث النبوي، ومن جهة أخرى أصدر معاوية أمراً بجعل الحديث في فضائل الخلفاء الثلاثة وذم أهل بيت النبي ﷺ خصوصاً علي عليه السلام..(٢).

فلو أن الحديث كان يكتب ويُروى وكانت فضائل علي تُنشر وتبلغ أسماع الجميع، فأيّ مجال يبقى لجعل ووضع فضائل الصحابة والخلفاء؟! ولو أن المسلمين كانوا يعلمون بحقٍ ما صدر عن رسول الله ﷺ وكانوا قد سمعوا وارتووا منه لم يكن بإمكان الحكام ـ عن طريق العملاء من أعداء الثقافة ـ أن يجعلوا الحديث ويفشوه ويفتعلوا شخصيات مصطنعة؟

هذا، وقد ذكر ابن أبي الحديد شطراً من الأفعال القبيحة والمنحرفة لمعاوية والأمويين في هذا الصدد، فقد حكى عن المدائني مساعي ومحاولات معاوية وتمهيده من أجل محو اسم علي وذكره وفضائله عن الأذهان والألسن، وأنه كان يفتعل الفضائل للخلفاء والصحابة ويروّج ذلك ويعلّمه، فكتب يقول:

---

(١) اللآلىء المصنوعة ١: ٤١٧.

(٢) الخلافة والولاية بمنظار القرآن والسنّة (فارسي): ١٥٩.

«... وتعلّموه كما يتعلّمون القرآن وحتّى علّموه بناتهم ونساءهم وخدمهم وحشمهم، فلبثوا بذلك ما شاء الله...» ـ ثم قال ـ: «فظهر حديث كثير موضوع وبهتان منتشر»[١].

ثم إن ابن أبي الحديد ـ بعدما ذكر ما تقدم عن المدائني ـ ذكر كلاماً لابن عرفة (المعروف بابن نفطويه)، فقال:

إن أكثر الأحاديث الموضوعة في فضائل الصحابة افتعلت في أيام بني أُميّة؛ تقرّباً إليهم بما يظنّون أنهم يرغمون به أنوف بني هاشم[٢].

وقد تنبّه لذلك المؤرّخ والمحقق الكبير ابن قتيبة فقال:

... وأهملوا من ذكره، أو روى حديثاً من فضائله، حتى تحامى كثير من المحدّثين أن يتحدّثوا بها، وعنوا بجمع فضائل عمرو بن العاص ومعاوية كأنهم لا يريدونهما بذلك، وإنّما يريدونه...

فإن قال قائل «أخو رسول الله ﷺ علي وأبو سبطيه الحسن والحسين وأصحاب الكساء علي وفاطمة والحسن والحسين تمعّرت الوجوه وتنكّرت العيون وطرت حسائك الصدور و..[٣].

لماذا كل ذلك؟ لأن الجهاز الحاكم الظالم لا يرضى بعليّ ولا باسم عليّ، ولا يرتضي الفضيلة ولا مظاهر الفضيلة، وبذلك فلا بد من الوقوف

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ١١: ٤٤ ـ ٤٦.
(٢) المصدر السابق.
(٣) الاختلاف في اللفظ: ٤٢.

أمام نشر الفضيلة ليتيسّر جعل واصطناع الفضيلة لأُناس تمتلئ حياتهم بالرذيلة.

وتتمة كلام ابن قتيبة ـ الذي ذكرنا شطراً منه ـ وغيره من النصوص شاهد على هذه الحقيقة، ويعدّ أمر عدم الكتابة والمنع من نشر الحق وعدم الحقائق في المجتمع أرضية مناسبة لكل هذا الضياع والضلال.

يقول عبد الله بن أحمد بن حنبل:

سألت أبي عن علي ومعاوية، فقال: اعلم أن علياً كثير الأعداء، ففتّش له أعداؤه شيئاً فلم يجدوه، فجاؤوا إلى رجلٍ قد حاربه وكاده، فأطروه كيداً منهم له[1].

لقد تحدثوا في فضل معاوية وجعلوا الحديث في ذلك ونشروه عسى أن يحطّوا من المكانة الرفيعة لمولى الموحّدين.

وكيف كان فقد زادِ المنع من التدوين ومن نشر الفضائل والحقائق والتعاليم الحقة وترك الطامعين والحاقدين، أعداء الثقافة والتراث من الكذابين، لقد زاد ذلك في تأجيج النار وتمهيد أرضية الجعل والنشر.

ومن أجل أن نتعرّف أكثر على قضية «الجعل» و«الوضع»، ونتعرف على كيفية تكوّن الصحاح الستة لأهل السنة، نقدّم تقريراً في نصوص وأحاديث هذه المجموعة من بين سائر المجاميع الأخر، وفي ذلك عبرة لمن اعتبر.

والتقرير الذي سوف نقدمه مبني على أساس ما توصل إليه المحقق والمدافع عن حريم الولاية العلوية العلاّمة الأميني ـ رضوان الله عليه ـ مع الرجوع إلى المصادر والمراجع الأخرى:

---

(١) الصواعق المحرقة ٢: ٣٧٤. مؤسسة الرسالة.

أورد أبو داود في سننه ٤٨٠٠ حديثاً، وذكر أنه اختار ذلك من بين خمسمائة ألف حديث[١]، وفي صحيح البخاري مع حذف مكررات ذلك ٢٧٦١حديثاً، وكان قد اختار ذلك من بين ما يقرب من ستة آلاف حديث[٢]، وأورد مسلم في صحيحه أربعة آلاف حديث بلا تكرار، اختارها مسلم من بين ثلاثين ألف حديث[٣].

وأورد أحمد بن حنبل في مسنده ثلاثين ألف حديث اقتبسها من بين سبعمئة وخمسين ألف حديث. وذكروا أنه كان يحفظ مليون حديث[٤]. وكتب أحمد بن فرات (ت = ٢٥٨هـ) مليون ونصف حديث، اختار من بينها ثلاثمائة ألف، بعضها في روايات التفسير والأحكام والفوائد المتفرقة[٥].

ويدلّ هذا الكمّ الهائل على ما فعلته الأيادي الأثيمة والعقول المريضة وأعداء التراث بدين الله تعالى. فالبخاري بذل جهداً فاختار من بين كل هذه الأحاديث مقداراً يعتقد هو بصحته[٦]، إلاّ أن ما جاء في صحيح البخاري أيضاً غريب جدّاً؛ إذ إن بعض نصوصه غير صحيحة يحتاج البحث فيها إلى مجال آخر.

هذا، لمّا كان الحديث لم يدوّن بعد، إلاّ في المحافل الخاصة فقط

---

(١) تذكرة الحفاظ ٢: ٥٩٣. تاريخ بغداد ٩: ٥٨، ط ـ دار الكتب العلمية. المنتظم (لابن الجوزي) ١٢: ٢٦٩. تاريخ الإسلام (الذهبي): ٣٦٠. سير أعلام النبلاء ١٣: ٢١٠. طبقات الشافعية ٢: ٢٩.

(٢) تاريخ بغداد ٢: ١٤. تهذيب الكمال ٢٤: ٤٤٢. طبقات الحنابلة ١: ٢٧٥. إرشاد الساري ١: ٥٠.

(٣) تذكرة الحفاظ ٢: ٥٨٩. المنتظم (لابن الجوزي) ١٢: ١٧١. شرح صحيح مسلم (النووي) ١: ٢١. الحطة في ذكر الصحاح الستة: ٣٠٦. الإمام مسلم ومنهجه في صحيحه: ١٠٨.

(٤) تذكرة الحفاظ ٢: ٤٣١. مسند أحمد بن حنبل ١: ٥٦، ط ـ مؤسسة الرسالة (المقدمة).

(٥) خلاصة التهذيب (الخزرجي) ١: ٢٧. الغدير٥: ٤٦٩ ـ ٤٧٠.

(٦) إلا أن الكثير من نصوص هذا الكتاب لا تتلاءم مع العقل ولا مع الفكر الديني ولا مع الأحاديث الأُخر ولا... انظر: سيرى در صحيحين (محمد صادق نجمي). نظرة عابرة إلى الصحاح الستة (عبد الصمد شاكر). أبو هريرة (السيد عبد الحسين شرف الدين). أضواء على السنة المحمدية (محمود أبو رية).

بعيداً عن أعين الحكومة، ومن ثم أقبلت الأُمة على كتابة الحديث وتدوينه، ووجدت الأرضية المناسبة للكذب والجعل، وهكذا خلت الساحة للأحبار والرهبان ومرضى القلوب وأهل البدع وناشري الخرافات، فكانوا يروون كل ما يخطر ببالهم؛ بزعم أنهم يروون ذلك تعويلاً على الذاكرة، فصاروا بذلك يخدعون البسطاء من المسلمين، فكان القصاصون يزيّنون مجالسهم بهؤلاء، وكان المتجبرون يعتبرون مثل هذه الروايات سنداً يدعمون به سلوكهم المنحرف. وحينئذٍ يظن شخص مثل أحمد بن حنبل أن من الكرامة أن يكون الإنسان حافظاً آلاف الأحاديث، أو يظن البخاري أن من الفضيلة أن يكون في صدر الشخص خمسمائة ألف حديث و..[1].

إن من الأمر العجاب والمؤسف أن تكون الكثير من الأحاديث المجعولة والموضوعة في حصن حصين بحيث صارت تشكّل قواعد الفكر الإسلامي وأصول المعارف الدينية، حتى أن ذلك الردع والمنع عن كتابة الحديث وروايته من جهة، وظاهرة الوضع والجعل من جهة أخرى أوجد كل ذلك أرضية النظرة الخاطئة وغير الصحيحة تجاه الإسلام والقرآن والدين بأسره، وهكذا فقد تبلور الفكر الإسلامي بمعزل عن الأصول والأسس الحقة، على ما سيأتي بيانه.

ثم إن هناك آثاراً وعواقب تترتب على منع التدوين والكتابة سوف نتعرض لها في مجال آخر، والله الموفق.

٣ ـ انتشار الإسرائيليّات

إنّ من جملة الآثار المترتبّة على منع تدوين الحديث ونشره، هو انتشار الإسرائيليّات.

---

(١) أصول الحديث وأحكامه في علم الدراية: ١٠٧.

فعبر منع تدوين ونشر حديث رسول الله ﷺ، لم يذاع نهي الرسول ﷺ وتحذيره من توغل الثقافة الأجنبيّة من جهة، وكان هذا المنع بمثابة الأرضيّة المواتية لانتشار واتّساع رقعة مثل هذه الثقافات في أوساط المسلمين نتيجة للفراغ الثقافي لمنع تدوين الحديث إلى المسيحيّين واليهود لنشر أفكار وآثار هؤلاء في أوساط المسلمين بشدّة. نلقي الآن نظرة على مفهوم ومصداق «الإسرائيليّات» بعدها سنركز على دور منع التدوين في انتشارها: قال الأستاذ محمّد حسين الذهبي:

لفظ الإسرائيليّات، جمع مفرده اسرائيليّة، وهي قصّة أو حادثة تروى عن مصدر إسرائيليّ، والنسبة فيها إلى إسرائيل وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم أبو الأسباط الاثني عشر[1].

وقال أيضاً:

المقصود من الإسرائيليّات أو المعنى الإصطلاحيّ لها، لم يتحدّث عنه المتقدّمون وإنّما تحدّث عنه عدد من الباحثين المحدّثين، فمنهم من قال: لفظ الإسرائيليّات وإن كان يدلّ بظاهره على اللّون اليهوديّ للتفسير، وما كان للثقافة اليهوديّة من أثر ظاهر فيه[2].

إلاّ أنّا نريد به ما هو أوسع من ذلك وأشمل، فنريد به ما يعمّ اللّون اليهوديّ واللّون النصرانيّ للتفسير، وما تأثّر به التفسير من الثقافتين اليهوديّة والنصرانيّة، وإنّما أطلقنا على جميع ذلك لفظ الإسرائيليّات من باب

(١) الإسرائيليّات في التفسير والحديث ١٩.
(٢) التفسير والمفسّرون ج١/ ١٦٥.

التغليب للجانب اليهوديّ على الجانب النصرانيّ، فإن الجانب اليهوديّ هو الذي اشتهر أمره فكثر النقل عنه، وذلك لكثرة أهله وظهور أمرهم، وشدّة اختلاطهم بالمسلمين من مبدأ ظهور الإسلام إلى أن بسط رواقه على كثير من بلاد العالم ودخل الناس في دين الله أفواجاً.

وقال فان فلوتن:

يطلق علماء المسلمين كلمة إسرائيليّات على جميع العقائد غير الإسلاميّة ولا سيّما تلك العقائد والأساطير التي دسّها اليهود والنصارى في الدين الإسلاميّ منذ القرن الأوّل الهجريّ[١].

وقال الدكتور محسن عبد الحميد:

الإسرائيليّات اصطلاح أطلقه المدقّقون من علماء الإسلام على القصص والأخبار اليهوديّة والنصرانيّة التي تسرّبت إلى المجتمع الإسلامي بعد دخول جمع من اليهود والنصارى إلى الإسلام أو تظاهرهم بالدخول فيه[٢].

نذكر هنا أنّ جملة «لم يتحدّث عنه المتقدّمون» الواردة من بيان الدكتور الذهبيّ فإن كان المقصود من استخدام هذا الاصطلاح للدلالة على آثار المتقدّمين فحسب، وليس المقصود منه الصحابة والتابعين فقط فهذا ليس بصحيح، فقد ذكر ابن كثير(م ٧٧٤هـ) هذا الاصطلاح حيث جاء به في ذيل قصّة آدم عليه السلام وما حصل له مع الشيطان والأخبار حول اسمه ومعالمه وكيفيّته، يقول:

---

(١) السيّادة العربيّة والشيعة والإسرائيليّات في عهد بني أُميّة ـ فان فلوتن ترجمة وتعليق: حسن إبراهيم حسن ومحمّد زكيّ إبراهيم ١٠٩، الإسرائيليّات وأثرها في كتب التفسير٧٣.

(٢) الآلوسي مفسّراً ٢٨٢.

وقد روي في هذا آثار كثيرة عن السلف وغالبها من الإسرائيليّات التي تنقل لينظر فيها، والله أعلم بحال كثير منها، ومنها ما قد يقطع بكذبه و..[١].

على أيّة حال فإن إقحام الآثار الدخيلة وسط الآثار الإسلاميّة والدور المخرّب للإسرائيليّات في المآثر الثقافيّة والمعرفيّة للمسلمين خاصّة في مجال تفسير القرآن والأُمور المتعلقّة بالخلق والعقائد، أمر مفروغ منه، وبالضبط فإن هذه الآثار انتشرت وبلغت الأوج من عهد الخلفاء وحكومة الأمويّين.

وقد ترافق في ذلك العهد عدم انتشار المعارف الصحيحة والعلوم المفيدة ومنع تدوين الحديث ونشره وغلق باب عليّ عليه السلام من جهة ومراجعة الناس الخلفاء للتعرّف على المفاهيم المبهمة في القرآن ورفع المشكل من جهة أُخرى، بروز حالة فراغ ثقافيّ في المجتمع، وقد استغل علماء اليهود وباقي الأديان الأُخرى، هذه الفرصة فأسلموا من الظاهر وعمدوا في ظلّ دعم الحكّام إلى نشر آثارهم وأفكارهم المنحرفة.

لا شكّ أنّ هؤلاء فعلوا فعلتهم هذه بنوايا خبيثة لتلويث الثقافة الإسلاميّة، لكن لنا أن نتساءل بأيّ نيّة فعل ذلك من دعم هؤلاء وروّج لآثارهم؟! لننظر إلى حكميّة المحقّقين:

قال الحافظ ابن كثير:

أسلم كعب في الدولة العمريّة وجعل يحدّث عمر عن كتبه قديماً، فربّما استمع له عمر، فترخّص الناس في استماع ما عنده ونقلوا ما عنده منه غثها

(١) عمدة التفسير وخلاصة تفسير ابن كثير، أحمد محمّد شاكر، ج١/ ١٥ وراجع أيضاً: تفسير ابن كثير، ج١/ ٨٠.

وسمينها وليس لهذه الأمّة ـ والله أعلم حاجة إلى حرف واحد ممّا عنده[١].

قال الذهبيّ بشأن كعب:

العلاّمة الحبر الذي كان يهوديّاً فأسلم بعد وفاة النبيّ ﷺ وقدم المدينة من اليمن في أيّام عمر رضي الله عنه، فجالس أصحاب محمّد فكان يحدثّهم عن الكتب الإسرائيليّة ويحفظ عجائب[٢].

إنّ رأي ابن كثير في هذا المجال صائب للغاية. فإنّ الخليفة الثاني كان يطلب كعب الأحبار ويفسح المجال أمامه لترويج الثقافة الإسرائيليّة أكثر فأكثر، وكان يطلب إليه المكوث في المدينة والتحدّث إلى الناس وقد عاد إليه الخليفة في تفسير الكثير من الآيات[٣]. وكذلك كان حال من خلفه من الحكّام وبني أميّة[٤].

إنّه من المثير والمحيّر أن نعلم أنّ مانعي تدوين الحديث ونشره لم يكتفوا بفعلتهم هذه بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك فقاموا بوضع الأحاديث التي تنهى عن نشر الحديث وتدوينه.

أُنظروا إلى هذا الحديث:

عن أبي سعيد الخدريّ أنّ رسول الله ﷺ قال: لا تكتبوا عنّي ومن كتب عنّي غير القرآن فليمحه... وحدثّوا عن بني إسرائيل ولا حرج[٥].

---

(١) تفسير ابن كثير، ج٤/ ١٩.
(٢) سير أعلام النبلاء، ج٣/ ٤٨٩.
(٣) تفسير القرطبيّ، ج١٥/ ٢٩٥، الدرّ المنثور، ج٥/ ٣٤٧، حلية الأولياء، ج٥/ ٣٦٨.
(٤) بحوث في الملل والنحل، ج١: ٧٦ ـ ١٠٢.
(٥) تقييد العلم٣٠

عجباً فهل يأمر الرسول، بألاّ تدوّن سنّته، وأن يصار إلى إتلاف أحاديثه، وأن تنشر مآثر اليهود وثقافتهم المحرّفة في المجتمع الإسلاميّ كي تصوغ هذه المآثر فيما بعد أفكار المسلمين؟!! ولا مجال هنا للخوض في تفصيلات هذا الأمر، لكنّه تجدر الإشارة إلى أنّ الحكام لم يروا بدّاً بعد منع تدوين الحديث ونشره من إلهاء الناس إلاّ عبر هذه الطريقة.

قال العلاّمة السيّد مرتضى العسكريّ:

إنّ مدرسة الخلفاء حين أغلقت على المسلمين باب التحديث عن رسول الله ﷺ كما أشرنا إليه فيما مضى، فتحت لهم باب الأحاديث الإسرائيليّة على مصراعيه وذلك بالسماح لأمثال تميم الداريّ الراهب النصرانيّ وكعب الأحبار اليهوديّ. وكانا قد أظهرا الإسلام بعد انتشاره، تقرّباً إلى الخلفاء بعد الرسول ففسحت مدرسة الخلفاء لهما وأمثالهما المجال أن يبثّوا الأحاديث الإسرائيليّة بين المسلمين كما يشاؤون، وقد خصّص الخليفة عمر للأوّل ساعة في كلّ أُسبوع يتحدّث منها قبل صلاة الجمعة بمسجد الرسول وجعلها عثمان على عهده ساعتين في يومين. أما كعب أحبار اليهود فكان الخلفاء عمر وعثمان ومعاوية يسألونه عن مبدأ الخلق وقضايا المعاد وتفسير القرآن إلى غير ذلك[1].

وقال العلاّمة السيّد مهدي الروحانيّ:

ومن الطريف أن نذكر هنا أنّنا نجد أنّه كلّما كان

(١) معالم المدرستين، ج٢: ٤٦ ـ ٤٨.

الراوي ألصق بمعاوية والعرش الأمويّ، فإن روايته للإسرائيليّات تكون أكثر... فعبد الله بن عمرو بن العاص هو ابن الوزير المعاون لمعاوية، والشاهر لسيفه على عليّ في صفّين والحاكم بعد أبيه على مصر ـ عبد الله هذا هو التلميذ المكثر للرواية عن كعب الأحبار. وهو القائل أنّه وجد زاملتين في اليرموك من كتب أهل الكتاب حتّى شهر بذينك وصاروا يقولون له: لا تحدّثنا عن الزاملتين، كما هو معروف ومشهور وقال الكوثريّ فيه «مكثر من الإسرائيليّات وكان في الأصل أكثر حديثاً من أبي هريرة، وقد زهّد في الإكثار عنه كبار التابعين، لأسباب منها إكثاره من الإسرائيليّات فقلّ حديثه»[1].

ويتّضح مما تقدّم، دور عدم تدوين الحديث ومنع انتشاره في إعداد الأرضيّة لانتشار الإسرائيليّات وهذا مبحث طويل ومتشعّب ـ ولضيق المجال آثرنا الاكتفاء بما أوردناه.

٤ ـ تحريف الدين وبلورة ثقافة تتعارض مع الإسلام الأصيل

ذكرنا في تفصيل البندين الثانيّ والثالث «جعل الأحاديث ووضعها» و«انتشار الإسرائيليّات»، بأنّهما محصّلتين لمنع تدوين الحديث ونشره، لكنّنا سنضطرّ في هذا البند للتعبير عن هذين الموضوعين بما لهما من دورين أساسيّين في تحريف الدين وبلورة الأفكار والثقافات المعارضة للإسلام المحمّديّ. فبعدما منع نشر الحديث، وأبعد المفسّر الحقيقيّ للعقيدة وترجمان القرآن عليّ بن أبي طالب عليه السلام عن الساحة الثقافيّة والسياسيّة،

(١) بحوث مع أهل السنّة والسلفيّة ٨٤/ هامش الأسماء والصفات ٣٣٦.

وتهديد ناشري الحديث وحبسهم[١]، خاصّة أولئك الّذين أشاروا إلى فضائل عليّ وتحدّثوا عن الحقائق السامية للرسالة النبويّة وعملوا على نشر الإسلام الحقيقي، وأُبعدوا، ثم قتلوا[٢] وختموهم[٣] حتّى لا ينبسوا ببنت شفة كي لا يصل الحقّ أسماع الناس، فلم يكتفوا بمنع تدوين الحديث ونشره فحسب، بل إنّهم منعوا تفسير القرآن أيضاً[٤]. وقد تمّ استدعاء أصحاب العقول المريضة والقلوب المريضة والآذان الصّماء والقلوب الصّماء والنفوس الطمّاعة إلى جعل الأحاديث ووضع الروايات ونشرها بين الناس ودعي بعدها علماء الشرائع وباقي مفكّري العصر ليتحدّثوا للناس عن الكتب السماويّة!، وقد فعلوا ذلك وتحوّلت كلّ هذه الأراجيف إلى مصادر للثقافة والمعرفة الإسلاميّة فيما بعد وعبر هذه الحالة تأطّر الحكّام بحالة من القدسيّة وطرحت الثقة والعدالة بجميع الصحابة فأضحى الانفراد بالرأي والاستبداد، وظلم الحكّام «اجتهاداً» تقرّه حصانة شرعيّة فنالوا عبر فعلتهم هذه من مقام الرسول وشأنه، ورفع مقام الخلفاء والحكّام ومضى بهم الأمر إلى حدّ التشريع، واختاروا لأنفسهم مقام الرسول ﷺ، فقلّبوا الحقائق الإلهيّة إلى الحدّ الذي قال فيه الحسن البصريّ:

لو خرج عليكم أصحاب الرسول ما عرفوا منكم إلاّ قبلتكم[٥].

---

(١) تذكره الحفّاظ، ج١/ ٧، كنز العمّال: ج٥/ ٢٣٩، معالم المدرستين: ج٢/ ٤٥ عنه.

(٢) راجع «دور الأئمّة في إحياء الدين» ١٥٦ ـ ١٦٥ وكذا كيفيّة تعامل الأمويّين مع أبي ذرّ وميثم التمّار ورشيد الهجريّ وما آلت إليه نهايتهم.

(٣) قال ابن الأثير: كان الحجّاج بن يوسف الثقفيّ ـ والي العراق من قبل الأمويّين قد ختم في يد جابر بن عبد الله [الأنصاري] وفي عنق سهل بن سعد الساعديّ [الأنصارى] وأنس بن مالك [خادم النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم] يريد إذلالهم وأن يجنبّهم الناس، ولا يسمعوا منهم. (أسد الغابة: ج٢/ ٤٧٢، طبع دار الشعب).

(٤) مقولة الخليفة الثانيّ: جرّدوا القرآن ولا تفسّروه... شرح ابن أبي الحديد، ج١٢/ ٩٣.

(٥) جامع بيان العلم، ج/ ٢ ص٦١، الصحيح من سيرة النبيّ الأعظم، ج١/ ٢٨.

وأخرج الشافعيّ عن طريق وهب بن كيسان، قال:

رأيت ابن الزبير يبدأ بالصلاة قبل الخطبة، ثمّ قال: «كلّ سنن رسول الله ﷺ قد غيّرت حتّى الصلاة»(١).

وحينما صلّى عمران بن الحصين خلف عليّ عليه السلام أخّر بيد مطرف بن عبد الله وقال:

لقد صلّى صلاة محمّد، ولقد ذكرني صلاة محمّد ﷺ(٢).

وقال ابن عبّاس:

اللّهمّ العنهم، قد تركوا السنّة من بغض عليّ عليه السلام(٣).

وقال السنديّ:

أي وهو [عليّ] كان يتقيّد بها(٤).

ولمّا كان الحكّام الفسدة لم يصدر منهم إلاّ الزبد فقد توجّهوا لجعل أحاديث تدعو إلى الإطاعة المطلقة للحاكم وراموا إلى إضفاء الصبغة الشرعيّة لحكومة «الظلم والجبروت والتعسّف» عبر روايات وضعوها ونسبوها إلى الرسول الأكرم ﷺ كذباً، وقضوا على العدل الذي يعتبر الشرط الأساس للحاكم من وجهة النظر الإلهيّة والقرآنيّة والدينيّة، من قاموس الثقافة والمعرفة الإسلاميّة ومنحوا كلّ فاسق فاجر وظالم من أمور المسلمين حقّ الحكومة والإمامة في الجمعة والجماعة.

---

(١) كتاب الأُمّ للشافعيّ، ج١/٢٠٨، الصحيح من سيرة النبيّ الأعظم، ج١/٢٨.
(٢) أنساب الأشراف، ج٢/ ١٨٠، سنن البيهقيّ، ج٢/٦٨، كنز العمّال، ج٨/ ١٤٣.
(٣) سنن النسائيّ، ج٥/٢٥٣، سنن البيهقيّ، ج٥/١١٣، الغدير، ج١٠/ ٢٠٥.
(٤) تعليقة السنديّ على هامش سنن النسائيّ، ج٥/٢٥٣، الصحيح من سيرة النبيّ الأعظم، ج١/ ٢٩.

ومثلما أشرنا فإن تأييد وتكريم علماء اليهود ساعد على انتشار الإسرائيليّات وسط المعارف الإسلاميّة وعليه فقد دوّن الكلام والعقائد والأخلاق والسياسة في القرون المتأخّرة استناداً للواقع المعاش فعبرها صبغت أمامنا ثقافة محرّفة ومجموعة من الأفكار والآراء القائمة على أُسس باطلة وواهية وهي مستمرّة حتّى يومنا هذا وآثارها السيّئة بادية للعيان[١] وقد تجذّرت هذه الأفكار وتقوّمت إلى الحدّ الذي لم تنجح معه جهود المصلحين ومساعيهم في القرون الأخيرة من اجتثاثها. ارتأينا هنا وقبل أن نطوي مقولتنا إيراد آراء بعض المحقّقين في هذا المجال:

قال العلاّمة السيّد مهدي الروحانيّ:

وكيف كان فقد صار، جملة من عقائد أهل الكتاب من الخصائص المذهبيّة لأهل الحديث، ومن الشعائر الدينيّة لهم وإسرائيليّات اليهود وحكايات النصرانيّة تشكّل ثقافة أهل الحديث، وتأثيرات اليهود في عقائد أهل الحديث والسنّة واضحة لائحة[٢].

وبعدها عدّد الأُستاذ موارد من انفعال المسلمين وتأثّرهم بالثقافة اليهوديّة وهو أمر جدير بالملاحظة والتأمّل.

وقال الأُستاذ الشيخ جعفر السبحانيّ:

لقد خسر الإسلام والمسلمون من جراء حظر

---

(١) راجع: الحياة السياسيّة للإمام الحسن عليه السلام ٥١ ـ ١١٠، بحوث مع أهل السنّة والسلفيّة٩٣/ فما بعدها، الصحيح من سيرة النبيّ الأعظم، ج١/ ١٧ فما بعدها، «أرضيّة الفكر السياسيّ عند الشيعة والسنّة»، الفصل الثاني خاصّة الصفحات١١٣ فما بعدها، والفصل الثالث خاصّة الصفحة ١٥٢ فما بعدها. وقراءة هذين الفصلين اللّذين يتناولان الهيكليّة الفكريّة والكلاميّة والفقهيّة للسنّة وتقييم الارضيّة والنتائج مفيدة فيه للغاية.

(٢) بحوث مع أهل السنّة والسلفية٩٥/ .

تدوين الحديث ونشره، خسارة عظمى لا يمكن تحديدها بالأرقام والأعداد ـ كيف وقد انتشرت الفوضى في العقائد والأعمال والأخلاق والآداب وصميم الدين، ولباب الأُصول، كنتيجة لهذا المنع، لأنّ الفراغ الذي خلّفه هذا العمل، أوجد أرضيّة مناسبة لظهور بدع يهوديّة وسخافات مسيحيّة وأساطير مجوسيّة خاصّة من ناحية كهنة اليهود ورهبان النصارى الّذين افتعلوا أحاديث كثيرة ونسبوها إلى الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام كما انتقلوا على لسان النبيّ الأكرم ﷺ من أساطير وقد وقف على ذلك عدد من الأجلّة[١].

وبعدها يورد الأُستاذ وجهات نظر عدد من العلماء حول نفوذ الأفكار الإسرائيليّة والنصرانيّة ثم يعمد إلى دراسة شخصيّة وأفكار وأثر أفراد مثل كعب الأحبار، وتميم الداريّ، ووهب بن منبّه ويستنتج في نهاية المبحث الخاصّ حول كعب الأحبار قائلاً:

عند ذلك أخذت الإسرائيليّات والمسيحيّات، مكان السنّة النبوية وصار نقلتها مصادر الحكم والفتيا فأصبحت آراؤهم وأقوالهم مدارك الفقه ووثائق التاريخ ومعياراً للحقّ والباطل في العقائد، فيا لها من رزيّة عظم وبالها من مصيبة كبرى[٢].

وقال الدكتور رمزي نعناعة:

ولم يقتصر تأثير الإسرائيليّات على كتب التفسير

---

(١) بحوث في الملل والنحل، ج١/ ٨٩.

(٢) بحوث في الملل والنحل، ج١/ ٧٧.

بل تعدّاها إلى العلوم الإسلاميّة الأخرى، فقد عني بعض المسلمين بنقل تأريخ بني إسرائيل وأنبيائهم كما فعل أبو إسحاق والطبريّ في تأريخيها وكما فعل ابن قتيبة في كتاب المعارف[١].

كذلك كان لليهود أثر غير قليل في بعض المذاهب الكلاميّة، فابن الأثير يروي عند الكلام على أحمد بن أبي داود:

أنّه كان داعية إلى القول بخلق القرآن وغيره في مذاهب المعتزلة، وأخذ ذلك عن بشر المريسيّ وأخذ بشر عن الجهم بن صفوان، وأخذه الجهم عن الجعد بن درهم، وأخذه الجعد عن أبان بن سمعان، وأخذه أبان عن طالوت ابن أُخت لبيد بن الأعصم وختنه، وأخذه طالوت عن ختنه لبيد بن الأعصم اليهوديّ الّذي سحر النبيّ صلّى الله عليه [وآله] وسلم وكان لبيد يقول بخلق التوراة وأوّل من صنّف في ذلك طالوت وكان زنديقاً فأفشى الزندقة[٢].

ونماذج هذه المؤثّرات هي من الكثرة بحيث لا يسعنا المجال هنا لإيرادها.

لقد نقلنا لكم آراء ونظريّات علماء الشيعة والسنّة لتتّضح مدى الآثار التي خلّفتها هذه الفكرة فهي لم تقتصر على ما نقل في الأُمم السابقة، بل إنّها تركت آثارها جليّة في أفكار المسلمين وتبلور ثقافتهم. ويتضح من خلال الفصول السابقة أنّ الآثار النبويّة التي كان مقرّراً أن تؤخذ من يد

(١) الإسرائيليات وأثرها في كتب التفاسير١١٣.
(٢) الكامل لابن أثير، ج٧/ ٢٧، الإسرائيليّات وأثرها في كتب التفسير١١٣.

عليّ عليه السلام وآله وطلاّب هذه العقيدة، وهو ما لم يحصل مآلاً فقد أخذت الحكومات وأجهزتها وعلماء العقائد والمعارف المختلفة واصطبغ التفسير وبيان العقيدة بالصبغة التي لا ينبغي لهما. وفي تلك الفترة علم مريدو الإمام عليه السلام أنّ ما عند الناس هو غير الذي عند المفسّرين الحقيقيّين للدين لاحظوا هذه المقولة: عن سليم بن قيس الهلاليّ قال:

قلت لأمير المؤمنين عليه السلام إنّي سمعت من سلمان والمقداد وأبي ذرّ شيئاً في تفسير القرآن وأحاديث عن نبيّ الله صلى الله عليه وآله وسلم غير ما في أيدى الناس، ثم سمعت منك تصديق ما سمعت منهم ورأيت في أيدي الناس أشياء كثيرة من تفسير القرآن ومن الأحاديث عن نبيّ الله صلى الله عليه وآله وسلم أنتم تخالفونهم فيها، وتزعمون أنّ ذلك كلّه باطل، أفترى الناس يكذبون على رسول الله متعمّدين، ويفسّرون القرآن بآرائهم؟

بعدها أجابه الإمام في كيفيّة هذه الأحاديث والمعتقدات، فعدّد أرضية وعلل وضع الأحاديث ودسّها، وأفاض عليه بحقائق وعبر.

يجسّد هذا المقطع بوضوح أنّ أحاديث وأُموراً متفرقة طرحت في تلك الفترة، اعتبرها الناس آثاراً دينيّة وهي لم تكن كذلك. فكانت هذه الأحاديث وأضعافها المدسوسة في زمن انتشار عمليّة جعل الأحاديث واتّساع نطاقها، الأرضيّة المناسبة لتبلور الفكر الدينيّ عند الناس، وعبرها فقد راج عندهم تقديس الظالمين، وقبول الظلم والحيف، والفساد باعتباره واقعاً اجتماعيّاً معاشاً. وعليه تبلورت عقائد ومشارب سخيفة في تلك الفترة مثل: التجسيم، والتشبيه والجبر و... وقد ظهرت أرضيات ثقافيّة ومعرفيّة تتعارض ومآثر الإسلام المحمّدي[1].

(١) الأصول من الكافي، ج١/ ٦٢، الحياة السياسيّة للإمام الحسن عليه السلام ٧١/ فما بعدها.

٥ ـ اختلاف الآراء عند المسلمين

يمكننا اعتبار اختلاف آراء وأفكار المسلمين والتمحور الفرقيّ وتفاوت الفتاوى لدى علماء المسلمين بأنّها من نتائج منع تدوين الحديث. فبعد الفتوح الإسلاميّة المتوالية واتّساع رقعة الإسلام جغرافياً، استقرّ الصحابة والتابعون كلّ في مدينة وبلدة، وكان كلّ منهم يحفظ جزءاً من أحاديث وأقوال الرسول؛ فكانت مآثر كلّ منهم لما حفظه من الأحاديث التي سمعها وعليه أضحى لكلّ منهم مشرب خاصّ في الفقه ولمّا لم يطّلعوا على الأحاديث الأخرى أطلق كلّ منهم فتاوى متعدّدة. ولمّا التفت التابعون إلى هذه الحقيقة شدّوا الرحال للحصول على الأحاديث المتنوّعة فشدّوا الرحال إلى مختلف المدن والأمصار والديار ـ وكان أعظم ما شوهد في هذه الحركة هو ما كان في القرنين الثاني والثالث حتّى يتسنّى لهم الجمع بين الأحاديث المتفرّقة[١] فعلى سبيل المثال كتبوا عن عبد الله بن مبارك:

لم يكن أحداً أطلب للعلم منه رحل إلى اليمن وإلى مصر والشام والبصرة والكوفة[٢].

ويقول سعيد بن المسيّب:

إنّي كنت لأسير اللّيالي والأيّام في طلب الحديث الواحد[٣].

لقد كانت كلّ هذه الجهود المضنية نتيجة لمنع تدوين الحديث والحؤول دون نشره.

---

(١) «مقدّمة على تدوين الحديث» ٥٣.
(٢) الجرح والتعديل، ج١/ ٢٦٣.
(٣) الطبقات، ج٥/ ١٢٠، تذكرة الحفّاظ، ج١/ ٥٦.

وعلى هذا فإن التاريخ لم يحدّثنا عن رجل سافر بين البلدان طلباً للقرآن وحقائقه، فإن كان الحديث قد دوّن لكنّا قد تخلّصنا من التباعد، ولم نكن نعاني من التعدّدية ولم تكن أمامنا أرضيّة للخلاف والفرقة. يقول الشيخ أبو زهرة[١]:

فلما قضى عمر وخرجوا إلى الأقاليم، صار لكلّ طائفة منهم مدرسة فقهيّة تروي عنه وتسلك طريقه، فلمّا جاء عصر التابعين ـ وهم تلاميذ أولئك الفقهاء الّذين بقوا في المدينة أو نزحوا عنها صار لكلّ مصر فقهاؤه فتباعدت الأنظار بتباعد الأمصار واختلافها إذ كلّ مأخوذ بعرف إقليمه، والمسائل التي ابتلي بها ذلك الإقليم، ثم هو قبل ذلك متّبع طريقة الصحابيّ الذي نزل الإقليم وناقل أحاديثه الّتي رواها، وانتشرت بينهم عنه، فظهرت بسبب ذلك ألوان مختلفة من الفكر الفقهيّ وروى ابن سعد في الطبقات عن مالك بن أنس قال: لمّا حجّ المنصور قال لي: عزمت على أن آمر بكتبك هذه الّتي وضعتها فتنسخ ثمّ أبعث إلى كلّ مصر من أمصار المسلمين منها نسخة وآمرهم أن يعملوا بما فيها ولا يتعدّوه إلى غيره فقلت: يا أمير المؤمنين لا تفعل هذا فإنّ الناس قد سبقت إليهم أقاويل وسمعوا أحاديث ورووا روايات وأخذ كلّ قوم بما سبق إليهم ودانوا به فدع الناس وما اختار أهل كلّ بلد لأنفسهم[٢].

---

(١) أبوحنيفة / ٥٩.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد، القسم المتمّم لتابعي أهل المدينة ومن بعدهم، تحقيق زياد محمّد منصور ٤٤٠.

وقال أبو العبّاس الحنبليّ:

أنّ أسباب الخلاف الواقع بين العلماء تعارض الروايات والنصوص وبعض الناس يزعم أنّ السبب في ذلك هو عمر بن الخطّاب لأنّ الصحابة استأذنوه في تدوين السنّة فمنعهم مع علمه بقول النبيّ ﷺ: «أُكتبوا لأبي شاة»، وقوله ﷺ: «قيّدوا العلم بالكتابة» فلو ترك الصحابة يدوّن كلّ واحد منهم ما سمع من النبيّ لانضبطت السنّة ولم يبق بين آخر الأُمة وبين النبيّ ﷺ إلاّ الصحابي الّذي دوّنت روايته[1].

لقد كان للاختلافات في وجهات النظر ومن ثمّ تبلور آراء متعدّدة في الأمّة الإسلاميّة آثارهما السلبيّة وليس هذا بخاف على الواعين في التأريخ الإسلامي.

٦ ـ بلورة مذهب الرأي ونشر القياس

إنّ شيوع الرأي وانتشار الفتاوى على أساس الآراء الشخصيّة وولادة مذهب الرأي له جذور عميقة في عمليّة منع تدوين الحديث. فالفقهاء كانوا عرضة لأسئلة واستفسارات الرعيّة من جهة ولم تكن في جعبتهم متون الحديث من جهة أخرى كي يتسنّى لهم عبرها إجابة سؤال الناس وهو الأمر الذي اضطرّهم إلى الرجوع إلى آرائهم والقياس. ففي بعض البلدان كانت الفتوى تصدر بالاعتماد على نصّ فيما تصدر الفتوى ذاتها في بلد آخر بالاعتماد على الرأي لفقدان النصّ. إنّ اتّساع وانتشار حيطة الاجتهاد على

(١) تاريخ علماء بغداد للسلاميّ ٥٩، الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، ج٢ ٢٦٠ ـ ١، عنه وراجع أيضاً: بحوث في الملل والنحل، ج٣/ ٥٨.

أساس طرح الآراء الشخصيّة والقياس في مذهب أهل السنّة، هو في الغالب رهين انعدام النصوص الروائيّة، كما ذكر عن أبي حنيفة ـ رائد مذهب الرأي والقياس: إنّ أبا حنيفة إنّما كثر القياس في مذهبه، لكونه في زمن قبل تدوين الحديث ولو عاش حتّى دوّنت الأحاديث الشريفة وبعد رحيل الحفّاظ في جمعها من البلاد والثغور، وظفر بها الآخذ بها لترك كلّ قياس كان قاسه[1].

إنّ ما تجدر ملاحظته هنا، أنّ أبا حنيفة أعرض عن أحاديث الرسول ﷺ من جهة وعجز عن فهم صدارة آل عليّ وأهليّتهم من جهة أخرى، وقد عزف عن بيت الوحي ومفسّري كتاب الله الحقيقّيين. وخلص إلى دعوى التفقّه والزعامة، فرأى أنّ عليه تكمن إجابة أسئلة السائل وحلّ استفسارات الرعيّة، وعلى هذا عمد إلى القياس في آرائه. وليس قليلاً ما حرف، وما آل إلى إفرازات منحرفة كثيرة.

لكن وزر جميع هذه الأمور صاحبت أولئك الّذين حاولوا وعبر تبريرات قبيحة وألاعيب سياسيّة أقبح منها، الوقوف بوجه تدوين الحديث فهم عمدوا ومن أجل تمرير سياساتهم إلى الحؤول دون انتشار الحديث وذياع صيته، وقال السيّد الجلاليّ تعليقاً على النقل الّذي أوردناه في حقّ أبي حنيفة:

لو دوّنت الأحاديث قبل أن يولد أبو حنيفة لما ضاع شيء منها، ولاستفادت الأُمّة كلّها منها في معرفة دينها وإصلاح دنياها. لكنّ المانعين كانوا يتعمّدون ضياع الأحكام، وتشتيت أحوال أُمّة الإسلام، بتاخير تدوين السنّة مضافاً إلى ذلك روايته على السنّة.

---

(١) قواعد في علوم الحديث للتهانويّ الحنفيّ٤٥.٤.

٧ ـ جهل الأُمّة لدينها

أدّى منع تدوين الحديث وتوقّف انتشاره إلى التعتيم على الحقائق الإلهيّة من جهتين، فالأحاديث كانت خير تفسير وبيان للقرآن فقد دعت الضرورة إلى تفسير أجزاء واسعة من القرآن للناس خاصّة لأولئك الّذين لم يكونوا في أجواء الوحي، وعليه فقد ظلّ هذا الجزء من حقائق الأُمور في الظل فهي أيضاً لم تصلهم، ورويداً رويداً غطّ الناس في جهل عميق، وغفلوا عن الحقائق الإلهيّة. كتب الأُستاذ العلاّمة السيّد جعفر مرتضى العامليّ يقول:

وقد نتج عن سياسة الأمويّين هناك، وسياسة المنع عن الحديث وعن كتابته هنا: أن لم يبق من الدين إلاّ اسمه ومن القرآن إلاّ رسمه، حتّى روى الإمام مالك، عن محمّد بن سهل بن مالك عن أبيه: أنّه قال: ما أعرف شيئاً ممّا أدركت عليه الناس إلاّ النداء بالصلاة[1].

وقال الزرقانيّ:

والباجيّ يريد الصحابة، وأنّ الأذان باق على ما كان عليه، لم يدخله تغيير ولا تبديل، بخلاف الصلاة فقد أخرّت عن أوقاتها وسائر الأفعال دخلها التغيير[2].

وروى أيضاً:

إنّ الناس والهاشميّين كانوا في زمن

---

(١) جامع بيان العلم، ج٢/ ٢٤٤، الموطأ (المطبوع مع تنوير الحوالك)، ج١/ ٩٣.
(٢) شرح الموطأ للزرقانيّ، ج١/ ٢٢١، تنويرالحوالك، ج١: ٩٣ ـ ٩٤ عن الباجيّ.

السّجاد عليه السلام لا يعرفون كيف يصلّون، ولا كيف يحجّون[١].

وقد أشار إلى هذا الجهل المطبق عدد آخر من المحقّقين وعنه كتب الدكتور علي حسن:

... إنّه في أثناء عصر بني أُميّة الّذين كانوا لا يهتمّون كثيراً بأُمور الدين، كان الشعب في الواقع قليل الفهم والمعرفة للفقه ومسائل الدين ولم يكن يعرف من هذه الشؤون إلاّ أهل المدينة وحدهم[٢].

وكان الجهل عامّاً ففي ذلك العهد لم يتعرّف الناس على الحقائق كما هي ولا الشخصيّات البارزة في التأريخ الإسلامي ولا حتّى الشخصيّات المشهورة، فهم اعتبروا معاوية خليفة المسلمين، وأداروا ظهورهم لعليّ، وقد لانوا للأمويين وأطاعوهم واجتنبوا أهل البيت، وسنورد هذا النصّ التأريخيّ هنا على أن نتعرّف على خصائص أكثر في البند اللاّحق:

قيل لرجل من أهل الشام ـ من زعمائهم وأهل الرأي والعقل عندهم: من أبو تراب هذا الذي يلعنه الإمام على المنابرا؟!

قال: أراه لصّاً من لصوص الفتن[٣].

٨ ـ عزل أهل البيت(ع) عن الساحة

قلنا فيما مضى: إنّ أهمّ سبب حدا على منع كتابة الحديث ونشره هو إقصاء وإلغاء فضائل عليّ عليه السلام والأحاديث الخاصّة بإمارته وإمامته وذريّته

(١) كشف القناع عن حجّية الإجماع ٦٧، دراسات وبحوث في التاريخ الإسلاميّ، ج١٠: ٨٠.
(٢) نظرة عامّة في تأريخ الفقه الإسلاميّ ١١٠.
(٣) مروج الذهب، ج٣/ ٣٨.

عن الأذهان، ويجب هنا ونحن في مجال تعديد الآثار والنتائج الّتي انطلت عليها هذه السياسة التغفيليّة، القول بأنّهم نجحوا في أهدافهم إلى حدّ كبير فصار عليّ عليه السلام جليس البيت (٢٥) خمسة وعشرين عاماً وقد عُرِّض أبناؤه في ظلّ سياسة الحكّام الظالمين إلى أنواع الحيف والظلم. وعندما انقطعت الأحاديث الدالّة على فضيلة عليّ لسنوات متواليّة، وغفل الناس عن مكانته المرموقة توالت وتواصلت سياسة الحكّام الشيطانيّة على هذا الأمر. فكان ما حصل.

فلمّا سأل هاشم المرقال بعض مقاتلي أهل الشام عن السبب الذي دعاه للمشاركة في تلك الحرب، علّل ذلك بأنّهم أخبروه: أنّ عليّاً لا يصلّي[١].

فكان هذا دَيدن السياسة العامّة للحكّام، حتّى لا تنشر فضائل عليّ، فعمدوا على ذكره بسوء باستمرار حتّى نظر إليه الجميع نظرة ازدراء وحقد. ولما طلب إلى معاوية أن يمنع سبّ ولعن عليّ عليه السلام قال:

لا والله، حتى يربو عليه الصغير، ويهرم عليه الكبير ولا يذكر ذاكر له فضلاً[٢].

وقد فعلت هذه الدعايات الشيطانيّة فعلتها إذ لم يعلم أهل الشام لعدّة أجيال أنّ للنبيّ أقارب غير بني أُميّة. جاء في شرح ابن أبي الحديد:

لمّا استوثق لأبي العبّاس السفّاح، وفد إليه عشرة من أُمراء الشام، فحلفوا له بالله وبطلاق نسائهم

---

(١) تأريخ الكبرى، ج٤/ ٣٠، وقعة صفّين٣٥٤، شرح النهج لابن أبي الحديد، ج٨/ ٣٦، أنساب الأشراف، ج٢/ ١٨٢. ترجمة الإمام عليّ عليه السلام لابن عساكر، تحقيق المحموديّ، ج٣/ ٢٩٩، الحياة السياسيّة للإمام الحسن عليه السلام ٧٥ عن ما تقدّم.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج٤/ ٥٧، النصائح الكافية٧٢.

وبأيمان البيعة بأنهم لا يعلمون ـ إلى أن قتل مروان أن لرسول الله ﷺ أهلاً ولا قرابة إلاّ بني أُميّة[١].

لم يكتف معاوية والأمويّون بمنع نشر فضائل عليّ، بل إنّ المقام بلغ بهم بمعاقبة من يرنو إلى ذلك حيث كانوا يقفون بوجه أحاديثه، يقول يونس بن عبيد:

سألت الحسن قلت: يا أبا سعيد إنّك تقول: «قال رسول الله ﷺ» وإنّك لم تدركه!

قال يا ابن أخي: لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد قبلك ولولا منزلتك منّي ما أخبرتك إنّي في زمان كما ترى (وكان في زمن الحجّاج) كلّ شيء سمعتني أقوله: «قال رسول الله ﷺ» فهو عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام غير أنّي في زمان لا أستطيع أن أذكر عليّاً[٢].

وأخيراً فقد بلغت الأمور ـ وبعد منع نشر الحديث وما آل إليه من جهل الناس بفضل عليّ وآله ومناقبهم ومكانتهم الرفيعة، وكذلك جعل الأحاديث ووضع المئات منها في تقديس الظالمين والحكّام من جهة وعزل أهل البيت ونبذ حرمتهم من جهة أُخرى حداً حتّى قال الإمام زين العابدين عليه السلام:

ما بمكّة والمدينة عشرون رجلاً يحبّنا[٣].

---

(١) شرح ابن أبي الحديد، ج٧/ ١٥٩، مروج الذهب ج٣/ ٣٣، والفتوح لابن أعثم، ج٨/ ١٩٥.
(٢) تهذيب الكمال، ج٦/ ١٢٤، عنه في حاشيته التهذيب، ج٣/ ٢٦٦ وعنهما تدوين السنّة الشريفة.
(٣) شرح ابن أبي الحديد، ج٤/ ١٠٤.

وعند إجابته على أسئلة سائل حول أوضاع أهل البيت في ذلك العهد قال عليه السلام:

أصبحنا في قومنا بمنزلة بني إسرائيل في آل فرعون إذ كانوا يذبّحون أبناءهم ويستحيون نساءهم، وأصبح شيخنا وسيّدنا يُتقرّب إلى عدوّنا بشتمه وسبّه على المنابر، وأصبحت العرب مقرّة لهم بذلك، وأصبحت العرب تعدّ أنّ بها فضل على العجم؛ لأنّ محمّداً صلّى الله عليه [وآله] وسلّم منها، لا يعدّ لها فضل إلاّ به، وأصبحت العجم مقرّة لهم بذلك: فلئن كانت العرب لأنّ محمّداً صلّى الله عليه [وآله] وسلّم منا، فأصبحوا يأخذون بحقّنا ولا يعرفون لنا حقّاً. فهكذا أصبحنا إذا لم تعلم كيف أصبحنا. قال [الراوي]: فظننت أنّه أراد أن يسمع من في البيت[1].

وفي دعاء له عليه السلام:

اللّهم إنّ هذا المقام لخلفائك وأصفيائك ومواضع أُمنائك في الدرجة الرفيعة التي اختصصتهم بها قد ابتزّوها... حتّى عاد صفوتك وخلفاؤك مغلوبين مقهورين مبتزّين. اللّهم العن أعداءهم من الأوّلين والآخرين ومن رضي بفعالهم وأتباعهم[2].

وقال الإمام الباقر عليه السلام:

كان عليّ بن أبي طالب عليه السلام عندكم بالعراق

---

(١) طبقات ابن سعد، ج٥/ ٢٢٠، وقد نسبت هذه الرواية في أمالي الشيخ الطوسيّ (البحارج٤٦/ ٣٦٠) إلى الإمام الباقر عليه السلام مع اختلاف يسير

(٢) الصحيفة السجاديّة، الدعاء٤٨ الفقرة ٩ ـ ١٠.

يقاتل عدوّه ومعه أصحابه وما كان فيهم رجلاً يعرفونه حقّ معرفته وحقّ معرفة إمامته[١].

وقال الإمام الصادق عليه السلام:

ارتدَّ الناس بعد قتل الحسين إلاّ ثلاثة! أبو خالد الكابليّ ويحيى بن أُمّ الطويل وجبير بن مطعم (لعل الصحيح: حكيم بن جبير) ثم إنّ الناس لحقوا وكثروا.

قال الكشّيّ:

وروى يونس عن حمزة بن محمّد الطيار، مثله وزاد فيه جابر بن عبد الله الأنصاريّ[٢].

وجاء في بعض المصادر التأريخيّة أنّ الوزير عبيد الله بن سليمان، كان يرى أنّ قتل الحسين أشدّ ما كان في الإسلام على المسلمين، لأنّ المسلمين يئسوا بعد قتله، فيئسوا من كلّ فرج يرتجونه وعدل ينتظرونه[٣].

فهؤلاء الّذين كان لهم أدنى أمل في انتظار العدل، وكان لهم بصيص أمل في آل الرسول، يئسوا وتبدّدت آمالهم جميعاً بعدما شاهدوا شيطانيّة ووحشيّة بني أُميّة.

على أيّة حال فإن نتيجة إبعاد عليّ عليه السلام وأبنائه عن الواقع الاجتماعيّ، والتصرّفات الوحشيّة مع هؤلاء الأكابر والّذي بلغ الأوج في عهد بني أُميّة، حيث حرم الناس من معارفهم الفيّاضة وتعاليمهم السامية وهو حديث ذو شجون في تأريخ أُمّتنا الإسلاميّة، وما زالت هذه الأُمّة تعاني ليومها هذا من نتائجه.

---

(١) اختيار معرفة الرجال٦.

(٢) اختيار معرفة الرجال، طبع مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، ج١/ ٣٣٨.

(٣) نقله الثعالبي في آخر كتاب ثمار القلوب، راجع: الحسين، ج٢/ ١٩٥، لعلي جلال.

وهذا تصوير مأساويّ عن حال هؤلاء الأئمّة العظام في ذلك العهد ينقلها إلينا الإمام الباقر عليه السلام نأتي بها كاملة دونما تعليق:

ما لَقينا مِن ظُلمِ قُرَيشٍ إيَّانا وتَظاهُرِهِم عَلَينا ومَا لَقيَ شيعَتُنا ومُحِبُّونا مِنَ النّاس إنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وآله قُبِضَ وقَد أَخبَرَ اَنّا أَولَى النّاسِ بالنّاسِ فَتَمالأت قُرَيش حَتّى أَخرَجَت الأمرَ عَن مَعدِنِهِ واحتَجَّت عَلَى الأنصَارِ بِحَقّنا وحُجَّتنا ثُمَّ تَداوَلَتها قُرَيش وَاحِد بَعدَ وَاحِدٍ حَتّى رَجَعَت إلَينا فَنَكَثَت بَيعَتَنا ونُصِبَتِ الحَربُ لَنا ولَم يَزَل صَاحِبُ الأمرِ في صُعُودٍ وكُئُودٍ حَتّى قُتِلَ فَبُويعَ الحَسَنُ عليه السلام ابنُهُ وعُوهِدَ ثُمَّ غُدِرَ بِهِ...ثُمَّ بايَعَ الحُسَينَ مِن أهل العِرَاقِ عِشرُونَ ألفاً ثُمّ غَدَرُوا بِهِ... ثُمَّ لَم نَزَل اَهلَ البَيتِ نُستَذِلُّ ونُستَضَامُ وَنُقصَى ونُمتَهَنُ ونُحرَمُ وَنقتَلُ ونَخَافُ وَلاَ نَأمنُ عَلَىَ دِمَائِنَا ودِماءِ أَوليائِنَا ووَجَدَ الكَاذِبُونَ الجاحِدُونَ لِكِذبِهِم وجُحُودِهِم مَوضِعاً يَتَقَرَّبُونَ بِهِ إلى أوليائهِم وَقُضَاة السُّوءِ وعُمَّالِ السُّوءِ في كُلِّ بَلدَة فَحَدَّثُوهُم بِالأحاديثِ المَوضُوعَةِ المَكذُوبَةِ ورَوَوا عَنّا مَا لَم نَقُلهُ وَلَم نَفعَلهُ لِيُبغِضُونا إلى النَّاسِ وكانَ عَظُمَ ذَلِكَ وَكَبُرَ في زَمَنِ مُعاوِيَةَ بَعدَ مَوتِ الحَسَنِ فَقُتِلَت شِيعَتُنا في كُلِّ بَلدَةٍ وقُطِعَتِ الأيدي والأرجُلُ عَلَى الظّنَّةِ وَكَانَ مَن يُذكَرُ بِحُبِّنَا والانقِطَاعِ إلَينا سُجِنَ ونُهِبَ مالُهُ أو هُدِمَت دَارُهُ ثُمَّ لَم يَزَلِ البَلاءُ يَشتَدُّ ويَزدادُ إلىَ زَمَانِ عُبَيدِالله بنِ زِيادٍ قَاتِلُ الحُسَينِ عَلَيهِ السَّلامُ ثُمّ جاءَ الحَجّاجُ فَقَتَلَهُم كُلَّ قَتلَةٍ وأَخَذَهُم بِكُلِّ ظَنَّةٍ وَتُهمَةٍ حَتّى أنَّ الرَّجُلَ لَيُقالَ لَهُ زِنديق أَو كَافِر

أحَبّ إلَيه أن يُقَالَ شِيعةُ عَليٍّ حَتّى صَارَ الرَّجُلُ يُذكَرُ بِالخَيرِ ولَعَلَّهُ يَكُونُ وَرِعاً صَدُوقاً يُحَدِّثُ بِأحَادِيثَ عَظيمَةٍ عَجيبَةٍ مِن تَفضيلِ بَعضِ مَن قَد سَلَفَ مِنَ الوُلاة ولَم يَخلُقِ الله تَعالى شَيئاً مِنها ولاَ كَانَت ولاَ وَقَعَت وهُوَ يَحسبُ أنَّهَا حَقٌ لِكَثرَةِ مَن رَوَاهَا مِمَّن لَم يُعرَف بِكِذبٍ وَلا بِقِلَّةِ وَرَعٍ[1].

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج١١ص٤٤؛ أبو زهرة، الإمام الصّادق، ص١١١ ـ ١١٢.

الفصل الثاني

تدوين الحديث عند الشيعة

بداية التدوين عند الشيعة

ذكرنا سابقاً بأنّ من المؤكّد أنّ كتابة الحديث بدأت في حياة الرسول ﷺ، فهناك أسانيد كثيرة وأدلّة متقنة على هذا الموضوع، وهو أمر ثابت إلى درجة يعدّ إنكاره مكابرة وجدلاً عقيماً لا طائل من ورائه.

واتّضح أيضاً فيما سبق أنّ منع كتابة الحديث ونشره حركة تبلورت عملياً بعد رحيل الرسول ﷺ خلافاً لنصّه الصريح فكانت بمثابة الاجتهاد في مقابل النص، ولم تتمّ على أساس شرعي، وقد بحثنا هذه القضية ووضعنا التبريرات الموضوعة في ميزان النقد والتحليل.

أما الآن فقد حان الوقت لنقول إنّ علياً عليه السلام وهو أقوى معاضد للرسول، وأكثرهم إخلاصاً له، ووصيه وخليفته بالحقّ، قد مضى على سيرة سلفه رسول الله ﷺ في تدوين الحديث والتأكيد على ذلك، وكتابة آثار الرسول ونشر العلوم المحمّدية والمآثر النبوية، وكذلك فعل شيعته ومحبوه حيث عرفوا كما عرف آل علي عليهم السلام في ذلك الوقت بأنهم علماء بالسنّة وعاملون بها[1].

---

(١) راجع الاجتهاد والنصّ (المورد/ ١٤٧ ـ ١٣٨/) ١٤.

وأما طلائعية الشيعة في اقتفاء آثار مولاهم علي عليه السلام فقد أشار إليها عدد من مفكّري المذاهب الأُخرى إضافة إلى علماء الشيعة أنفسهم، ففي هذا المجال:

١ ـ كتب الكاتب العربي الهمام الدكتور شوقي ضيف:

ويظهر أنّ عناية الشيعة بكتابة الفقه كانت قوّية لاعتقادهم في أئمّتهم أنّهم الهادون المهديون الّذين ينبغي أن يلتزموا بفتاواهم ومن ثمّ عنوا بفتاوى علي وأقضيته..[١]..

٢ ـ وقال العلاّمة السيد شرف الدين العاملي:

... وإنّ الباحثين لَيعلمون بالبداهة تقدّم الشيعة في تدوين العلوم على من سواهم، إذ لم يتصدّ لذلك في العصر الأوّل غير علي وأولي العلم من شيعته، ولعلّ السرّ في ذلك اختلاف الصحابة في إباحة كتابة العلم وعدمها، فكرّهها كما في العسقلاني في مقدّمة فتح الباري وغيره ـ عمر بن الخطّاب وجماعة آخرون خشية أن يختلط الحديث في الكتاب[٢]. وإباحة علي وخلفه الحسن السبط المجتبى لها[٣].

وقال العلاّمة السيد الصدر:

... إنّ الشيعة أوّل من تقدّم في جمع الآثار والأخبار من عصر خلفاء النبي المختار، عليه وعليهم

---

(١) تاريخ الأدب العربيّ، ج٢ (العصر الإسلاميّ)/ ٤٥٣.
(٢) أشرنا قبل ذلك إلى التبريرات المطروحة وأثبتنا خواءها.
(٣) المراجعات، تحقيق حسين الراضي/ ٤١٠.

الصلاة والسلام، اقتدوا بإمامهم أمير المؤمنين فإنّه عليه السلام صنّف فيه على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله و....

علي(ع) وكتابة الحديث

أشرنا فيما مضى إلى هذا الموضوع وتحدّثنا عن مجموعة أُطلق عليها اسم «كتاب علي»[١]، وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أنّ ما سمّي بـ«كتاب علي» يختلف عن المجموعة الصغيرة المعروفة بـ «صحيفة علي»، وقد تحدّثنا عنها باسم «صحيفة النبي»، وقد لمسنا هذا الخلط في آثار عدد من المحقّقين. وبعد التدقيق في هذا الموضوع أوضحنا أنّ «صحيفة علي» هي صحيفة صغيرة في حين أن «كتاب علي» هو مجموعة كبيرة تناولها الأئمّة عليهم السلام تباعاً حيث كانوا يرجعون إليها في حال الاحتجاج على البعض وكانوا يطلعون الناس على أُمور وردت فيها في بعض الأحيان.

هنا سنتناول مسيرة تدوين الحديث عند الشيعة مع التركيز أوّلاً على مساعي مولانا أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المجال:

١ ـ تفسير القرآن:

علي أفضل وأعظم مفسّر للقرآن بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد كتب السيوطي في كيفية تفاسير الصحابة يقول:

أمّا الخلفاء فأكثر من روي عنه منهم علي بن أبي طالب[٢].

---

(١) تأسيس الشيعة/ ٢٧٩.

(٢) الإتقان، ج٤/ ٢٣٣.

وقد روى معمّر عن وهب بن عبد الله عن أبي الطفيل، قال:

شهدت علياً يخطب وهو يقول: سلوني فوالله لا تسألونني عن شيء إلاّ أخبرتكم، وسلوني عن كتاب الله فوالله ما من آية إلاّ وأنا أعلم، أبليل نزلت، أم بنهار، أم في سهل أم في جبل[١].

وقال علي عليه السلام:

... ما نزلت على رسول الله آية من القرآن إلاّ أقرأنيها، وأملأها علي فكتبتها بخطّي وعلّمني تأويلها وتفسيرها، ناسخها ومنسوخها، محكمها ومتشابهها ودعا الله لي أن يعلّمني فهمها وحفظها، فما نسيت آية من كتاب الله ولا علماً أملاه علي فكتبته[٢].

كانت هذه كتابة علي عليه السلام التفسيرية حول القرآن، وقد امتازت بخصائص بيانية انفرد بها هذا الإمام المعصوم.

وقد جاء في مصادر كثيرة أنّ علياً عليه السلام قبل وبعد حادثة السقيفة دوّن قرآناً رفضه الحكّام!

في الحقيقه الشيء الذي لم يطقه الحكّام هو قبولهم لقرآن يمتلك مثل هذه الخصوصية[٣].

وعلى هذا يمكننا اعتبار الصحيفة الأولى التي انبرى علي عليه السلام لتدوينها، كانت تفسير القرآن.

---

(١) نفس المصدر.

(٢) كمال الدين وتمام النعمة، ج١/ ٢٨٤، شواهد التنزيل، ج١/ ٤٨، ترجمة الإمام علي من تاريخ دمشق، ج٢/ ٤٦٧.

(٣) راجع المناقب لابن شهرآشوب، ج٢/ ٤١، الاحتجاج، ج١/ ٣٨٣ و٢٢٨ ـ ٢٢٧، بحار الأنوار، ج٨٩/ ٤٢، ولتحقيق الموضوع، راجع: حقائق هامة حول القرآن الكريم ١٥٨ و١٦١ ـ ١٦٢، البيان في تفسير القرآن/ ٢٤٥.

قال العلاّمة آية الله السيد عبد الحسين شرف الدين:

وأوّل شيء دوّنه أمير المؤمنين كتاب الله عزّ وجل، فإنّه عليه السلام بعد فراغه من تجهيز النبي صلى الله عليه وآله، آلى على نفسه أن لا يرتدي للصلاة، إلاّ أن يجمع القرآن، فجمعه مرتباً على حسب النزول، وأشار إلى عامّه وخاصّه، ومطلقه ومقيده ومحكمه ومتشابهه وناسخه ومنسوخه، وعزائمه ورخصه، وسننه وآدابه، ونبّه على أسباب النزول في آياته البينات، وأوضح ما عساه يشكل من بعض الجهات، وكان ابن سيرين يقول: «لو أصبت ذلك الكتاب كان فيه العلم»[1].

ويجب أن نضيف إلى ما ذكرناه صحيفة في «علوم القرآن» قسّم فيها الإمام عليه السلام العلوم القرآنية إلى ستّين نوعاً، وقد ذكرت كاملة في الجوامع الروائية[2].

٢ ـ كتاب السنن والقضايا والأحكام:

وهو كتاب كبير يشتمل على الأبواب المختلفة، ومن عنوانه يظهر أنه قد ضمّ الآداب الشرعية والسنن والعبادات منها: الطهارة والصلاة والصوم والحجّ والزكاة والقضاء والحدود والديات وأبواب المعاملات وأنواع البيع وغيرها.

وقد ذكر كثيرون من الرواة هذا الكتاب، ولكن مرّة ذكروه باسمه

---

(١) المراجعات/ ٤١١ وكلام ابن سيرين موجود في الطبقات الكبرى، ج٢، ق١٠١/ ٢، الاستيعاب هامش الإصابة، ج٢/ ٢٥٣، التمهيد في علوم القرآن، ج١/ ٢٢٧ عنهما، الصواعق المحرقة/ ١٢٦.

(٢) بحار الأنوار، ج٩٣ص ٩٧ ـ ١، أعيان الشيعة، ج١/ ٩٠، وراجع ايضاً: «مجلة آينه دظوهش»، العدد ٦٦، ص٢٢.

العامّ وأخرى بعناوين أبوابه. وقد نسبت مصادر مختلفة عدداً من الكتب[١] للإمام عليه السلام منها: زكاة النعم، صحيفة الفرائض، كتاب في أبواب الفقه، كتاب عجائب أحكامه، كتاب الديات و...

لكن بعض المحقّقين يعتقدون أنّ هذه المجموعة كانت في الحقيقة كتاباً واحداً بعنوانه المذكور.

قال السيد الجلالي بعد نقل نصوص كثيرة دالّة على ما ذكرنا:

والذي يظهر من المصادر أنّ كلاً من هؤلاء الرواة المذكورين قد ألّف ما يخصّه وجمع روايات كتابه عن الإمام عليه السلام إلاّ أنّا نعتقد بأنّ الكتاب ليس إلاّ مجموعة كبيرة واحدة من تأليف الإمام وإملائه عليه السلام وذلك:

١) لانتهاء الأسانيد في تلك الكتب إلى أمير المؤمنين عليه السلام بعنوان أنّ كلاً منها نسخة منه أو إملائه.

٢) لوجود نفس العناوين ضمن ما نسب إلى غير المذكورين الّذين اعتبروا من مؤلّفي الكتب، فذلك يؤكّد أنّ الكتاب المذكور كان مجموعة كبيرة من تأليف الإمام نفسه عليه السلام ورواه بعض أصحابه كلاماً، وروى بعضهم أبواباً منه[٢].

وقد وردت عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام روايات حول ما جاء في هذا الكتاب في كتب العامّة، جمع أحمد بن حنبل مجموعة كبيرة منها في مسنده[٣].

---

(١) الذريعة، ج٢/ ١٥٩ ـ ١٦١، أعيان الشيعة ج١ /٩٧ و..

(٢) تدوين السنّة الشريفة/ ١٤٢، وراجع أيضاً: مرآة الكتب، ج٩/ ١، الطبعة الأولى.

(٣) مسند أحمد بن حنبل، ج١/ ٧٥ ـ ١٦٠.

٣ ـ عهد الإمام عليه السلام للأشتر:

هذا العهد كان دستور الحكومة الكبير، وفيه ضوابط الإدارة الصحيحة للبلدان. حرّره الإمام علي عليه السلام لمالك الأشتر عندما ولاّه على مصر. وهو مجموعة قيمة من الآثار العلوية العظيمة والخلاّقة، ملؤها المواضيع البديعة والسامية في صلب الحكومة وإدارة المجتمع، وتعييناً لأولويات وخصائص الحكّام و...

وقد روى هذه المجموعة عن الإمام عليه السلام أصبغ بن نباتة[١] ووردت كاملة في كتاب نهج البلاغة، وقد عني الكثير من العلماء والمحقّقين في كتابة الشروح عليه وتفسيره[٢].

٤ ـ الجامعة:

صحيفة كبيرة أُطلق عليها هذا العنوان، قدّر طولها بسبعين ذراعاً، وهي صحيفة أملاها الرسول صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام على جلد «الرقّ»، وقد وردت في مصادر كثيرة، وقد شابهت الأوصاف والتقارير الواردة في الكتب والمصادر المختلفة في وصف هذه المجموعة وتقريرها ما ورد في وصف وتقرير «كتاب علي» ولذا لا يستبعد أن تكون هذه المجموعة هي نفسها «كتاب علي».

كتب المرحوم السيد محسن الأمين العاملي في بداية التعريف بـ«الجامعة»:

والظاهر أنّها هي المعبّر عنها في جملة من الأخبار الآتية بكتاب علي عليه السلام وبالكتاب الذي

---

(١) رجال النجاشيّ/ ٢٧، الفهرست/ ٣٧، طبعة مشهد/ ١٣٦٢ هجري شمسي.

(٢) عهد مالك الأشتر. ترجمة حسين العلويّ الآويّ، تحقيق المقدمة: محمّد تقيّ دانش دظوه ٣٤ ـ ٣٨، وكذلك راجع «كتابنامه نهج البلاغة» للشيخ رضا أُستادي.

بإملاء النبي ﷺ وخطّ علي عليه السلام وبكتاب علي عليه السلام الذي هو سبعون ذراعاً وبالصحيفة التي طولها سبعون ذراعاً وبالصحيفة التي فيها ما يحتاج إليه حتّى أرش الخدش، وبالصحيفة العتيقة من صحف علي عليه السلام وشبيه ذلك[١].

وجاء عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال سمعته يقول:

وذكر ابن شبرمة في فتيا أفتى بها، أين هو من الجامعة إملاء رسول الله بخطّ علي عليه السلام فيها جميع الحلال والحرام حتّى أرش الخدش[٢].

وعن أبي العبّاس عن أبي عبد الله عليه السلام قال:

والله عندنا لصحيفة طولها سبعون ذراعاً فيها جميع ما يحتاج إليه الناس[٣].

على أية حال فإنّ هذه الصحيفة هي من جملة آثار وكتب علي عليه السلام حيث أوردت مصادر مختلفة ذكرها ومحتواها[٤].

ومن الآثار الأُخرى لعلي عليه السلام أيضاً الجامعة التي ورد ذكرها في مصادر الفريقين، ولا مجال هنا لتفصيل الحديث فيها[٥]. وقد تحدثنا عنها سابقاً.

---

(١) أعيان الشيعة، ج١/ ٩٣.
(٢) أعيان الشيعة، ج١/ ٩٣.
(٣) بصائر الدرجات/ ١٤٦.
(٤) نفس المصدر/ ١٤٥.
(٥) تراجع موارده في: تلخيص مقباس الهداية (مقالة: تأريخ تدوين الحديث وكتابته ٢٢٧ ـ ٢٢٩) آيات الأحكام للأسترآبادي، ج١/ ١٨ ـ ٢٦. الهوامش، حيث دلّ العلاّمة المتتبّع المرحوم الشيخ محمّد باقر شريف زاده على علائم أحاديث هذا الكتاب في وسائل الشيعة.

أقوال علي(ع) في تدوين الحديث:

لقد دعا علي عليه السلام شيعته وتلامذته والأمّة الإسلامية إلى الكتابة والتدوين كما فعل هو أيضاً وبذلك لفت الأنظار إلى مكانة التدوين الرفيعة في حفظ التراث الإسلامي، وقد نقل عنه في هذا المجال قوله:

«قيدوا العلم، قيدوا العلم» هكذا مرّتين[١].

وقوله عليه السلام: «قيدوا العلم بالكتاب»[٢].

وقوله عليه السلام: «من يشتري منّي علماً بدرهم؟ أو يشتري صحيفة بدرهم يكتب فيها العلم؟»[٣]، وفي بعض نصوص الحديث أنّ الحارث الأعور اشترى صحفاً بدرهم، ثم جاء بها علياً عليه السلام فكتب له علماً كثيراً[٤].

ويضاف إلى هذا، إرشادات علي عليه السلام المهذّبة في كيفية التدوين والكتابة بخطّ جميل، فبالإضافة إلى تأكيده على الكتابة، نبّه إلى كيفية ذلك:

قال علي عليه السلام لكاتبه عبيد الله بن أبي رافع:

ألق دواتك، واحلل جلفة قلمك وخرّج بين السطور، قرسط بين الحروف، فإنّ ذلك أجدر بصباحة الخطّ[٥].

---

(١) أعيان الشيعة، ج١/ ٩١ ـ ٩٨، مؤلّفو الشيعة في صدر الإسلام٢/ ١٣ ـ ١٥، المراجعات/ ٤١١.
(٢) تقييد العلم/ ٨٩.
(٣) تقييد العلم/ ٩٠.
(٤) تقييد العلم/ ٩٠، طبقات ابن سعد، ج٦/ ١١٦، السنّة قبل التدوين/ ٣١٧، تأريخ بغداد، ج٨/ ٣٥٧، كنز العمّال١٠/ ٢٦ رقم ٢٩٣٨٥، ربيع الأبرار، ج٣/ ٢٩٤.
(٥) المصادر السابقة.

وقال عليه السلام:

«عقل الكاتب قلمه»[١].

مساعي تلامذة الإمام علي(ع) في مجال التدوين:

وقد دعت تأكيدات ودعوات وسنّة الإمام علي عليه السلام العملية أتباعه المخلصين وتلامذته المجدين للاقتداء بسيرة مولاهم والسعي لتدوين العلم وكتابته، وسنأتي على ذكر بعضهم.

١ ـ أبو رافع:

مولى رسول الله صلى الله عليه وآله كان من الأوائل الّذين اشتغلوا بكتابة الحديث وتدوين العلم. وكان اسمه أوّل اسم أورده النجاشي في «فهرس مصّنفي الشيعة» وحوله كتب يقول:

ولأبي رافع كتاب السّنن والأحكام والقضايا، أخبرنا محمّد بن جعفر النحوي... عن محمّد بن عبيد الله بن أبي رافع عن أبيه، عن جدّه أبي رافع، عن علي بن أبي طالب عليه السلام، أنّه كان إذا صلّى، قال في أوّل الصلاة[٢]....

وذكر الكتاب إلى آخره باباً باباً: الصلاة والصيام والحجّ والزكاة والقضايا.

قال السيد محمّد علي الموحّد الأبطحي:

ثمّ إنّ الكتاب قد جمع فيه ما سمعه عن علي عليه السلام كما هو ظاهر الإسناد وحينئذٍ لا يبعد

---

(١) نهج البلاغة، قسم الحكم، الحكمة رقم ٣١٥ص ٥٣٠، طبعة صبحي الصالح.
(٢) نور الحقيقة، للعاملي/١٠٨.

اتّحاده مع كتاب علي عليه السلام على ما تقدّم وقد روى عن أبي رافع جماعة كثيرة منهم أولاده وأحفاده[١].

ولكن مع الأخذ بعين الاعتبار الاحتمال الذي ذكرناه سابقاً، واعتبرنا فيه أن حجم الكتاب أكبر من هذا الذي ذكر نستطيع القول أنّه لا يستبعد أن يكون كتاب أبي رافع جزءاً من كتاب علي عليه السلام.

وقال السيد شرف الدين:

أبو رافع، مولى رسول الله صلى الله عليه وآله وصاحب بيت مال أمير المؤمنين عليه السلام وكان من خاصّة أوليائه والمستبصرين بشأنه له كتاب «السّنن والأحكام والقضايا» جمعه من حديث علي عليه السلام خاصّة، فكان عنه سلفنا في الغاية القصوى من التعظيم[٢].

وقال السيد الصدر:

أوّل من دوّن الحديث من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام بعده أبو رافع[٣].

وقال الدكتور محمّد عجاج الخطيب:

كان عند أبي رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وآله كتاب فيه استفتاح الصلاة، دفعه إلى أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث[٤].

---

(١) رجال النجاشيّ/ ٦.
(٢) تهذيب المقال فى تنقيح كتاب للرجال، ج١/ ١٧٢.
(٣) المراجعات/ ٤١٢، مؤلّفو الشيعة فى صدر الإسلام/ ١٦.
(٤) السنّة قبل التدوين/ ٣٤٦ عن الكفاية للخطيب/ ٣٣٠ وراجع أيضاً: دلائل التوثيق المبكر للسنّة والحديث/ ٤١٩.

٢ ـ سلمان الفارسي:

قال ابن شهرآشوب: الصحيح ـ أنّ أوّل من صنّف أمير المؤمنين علي عليه السلام، ثمّ سلمان الفارسي[١].

وقال السيد الصدر:

أوّل من صنّف في الآثار مولانا أبو عبد الله سلمان الفارسي رضي الله عنه صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، صنّف كتاب حديث جاثليق الرومي الذي بعثه ملك الروم بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم[٢].

هذه الصحيفة في الحقيقة تقرير الحديث الذي دار بين علي عليه السلام وأسقف روما الأعظم حيث جاء ذكر مقاطع منها في المصادر الروائية[٣].

٣ ـ أبو ذر الغفاري:

قال ابن شهرآشوب: الصحيح أنّ أوّل من صنّف في الإسلام أمير المؤمنين عليه السلام، ثمّ سلمان الفارسي، ثمّ أبو ذر الغفاري[٤].

وقال شيخ الطائفة محمّد بن الحسن الطوسي:

جندب بن جنادة أبو ذر الغفاري رضي الله عنه، أحد الأركان الأربعة، له خطبة يشرح فيها الأمور بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم..[٥]..

وقال السيد الصدر:

---

(١) معالم العلماء/ ٢ طبعة النجف.
(٢) تأسيس الشيعة/ ٢٨٠. وراجع: نفس الرحمن في فضائل سلمان/ ٢٣٦.
(٣) راجع التوحيد/ ١٨٢و٢٨٦و٣١٦...
(٤) معالم العلماء/ ٤ طبعة النجف.
(٥) الفهرست / ٤٥.

أوّل من صنّف في الآثار بعد سلمان هو أبو ذر الغفاري له كتاب «الخطبة» شرح فيها الأُمور الواقعة بعد النبي ﷺ[١].

وقد أشرنا سابقاً إلى أنّ السلطات الحاكمة لم تمنع تدوين الحديث وكتابة الروايات وحسب بل إنّها عمدت أيضاً إلى الوقوف بوجه تناقلها! وأشرنا كذلك إلى أنّ الأخذ بهذا المنع السيئ والعمل به تواصل بقوّة حيث صدر في عهد الخليفة الثالث حكم مفاده:

لا يحلّ لأحد يروي حديثاً لم يسمع به في عهد أبي بكر ولا في عهد عمر[٢].

لكن أبا ذر لم يتحمّل هذا الحكم إلاّ أياماً معدودات، سارع بعدها إلى تجاهل تهديدات الحكّام ومنعهم، كيف لا وهو الذي كان يصدح بالحق عالياً أمام المشركين دون خوف أو وجل، وقد جاء في طبقات ابن سعد:

إنّ أبا ذر كان جالساً عند الجمرة الوسطى وقد اجتمع الناس يستفتونه، فأتاه رجل فوقف عليه ثمّ قال: ألم تنه عن الفتيا؟ فرفع رأسه إليه، فقال: أرقيب أنت علي؟! لو وضعتم الصمصامة على هذه وأشار إلى قفاه ثمّ ظننت أنّي أنفد كلمة سمعت من رسول الله ﷺ قبل أن تجيزوا علي لأنفدتها[٣].

وللحيلولة دون إيقاظ أبي ذر للناس والإبقاء على سياسة التجهيل كان

---

(١) تأسيس الشيعة/ ٢٨٠وراجع أيضاً: أبو ذر الغفاري، الشيخ محمد جواد آل الفقيه/ ١٧١ ـ ١٧٢.
(٢) منتخب الكنز بهامش مسند أحمد، ج/ ٤/ ٦٤، معالم المدرستين، ج٢/ ٦٤.
(٣) طبقات ابن سعد، ج٢/ ٣٥٤، سنن الدراميّ، ج١/ ١٣٢، قاموس الرجال، ج٢/ ٧٣٦.

نفي أبي ذر في البلاد وإصدار الأوامر التي تمنع مجالسته أو استماع حديثه[١].

٤ ـ عبد الله بن عبّاس:

كان مفسّراً ومحدّثاً وتلميذاً لعلي عليه السلام وكان من المخلصين له، فلم يألُ جهداً في كتابة الحديث وتدوين الحقائق ونشر المعارف. يقول عبيد الله بن أبي رافع:

كان ابن عبّاس يأتي أبا رافع، فيقول: ما صنع رسول الله صلى الله عليه وآله يوم كذا؟ ما صنع رسول الله صلى الله عليه وآله يوم كذا؟ ومع ابن عبّاس ألواح يكتب فيها[٢].

وكان يتّخذ صحفاً فيها قضاء علي عليه السلام[٣]، ولقد اشتهر أنّه ترك حين وفاته حمل بعير من كتبه، وأنّ ابنه علياً ورثها، وكان يستفيد منها[٤].

ذكر ابن نديم في ذيل عنوان «تسمية الكتب المصنّفة في تفسير القرآن» كتاباً عن ابن عبّاس، قال إنّ مجاهداً و... نقلوا عنه. ويبدو من هذا الاستشهاد أنّه كان تفسيراً للقرآن الكريم، على أية حال فإنّ الآثار التي نسبت إلى ابن عبّاس عديدة[٥].

وقد ذكر النجاشي في شرحه لآثار عبد العزيز بن يحيى الجلودي الأذري عدداً من آثار ابن عبّاس[٦].

---

(١) طبقات ابن سعد، ج٤/ ١٦٨.
(٢) تقييد العلم/ ٩١ ـ ٩٢.
(٣) تقييد العلم/ ١٩.
(٤) طبقات ابن سعد، ج٥/ ٢١٦، تقييد العلم/ ١٣٦.
(٥) المصدران السابقان، الفهرست/ ٣٧.
(٦) رجال النجاشي/ ٢٤١، راجع: دلائل التوثيق المبكر للسنّة والحديث/ ٤٥٢ ـ ٤٤٥، تأريخ التراث العربيّ، ج١/ ٦٦، ابن عباس ومكانته في التفسير والمعارف الأُخرى/ ١٧٩ فما بعدها.

ابن عبّاس وفضلاً عن مساعيه العملية في تدوين الحديث وكتابة المعرفة، حثّ الآخرين على مواصلة هذه المسيرة، حيث نقل عنه:

«خير ما قيد به العلم الكتاب»[١].

و«قيدوا العلم بالكتاب»[٢].

وقد أكّد على تدوين الحديث وأمر تلامذته وأنصاره بذلك، وقد أملاهم أحاديث لهذا الغرض لحفظها من الضياع والفساد:

قال ابن أبي مليكة: رأيت مجاهداً يسأل ابن عبّاس عن تفسير القرآن ومعه ألواحه، فيقول له ابن عبّاس: اكتب حتّى سأله عن التفسير كلّه[٣].

وعلى هذا الأساس فإنّ ما نقل عن ابن عبّاس في كراهيته لتدوين الحديث وتأييده لسياسة منع تدوين الحديث ونشره مستبعد بل غير صحيح[٤]..

ولا يستبعد أنّهم نسبوا إليه هذه الأحاديث لتبرير سياسة المانعين، نظراً لما حظي به ابن عباس من مكانة رفيعة ومرموقة في المعارف الإسلامية.

ولم يتقاعس ابن عباس عن تفسير القرآن ونشر الحديث وإذاعة فضائل علي وآل علي عليهم السلام، في السنوات اللاّحقة ولم يصغ لتهديدات معاوية:

قال [معاوية] فإنّا كتبنا في الآفاق ننهى عن ذكر

---

(١) تقييد العلم/ ٩٢.

(٢) تقييد العلم/ ٩٢.

(٣) تفسير الطبريّ، ج١/ ٣٠ (= ج١/ ٦٢ ـ ٦٣ طبعة دارالفكر)، مقدّمة في أُصول التفسير/ ١٠٣ وراجع أيضاً: دلائل التوثيق المبكر/ ٤٤٨ ـ ٤٤٩.

(٤) تقييد العلم/ ٤٢، جامع بيان العلم، ج١/ ٦٤.

مناقب علي وأهل بيته، فكفّ لسانك يا بن عبّاس واربح على نفسك!

قال [ابن عبّاس]: فتنهانا عن قراءة القرآن؟!

قال: لا،

قال: فتنهانا عن تأويله؟!

قال: نعم!

قال: فنقرأ ولا نسأل عمّا عنى الله به؟!

قال: نعم!

قال: فأيما أوجب علينا قراءته أو العمل به؟!

قال: العمل به.

قال: فكيف نعمل به حتّى نعلم ما عنى الله بما أنزل علينا؟

قال: سل عن ذلك من يتأوّله على غير ما تتأوّله أنت وأهل بيتك!![1]

٥ ـ جابر بن عبد الله الأنصاري:

من كبار الصحابة ووجهاء الشيعة البارزين ومن موالي علي عليه السلام وآله. وقد تناوله الكثير من كتاب علم الرجال والتراجم والمحدّثين، منهم: ابن سعد، عبد الرزّاق، الذهبي، البخاري و..[2].. له صحيفة مشهورة. اعتبرها بعض صحيفة في مناسك الحجّ، واحتمل بعض آخر أنها تشتمل

(١) كتاب سليم/ ١٦٥، طبع مؤسّسة بعثت.

(٢) راجع: الطبقات الكبرى، ج٥/ ٤٦٧؛ المصنف، ج١١/ ١٨٣، تذكرة الحفّاظ، ج١/ ٤٣، التأريخ الكبير، ج٤ق١/ ١٨٦.

على بعض الأحاديث حول حجّة الوداع التي ألقى فيها الرسول ﷺ خطبته العظيمة والجامعة.

على أية حال كان جابر بن عبد الله الأنصاري هماماً ومجّداً في تدوين الحديث وفي تعليمه ونشره أيضاً. وعن مكانته في نشر الحديث وتعليم وإعداد الطلاّب قالوا: أحد المكثرين عن النبي ﷺ[١].

وأيضاً: أحد المكثرين الحفّاظ للسنن[٢].

وكذلك: كان لجابر حلقة في المسجد النبوي يؤخذ منه العلم[٣].

ويمكننا استقاء هذه الحقيقة عبر نصوص أُخرى، فهذا الخطيب البغدادي ينقل عن عدد آخر من الرواة:

كنّا نأتي جابر بن عبد الله، فنسأله عن سنن رسول الله ﷺ [وفي رواية أخرى: عن سير رسول الله ﷺ] فنكتبها[٤].

وقد بذل جابر مساع جمّة في جمع الحديث والروايات ولم يألُ جهداً في ذلك فسافر إلى البلدان المختلفة ليأخذ الحديث عن مشايخه[٥].

وقد تجاوزت الأحاديث التي نقلها وكتبها ألف حديث وقد اعتبره العلماء والمحدّثون مكثراً في الحديث والرواية وأكّدوا على صحيفته ـ التي أشرنا إليها ـ[٦].

---

(١) الإصابة، ج١/ ٢١٤، أعيان الشيعة، ج٤/ ٤٦ ـ ٤٧.
(٢) الإصابة، ج١/ ٢١٤، أعيان الشيعة، ج٤/ ٤٦ ـ ٤٧.
(٣) أعيان الشيعة، ج١٥/ ١٤٣.
(٤) تقييد العلم/ ١٠٤.
(٥) دلائل التوثيق المبكر/ ٤٥٤.
(٦) جامع بيان العلم، ج١/ ٩٣، صحيح البخاريّ، ج١/ ٣١، دلائل التوثيق المبكر/ ٤٥٤.

وقد أثنى الإمام محمّد بن علي الباقر عليه السلام على شخصية جابر ومقامه الرفيع ونقل عنه بعض الأحاديث تثميناً لشخصيته، وقد فعل ذلك الكثيرون.

ولمواجهة المكانة المعرفية لجابر اتّخذت السلطات المعادية للمعارف الحقة حينها موقفاً معادياً ضدّه، فأمر الحجّاج بن يوسف بختم يد جابر وعدد آخر من الصحابة، سعياً منه إلى تحقيرهم وإذلالهم ومنع الناس من التجمّع حولهم. وهذا ابن الأثير الجزري يقول:

... وختم في يد جابر بن عبد الله، يريد إذلالهم بذلك، وأن يجنبهم الناس فلا يسمعوا منهم[1].

وعلى هذا فإن الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري أصرّ رغم الطاغوت على تدوين الحديث ونشره وأكّد على ذلك أيضاً.

٦ ـ عبيد الله بن أبي رافع:

هو من الشخصيات الشيعية البارزة. ذكر المحدثّون ومن اهتمّ بعلم الرجال والتراجم اسمه في عداد طلائعي حركة التأليف والتدوين وأثنوا على مقامه، وعنه قال ابن شهرآشوب:

... إنّ أوّل من صنّف فيه [الإسلام] أمير المؤمنين... ثمّ عبيد الله بن أبي رافع.

وقال العلامّة السيد شرف الدين العاملي:

ومنهم [من مؤلّفي الشيعة في صدر الإسلام] عبيد الله بن أبي رافع كاتب علي عليه السلام، كان من خواص

---

(١) أُسد الغابة في معرفة الصحابة، ج٢/ ٥٧٦، في ترجمة (سهل بن سعد)، دلائل التوثيق المبكر/ ٤٥٤ ـ ٤٥٦.

شيعته، له كتاب قضايا أمير المؤمنين عليه السلام، وكتاب تسمية من شهد الجمل وصفّين والنهروان معه عليه السلام[١].

يذكر أنّ العنوان الدقيق لكتاب عبيد الله بن أبي رافع القيم هو «تسمية من شهد مع علي عليه السلام حروبه، من المهاجرين والأنصار الّذين بشّرهم رسول الله صلى الله عليه وآله، بالجنّة من التابعين من أفاضل العرب»[٢]، ويعدّ هذا الكتاب من جملة المؤلّفات العظيمة التي لا نظير لها في الثقافة الإسلامية، وبهذا الكتاب يعدّ عبيد الله بن أبي رافع أوّل من دوّن علم الرجال في الثقافة الإسلامية[٣].

وكان كتابه هذا حتّى القرون المتأخّرة في متناول المؤلّفين والمؤرّخين والمحقّقين مثل: الشيخ الطوسي، وابن الأثير، وابن عساكر وابن حجر حيث تمّ الرجوع إليه في تدوين علم الرجال[٤].

٧ ـ علي بن أبي رافع:

من الشخصيات الشيعية البارزة، ومن خواصّ علي بن أبي طالب عليه السلام المتقين، كان هماماً مجدّاً في تدوين العلم ونشره. وقد نال الكتاب الذي جمعه في الفقه مقاماً رفيعاً حيث أكّد أهل البيت على تعليمه وتعلّمه، ووصف في رجال النجاشي:

---

(١) معالم العلماء، طبعة النجف/ ٢.

(٢) لحسن الحظ أنه قد حفظت نسخ من هذا الأثر النفيس، وقد عني الأُستاذ محمّد رضا الجلالي الحسينيّ بتصحيحها وتعليقها، على أمل أن يفرغ منها في القريب العاجل، وراجع: مجلّة «حوزة» العدد ٢٨/ ١٨٣.

(٣) مؤلّفو الشيعة فى صدر الإسلام/ ١٨.

(٤) تأسيس الشيعة/ ٢٣٢، الذريعة، ج٤/ ١٨١، مصفى المقال فى مصنفيّ علم الرجال/ ٢٥٨.

من خيار الشيعة، وكاتب أمير المؤمنين عليه السلام، حفظ كثيراً، وجمع كتاباً في فنون من الفقه: الوضوء والصلاة وسائر الأبواب... وكانوا يعلّمون هذا الكتاب[١].

وقال السيد شرف الدين العاملي:

وكان أهل البيت يعظّمون هذا الكتاب ويرجعون شيعتهم إليه[٢].

وقال السيد الأبطحي:

كان علي بن أبي رافع من خواصّ أمير المؤمنين عليه السلام، وكاتباً له، وكان من فقهاء الشيعة كتب كتاباً في الفقه... وتفقّه على أمير المؤمنين عليه السلام وجمع كتابه في أيامه[٣].

٨ ـ أصبغ بن نباتة:

من خواصّ علي عليه السلام والوجوه الشيعية البارزة، قال عنه ابن شهرآشوب بأنّه من طلائعيي التصنيف في صدر الإسلام، وعبّر عنه النجاشي بأنّه من السلف الصالح من متقدّمي المؤلّفين، وكتب:

المجاشعي كان من خاصّة أمير المؤمنين عليه السلام، وعمّر بعده، روى عنه (عهد) الأشتر و(وصيته) إلى محمّد ابنه[٤].

---

(١) رجال النجاشيّ/ ٦ ـ ٧.
(٢) مؤلفو الشيعة فى صدر الإسلام/ ١٨، المراجعات/ ٤١٢.
(٣) تهذيب المقال فى تنقيح كتاب الرجال، ج١/ ١٧٣.
(٤) معالم العلماء/ ١.

وروى باب «القضاء» من كتاب الأحكام الكبير لعلي عليه السلام.

ويمكن الرجوع إلى هذه الصحيفة الموجودة برواية إبراهيم بن هاشم القمي. وقد سجّلت نسخ أُخرى منها في جامعة طهران بالرقم ٣٩١٥ لعام ١٠٦٤هـ، وفي مكتبة الحميدية بتركيا بالرقم ١٤٤٧٥ تحت عنوان «أقضية أمير المؤمنين عليه السلام»[١].

وقد كانت عند السيد محسن الأمين العاملي صاحب أعيان الشيعة نسخة ثمينة من هذا الكتاب ضمن مجموعة مُؤرخة بسنة (٤١٠ و٤٢٠) باسم (عجائب أحكام أمير المؤمنين عليه السلام ومسائله) فأدرجها في كتاب ألّفه باسم (عجائب أحكام وقضايا ومسائل أمير المؤمنين عليه السلام)[٢].

وقد جاء الشيخ الطوسي على ذكره في فهرسته، وذكر روايته عن عهد مالك الأشتر ووصية علي عليه السلام إلى ابنه محمّد ابن الحنفية وأورد سندهما، بعدها كتب يقول: وروى الدوري أيضاً عنه مقتل الحسين عليه السلام[٣].

وكذلك النجاشي في «فهرسته» الذي يُعَرَّفُ عنه «برجال النجاشي»[٤].

وقال السيد شرف الدين العاملي:

... صاحب أمير المؤمنين وكان من المنقطعين إليه، روى عنه عهده إلى الأشتر ووصيته إلى ابنه محمّد، ورواهما أصحابنا بأسانيدهم الصحيحة إليه[٥].

---

(١) تدوين السنّة الشريفة/ ١٤٠.

(٢) عجائب أحكام أمير المؤمنين عليه السلام... دمشق، مطبعة الإتقان ١٣٦٦. راجع: تدوين السنة الشريفة/ ١٤٠.

(٣) الفهرست/ ٦٢ ـ ٦٣.

(٤) رجال النجاشي/ ٨.

(٥) المراجعات/ ١٤١٣؛ مؤلفو الشيعة فى صدر الإسلام/ ١٧.

٩ ـ سُليم بن قيس العامري الهلالي:

من المحدّثين الموثّقين، له نور يعلوه، وهو من خواصّ علي عليه السلام. ترك أثراً كبيراً وبارزاً، وقد ذهب البعض إلى اعتباره أوّل من صنّف في الشيعة، وذهب آخرون إلى تبرير هذه التسمية بتوغّله وخوضه العميقين.

على أية حال، المتبحّر الكبير في علم الكتاب ابن النديم يقول:

قال محمّد بن إسحق: من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، سُليم بن قيس الهلالي، وكان هارباً من الحجّاج لأنّه طلبه ليقتله، فلجأ إلى أبان بن عبّاس، فآواه، فلمّا حضرته الوفاة قال لأبان: إنّ لك علي حقّاً وقد حضرتني الوفاة يا ابن أخي، إنّه كان من أمر رسول الله صلى الله عليه وآله كيت وكيت.

وأعطاه كتاباً هو كتاب سُليم بن قيس الهلالي المشهور، رواه عنه أبان بن عياش، لم يروه عنه غيره.

وقال أبان في حديثه:

وكان قيس شيخاً له نور يعلوه، وأوّل كتاب ظهر للشيعة، كتاب سُليم بن قيس الهلالي.

ذكره النجاشي في المتقدّمين في التصنيف من سلفنا الصالح، وقال: له كتاب[١].

وكذلك ذكره الطوسي في الفهرست، وقال: له كتاب أخبرنا به ابن أبي حيدر[٢].

---

(١) رجال النجاشيّ/ ٨.

(٢) الفهرست١٦٢/ ، العدد/ ٣٣٦.

وقال النعماني:

ليس بين جميع الشيعة ممّن حمل العلم ورواه عن الأئمّة عليهم السلام خلاف في كتاب سُليم بن قيس الهلالي. أصله من أكبر كتب الأُصول التي رواها أهل العلم وحملة حديث أهل البيت عليهم السلام وأقدمها، لأنّ جميع ما اشتمل عليه هذا الأصل إنّما هو عن رسول الله صلى الله عليه وآله وعن أمير المؤمنين عليه السلام وسلمان والمقداد وأبي ذر ومن جرى مجراهم ممّن شهد رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام وسمع منهما، وهو من الأُصول التي ترجع إليها الشيعة ويعول عليها[1].

كان كتاب سُليم من الآثار المشهورة والمتداولة في صدر الإسلام، وقد جاء ذكره في كتب الرجال والفهارس وصرّح بأقدميته. وقد أكّد المؤلّفون المعاصرون على هذا الأمر واعتبروه من أقدم الآثار الشيعية المدوّنة.

قال الدكتور شوقي ضيف:

ويظهر أنّ أوّل من ألّف فيها سُليم بن قيس الهلالي معاصر الحجّاج[2].

ويعد هذا الكتاب من الكتب المشهورة والمتداولة اليوم، وقد أعيدت طباعته مرّات عديدة سنشير إلى طبعتين رئيسيتين:

---

(١) الغيبة/ ١٠١ ـ ١٠٢، وراجع أيضاً: تأسيس الشيعة/ ٢٨٢، المراجعات/ ٤١٣، مؤلفو الشيعة في صدر الإسلام/ ١٦، تهذيب المقال، ج١/ ١٨٠.

(٢) تأريخ الأدب العربي، ج٢/ (العصر الإسلامي)/ ٤٥٣، المقالات الدينية/ ٨.

١ ـ طبعة النجف: وهو بمقدّمة مفصّلة وقيمة من المحقّق الكبير المرحوم السيد محمّد صادق بحر العلوم، وقد أعيد طباعته بالأُفسيت في بيروت مراراً.

٢ ـ طبعة قم: حقّقها وعلّق عليها وقدّم لها السيد علاء الدين الموسوي. وتمتاز هذه الطبعة إضافة إلى مقدّمتها التحقيقية حول ماهية الكتاب بهوامش قيمة. لمقارنة روايات المتن مع المصادر الأُخرى وشروح حول الروايات، ووضع في خاتمة الكتاب فهرستاً موضوعياً لمطالب الكتاب.

٣ ـ طبعة قم: حققها الشيخ محمد باقر الأنصاري الزنجاني الخوئيني في مجلدات ثلاث:

الأوّل: دراسة مستوعبة وتحقيق شامل حول الكتاب والمؤلف.

الثاني: متن الكتابِ المحقَّق والمستدرك من أحاديث سليم.

الثالث: تخريج الأحاديث والفهارس العامّه والمعجم الموضوعي. طبع في سنه/ ١٤١٥.

على أية حال فإنّ الموجود بين أيدي الناس، غير مقبول في إطلاقه، ففيه ما هو باطل بالبداهة عند الشيعة وعقيدتهم. وعليه فالكتاب الموجود يعدّ مدسوساً فيه على أقلّ تقدير، فهو خليط من الغثّ والسمين[1].

١٠ ـ ميثم التمّار:

أُسطورة في الشجاعة والثبات، كان مفسّراً ومحدّثاً كبيراً، وعاشقاً من عشّاق أهل البيت. أخذ على عاتقه قضية الدفاع عن أهل البيت. فتحمّل في

(١) راجع: الذريعة، ج٢/ ١٥٢ ـ ١٥٩، تهذيب المقال١٨٦ ـ ١٩١، مقدمة الكتاب طبعة النجف، مقدمة الكتاب طبعة قم، معرفة الحديث/ ٢٥٥.

ذلك الكثير وتكلّم الدرر المتلألئة دفاعاً عن آل البيت في زمانه رغم التعذيب والقهر، فارتقى من أجل ذلك سلّم المشانق، فصلبه الطاغوت حقداً. يمكننا عبر مصادر الرجال والتراجم التأكّد من أنّ لميثم كتباً، كان أحدها في التفسير، وعنه كتب العلاّمة الهمام الشيخ آقا بزرگ الطهراني ـ يقول:

تفسير ميثم بن يحيى التمّار الكوفي... وتفسيره بعض ما تعلّمه من أمير المؤمنين عليه السلام، فأملاه التمّار على ترجمان القرآن حبر الأُمّة ابن عبّاس...(١).

إنّ حديث الشيخ آقا بزرگ مدعوم بقضية ذكرت في الكثير من المصادر:

ففي آخر عامّ من حياته حجّ ميثم بيت الله الحرام، وبعدها توجّه إلى المدينة. وهناك حضر عند أُمّ المؤمنين «أُمّ سلمة» التي أكرمته وأخبرته باستشهاده وتخضيب لحيته بالدماء، فقام من عندها وتوجّه إلى ابن عبّاس وقال له: يا ابن عبّاس سلني ما شئت من تفسير القرآن، فإنّي قرأت تنزيله على أمير المؤمنين عليه السلام وعلّمني تأويله، فقال: يا جارية هاتي الدواة وقرطاساً، فأقبل يكتب(٢).

ويمكننا وعبر المصادر التأريخية الأُخرى الاستقاء بأنّ ميثم كان جادّاً في تدوين الحديث ونشره ولم يألُ جهداً في نشر فضائل علي عليه السلام وأهل

(١) الذريعة إلى تصانيف الشيعة، ج٤/ ٣١٧.
(٢) اختيار معرفة الرجال/ ٨١.

البيت، ولم يسكت ميثم الذي صلب لإيمانه في هذه الحال عن نشر الحديث وإبلاغ الحقّ، ولهذا فقد أمر عبيد الله بن زياد (ابن مرجانة) بتكبيله أوّلاً ثمّ ربطه إلى جذع نخلة.

وعن كتبه كتب العلاّمة الشيخ محمّد حسين المظفّر يقول:

إنّ لميثم كتباً يرويها عنه بنوه، غير أنّ أرباب الرجال لم يذكروا ما تلك الكتب، وفي أي علم هي، نعم إنّك عرفت ممّا سبق أنّه عالم بالتفسير، عالم بالمنايا والبلايا، ولديه علم الكائنات والفتن، وهل شيء وراء هذا يطلب في العلم؟ أو لم يكن حرياً وهو بهذه المنزلة أن يحظى بالعلوم كافّة؟! وإنّ ضياع أمثال هاتيك الكتب الثمينة لضياع للفضيلة وحرمان من نفائس الفنون، بلى! إنّ شيئاً قليلاً من فضائل أمير المؤمنين وأهل البيت روته عنه الكتب، ولم تحفظ الرواة له كثيراً من الحديث[1].

وقد نادى ميثم المصلوب الناس قائلاً:

أيها الناس من أراد أن يسمع الحديث المكنون عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال، فاجتمع الناس وأقبل يحدّثهم بالعجائب..[2].

وهكذا صمد ميثم في وجه مؤامرة الحكّام في منع تدوين الحديث ونشره والحيلولة دون انتشار الحقّ، وقدّم نفسه قرباناً على مذبح العقيدة فاستشهد محتسباً مظلوماً.

---

(١) ميثم التمار، شهيد العقيدة والإيمان/ ٨٦.

(٢) اختيار معرفة الرجال/ ٨٧.

١١ ـ زيد بن وهب الجهني الكوفي:

من الرواة وأحد رجال الصحاح الستّ، اشتغل بجمع ونشر خطب وأقوال الإمام علي عليه السلام. كان من سكّان الكوفة ومصاحباً لعلي عليه السلام[١]. كما اشترك مع الإمام في حروبه، وقد أثنى عليه الرجاليون واعتبروه في الزمرة الموثّقة. وعنه كتب الشيخ الطوسي:

له كتاب خطب أمير المؤمنين عليه السلام على المنابر في الجمع والأعياد وغيرها[٢].

ومن خلال موارد عديدة من كتاب «صفّين» القيم يستدلّ على حضور زيد بن وهب في حرب صفّين، وقد نقل نصر بن مزاحم عدداً من خطب علي عليه السلام وأقوال الآخرين في هذه المعركة عبر زيد[٣].

وقد ذكر الرجالي الكبير العلاّمة آقا بزرگ الطهراني هذه الصحيفة وعلقّ عليها بالرجوع إلى مصادر متعدّدة[٤].

١٢ ـ حارث بن عبد الله الأعور الهمداني:

من أنصار علي عليه السلام، عشق كلامه وكان من الملمّين بحديثه، قيل إنّه أوّل من جمع أقوال علي عليه السلام. وقد أكّد الرجاليون في وصفه على هذه الأُمور. واعتبروه من شيعة الصدر الأوّل[٥]. وقد هّم حارث في تدوين الحديث ونقله؛ وعنه كتب ابن سعد يقول:

---

(١) أسد الغابة، ج٢/ ٣٠١، وراجع أيضاً: قاموس الرجال، ج٤/ ٥٩٠، تهذيب التهذيب، ج٣/ ٤٢٧.
(٢) الفهرست/ ١٤٨ طبعة مشهد، ص ٧٢ طبعة النجف.
(٣) وقعة صفين/ ٢٣٢و٢٣٤و٢٤٢و٢٤٩و ٢٥٦و....
(٤) الذريعة، ج٧/ ١٨٩، وراجع أيضاً: قاموس الرجال، ج٤/ ٥٩٠، معجم رجال الحديث، ج٧/ ٣٦٠ تراثنا، السنة الأولى العدد الخامس/ ٢٨.
(٥) سير أعلام النبلاء، ج٤/ ١٥٣.

... إنّ علي بن أبي طالب خطب الناس فقال: من يشتري علماً بدرهم؟ فاشترى الحارث الأعور صحفاً بدرهم ثمّ جاء بها علياً، فكتب له علماً كثيراً، ثمّ إنّ علياً خطب الناس بعد فقال: يا أهل الكوفة غلبكم نصف رجل[١].

وقد نقل الإمامان الحسن والحسين عليهما السلام خطب وأقوال أبيهما عليه السلام عنه وقد سألوه عنه أحياناً أُخرى، لزرع الطمأنينة في نفوس الناس حول الحارث. كتب ابن سعد يقول:

... عن عامر الشعبي، رأيت الحسن والحسين يسألان الحارث الأعور عن حديث علي[٢].

وذكره الحافظ المزي في كتابه، وفيه: أنّه كان أعلم الناس بحديث علي عليه السلام. وفيه أيضاً عن أبي بكر بن أبي داود: الحارث كان أفقه الناس، وأفرض الناس، وأحبّ الناس، تعلّم الفرائض من علي عليه السلام[٣].

وعنه ذكر الشيخ الطوسي (رضوان الله عليه) في فهرسه أنّه حرّر كتاباً أخبر فيه الإمام علي عليه السلام رجلاً يهودياً عن بعض الأُمور، وقد روى عمرو بن أبي مقدم هذا الكتاب عن أبي إسحاق السبيعي عن الحارث الهمداني عن الإمام علي عليه السلام[٤].

يذكر هنا أنّ الكثير من رجاليي العامّة نالوا من حارث بن عبد الله الأعور الهمداني واتّهموه، ولكن لماذا؟

---

(١) طبقات ابن سعد، ج٦/ ١٦٨.
(٢) نفس المصدر، وراجع أيضاً: تهذيب الكمال، ج٥/ ٢٤٩.
(٣) تهذيب الكمال، ج٥/ ٢٥٠ و٢٥٢.
(٤) الفهرست/ طبعة النجف.

أليس ذلك لأنّه هام حبّاً بعلي عليه السلام وهمّ بجمع خطبه وأقواله ونشرها وكان يتشيع له فأرادوا قمعه؟

بلى: ! لننظر إلى ما جاء عنه في تهذيب التهذيب:

... ولم يبن عن الحارث كذبه وإنّما نقم عليه إفراطه في حبّ علي[١].

وكذلك ما نقله ابن حجر في كتابه الآخر:

... صاحب علي، كذّبه السعبي في رأيه، ودعي بالرفض وفي حديثه ضعف[٢].

على أية حال كان من أصحاب علي عليه السلام وبذل جهوداً محمودة في جمع وتدوين ونشر ونقل خطب وأقوال علي عليه السلام.

عن أبي إسحاق السبيعي، عن الحارث الأعور قال: خطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يوماً خطبة بعد العصر، فعجب الناس من حسن صفته، وما ذكر من تعظيم الله جلّ جلاله. فقال أبو إسحاق للحارث: أما حفظتها؟ قال: قد كتبتها، فأملاها علينا من كتابه[٣].

١٣ ـ حجر بن عدي الكندي:

هو صفحة من البطولة والمقاومة الشيعية، سطر بدمائه ملحمة الدفاع عن الحقّ، فاستشهد في سبيل العقيدة، وقد دعا موقفه البطولي الصاعق

---

(١) تهذيب التهذيب، ج٢/ ١٤٧.

(٢) تقريب التهذيب، ج٣/ ١٤١، راجع: سير أعلام النبلاء، ج٤/ ١٥٣، الضعفاء لابن هيان، ج١/ ٢٢٢.

(٣) التوحيد/ ٣١.

طاغوت الشام كي يعلقّ رأسه الطاهر على بوابة دمشق فكان أوّل رأس يقطع في التأريخ الإسلامي! هام في حبّ علي وأولاد علي ولم ينقل حديثاً عن غيره.

عنه كتب ابن سعد:

عن عمير بن قميم قال: حدّثني غلام لحجر بن عدي الكندي قال، قلت لحجر: إنّي رأيت ابنك دخل الخلاء ولم يتوضّأ! قال: ناولني الصحيفة من الكوة. فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما سمعت من علي بن أبي طالب عليه السلام يذكر: أنّ الطهور نصف الإيمان. وكان ثقة معروفاً ولم يرو عن غير علي شيئاً[١].

ومن خلال هذا الحديث يتّضح أنّه جمع عدداً من الروايات وكان يقرأ منها للآخرين عند الضرورة. شارك إلى جانب علي عليه السلام في حروبه، وكان من خواصّ علي وابنه الحسن عليهما السلام الأقوياء. وقد عدّه الرجاليون من صحابة الإمام علي عليه السلام وابنه الإمام الحسن عليه السلام، وقد أثنوا على صلابته وإيمانه وصدقه[٢].

من ذكرناهم كانوا في الواقع ثلّة من العارفين بالسنّة العلوية، ومن أبرز خواصّ وأنصار الرسول صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام ومن الّذين اشتغلوا في جمع وتدوين الحديث ونشره؛ وسنذكر هنا عدداً آخر من أولئك الّذين جدّوا في هذا الأمر، ولكن بشيء من الاختصار وهم:

بلال منادي التوحيد وعضد الرسول، والذي أمر بكتابة الحديث

---

(١) طبقات ابن سعد، ج٦/ ٢٢٠.

(٢) رجال الطوسي/ ٣٨ و٦٧، قاموس الرجال، ج٣/ ١٢٢، معجم رجال الحديث، ج٤/ ٢٣٧ و....

وتدوين أقوال الرسول ﷺ[١]، وعطية العوفي الذي اعتبره شيخ الطائفة في عداد أصحاب علي عليه السلام وكان من المعمّرين فأدرك الإمام الباقر عليه السلام، له تفسير من خمسة أجزاء وعنه قال:

لقد قدّمت قرآني هذا مفسّراً إلى ابن عبّاس ثلاث مرّات وقراءةً سبعون مرّة[٢].

وأبو الأسود الدؤلي الذي أسّس علم النحو بإملاء علي عليه السلام وجهد في بيانه وتفصيله فكان من طلائعي المؤلّفين والمتعمقين في المعارف الإسلامية[٣].

ومحمّد بن قيس البجلي، تابعي من أصحاب علي عليه السلام له كتاب روى فيه عن علي عليه السلام[٤].

ورُشيد الهجري الذي ظلّ مدافعاً عن حريم أهل البيت عليهم السلام، ودعا إلى بيان فضائلهم، فاستقام ضدّ بني أُمية وطواغيت زمانه، واعتلى المشنقة، وظلّ يحاكي الناس بما خبره من الحقّ من علي عليه السلام ودعا الناس إلى تدوين الحقائق الإلهية[٥].

وربيعة بن سميع وعنه قال النجاشي:

إنّه من أوائل مصنّفي الشيعة، وله كتاب ينقل فيه

---

(١) كتاب من لا يحضره الفقيه، ج١/ ٢٩٢، أمالي الصدوق/ ٣٨، الحديث/ ١ وراجع أيضاً: ترتيب الأمالي، ج١/ ٥٣٨ وج٢/ ٥٥٠.

(٢) رجال الطوسي/ ٥١.

(٣) الأشباه والنظائر للسيوطي ج١/ ١٢ ـ ١٤، طبقات النحويين للزبيدي/ ٢١، نزهة الالبّاء٦/ ١١ ـ ٤٧؛ مؤلفو الشيعة في صدر الإسلام/ ٢٠.

(٤) الفهرست/ ٣١٣، تأسيس الشيعة/ ٢٨٣.

(٥) الإرشاد/ ١٥٤، اختيار معرفة الرجال/ ٧٥ ـ ٧٨، بحار الأنوار، ج٤٢/ ١٢٢ ـ ١٤١(١٤١ ـ ١٤٢).

زكاة الأنعام عن علي عليه السلام. وقد عدّ من كبار التابعين وأصحاب علي عليه السلام[١].

ومصعب بن يزيد الأنصاري وهو من ولاة علي عليه السلام. ذكر النجاشي بأنّ له كتاباً[٢].

وعبيد الله بن حرّ الجحفي شاعر وتابعي كوفي، اعتبره النجاشي من أوائل المؤلّفين والمصنّفين الشيعة[٣]. نقل نسخة من الأحاديث التي رواها علي عليه السلام.

الإمام الحسن(ع) وتدوين الحديث:

كان عهد إمامة الحسن عليه السلام عهداً أسودَ ومظلماً ومضطرباً، فقد انطلت فيه ألاعيب وأحابيل معاوية على المسلمين، وكان الإمام يعيش حياته مظلوماً مبعداً عن الساحة الاجتماعية. لكنّه رغم ذلك لم يغفل عن تدوين الحديث بل أكّد عليه.

عن ابن عمرو بن العلاء، قال: سئل الحسن بن علي عليه السلام عن الرجل يكون له ثمانون سنة يكتب الحديث؟ قال: إن كان يحسن أن يعيش[٤].

وعن شرحبيل بن سعد قال:

دعا الحسن بن علي عليه السلام، بنيه وبني أخيه، فقال: يا بني وبني أخي إنّكم صغار قوم، يوشك أن

---

(١) رجال النجاشيّ/ ٣، تهذيب المقال، ج١/ ١٧٧، تأسيس الشيعة/ ٢٨٢.
(٢) رجال النجاشيّ/ ٤١٩.
(٣) رجال النجاشيّ/ ٩، تأسيس الشيعة/ ٢٨٣.
(٤) العقد الفريد، ج٢/ ٢٩٩.

تكونوا كبار آخرين، فتعلّموا العلم، فمن لم يستطع منكم أن يرويه، فليكتبه، وليضعه في بيته[١].

تجسّد هذه المقولة بوضوح أهمية وضرورة تدوين الحديث ونشره والمحافظة عليه من الضياع والتلف.

الإمام الحسين(ع) وكتابة الحديث:

واصل معاوية في عهده الأسود انتهاك بنود معاهدة الصلح واحدة بعد الأُخرى، وقد عمَّ ظلمه وجبروته الآفاق. وفي أحد الأعوام توجّه أبو عبد الله الحسين إلى مكة المكّرمة وخطب في منى في جمع عظيم من بني هاشم وأهل البيت والصحابة والتابعين خطبة مسهبة جاء فيها:

أمّا بعد: فإنّ هذا الطاغية قد فعل بنا وبشيعتنا ما قد رأيتم وعلمتم وشهدتم، وإنّي أُريد أن أسألكم عن شيء فإن صدقت فصدّقوني، وإن كذبت فكذّبوني، أسألكم بحقّ الله عليكم وحقّ رسول الله ﷺ وحق قرابتي من نبيكم لما سيرتم مقامي هذا ووصفتم مقالتي ودعوتم أجمعين في أنصاركم من قبائلكم من آمنتم من الناس ووثقتم به فادعوهم إلى ما تعلمون من حقّنا، فإنّي أتخوّف أن يدرس هذا الأمر ويذهب الحقّ[٢].

لقد أكّد الإمام عليه السلام في مقولته هذه على التدوين والكتابة، وهذا

---

(١) سنن الدارميّ، ج١/ ١٠٧ح ٥١٧، تأريخ دمشق [ترجمة الحسن عليه السلام] ١٦٧ و١٦٨، بحار الأنوار، ج٢/ ١٥٢ ج٣٧، تقييد العلم/ ٩١، السنّة قبل التدوين/ ٣١٧ و. . . .

(٢) كتاب سليم بن قيس/ ١٦٨، طبعة قم.

يعني بالتحديد مواصلة واستمراراً لسنّة الرسول ﷺ وعلي عليه السلام والتي أشرنا إليها مسبقاً. ودون أي شك فإنّ مقولة الإمام عليه السلام واضحة الحجّة على الّذين سمعوا مقولته في ذلك اليوم وجميع أولئك الّذين قرأوها عبر التأريخ. قال الأُستاذ السيد محمّد رضا الجلالي في توضيحه لهذه المقولة ولكون كلام الإمام عليه السلام حجّة شرعية:

والشاهد في هذا الكلام، قوله عليه السلام «اكتبوا قولي» حيث إنّه أمر بكتابة كلامه عليه السلام، ودلالته على تدوين الحديث من جهات:

١ ـ لأنّا نحن الشيعة الإمامية نعتقد أنّ ما يحدّث به الإمام عليه السلام فإنّما هو من السّنة التي يجب اتّباعها، لما ثبت عندنا من الأدلّة على أنّ الأئمّة إنّما هم الحجج المنصوبة من قبل رسول الله ﷺ على الأُمّة، حيث أمرها بالتمسّك بهم والأخذ منهم، وقد أسلفنا بعض ذلك في الاستدلال بحديث الثقلين.

٢ ـ إنّ الأئمّة عليهم السلام قد صرّحوا بأنّ حديثهم إنّما هو حديث جدّهم رسول الله ﷺ فهو بحكمه في الحجية[١].

٣ ـ إنّ قوله الذي أمر بكتابته لا يخلو من ذكر حقّهم عليهم السلام الذي أشاروا إليه ولا يخفى أنّ حقّهم إنّما يثبت بما أثبته رسول الله ﷺ، فقوله الذي أمر بكتابته جاء لحديث الرسول ﷺ وسلّم لا محالة.

٤ ـ إنّ قوله: اكتبوا قولي، يكشف عن رضاه بكتابة سنّة الرسول ﷺ بالأولوية المعلومة، خاصّة إذا كان الحديث يرتبط بأمر الدين[٢].

---

(١) الإرشاد للمفيد/ ٢٥٠، وصول الأخيار/ ١٠٧، الكافي، ج١/ ٤٣ ح١٤.
(٢) تدوين السنّة الشريفة/ ١٤٩.

إنّ الآثار المتبقية عن هذين الإمامين (الحسنين عليهما السلام) والمنقولة في تلك الأجواء التي كانت تغط في ظلمة وجهل عميقين ومع أنّها قليلة إلا أنها تجسّد في مجموعها إصرار هذين الإمامين العظيمين على كتابة الحديث ونشره.

عهد الإمام الرابع(ع)

غرقت حكومة بني أُمية بعد وقعة الطفّ في نشوة انتصارها؛ فرغم أنّ المذبحة المروعّة آلت إلى بثّ بذور الثورة في أعماق المجتمع الإسلامي لاحقاً، لكن المجتمع سَبُتَ في ذلك اليوم في غفلة عميقة وصمت واستمرّ هذا ردحاً من الزمن.

إنّ مقولة الإمام الصادق عليه السلام تجسّد بوضوح هذا الصمت، القاتل والتخلّف الذهني للمجتمع:

ارتدّ الناس بعد قتل الحسين عليه السلام إلاّ ثلاثة: أبو خالد الكابلي، ويحيى ابن أُمّ الطويل، وجبير بن مطعم؛ ثمّ إنّ الناس لحقوا وكثروا[1].

قال الكشّي: وروى يونس عن حمزة بن محمّد الطيار مثله وزاد فيه: جابر بن عبد الله الأنصاري[2]. تجسّد هذه الرواية بوضوح ميزان اليأس وموت القلوب في ذلك اليوم والصمت المخيم على الأجواء الفكرية والسياسّة بعد وقعة الطفّ، حيث طأطأ الجميع رؤوسهم ويئسوا من المستقبل والتطوّرات السياسية بشدّة. وهناك ما يرشدنا إلى ذلك من بعض المصادر التأريخية:

---

(١) اختيار معرفة الرجال، ج١/٣٣٨، طبع مؤسّسة آل البيت لإحياء التراث.
(٢) نفس المصدر.

إنّ الوزير عبيد الله بن سليمان كان يرى أنّ قتل الحسين أشدّ ما كان في الإسلام على المسلمين، لأنّهم يئسوا بعد قتله، فيئسوا من كلّ فرج يرتجّونه وعدل ينتظرونه[١].

وفي ظلّ هذه الأجواء والتعتيم والاضطراب الحاكم على الأمة تولّى الإمام علي بن الحسين عليه السلام رسالته في هداية الأمة، فعمد هذا الإمام الهمام من خلال الالتفات إلى التغييرات الأساسية التي أدخلها بنو أُمية في صلب الإسلام، إلى تفسير وتوضيح وتقويم أُسس الدين الحنيف بأشكاله المختلفة. ولا يسعنا المجال هنا لذكر المساعي الكبيرة التي بذلها هذا الإمام الهمام لكنّنا سنأتي على ذكر مؤلّفاته ومؤلّفات تلامذته.

١ ـ الصحيفة السجّادية:

اشتهرت هذه الصحيفة بـ«زبور آل محمّد» و«إنجيل أهل البيت» وهي واحدة من أكبر وأوثق وأقوم وأعمق المصادر العقائديّة في الإسلام. لقد كانت «الصحيفة» على مدى قرون وقرون شمساً ساطعة على العقول والأفكار وجذبت نحوها القلوب والأقلام، والتفت إليها كثير من العلماء وعشّاق ومحبّي الحقيقة والمعنويات، وعنها كتب العلاّمة الكبير الشيخ آقا بزرگ الطهراني:

الصحيفة الأولى المنتهي سندها إلى الإمام زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام المعبّر عنها «أخت القرآن» و«إنجيل أهل البيت» و«زبور آل محمّد» ويقال لها «الصحيفة الكاملة» أيضاً. وللأصحاب اهتمام بروايتها

(١) ثمار القلوب، ج٢/ ٩٧٢.

ويخصّونها بالذكر في إجازاتهم... وهي من المتواترات عند الأصحاب لاختصاصها بالإجازة والرواية في كلّ طبقة وعصر.

سند روايتها ينتهي إلى الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام وزيد الشهيد ابني علي بن الحسين عن أبيهما علي بن الحسين والمتوفى مسموماً عام ٩٥ للهجرة[١].

وقال العلاّمة السيد شرف الدين العاملي:

ومن أفضل ما ألّف في ذلك العصر مصباح آل محمّد صلى الله عليه وآله وزبور أهل البيت ألا وهو الصحيفة الكاملة للإمام زين العابدين ـ سلام الله عليه ـ وهي كالنور على الطور كتبها الباقر بإملاء أبيه، وكان الصادق يقبّلها ويضعها على عينيه، ويقول: هذا خطّ أبي وإملاء جدّي عليه السلام بمشهد مني، وكتبها أيضاً، بإملاء الإمام زين العابدين ولده الشهيد زيد، ولمّا انتهت نسخة إلى الصادق قال: هذا والله خطّ عمّي زيد، ودعاء جدّي علي بن الحسين عليه السلام. وقوبلت مع نسخة الباقر عليه السلام فكانت أمراً واحداً لم يجدوا حرفاً من إحداهما يخالف ما في الأُخرى، وكان أهل البيت يصونونها إلاّ عن شيعتهم مخافة أن يقع هذا العلم إلى أعدائهم فينسبونه إلى غيرهم[٢].

---

(١) الذريعة إلى تصانيف الشيعة، ج١٥/١٨ ـ ١٩.

(٢) مؤلّفو الشيعة في صدر الإسلام/ ٣٠.

على أية حال فإنّ تلك الدرّة النفيسة كانت في ذلك الليل الطويل الأبهم والظلم والجور كالنجم أو القمر الذي أضاء عالماً من الظلام.

إنّ الحديث عن نسب الصحيفة إلى سيد الساجدين والرجوع في أسانيدها إلى زين العابدين تعدّ وبعد ذياع صيتها واشتهارها أمر مفروغ منه. وعلى هذا ارتأينا هنا وقبل المرور إيراد مقولة العلاّمة الكبير السيد محسن الأمين.

... وبلاغة ألفاظها وفصاحتها التي لا تبارى، وعلو مضامينها وما فيها من أنواع التذلّل للّه تعالى والثناء عليه والأساليب العجيبة في طلب عفوه وكرمه والتوسّل إليه، أقوى شاهد على صحّة نسبتها وأنّ هذا الدرّ من ذلك البحر، وهذا الجوهر من ذلك المعدن، وهذا الثمر من ذلك الشجر، مضافاً إلى اشتهارها شهرة لا تقبل الريب، وتعدّد أسانيدها المتصلة إلى منشئها صلوات الله عليه وعلى آبائه وأبنائه الطاهرين، فقد رواها الثقات بأسانيدهم المتعدّدة المتصلة إلى زين العابدين عليه السلام، وقد كانت منها نسخة عند زيد الشهيد ثمّ انتقلت إلى أولاده وإلى أولاد عبد الله بن الحسن المثنّى، كما هو مذكور في أوّلها، مضافاً إلى ما كان عند الباقر عليه السلام من نسختها، وقد اعتنى بها الناس أتمّ اعتناء بروايتها وضبط ألفاظها ونسخها، وواظبوا على الدّعاء بأدعيتها في اللّيل والنهار، والعشي والأبكار[1].

(١) أعيان الشيعة، ج١/٦٣٨، طبع دار التعارف.

كما ذكر فإنّ الصحيفة السجّادية كانت على الدوام مدار عناية واهتمام العلماء وعلى هذا فإنّ الشروح والتعليقات والاستدراكات المحررة بشأنها كثيرة[١].

٢ ـ رسالة الحقوق:

صحيفة عظيمة، عميقة ومذكّرة في آداب الدين والدنيا، والحقوق الفردية والاجتماعية للإنسان، ويجب اعتبارها واحدة من أفضل وأقوم آداب السلوك الفردي والاجتماعي. عنها قال المحقّق الشيخ باقر شريف القرشي:

وفيما أعتقد أنّه لم يسبق نظير لمثل هذه الحقوق التي شرعها الإمام العظيم، سواء في ذلك ما شرعه العلماء في عالم الفكر السياسي أم الاجتماعي وغيرهما مما قنّنوه لحقوق الإنسان، وروابطه الاجتماعية وأُصوله الأخلاقية وأسسه التربوية[٢].

واعتبر أصحاب الإمام وخواصّه هذه الصحيفة القيمة برامج عملية قويمة لهم، وقد نقلها العالم الكبير والمحدّث الرفيع ثابت بن أبي صفية، المعروف بـ«أبي حمزة الثمالي» التلميذ الهمام للإمام عليه السلام. وقام كبار محدّثي الشيعة مثل المرحوم الصدوق وثقة الإسلام الكليني بنسبة هذه الصحيفة عبر سند متّصل إلى هذا المحدّث الجليل[٣].

وقام العلماء وفطاحل القوم بكتابة الشروح على هذه الصحيفة،

---

(١) راجع الذريعة، ج١٣/ ٣٤٥ ـ ٣٥٩، حياة الإمام زين العابدين، ج٢/ ١٢٨ ـ ١٣٦. قد تصدى للبحث عن الصحيفه وسندها بما لا مزيد عليه المحقق البصير المتضلّع السيد محمد حسين الحسيني الجلالي. راجع: مقدمته الضافية على «الصحيفة السجاديه»، رواية أبي علي محمد بن همام بن سهيل الإسكافي عن علي بن ملاك عن الإمام زين العابدين عليه السلام.

(٢) حياة الإمام زين العابدين، ج٢/ ٢١٩.

(٣) الخصال/ ٥٦٤، رجال النجاشيّ/ ١١٦.

ويمكننا الإشارة إلى الشرح القيم الذي كتبه المحقّق الفاضل السيد حسن القبانعي تحت عنوان «شرح رسالة الحقوق».

٣ ـ كتاب علي بن الحسين:

يمكننا العثور على عنوان هذا الكتاب بين المصادر القرآنية، فقد تناوله العلاّمة القرشي بهذا الشكل:

من مؤلّفات الإمام زين العابدين عليه السلام كتاب اسمه «كتاب علي بن الحسين» وقد فقد هذا الكتاب كما فقد غيره من أُمّهات الكتب الإسلامية، وقد عثرنا على قطعة يسيرة منه نقلها عنه الإمام أبو جعفر محمّد بن الباقر عليه السلام، قال: وجدنا في (كتاب علي بن الحسين)[1].

٣ ـ مناسك الحجّ:

رسالة تضمّ جميع مسائل الحجّ وهي في ثلاثين باباً. نقلها أبناء هذا الإمام العظيم: الإمام محمّد الباقر عليه السلام وزيد الشهيد والحسين الأصغر، وعنها قال السيد الجلالي:

وقد طبعت في بغداد بتقديم الحجّة السيد هبة الدين الشهرستاني رحمه الله، ولدينا عنه نسخة قيمة مصححة، صحّحها العلاّمة محمّد بن الحسين الجلالي من مشايخنا من علماء اليمن السعيد وقابلها على بعض ما عنده من النسخ المصحّحة، وقد توسّعنا في الحديث عنها في تقديمنا لها[2].

---

(١) حياة الإمام زين العابدين عليه السلام، ج٢/ ٢٥٥.

(٢) تدوين السنّة الشريفة/ ١٥٢.

٤ ـ الجامع في الفقه:

رواه أبو حمزة الثمالي، عن الإمام السجّاد عليه السلام[١].

٥ ـ صحيفته في الزهد:

قال أبو حمزة:

وقرأت صحيفة فيها كلام زهد من كلام علي بن الحسين عليه السلام وكتبت ما فيها ثمّ أتيت علي بن الحسين صلوات الله عليه فعرضت ما فيها عليه فعرفه وصحّحه وكان ما فيها..[٢].

يتّضح من عبارة أبي حمزة الثمالي أنّها كانت صحيفة كبيرة، وما نقله كان جزءاً منها.

٦ ـ كتاب حديثه عليه السلام:

جمعه داود بن يحيى بن بشير أبو سليمان الدهقان الكوفي[٣].

وعلينا أن نضيف إلى ما أوردناه حتّى الآن الأدعية والرسائل القصار والطوال والمناجاة العظيمة والقوية للإمام عليه السلام خاصّة ما عرفت بالمناجاة الخمس عشرة.

إنّ تحرير كلّ هذه الأُمور في ذلك اللّيل الأبهم يعدّ ميراثاً كبيراً وخالداً، فقد عنت مدرسة السجّاد عليه السلام بالتفسير والحديث وكذا المعارف الإلهية وبيانها، وعلى هذا النهج سار تلامذته، ومضوا في هذا الطريق، وهذه أسماء بعض منهم:

---

(١) رجال النجاشيّ/ ١١٦، تأسيس الشيعة/ ٣٠٠.

(٢) الكافيّ، ج٨/ ١٤ ـ ١٧ وراجع أيضاً: مرآة العقول، ج٢٥/ ٢٩ ـ ٣٣. شرح الملا صالح المازندرانيّ، ج١٢/ ١٨٦ ـ ١٩٩، كتاب الأماليّ للمفيد/ ٢٠٠.

(٣) رجال النجاشيّ/ ١٥٧ ـ ١٥٨.

١ ـ ثابت بن دينار أبو حمزة الثمالي:

من أصحاب علي بن الحسين عليه السلام. ذكره ابن النديم وكتب عنه يقول:

من النجباء الثقات، وله كتاب التفسير[١].

وذكره الشيخ الطوسي وعنه كتب يقول:

ثابت بن دينار يكنّى أبا حمزة الثمالي، وكنيته دينار أبو صفية، ثقه، له كتاب... وله كتاب النوادر وكتاب الزهد..[٢]..

أشرنا فيما سبق عند ذكر مؤلّفات الإمام الرابع عليه السلام، أنّ لأبي حمزة «صحيفة» رواها عن الإمام في الزهد.

وقال النجاشي:

ثابت بن أبي صفية، أبو حمزة الثمالي... كان من خيار أصحابنا وثقاتهم ومعتمديهم في الرواية والحديث، له كتاب تفسير القرآن،... وكتاب النوادر... ورسالة الحقوق عن علي بن الحسين عليه السلام[٣].

كان أبو حمزة فقيهاً كبيراً معروفاً، نقل عنه محدّثو العامّة الروايات، قال النجاشي: وروى عنه العامّة[٤].

---

(١) الفهرست/ ٣٦.

(٢) الفهرست، للشيخ الطوسيّ/ ٤١ ـ ٤٢.

(٣) رجال النجاشيّ/ ١١٥ ـ ١١٦ وراجع أيضاً: حياة الإمام زين العابدين، ج٢/ ٢٧٥، مؤلّفو الشيعة في صدرالإسلام/ ٣٤.

(٤) رجال النجاشيّ/ ١١٥.

وقال السيد حسن الصدر:

وذكر الثعلبي تفسيره في تفسيره، واعتمد عليه، وأخرج الكثير من روايته[١].

وقد عكف أبو حمزة الثمالي على نقل الحديث وتفسير القرآن وتقديم الفقه بين يدي الأُمّة الإسلامية فأضحى عملياً مرجعاً علمياً للمسلمين، وقد روى إضافة إلى ذلك دعاء السحر العظيم المعروف بدعاء «أبي حمزة الثمالي» وعشرات الأحاديث القيمة والنفيسة الأُخرى عن الإمام السجّاد عليه السلام وبهذا فقد ارتقى مقاماً علمياً كبيراً ومنزلة رفيعة. وعنه كتب العلاّمة باقر شريف القرشي:

كان من أبرز علماء عصره في الحديث والفقه وعلوم اللّغة وغيرها، وقد روى عنه ابن ماجه في كتاب الطهارة، وكانت الشيعة ترجع إليه في الكوفة، وذلك لإحاطته بفقه أهل البيت عليهم السلام[٢].

٢ ـ سعيد بن جبير:

من أصحاب علي بن الحسين عليه السلام، وأحد مجاهدي التأريخ الإسلامي الشجعان، كان له باع طويل في التفسير. وقد أثنى على مقامه ومكانته العلمية والتفسيرية كُتّاب التراجم وذكروا تفسيره:

قال ابن النديم في ذكره الكتب المصنفة في تفسير القرآن:

...كتاب تفسير سعيد بن جبير[٣].

---

(١) تأسيس الشيعة/ ٣٢٧، وراجع أيضاً: تهذيب التهذيب، ج٢/ ٧.

(٢) حياة الإمام زين العابدين، ج٢/ ٢٧٤.

(٣) الفهرست لابن النديم/ ٣٦. جمع ورتّب شتات أقوال تفسيرية من سعيد بن جبير تلميذنا «جواد ترمذك» بإشرافنا ورعايتنا في رساله ماجستير وطبع باسم «تفسير سعيد بن جبير ونقش آن در تطوّر تفسير[بالفارسية = تفسير سعيد بن جبير ودوره في تطور التفسير].

كان سعيد عاشقاً للقرآن ولم يألُ جهداً في الوصول إلى حقائقه، وكان من تلامذة ابن عبّاس ـ حبر الأُمّة ـ المجدّين، وعنه كان يقول:

كنت آتي ابن عبّاس فاكتب عنه[١].

ونُقل عنه قوله:

ربّما أتيت ابن عبّاس فكتبت في صحيفتي حتّى أملأها، وكتبت في نعلي حتّى أملأها، وكتبت في كفي، وربّما أتيته فلم أكتب حديثاً حتّى أرجع، لا يسأله أحد عن شيء[٢].

كتب العلاّمة السيد حسن الصدر عن الشخصية العلمية والعقائدية لسعيد بن جبير وتفسيره يقول:

ولم أعثر على تصنيف في تفسير القرآن لأحد قبله ولهذا ذكرته في أوّل ما صنّفت[٣].

وقد عنى فؤاد سزگين بأهمية هذا التفسير في حركة تدوين التفاسير، وعنه كتب يقول:

كان سعيد بن جبير من أكثر التابعين علماً ومكانة، وهو من أوائل مفسّري القرآن[٤].

ولتحديد دور سعيد بن جبير في التأليف في تفسير القرآن لا بدّ من بحث الموضوع بحثاً دقيقاً، فالروايات التي ذكرها الطبري وروايات المراجع الأُخرى تُرينا أنّ تفسيراته بعضها لغوي وبعضها تأريخي، تناولت النصّ

---

(١) طبقات ابن سعد، ج٢/ ٢٥٧.
(٢) طبقات ابن سعد، ج٢/ ٢٥٧.
(٣) تأسيس الشيعة/ ٣٢٢.
(٤) تاريخ التراث العربيّ، ج١/ ٦٩.

القرآني كلّه، وبسبب كثرة سلاسل الروايات لا يمكن جمع المقتبسات من نصّ محدّد متعارف عليه، ولدينا انطباع أنّ تفسير ابن جبير ـ من أهمّ المصادر في هذا المجال ـ يظهر من المقتبسات المنقولة عنه في الكتب المتأخّرة التي نقلت بدورها عن الكتب المؤلّفة في القرن الثاني الهجري.

على أية حال ومع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ التفسير ليس بمعزل عن الحديث في يومنا هذا، وأنّ التفاسير هي في غالبها تأتي لبيان معاني الألفاظ وأداء الأحاديث في ذيل الأحاديث فإنّنا والحالة هذه يجب اعتبار الأثر القيم والعظيم لسعيد بن جبير ورغم أنّه ليس في متناول أيدينا اليوم بشكله الكامل.

وقد توزّع ما نقل من تفسيره في متون التفاسير المختلفة، أثراً مدوّناً وعظيماً في الحديث فله مكانته الشامخة في حركة تدوين الحديث.

وقد اشتهر سعيد في كتب الرجال عند الفريقين بالنزاهة، فأثنوا على صموده واستقامته من أجل العقيدة، وعلى شخصيته الرفيعة، كان عاشقاً لأهل البيت وللإمام علي بن الحسين عليه السلام، لهذا قتله الحجّاج، جاء في مصادر التأريخ والرجال:

عن أبي عبد الله عليه السلام أنّ سعيد بن جبير كان يأتمّ بعلي بن الحسين، وكان علي يثني عليه، وما كان سبب قتل الحجّاج له إلاّ لهذا الأمر، وكان مستقيماً[1].

٣ ـ سعد بن طريف الحنظلي:

يعرف أيضاً بـ«سعد الإسكافي» و«سعد الخفّاف»، وهو من أصحاب

(١) اختيار معرفة الرجال، ج١/ ٣٣٤، طبعة قم.

علي بن الحسين عليه السلام. ذكره الرجاليون وأجمعوا على ثقته ونزاهته[١]. وقد اعتمد المحدثّون على أحاديثه، وكتبوا عنه في جوامع الحديث بأنّ له كتاباً ورسالة في الحديث، وعنه كتب الشيخ في فهرسته:

سعد بن طريف الإسكافي له كتاب..[٢]..

قال النجاشي:

سعد بن طريف الحنظلي... روى عن الأصبغ بن نباتة، وروى عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام، وكان قاضياً له كتاب رسالة أبي جعفر عليه السلام..[٣]..

٤ ـ زيد بن علي بن الحسين عليه السلام:

الحديث عن زيد ـ شهيد مؤتة وأحد صنّاع ملحمة التأريخ الشيعي وهو هاشمي شخصيته رفيعة وخضّب بدمه ـ حديث لا تسعه سطورنا، وسنكتفي هنا بإيراد آثاره القيمة:

١ ـ غريب القرآن

لقد أثنى رجاليو الفريقين على زيد، وأكبروا فيه شخصيته العلمية والقرآنية[٤]، فقد كان من كبار مفسّري القرآن، والألقاب والمدائح التي أطلقها عليه العلماء والمحدّثون المعاصرون له هي خير دليل على إلمامه وتبحّره في زمانه في تفسير القرآن. يقول أبو الجارودي:

---

(١) راجع: الجامع في الرجال، ج١/ ٨٤٥ ـ ٨٤٦.
(٢) الفهرست للشيخ الطوسيّ/ ٧٦، طبعة النجف.
(٣) رجال النجاشيّ/ ١٧٨ العدد ٤٦٨.
(٤) للاطّلاع على الشخصيّة العلميّة والجهاديّة لزيد يراجع: زيد الشهيد، لعبد الرزاق المقرّم، «سيرة وثورة زيد بن عليّ «حسين كريمان، زيد بن عليّ عليه السلام السيّد أبو فاضل الرضويّ الأردكانيّ؛ ثورة زيد بن عليّ، ناجي حسن.

قدمت المدينة فجعلت كلّما سألت عن زيد بن علي عليه السلام قيل لي: ذاك حليف القرآن[١].

وعنه قال عمر بن موسى الوجيهي:

ما رأيت أعلم بكتاب الله عزّ وجلّ، وناسخه ومنسوخه، ومشكله وإعرابه منه[٢].

وقال أبو غسّان الأزدي الذي سجن مع زيد بن علي في حبس هشام بن عبد الملك خمسة أشهر:

قدم زيد على الشام أيام هشام بن عبد الملك فما رأيت رجلاً أعلم بكتاب الله منه ولقد حبسه هشام خمسة أشهر وهو يقصّ علينا ونحن معه في الحبس تفسير سورتي الحمد والبقرة[٣].

حري برجل كزيد له إلمامه وعلمه الوافر بالقرآن الكريم أن تكون له وجهات نظر خاصّة عن كتاب الله طرحت في كتاب أو كتب.

«غريب القرآن» المذكور في كتب ومصادر الرجال موجود اليوم في مجلّدات فهارس المكتبات، وقام أخيراً أحد الأفاضل في العالم الإسلامي بتحقيقه وطبعه وهو في طريقه إلى الصدور في مدينة قم في إيران. وعبّر عنه فؤاد سزگين:

تفسير غريب القرآن رواه أبو خالد عمرو بن خالد الواسطي، وهذا التفسير يناهض القدرية[٤].

---

(١) الإرشاد/ ٢٦٨.

(٢) الفهرست للشيخ الطوسيّ/ ٢٤١، طبعة مشهد.

(٣) زيد الشهيد/ ١٥.

(٤) تاريخ التراث العربيّ، ج٤/ ٣٢٢.

وقد نسبت إلى زيد كتب أُخرى في القرآن والمسائل المتعلّقة به مثل «قراءة علي عليه السلام» وكتاب بعنوان «القراءة»[١]. وكتاب قيم بعنوان «الصفوة» وهو مبحث في الإمامة وأحقّية أهل البيت بالولاية، وهو عملياً تفسير عميق وقوي في آيات «الاصطفاء» وآيات أُخرى تخصّ أهل البيت عليهم السلام.

٢ ـ المجموع

مجموعة في الفقه هي من أقدم المتون التي حصلنا عليها من ميراث الفقه الإسلامي. وقد سمعها أبو خالد الواسطي فنقلها وهي اليوم مطبوعة بروايته. ولهذه المجموعة شروح كثيرة منها الشرح المسهب والمفصّل «الروض النضير». ويعتقد البعض أنّ لزيد مجموعتين: الأُولى في الفقه والثانية في الحديث[٢]. وقد تولّى عبد العزيز البغدادي جمع مجموعة الحديث، وطبعها في القاهرة عام ١٣٤٠هـ.ق، وفي هذا المجال كتب الدكتور محمّد عجاج الخطيب يقول:

... المجموع من أجلّ الوثائق التأريخية التي تثبت ابتداء التصنيف والتاليف في أوائل القرن الثاني الهجري بعد أن استنتجنا هذا من خلال عرضنا لمصنّفات ومجاميع العلماء من غير أن نرى نموذجاً مادّياً يمثّل أُولى تلك المصنّفات، اللّهمّ إلاّ موطأ مالك الذي انتهى من تاليفه قبل منتصف القرن الهجري الثاني فيكون قد صنّف قبله بنحو ثلاثين سنة[٣].

---

(١) تاريخ التراث العربيّ، ج٤/ ٣٢٣.
(٢) الروض النضير، ج١/ ٨٢، السنّة قبل التدوين/ ٣٦٩ و٣٧١.
(٣) السنّة قبل التدوين/ ٣٧١.

٥ ـ داود بن يحيى بن شبير الدهقان:

اعتبره الرجاليون ثقة وذكروا أنّ له كتاباً هو «كتاب حديث علي بن الحسين عليه السلام»، يقول النجاشي:

داود بن يحيى بن شبير الدهقان... ثقة له كتاب حديث علي بن الحسين عليه السلام قال أبو محمّد هارون بن موسى..[١]..

وكتب العلامّة الشوشتري بعد ذكره نقل النجاشي ونقلاً آخر:

في تنقيح المقال يقول به وعدم عنوان الشيخ له في الفهرس والرجال غريب[٢].

قال الشيخ موسى الزنجاني:

داود بن يحيى... ثقة له كتاب حديث عليّ بن الحسين عليه السلام... تبعه [النجاشيّ] في توثيق أهل الفن[٣].

٦ ـ مالك بن عطيّة الأحمسيّ:

أورده الشيخ في عداد أصحاب الإمام الرابع عليه السلام[٤]. وذكره النجاشيّ في رجاله:

مالك بن عطيّة الأحمسيّ أبو الحسين، البجليّ، الكوفيّ، ثقة،... له كتاب يرويه جماعة..[٥]..

---

(١) رجال النجاشيّ/ ١٥٧.
(٢) قاموس الرجال، ج٤/ ٢٧١.
(٣) الجامع في الرجال، ج١/ ٧٥٣.
(٤) رجال الطوسيّ/ ١٠١.
(٥) رجال النجاشيّ/ ٤٢٢.

وقد ورد اسمه في مصادر الرجال فأشاروا إلى الروايات التي أوردها، واعتبروه من أصحاب الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام[١].

كان هؤلاء ثلّة من أصحاب وتلامذة الإمام عليه السلام. تولّوا خلال عهد الظلام والقهر الذي تلا واقعة الطف أمر تدوين الحديث وضبط الآثار. ولم يعبأ الكثير منهم بالمخاطر المحدقة بهم من قبل الحكومات الجائرة فأخذوا على عاتقهم توعية الجماهير وإماطة اللّثام عن حقيقة بني أُميّة البشعة وتوجّهوا إلى التفسير الصحيح للآيات الإلهيّة بأقوال الرسول في أوساط الأُمّة. وقد أثمرت جهودهم رويداً رويداً، ونشرت شمس الحقيقة أشعتها على البؤر المظلمة في الواقع الاجتماعيّ.

وعادت الأُمّة إلى رشدها وصوابها من جديد، ونقلنا فيما مضى حديثاً للإمام الصادق عليه السلام بهذا الخصوص: «ثمّ لحق الناس وكثروا»[٢].

عهد الإمام الباقر(ع):

في معرض تبيينه وعرضه للإسلام الصحيح القويم دعا الإمام الباقر عليه السلام تلامذته إلى كتابة الأحاديث وضبط الآثار وتدوين العلوم ونبّه على ذلك من جهة، وعكف على إقامة المحافل والحوزات الدراسيّة وهو بمثابة المشاركة العمليّة منه في نشر العلوم من جهة أُخرى. وعليه فإنّ عهد إمامة الإمام الباقر عليه السلام شكّل نهايةً لعهد ظلم وكبت بني أُميّة وبداية لظهور أجواء علميّة واتساع رقعة المعارف، فقد روى يزيد الزرّار عن أبيه عن أبي عبد الله عن أبيه أنّه قال له:

اعرف منازل الشيعة على قدر روايتهم ومعرفتهم،

---

(١) معجم رجال الحديث، ج١٤/ ١٦٩.

(٢) الكافي، ج١/ ٤٢، بحار الأنوار، ج٢/ ١٥٠.

فإنّ المعرفة هي الدراية، وبالدراية للرواية يعلو المؤمن إلى أقصى درجات الإيمان..[١]..

وعن جابر الجعفيّ، قال:

قلت لأبي جعفر عليه السلام: أُقيّد الحديث إذا سمعت؟

قال: إذا سمعت حديثاً من فقه خير ممّا في الأرض من ذهب وفضّة[٢].

في هذا الحديث، يبين الإمام بشكل دقيق ولطيف يدعو للتأمّل، ضرورة الكتابة والتدوين، ويشير إلى الطبع الإنساني الّذي يدعو البشر للمحافظة على الذهب والفضّة من الضياع والتلف، ويضيف عليه السلام لكنّ الحديث الذي سمعه هو أفضل وأعلى قيمة من الذهب والفضّة وعلى هذا فإن الإنسان يحافظ على «الأحاديث» ويحرسها بشكل أفضل وأقوى.

وعن جابر الجعفيّ ـ أيضاً ـ عن أبي جعفر عليه السلام قال:

سارعوا في طلب العلم، فوالّذي نفسي بيده لحديث واحد في حلال وحرام تأخذه عن صادق خير من الدنيا وما حملت من ذهب وفضّة، وذلك أنّ الله يقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[٣].

وقد أشارت المصادر والمراجع الرجاليّة والتحقيقيّة إلى الكثير من آثار ومؤلّفات الإمام الباقر عليه السلام وأصحابه، وسنتطرّق إلى بعضها باختصار:

---

(١) حياة الإمام الباقر عليه السلام، ج١/ ١٤٠.
(٢) أدب الإملاء، للسمعانيّ.
(٣) جامع أحاديث الشيعة، ج١/ ٥١.

نسبت المصادر القديمة الكثير من الآثار للإمام الباقر عليه السلام. وفي هذا يقول محمّد عجاج الخطيب:

وكان عند محمّد الباقر بن عليّ بن الحسين (٥٦ ـ ١١٤هـ) كتب كثيرة سمع بعضها عنه ابنه جعفر، وقرأ بعضها[١].

وقال عبد الله بن محمّد بن عقيل بن أبي طالب عليه السلام:

كنت أختلف إلى جابر بن عبد الله أنا وأبو جعفر معنا ألواح، فنكتب فيها[٢].

وفي بعض نصوصه:

فنسأله عن سنن رسول الله صلى الله عليه وآله وعن صلاته، فنكتب عنه[٣]

وسنأتي بما ورد منها في المصادر والمراجع:

١ ـ تفسير القرآن:

ورد ذكره كثيراً، وجاء في الفهرس في ذيل عنوان:

تسمية الكتب في تفسير القرآن: كتاب الباقر محمّد بن عليّ عليه السلام بن الحسين بن عليّ عليه السلام، رواه عنه أبو الجارود زياد بن المنذر رئيس الجارودية الزيدية ونحن نستقصي خبره في موضعه[٤].

---

(١) السنّة قبل التدوين/ ٣٥٤.
(٢) تقييد العلم/ ١٠٤.
(٣) تقييد العلم/ ١٠٤، محاسن الاصطلاح/ ٢٩٧.
(٤) الفهرست/ ٣٦.

وقال العلاّمة الطهرانيّ:

كان [زياد بن المنذر] من أصحاب الأئمّة الثلاثة: عليّ بن الحسين ومحمّد بن عليّ، وجعفر بن محمّد عليهم السلام، أيّام استقامته وكأنّه كان يكتب عن إملائه عليه السلام، ولذا نسبه ابن النديم إلى الباقر عليه السلام وهو أوّل تفسير ذكره[١].

وقال السيّد الأمين بعد ذكر هذا الكتاب:

وقد روى هذا الكتاب عن أبي الجارود عند سلامة حاله أبو بصير يحيى بن القاسم (أو ابن أبي القاسم) الأسديّ، وكذا أخرجه عليّ بن إبراهيم بن هاشم في تفسيره[٢].

بيد أنّ هذا التفسير غير موجود بهيئته الكاملة في متناول الباحثين وما قاله المرحوم السيّد محسن الأمين، في أنّ عليّ بن إبراهيم أورد تفسير الإمام في تفسيره نقل غير دقيق، وكذا فإنّ نسبة جميع التفسير المعروف بتفسير عليّ بن إبراهيم القميّ إلى «عليّ بن إبراهيم» أمر مشكوك فيه قطعاً[٣].

٢ ـ كتاب:

لعبد المؤمن بن القاسم بن قيس بن محمّد الأنصاريّ المكنّى بأبي عبد الله الكوفيّ كتاب رواه عن الإمام الباقر عليه السلام، ذكرته مصادر عديدة.

---

(١) الذريعة، ج٤/ ٢٥١.

(٢) أعيان الشيعة، ج١/ ٦٥٦.

(٣) راجع الذريعة، ج٤/ ٣٠٢ ـ ٣٠٩، «مجلّه كيهان انديشه»، العدد٣٢/ ٨٤، مقالة «تحقيق حول تفسير القمّيّ».

يقول النجاشيّ:

عبد المؤمن بن القاسم... روى عن أبي جعفر... له كتاب يرويه جماعة..[١]..

وفي تأسيس الشيعة:

عبد المؤمن بن القاسم بن قيس بن محمّد الأنصاريّ يكنّى أبا عبد الله الكوفيّ له كتاب يرويه عن أبي جعفر عليه السلام[٢].

٣ ـ نسخة أحاديث:

مجموعة أحاديث نقلها خالد بن طهمان عن الإمام الباقر عليه السلام. كتب النجاشيّ:

وقال مسلم بن الحجّاج: أبو العلاء الخفّاف له نسخة أحاديث رواها عن أبي جعفر عليه السلام[٣].

واعتبره النجاشيّ من رواة العامّة، لكنّ الميرداماد أشكل عليه وبقيت القضيّة بعد ذلك مثاراً للجدل والبحث[٤].

٤ ـ نسخة أحاديث:

صحيفة في الأحاديث نقلها خالد بن أبي كريمة. وعنها كتب النجاشيّ في رجاله:

---

(١) رجال النجاشيّ/ ٢٤٩؛ وراجع أيضاً: الفهرست، طبعة مشهد/ ٢٠١..
(٢) تأسيس الشيعة/ ٢٨٥.
(٣) رجال النجاشيّ/ ١٥١.
(٤) قاموس الرجال، ج٤/ ١٣١، الجامع في الرجال، ج١/ ٧١٢، معجم رجال الحديث، ج٧/ ١٥١، رجال النجاشيّ، ج١/ ٣٥٢، طبعة بيروت، تنقيح المقال، ج١/ ٣٩٢.

خالد بن أبي كريمة روى عن الباقر عليه السلام ذكره ابن نوح، روى عنه نسخة أحاديث[١]..

وهو من رواة العامّة وهذا الأمر أيضاً مثار بحث وجدل لكنّ العلاّمة الرجاليّ الشيخ محمّد تقي الشوشتريّ أكد كونه من رواة العامّة[٢]. هنا يجب أن نشير إلى أنّ البعض احتمل اتحاده مع خالد بن طهمان وهذا مدعاة للتأمّل[٣].

٥ ـ كتاب:

كان زرارة عالماً شيعيّاً عظيم المنزلة وأحد كبار أصحاب الإمام الباقر عليه السلام، وعنه نقل كتاباً. كتب المرحوم السيّد حسن الصدر:

... زرارة بن أعين له كتاب يرويه عن أبي جعفر الباقر عليه السلام.

٦ ـ رسالته إلى سعد الإسكاف:

اعتبر من رواة الإمام الباقر عليه السلام وعنه كتب النجاشيّ:

... له كتاب رسالة أبي جعفر عليه السلام إليه أخبرنا عدّة عن أحمد بن محمّد بن سعيد[٤]..

ولو أنّ البعض شكّك في قوّة روايته، واستند آخرون في هذا على مقولة النجاشيّ الّذي كتب عن سعيد يقول (... يعرف وينكر...)، لكن باقي المحدّثين والمحقّقين أشاروا إلى كونه ثقة للروايات التي أوردها يضاف إلى آراء باقي الرجاليّين الإيجابيّة فيه[٥].

---

(١) رجال النجاشيّ/ ١٥١.
(٢) قاموس الرجال، ج٤/ ٩٩؛ وراجع أيضاً: معجم رجال الحديث، ج٧/ ١٥١.
(٣) الجامع في الرجال، ج١/ ٧٠٥.
(٤) رجال النجاشيّ/ ١٧٨.
(٥) الجامع في الرجال/ ٨٨٤ ـ ٨٨٦، معجم رجال الحديث، ج٨/ ٦٧.

إنّ ما أوردناه كان صحفاً ومجاميع نقلها الرواة عن ذلك الإمام عليه السلام فقط، لكنّ الإشارة إلى دور هذا الإمام الكبير والواسع على صعيد حركة التطوّر الثقافيّ الكبير هو أعظم من أن نتناوله في سطورنا هذه، وقبل أن نطوي بساط بحثنا هنا سنورد أسماء عدد من تلامذة الإمام الباقر عليه السلام من الّذين همّوا بتدوين العلوم وكتابة الحديث:

١ ـ سلام بن أبي عمرة:

راو ثقة من شيعة خراسان. له كتاب نقل عنه المحدّثون والرواة، وعنه كتب النجاشيّ:

سلام بن أبي عمرة الخراسانيّ ثقة... سكن الكوفة، له كتاب يرويه عنه عبد الله بن جبلّة[١].

٢ ـ مسعدة بن صدقة:

روى عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام وكان جادّاً ومجدّاً في التدوين والتأليف، وكان مسعدة واحداً من الأشخاص الّذين همّوا بجمع وتدوين خطب الإمام الباقر عليه السلام. كتب النجاشيّ:

مسعدة بن صدقة العبديّ يكنّى أبا محمّد... له كتب منها: كتاب خطب أمير المؤمنين عليه السلام[٢]..

وقد ذكرته المصادر الرجاليّة، وهناك جدل وبحث في معاجم الرجال حول تطابق بعض العناوين الواردة عنه مع باقي كتب الرجال وفي هذا يجب الرجوع إليها[٣].

---

(١) رجال النجاشيّ/ ١٨٩.
(٢) رجال النجاشيّ/ ٤١٥. الفهرست للشيخ الطوسيّ (طبعة مشهد/ ٣٢٩).
(٣) راجع: معجم رجال الحديث، ج١٨/ ١٣٧.

٣ ـ مسمع بن عبد الملك:

عدّه الشيخ الطوسيّ (رضوان الله عليه) من أصحاب الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام[١]. وعنه كتب النجاشي:

مسمع بن عبد الملك... شيخ بكر بن وائل... روى عن أبي جعفر عليه السلام[٢].

وقال الشيخ الطوسيّ:

كردين بن مسمع بن عبد الملك يكنّى أبا سيّار، له كتاب...[٣].

وقال السيّد الخوئي(ره) تعليقاً على كلام الشيخ:

أقول: إنّ كلمة (بن) في كردين بن مسمع سهو قلم الشيخ أو من غلط النسّاخ، فإنّ كردين لقب نفس مسمع على ما صرّح به النجاشيّ والشيخ نفسه في الرجال وغيرهما[٤].

وقد ورد اسم الراوي بأشكال مختلفة وهناك جدل حول طبيعة معتقده وضعفه أو كونه ثقة[٥].

٤ ـ نصر بن مزاحم المنقريّ:

مؤرّخ بصير ومحدّث عظيم، رجل همام وعالم مطّلع ومؤلّف جليل أورده الشيخ الطوسيّ في عداد أصحاب الإمام الباقر عليه السلام[٦] وعنه كتب النجاشيّ:

---

(١) رجال الطوسيّ/ ١٣٦.
(٢) رجال النجاشيّ/ ٤٢٠.
(٣) الفهرست للطوسيّ/ ٢٦٠، طبعة مشهد.
(٤) معجم رجال الحديث، ج١٨/ ١٥٧.
(٥) راجع: معجم رجال الحديث، ج١٨/ ١٥٦فما بعد.
(٦) رجال الطوسيّ/ ١٣٩.

نصر بن مزاحم المنقريّ... كوفيّ، مستقيم الطريقة، صالح الأمر غير أنّه يروي عن الضعفاء، كتبه حسان..[١]..

وقال الشيخ الطوسيّ:

نصر بن مزاحم المنقريّ... له كتب منها الجمل وكتاب صفّين و....

ومن حسن الحظّ فقد بقي واحد من الآثار العظيمة لهذا المؤرّخ والمحدّث الكبير وهو كتاب «صفّين» مصوناً عن آفات الزمان وهو اليوم بأيدي المحقّقين والباحثين عن حقائق التأريخ في صدر الإسلام ومجرياته[٢].

وقد أثنى الكثير من أصحاب الرجال والتراجم على نصر بن مزاحم في سعة اطّلاعه ونزاهته في النقل وحديثه الموثّق وسلامة عقيدته.

٥ ـ عمرو بن أبي المقدام:

عدّه الشيخ الطوسيّ والبرقيّ من أصحاب الإمام الباقر عليه السلام[٣]. وعنه كتب النجاشيّ:

عمرو بن أبي المقدام: ثابت بن هرمز الحدّاد مولى بني عجل روى عن عليّ بن الحسين، وأبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام له كتاب لطيف[٤].

---

(١) رجال النجاشيّ/ ٤٢٨.

(٢) قام المحقّق المصريّ القدير عبد السلام هارون بتحقيق وشرح هذا الكتاب بشكل دقيق ولائق ومفيد للغاية، وصدر تحت عنوان «وقعة صفّين»، وتولّى الأديب الخراسانيّ النافع درويز الأتابكيّ ترجمته إلى اللّغة الفارسيّة بطريقة محكمة وقويمة، وطرحه تحت عنوان «ديكار صفّين».

(٣) رجال الطوسيّ/ ١٣٠، معجم رجال الحديث، ج١٢/ ٧٣.

(٤) رجال النجاشيّ/ ٢٧ ـ ٣٧.

وجاء في الفهرست:

انّ عمرو بن ميمون وكنيته ميمون أبو المقدام له كتاب حديث الشورى يرويه عن جابر الجعفيّ عن أبي جعفر عليه السلام[١].

والظاهر من كلام الشيخ أنّه هو نفسه عمرو بن ثابت وهذين الاسمين هما لشخص واحد هو عمرو بن أبي المقدام..[٢]..

عدّه الشيخ من رواة الإمام الباقر عليه السلام[٣]. وذكره في فهرسه، وعنه كتب يقول:

أبو خالد بن عمرو بن خالد الواسطيّ له كتاب ذكره ابن النديم[٤].

وكتب النجاشيّ يقول:

عمرو بن خالد أبو خالد الواسطيّ عن زيد بن عليّ له كتاب كبير رواه عنه نصر بن مزاحم المنقريّ وغيره[٥].

وهناك جدل حول مذهبه وفكره في الآثار الرجاليّة، والظاهر أنّه زيديّ المذهب وكان موثّقاً في نقل الحديث[٦].

٧ ـ ظريف بن ناصح:

من كبار أصحاب الإمام الباقر عليه السلام ورواة حديثه الأجلاّء له آثاره

---

(١) الفهرست للطوسيّ/ ٢٤٥.
(٢) راجع: معجم رجال الحديث، ج١٢/ ٧٤.
(٣) رجال الطوسيّ/ ١٣١.
(٤) الفهرست للطوسيّ/ ٣٧٣.
(٥) رجال النجاشيّ/ ٢٨٨.
(٦) معجم رجال الحديث، ج١٣/ ٩٤ ـ ٩٥.

ومؤلّفاته الكثيرة. ذكره الشيخ الطوسيّ ضمن رواة باقر العلوم عليه السلام[١] وعنه كتب في فهرسه:

ظريف بن ناصح، له كتاب الديات، أخبرنا به الشيخ المفيد أبو عبد الله رحمه الله..[٢]..

ذكره النجاشيّ وأكّد على كونه ثقة:

ظريف بن ناصح، أصله كوفيّ، نشأ ببغداد، وكان ثقة في حديثه، صدوقاً له كتب، منها: كتاب الديات... كتاب الحدود... وكتابه النوادر... وكتابه الجامع في سائر الأبواب الحلال والحرام[٣].

٨ ـ أبو جعفر محمّد بن الحسن بن أبي سارة النحوي الكوفيّ:

عالم وأديب صالح، صدوق ذو سيرة حسنة، روى عن الإمام الباقر عليه السلام. كان من طلائعي معاصريه في الأدب والقراءة، وعلى يديه تلقّى الكسائيّ علوم الأدب العربيّ وعنه كتب النجاشيّ يقول:

محمّد بن الحسن بن أبي سارة «أبو جعفر» يعرف بالرواسيّ أصله كوفيّ، سكن هو وأبوه قبلة النيل، روى هو وأبوه عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام،... ولمحمّد هذا، كتاب الوقف والابتداء، وكتاب الهمزة وكتاب إعراب القرآن[٤].

وفي بغية الدعاة:

...هو أوّل من وضع من الكوفيّين كتاباً في النحو

---

(١) رجال الطوسيّ/ ١٢٧.
(٢) الفهرست للطوسيّ/ ٨٦، طبعة النجف.
(٣) رجال النجاشيّ/ ٢٠٩.
(٤) رجال النجاشيّ/ ٣٢٤، طبعة قم، ج٢/ ٢٠طبعة بيروت.

وهو أستاذ الكسائيّ والفرّاء، وكان رجلاً صالحاً.... وله من الكتب: الفيصل، معاني القرآن، التصغير، الوقف والابتداء الكبير، الوقف والابتداء الصغير[١].

وقال العلاّمة السيّد شرف الدين:

... الرواسي النحويّ... كان صالحاً صدوقاً عدّه أصحابنا في الثقات من رجالهم... ولمحمّد هذا كتب عديدة: منها كتاب الوقف والابتداء و..[٢]..

٩ ـ معاذ بن مسلم الهرّاء الأنصاريّ:

ذكره الشيخ في عداد أصحاب الإمام الباقر عليه السلام[٣]. كان علماً في الفقه والحديث والأدب، اهتمّ به الإمام الصادق عليه السلام وبأمره. جلس في المساجد وهو ملمّ بعلوم الفرق والمذاهب يجيب على أسئلة الباحثين[٤].

ذكره النجاشيّ عندما تناول محمّد بن الحسن بن أبي سارة[٥]. وذكره باقي كتّاب التراجم والأُدباء والنحويّون والرجاليون[٦] وعنه كتب ابن خلّكان يقول:

الهرّاء النحويّ... قرأ عليه الكسائيّ وروى الحديث عنه، وحكيت عنه في القراءات حكايات كثيرة وصنّف في النحو كثيراً ولم يظهر له شيء من التصانيف وكان يتشيّع، وله شعر كشعر النحاة[٧].

---

(١) بغية الدعاة، ج١/ ٨١ ـ ٨٣.
(٢) مؤلّفو الشيعة في صدر الإسلام/ ٤٣.
(٣) رجال الطوسيّ/ ١٣٧.
(٤) اختيار معرفة الرجال/ ٢٥٢ ـ ٢٥٣.
(٥) رجال النجاشيّ، ج٢/ ٢٠٠، طبعة بيروت.
(٦) بغية الدعاة، ج٢/ ٢٩٠، أبناء الرواة، ج٣/ ٢٨٨.
(٧) وفيّات الأعيان، ج٥/ ٧٢٥.

وقال العلاّمة السيّد شرف الدين:

معاذ بن مسلم الهرّاء... كان من ثقات من نقل عن الصادق عليه السلام... وكان بين معاذ والكميت الأسديّ شاعر أهل البيت إخاء في الله ولهما حكايات تدلّ على ذلك... مات معاذ عن عمر طويل كلّه في العلم والعمل الصالح[١].

جاءت أخباره في معجم رجال الحديث حيث أكّد على نزاهته وكونه ثقة[٢].

١٠ ـ وهب بن عبد ربّه:

راو ومحدّث ثقة من أصحاب الإمام الباقر عليه السلام. ذكره النجاشيّ:

وهب بن عبد ربّه بن أبي ميمونة بن سيّار الأسديّ... ثقة روى عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام له كتاب يرويه جماعة[٣].

وقال الكشيّ:

إنّه من موالي بني أسد، ومن صلحاء الموالي... إنّه خيّر، فاضل كوفيّ[٤].

على أيّة حال هو من الرواة المعتمدين والمحدّثين الموثّقين وعلى هذا أكّدت مختلف مصادر الرجال.

---

(١) مؤلّفو الشيعة في صدر الإسلام/ ٤٤ ـ ٤٥.
(٢) معجم رجال الحديث، ج١٨/ ١٨٥ ـ ١٨٩.
(٣) رجال النجاشيّ، ج٢/ ٣٩٢، طبعة بيروت، طبعة قم/ ٤٣١.
(٤) معجم رجال الحديث، ج١٩/ ٢٠٨ عن الكشيّ، وراجع أيضاً: بهجة الآمال، ج٧/ ١٦٣.

عهد الإمام الصادق(ع):

كان عهد إمامة الصادق عليه السلام عهد ازدهار الفكر الشيعيّ واتساع رقعة الإسلام المحمّديّ الأصيل. وفي هذه الفترة من التأريخ الإسلاميّ طرحت أمام السلطة الغاصبة قضايا كثيرة، ساهمت في ازدهار الأجواء الثقافيّة وإيجاد الأرضيّة للنهوض بمساع عقائدية، فقهيّة وكلاميّة مؤثّرة. ولا مجال هنا للخوض في ماهيّة الأوضاع الثقافيّة والاجتماعيّة والسياسيّة السائدة في ذلك اليّوم، وقد دعت هذه الحالة إلى مضاعفة الجهود التي بدأها الإمام الباقر عليه السلام في عهد إمامة الإمام جعفر بن محمّد، وقد حضر في مجلس درسه مئات المحدّثين والمتكلّمين والمفسّرين وتلمّذوا على يديه ونهلوا من ينابيع معارفه الكثيرة عليه السلام ما استطاعوا. وفي هذا المجال يقول أحد المفكّرين الإسلاميّين:

كان بيت جعفر الصادق كالجامعة، يزدان على الدوام بالعلماء الكبار في الحديث والتفسير والحكمة والكلام فكان يحضر مجلس درسه في أغلب الأوقات ألفان... (من) المشهورين، وقد ألّف تلاميذه ممّن جمع الأحاديث والدروس التي كانوا يتلّقونها في مجلسه مجموعة من الكتب تعدّ بمثابة دائرة معارف للمذهب الشيعيّ أو الجعفريّ، وقد بلغ عددها في أيّام الإمام الحادي عشر أربعمائة كتاب[1].

وقال السيّد الأهل:

وكان يؤمّ مدرسته طلاّب العلم ورواة الحديث في الأقطار النائية لرفع الرقابة وعدم الحذر، فأرسلت

(١) مجلّة رسالة الإسلام، السنة السادسة، العدد الرابع/ ٤٢٣.

الكوفة والبصرة وواسط والحجاز إلى جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام أفلاذ أكبادها من كل قبيلة: من بني أسد، ومخارق وبني ضبّة، ومن قريش ولاسيّما بني الحارث بن عبد المطّلب، وبني الحسن بن عليّ عليه السلام[١].

وجاء في مطالب السؤول:

ونقل عن الإمام الصادق عليه السلام واستفاد منه العلم جماعة من الأئمّة وأعلامهم مثل يحيى بن سعيد الأنصاريّ، وابن جريج، ومالك بن أنس، والثوريّ، وابن عيينة، وأبي حنيفة، وشعبة وأيّوب السجستانيّ، وغيرهم، وعدّوا أخذهم منه منقبة شرّفوا بها وفضيلة اكتسوا بها[٢].

وفي كتاب عمدة التحقيق والتلفيق:

وأمّا جعفر الصادق فقد ملأ الدنيا علمه وفقهه..[٣]..

وقال ابن أبي الحديد في مقدّمة شرحه القيّم على نهج البلاغة وفي توضيح مقام عليّ بن أبي طالب عليه السلام في العلوم الإسلاميّة:

ومن العلوم علم الفقه وهو [عليّ] عليه السلام أصله وأساسه وكلّ فقيه في الإسلام فهو عيال عليه ومستفيد من فقهه، أمّا أصحاب أبي حنيفة كأبي

---

(١) جعفر بن محمّد للسيّد الأهل/ ٥٩.
(٢) مطالب السؤول، كمال الدين محمّد بن طلحة الشافعيّ/ ٥٥، دليل القضاء الشرعيّ، ج٣/ ٥١.
(٣) مجلّة رسالة الإسلام، السنة العاشرة، العدد الرابع/ ٣٤٤.

يوسف ومحمّد وغيرهما فأخذوا عن أبي حنيفة، وأمّا الشافعيّ فقرأ على محمّد بن الحسن، فيرجع فقهه أيضاً إلى أبي حنيفة، وأمّا أحمد بن حنبل فقرأ على الشافعيّ، فيرجع فقهه أيضاً إلى أبي حنيفة، وأبو حنيفة قرأ على جعفر بن محمّد عليه السلام[1].

وعلى هذا يرى ابن أبي الحديد أنّ علوم المذاهب الأربعة ومعارف أصحابها وزعمائها نابعة من الفقه المنتهي إلى الإمام الصادق عليه السلام. وقد اعتبر ابن أبي الحديد الإمام عليه السلام ينبوع العلوم والمعارف التي نهل منها رؤساء هذه المذاهب.

وقال الشيخ محمّد الخضريّ:

أبو عبد الله جعفر الصادق عليه السلام كان من سادات أهل البيت، ولقّب بالصادق لصدقه في مقالته، ولد (سنة) ثمانين وروى عنه مالك بن أنس وأبو حنيفة وكثيرون من علماء المدينة،... وهما اللّذان يدور عليهما فقه الشيعة الإماميّة[2].

وجاء في تأريخ التشريع الإسلاميّ:

من أشهر أئمّة الشيعة الإمام جعفر الصادق وهو ابن محمّد الباقر بن عليّ بن الحسين... وقد كان جعفر على جانب كبير من العلم والأدب والزهد في الدنيا والورع، وقد أقام بالمدينة مدّة طويلة أفاد فيها الشيعة المنتمين إليه علماً وأدباً ثمّ دخل العراق

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج١٨/ ١.
(٢) تأريخ التشريع الإسلاميّ/ ٢٦٣.

ولبث بها كذلك مدّة أُخرى على سابق عادته في بثّ المعارف والأخلاق بين المتّصلين به وكان مقامه بين المدينة حيناً والكوفة حيناً،... وقد أخذ الشيعة عن جعفر عليه السلام كثيراً من الأحاديث، حتّى لم يرو عن غيره مثل ما روي عنه من الحديث والإفتاء على المذهب الشيعيّ..[1]..

قال العلاّمة السيّد محمّد صادق بحر العلوم:

ليس من المبالغة والخروج عن الواقع وصف مدرسة الإمام الصادق عليه السلام بأنّها جامعة إسلاميّة خلّفت ثروة علميّة وخرّجت عدداً وافراً من رجال العلم، وعدّت أسماء تلامذته والمتخرّجين من مدرسته فكانوا أربعة آلاف رجل، وقد صنّف الحافظ أبو العبّاس بن عقدة كتاباً جمع فيه رجال الإمام الصادق عليه السلام، ورواة حديثه، وأنهاهم إلى أربعة آلاف[2].

وقال معلّم الأُمّة ومفكّرها العظيم الشيخ محمّد بن محمّد المفيد:

إنّ أصحاب الحديث قد جمعوا الرواة عن الصادق عليه السلام من الثقات على اختلافهم في الآراء والمقالات فكانوا أربعة آلاف.

وقال الشهيد الأوّل في الذكرى:

---

(١) تأريخ التشريع الإسلاميّ، للأساتذة: السبكيّ والسايس والبريريّ/ ١٦٤.

(٢) دليل القضاء الشرعيّ، ج٣/ ٥٩.

إنّ أبا عبد الله جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام كتب من أجوبة مسائله أربعمائة مصنَّف لأربعمائة مصنِّف ودوّن من رجاله المعروفين أربعة آلاف رجل من أهل العراق والشام والحجاز»[1].

وقال ابن شهرآشوب:

نقل عن الصادق عليه السلام من العلوم ما لم ينقل عن أحد، وقد جمع من أصحاب الحديث أسماء الرواة من الثقات ـ على اختلافهم في الآراء ـ فكانوا أربعة آلاف[2].

وقال العلاّمة الشيخ محمّد حسين المظفّر:

فكان السائل يأتي إليه ويستعلمه عمّا أشكل عليه وكان الكثير منهم قد استحضروا الدواة والقرطاس ليكتب ما يمليه عليه الإمام ليرويه عنه عن تثّبت وإذا (أردت) أن تعرف مبلغ علمه فانظر إلى كثرة من استقى منه العلم فقد بلغ من عرفوه منهم أربعة آلاف أو يزيدون، ولماذا روى هؤلاء كلّهم عنه ولم يرووا عن غيره، مع وفرة العلماء في عصره ولماذا إذا روى أحد منهم عنه وقف عليه، ولا يسأل عمّن يروي ما أملاه، إلاّ أن يخبر هو أنّ ما أملاه عن آبائه عن جدّه الرسول صلى الله عليه وآله. وما كانت تلك المدرسة التي خرّجت ذلك العدد الجمّ مدرسة تريد أن تعلّم العلوم للذكر والصيت والفخر والشرف، وما كانت غاية

---

(١) دليل القضاء الشرعيّ، ج٣/٦٠، نقلاً عن الذكرى للشهيد الأول.
(٢) المناقب، ج٤/٢٤٧.

تلامذتها إلاّ أن يتعلّموا العلم للعلم وخدمة الدين والشريعة، ومن خالف هذه السيرة أبعده الإمام عن حوزته، فكم طرد أُناساً ولعن قوماً خالفوه في سيرته وسريرته وما زالت عظاته وإرشاداته تسبق تعاليمه، أو تطرّد مع بيانه[١].

ما أوردنا حتّى الآن كان قليلاً من تصريحات وتعليقات علماء الفريقين في بيان المكانة الرفيعة للإمام الصادق عليه السلام، وتجسّد مدى الدور الواسع لهذا الإمام الهمام في تدوين وضبط ونشر الأحاديث والحقائق الإلهيّة.

إنّ المحيط الثقافيّ والعلميّ المتبلور طبقاً لتعاليمه وفي ظلّ كنف معارفه النيّرة كان وضاءً وقيّماً للغاية، وبعد بحث مسهب حول الإمام عليه السلام وتقارير أفكار وآراء المفكّرين فيه، كتب العلاّمة السيّد صادق بحر العلوم:

إنّ عصر الصادق عليه السلام هو أزهر العصور في نشاط الحركة العلميّة والنزوع إلى التدوين والإمام الصادق عليه السلام هو زعيم تلك الحركة والمعلّم الأوّل في ذلك العهد، وقد انتمى لمدرسته ـ كما ذكرنا ـ عظماء الأُمّة ورجال العلم ورؤساء المذهب[٢].

لقد جسّدت هذه النظرة السريعة أمامنا الأبعاد الموسّعة للحركة الثقافيّة العظيمة في ذلك اليوم، وأبرزت لنا الدور الرئيسيّ للإمام الصادق عليه السلام في دعوة العلماء والرواة والأُمّة إلى تعلّم العلوم، وتسجيلها وضبطها ومن ثم نشرها.

---

(١) الإمام الصادق عليه السلام/ ١٣٦.

(٢) دليل القضاء الشرعيّ، ج٣/ ٨٥.

اطلبوا العلم ولو بخوض المهج وشقّ اللّجج[١]

وهو في سبيل دعوة أصحابه إلى الكتابة وإيجاد الروحيّة اللاّزمة لنشر الفكر يقول:

... اكتب، وبثّ علمك في إخوانك، فإن متّ فأورث كتبك بنيك، فإنّه يأتي على الناس زمان هرج لا يأنسون فيه إلاّ بكتبهم[٢].

وفي كتاب عاصم بن حميد الحنّاط، عن أبي بصير قال:

دخلت على أبي عبد الله عليه السلام، فقال: دخل عليّ أُناس من أهل البصرة فسألوني عن أحاديث، فكتبوها، فما يمنعكم من الكتاب؟ أما إنّكم لن تحفظوا حتّى تكتبوا[٣].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال:

القلب يتّكل على الكتاب[٤].

وعن عبيد بن زرارة، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام:

احتفظوا بكتبكم فإنّكم سوف تحتاجون إليها[٥].

وقال عليه السلام للمفضّل بن عمر:

تأمّل ـ يا مفضّل ـ ما أنعم الله تقدّست أسماؤه به على الإنسان من هذا النطق الذي يعبّر به عمّا في

---

(١) الكافي، ج١/ ٣٥ ح٥.
(٢) الكافي، ج١/ ٢، بحار الأنوار، ج٢/ ١٠٥.
(٣) الأُصول الستّة عشر/ ٣٤، الكافي، ج١/ ٥٢.
(٤) الكافي، ج١/ ٥٢، بحار الأنوار، ج٢/ ١٥٢.
(٥) الكافي، ج١/ ٥٢، بحار الأنوار، ج٢/ ١٥٢.

ضميره، وما يخطر بقلبه ونتيجة فكره، وبه يفهم عن غيره ما في نفسه[١].

وكذلك الكتابة التي بها تقيّد أخبار الماضين للباقين وأخبار الباقين للآتين، وربّما تخلّد الكتب في العلوم والآداب وغيرهما، وبها يحفظ الإنسان ذكر ما يجري بينه وبين غيره من المعاملات والحسابات، ولولاه لانقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض وأخبار الغائبين عن أوطانهم، ودرست العلوم وضاعت الآداب وعظم ما يدخل على الناس من الخلل في أُمورهم ومعاملاتهم وما يحتاجون إلى النظر فيه من أمر دينهم وما روي لهم ممّا لا يسعهم جهلُه.

ويمكننا العثور على الكثير من هذه التعاليم القيّمة فيما ترك الإمام الصادق عليه السلام من معارف فهي لم تؤكّد على عمليّة التدوين والتسجيل وضبط الأحاديث وكتابة العلم وحسب بل إنّها أشارت في إرشادات قيّمة إلى كيفيّة التدوين ومنهجيّة الاستفادة من هذه العلوم، وبعد جولتنا هذه في بستان أقواله العذبة، سنطوف في نظرة عابرة على مؤلّفات الإمام الصادق عليه السلام لنلمس السيرة العمليّة لهذا الإمام أكثر فأكثر:

١ ـ الإهليلجة في التوحيد:

رسالة قصيرة حرّرها الإمام عليه السلام في ردّ الملاحدة ومنكريّ الربوبيّة وبعثها إلى المفضّل بن عمر وعنها كتب العلاّمة الشيخ آقا بزرگ الطهراني يقول:

... كتبها في جواب ما كتبه إليه المفضّل بن عمر

---

(١) البحار، ج٣/ ٨٢.

الجحفيّ يسأله فيه أن يكتب ردّاً على الملحدين المنكرين للربوبيّة واحتجاجاً عليهم[١].

وقد أوصى، السيّد ابن طاوس (رضوان الله عليه) في وصيّته القيّمة لابنه الاحتفاظ بالإهليلجة، والنظر فيها، والاستفادة منها، فكتب يقول:

وانظر كتاب الإهليلجة وما فيه من الاعتبار[٢].

وأوصى في أثر آخر أصحابه بها في السفر وقال:

وليصحب معه كتاب الإهليلجة، وهو كتاب مناظرة مولانا الصادق عليه السلام للهنديّ في معرفة الله ـ جلّ جلاله ـ بطرق غريبة عجيبة ضروريّة حتّى أقرّ الهنديّ بالإلهيّة والوحدانيّة[٣].

وقد أوردها العلاّمة المجلسيّ ـ رحمة الله عليه ـ كاملةً في بحار الأنوار[٤].

وبدوره فقد أورد العلاّمة الشيخ محمّد حسين المظفّر في مؤلّفه القيّم ـ الإمام الصادق ـ جانباً منها وكتب في نهايتها يقول:

وما حداني على الإشارة إلى مواضع هذه الرسالة دون إيرادها إلاّ رعاية الإيجاز، على أنّ هذه الرسالة جمعت فنوناً من العلم إلى قوّة الحجّة وجودة البيان وما كان محور المناظرة فيها إلاّ الإهليلجة، وهي من أضعف المصنوعات وأصغرها جرماً وشأناً[٥].

---

(١) الذريعة، ج٢/ ٤٨٤.
(٢) كشف المحجّة لثمرة المهجة/ ٥١.
(٣) الأمان من أخطار الأسفار والأزمان/ ٩١.
(٤) بحار الأنوار، ج٣/ ١٥٢ ـ ١٩٦.
(٥) الإمام الصادق، ج١/ ١٦٨.

٢ ـ التوحيد:

كتاب في بيان صنع الله والتوحيد الإلهيّ: أملاه الإمام عليه السلام للمفضّل بن عمر. وتبدأ جمله ومقاطعه بعبارة «فكّر يا مفضّل...» ولهذا سمّي بـ«كتاب فكّر»، وعنه كتب النجاشيّ في فهرسته:

له كتاب يوم وليلة، وكتاب فكّر:كتاب في بدء الخلق والحثّ على الاعتبار[١].

وذكره العلاّمة الطهرانيّ بـ«التوحيد» وقال:

عبّر عنه النجاشيّ بـ«كتاب فكّر» وسمّاه بعض الفضلاء بـ«كنز الحقائق والمعارف»[٢].

وقد أوصى السيّد ابن طاوس ابنه أيضاً بالاحتفاظ بهذا الكتاب والنظر فيه وقال:

وانظر كتاب المفضّل بن عمر، الذي أملاه عليه مولانا الصادق عليه السلام فيما خلق الله جلّ جلاله من الآثار[٣].

وأوصى باصطحابه في السفر فقال:

ويصحب معه كتاب المفضّل بن عمر الذي رواه عن الصادق عليه السلام، في معرفة وجوه الحكمة في إنشاء العالم السفليّ وإظهار أسراره فإنّه عجيب في معناه[٤].

---

(١) رجال النجاشي/ ٤١٦.
(٢) الذريعة، ج٤/ ٤٨٢.
(٣) كشف المحجة إلى ثمرة المهجة/ ٥٠.
(٤) الأمان من أخطار الأسفار والأزمان/ ٩١.

وبعد أن أورد المرحوم المظفّر هذا الكتاب علّق بما يلي:

حقيق بأن يغتنم أرباب المعارف جلائل هذه الحكم كما اغتنمها المفضّل، فقد أوضح فيها أبو عبد الله من حكم الأسرار وأسرار الحكم ما خفي على الكثير علمه وصعب على الناس فهمه. وهذه الدروس كما دلّتنا على الحكيم في صنائعه تعالى أرشدتنا إلى إحاطته عليه السلام بفلسفة الخلقة، بل تراه في هذه الدروس فيلسوفاً إلهيّاً وعالماً كلاميّاً، وطبيباً نظاميّاً ومحلّلا كيماويّاً، ومشرّحاً فنيّاً، وفنّاناً في الزراعة والغرس، وعالماً بما بين السماء والأرض من مخلوقاته وقادراً على التعبير عن أسرار الحكم في ذلك الخلق[1].

وكتب العلاّمة السيّد محسن الأمين العامليّ في هذا الصدد:

وهو أحسن كتاب في ردّ الدهريّة وإثبات الصانع (وهو) موجود بتمامه في ضمن البحار..[2]..

وكان كتاب «التوحيد» محطّ أنظار وتوجّه العلماء والمحدّثين، وكتبوا عليه الكثير من الشروح والتعليقات منها: الشرح المسهب والنافع لمحمّد الخيلي النجفيّ تحت عنوان «من أمالي الإمام الصادق عليه السلام» في أربعة مجلّدات[3].

---

(١) الإمام الصادق، ج١/ ١٦٤ كتب المرحوم المظفّر في حاشية كتابه: طبع هذا التوحيد المعروف بتوحيد المفضّل عدّة مرات، ورواه في بحار الأنوار، ج٣/ ٥٧ ـ ١٥١ وكانت الطبعات كلّها غير خالية من الغلط المطبعيّ، فكان النقل عنه بعد التدبّر والتطبيق وأصحّها طبعاً ما طبع في المطبعة الحيدريّة عام ١٣٦٩هـ. والشواهد على نسبة هذا التوحيد إلى الصادق عليه السلام كثيرة ليس هذا محلّ ذكرها.

(٢) أعيان الشيعة، ج١/ ١٦٨.

(٣) للتعرف على شروحها يراجع: الذريعة، ج٤/ ٤٨٢ ـ ٤٨٣.

٣ ـ الأهوازيّة:

كان عبد الله بن النجاشيّ وهو من شيعة الإمام عليه السلام الأحرار والياً على الأهواز حيناً، فبعث يسأل الإمام أسئلة من تلك الديار، فأجابه الإمام. وقد أورد نص الرسالة في مصادر متعدّدة[١]. منهم العلاّمة الطهرانيّ حيث علّق في نهايتها بالقول:

نقلها بعينها السيّد محيي الدين في أربعينه، والشيخ الشهيد في كشف الريبة، ويأتي شرحها للسيّد علاء الدين گلستانه، قال المحقّق الداماد في الراشحة العشرين من رواشحه بعد ذكر الأهوازيّة (ولم ير لأبي عبد الله عليه السلام مصنَّف غيرها). أقول لم يكن مثل المحقّق الداماد ممّن يخفى عليه أمر كتاب الإهليلجة الذي أدرجه الأصحاب في كتبهم المعتبرة، ومرّ اعتراف المخالف والمؤالف بأنّ الإمام الصادق عليه السلام قد كتبه ولكنّ الله ابتلى الإنسان بالنسيان إثباتاً لقدرته[٢]..

وقد أورد المرحوم العلاّمة السيّد محسن الأمين العامليّ الأهوازيّة ضمن مؤلّفات الإمام الصادق عليه السلام وكتب يقول:

رسالته إلى النجاشيّ والي الأهواز المعروفة

---

(١) راجع: الأربعون حديثاً في حقوق الإخوان، للسيّد محيي الدين محمّد بن عبد الله الحسينيّ، المعروف بابن زهرة الحلبيّ/ ٤٦ ـ ٥٥، كشف الريبة عن أحكام الغيبة/ ١٢٢ ـ ١٣١، بحار الأنوار، ج٧٧/ ١٨٩.

(٢) الذريعة، ج٢/ ٤٨٥.

برسالة عبد الله بن النجاشيّ، وقد ذكر النجاشيّ صاحب الرجال أنّه لم ير لأبي عبد الله مصنّفاً غيرها ويمكن حمله على أنّه لم يجمع هو عليه السلام بيده غيرها والباقي ممّا حفظه الرواة عنه[١].

وقد نسب المرحوم الأمينيّ شيئاً إلى كتاب النجاشيّ لم يرد فيه أصلاً، وهذا باعتقادنا سهو قلم وزلّة لسان من هذا العالم الفذّ ليس إلاّ. أمّا عبارة النجاشيّ فهي كالتالي:

عبد الله بن النجاشيّ بن ميثم... يروي عن أبي عبد الله عليه السلام رسالة منه إليه، وقد ولي الأهواز من قبل المنصور[٢].

٤ ـ رسالة الإمام عليه السلام إلى أصحابه:

رسالة منبّهة وملهمة حرّرها الإمام عليه السلام لضبط سلوكيّات أصحابه فدعاهم للرجوع إليها والنظر فيها والعمل بها وعنها كتب العلاّمة السيّد محسن الأمين:

رسالته إلى أصحابه رواها الكلينيّ في أوّل روضة الكافي بسنده عن إسماعيل بن جابر عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه كتب هذه الرسالة إلى أصحابه وأمرهم بمدارستها والنظر فيها، وتعاهدها والعمل بها وكانوا يضعونها في مساجد بيوتهم فإذا فرغوا من الصلاة نظروا فيها[٣].

---

(١) أعيان الشيعة، ج١/ ٦٦٨.

(٢) رجال النجاشيّ، طبعة قم/ ٢١٣.

(٣) الكافي (الروضة) ج٨/ ٢ ـ ١٤و٣٩٧؛ مرآة العقول، ج٢٥/ ٤ ـ ٢٩، شروح الملاّ صالح المازندرانيّ، ج١٢/ ١٤٠ ـ ١٨٦.

٥ ـ رسالته في الغنائم و. . . :

رسالة قصيرة حرّرها الإمام عليه السلام في جواب سائل حول الغنائم والخمس وطبيعة وجوبهما وموارد مصرفهما[١]. وتحظى هذه الرسالة بأهميّة من نواح عدّة، منها احتجاجها بالآيات وكيفيّة التفسير واعتمادها على بعض الوقائع في صدر الإسلام.

٦ ـ رسالته في وجوه معايش العباد:

رسالة قصيرة في كيفيّة كسب المعايش، وطبيعة تعامل الإنسان في المجتمع، وأنواع الحرف والتجارة، والصناعات و. .[٢]. . وقد التفت إليها الفقهاء وعليها اعتمد الشيخ الأنصاريّ(ره) في تصنيف المكاسب المحرّمة. بقي أن نشير إلى الإثارات المطروحة حول كيفيّة صدورها والتثبت من ذلك. وقد وردت في «الحدائق الناظرة» وباقي المراجع بصياغات مختلفة[٣].

٧ ـ الجعفريّات:

مجموعة من أحاديث الأحكام، صنّفت على أساس أبواب الفقه، نقلها الإمام الكاظم عن أبيه الإمام الصادق عليه السلام. وجميع أحاديثها مسندة إلى آبائه الأئمّة الميامين أو مرفوعة إلى الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم). وهناك إثارة حول نسبة هذه الصحيفة للإمام الصادق عليه السلام، وفي هذا الصدد ارتأينا إيراد التحقيق الواضح والقويم والمختصر للسيّد محمّد رضا الجلاليّ الحسينيّ، ونسخته الموجودة هي برواية محمّد بن محمّد بن الأشعث الكوفيّ، المصريّ، عن موسى بن إسماعيل ابن الإمام الكاظم عن

---

(١) تحف العقول/ ٣٣٩.

(٢) تحف العقول/ ٣٣١ فما بعد.

(٣) للمزيد من الاطّلاع يراجع: كتاب المكاسب (للشيخ الأعظم الشيخ مرتضى الأنصاريّ) تحقيق وتعليق السيّد محمّد الكلانتري (١٨ ـ ٤٩) متناً وتعليقاً.

أبيه، ولأنّ الإمام جعفر بن محمّد عليه السلام هو مجمع بداية الأحاديث كلّها فإنّ الكتاب سمّي بـ«الجعفريّات».

وبهذا الاسم نقل عنه من غير الإماميّة، القاضي نعمان المصريّ كبير علماء الإسماعيليّة في بعض مؤلّفاته الفقهيّة المخطوطة، ويسمّى الكتاب ـ أيضاً ـ بـ«الأشعثيات» نسبة إلى راويه ابن الأشعث المذكور. الذي هو مجرّد راو للكتاب وليس مؤلّفاً له قطعاً[١].

وقد ذكر النجاشيّ[٢] في ترجمة إسماعيل ابن الإمام الكاظم:

أنّ له كتباً يرويها عن أبيه عن آبائه وقد رجّحنا في بحث (أسند عنه) أنّ الأقوى أن يكون الكتاب من تأليف الإمام الصادق عليه السلام.

ومن جملة ما كتب في البحث المذكور:

وهنا احتمال آخر وهو أن يكون الكتاب كلّه من تأليف الإمام الصادق عليه السلام ولذا قد يسمّى بالجعفريّات وأنّه روي عنه كنسخة، رواها الإمام الكاظم عليه السلام ابنه. ويؤكّد هذا الاحتمال، السيّد محمّد صادق بحر العلوم فيقول: وهي الروايات التي رواها عن أبيه موسى، عن جدّه جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام... وحيث إنّها كلّها مروية عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام سمّيت «الجعفريّات» فهي إذن من تأليفه[٣].

---

(١) الذريعة، ج٢/ ١٠٩.

(٢) رجال النجاشيّ/ ٢٦.

(٣) رجال السيّد بحر العلوم، «هامش»، ج١/ ١١٧. وراجع: تراثنا (العدد الثالث من السنة الأُولى)/ ١٣٦ ـ ١٣٧.

ويؤكّد ما قال السيّد الجلاليّ ـ أو يؤيّده ـ أنّ الخطيب البغداديّ، (سمّى) هذا الكتاب بكتاب «الجعفريّة». وقال:

... أنبانا أبو سعد الماليني قال: قال لي أبو أحمد بن عديّ سمع منّي أبو العبّاس ابن عقدة كتاب «الجعفريّة» عن ابن الأشعث وحدّث بها عنّي[١]..

٨ ـ كتاب رسائله التي رواها عنه جابر:

يعدّ جابر بن حيّان من أُعجوبات العصر إذ كان شخصيّة منقطعة النظير في عالم العلم والمعرفة. وهو من أبرز تلامذة الإمام الصادق عليه السلام وواحد من أفضل من جنى من محاصيل علوم هذا الإمام الهمام عليه السلام. وحول الإمام الصادق وآثاره المدوّنة بقلم جابر بن حيّان كتب اليافعيّ يقول:

له كلام نفيس في علوم التوحيد وغيرها وقد ألّف تلميذه جابر بن حيّان كتاباً يشتمل على ألف ورقة يتضمّن رسائله وهي خمسمائة رسالة.

أمّا فريد وجديّ فقد بنى الأمر على النحو التالي:

كان [جعفر الصادق عليه السلام] من سادات أهل البيت النبويّ لقّب الصادق لصدقه في كلامه... وكان تلميذه أبو موسى جابر بن حيّان... قد ألّف كتاباً يشتمل على ألف ورقة تتضمّن رسائل جعفر الصادق وهي خمسمائة رسالة[٢].

---

(١) موضع أوهام الجمع والتفريق، ج٢/ ٢٣٨.

(٢) دائرة معارف القرن العشرين، ج٣/ ١٠٩، للتعرّف على جابر بن حيّان يراجع أيضاً: أعلام العرب في الكيمياء/ ٣٦ ـ ٥٧؛ وكذلك جابر بن حيّان، لزكي نجيب محمود.

وقد أشار العلاّمة السيّد محسن الأمين العامليّ إلى ما أوردناه هنا في هذا المضمار[١].

٩ ـ نثر الدرر:

صحيفة تشتمل على الكلمات القصار والجمل الحسان للإمام الصادق عليه السلام أوردها كاملة ابن شعبة الحرّانيّ وكتب في أوّلها:

سمّاه بعض الشيعة نثر الدرر.

إنّ ظاهر النقل يجسّد أنّ هذه الجمل القصار السجعيّة وردت من نصّ واحد على هيئة كتاب مكتوب.

١٠ ـ وصيّة النبيّ (صلّى الله عليه وآله وسلّم):

وصيّة مطوّلة ملؤُها المضامين الرفيعة والملهمة جاء ذكرها في المصادر الشيعيّة والسنيّة على حدّ سواء وعنها كتب السيّد الجلاليّ[٢]:

ذكرها الاشبيليّ في فهرسته ما رواه، وأورد طريقه إليه؛ المنتهي إلى جعفر بن محمّد الصادق[ع].

ورواها البيهقيّ:

عن السريّ بن خالد عن جعفر بن محمّد، عن أبيه، عن جدّه، عن عليّ عليه السلام عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: يا عليّ: أُوصيك بوصيّة فاحفظها، فإنّك لا تزال بخير ما حفظت وصيّتي....

---

(١) أعيان الشيعة، ج١/ ٦٦٩.

(٢) تحف العقول/ ٣١٥ ـ ٣٢٤.

وقد عبّر أبو غالب الزراريّ في رسالته عن هذه الصحيفة باسم الكتاب:

كتاب «وصيّة النبيّ» (صلّى الله عليه وآله وسلّم)، لأمير المؤمنين عليه السلام عن أبي العبّاس ابن عقدة وعلى ظهره إجازته لي جميع حديثه بخطّه[١].

ورواها الشيخ الصدوق (رضوان الله عليه) عن أهل البيت عليهم السلام[٢].

١١ ـ كتاب الحجّ:

رواه أبان بن عبد الملك، وعنه قال النجاشيّ:

أبان بن عبد الملك الثقفيّ شيخ من أصحابنا، روى عن أبي عبد الله عليه السلام كتاب الحجّ[٣].

وقال يحيى بن سعيد:

أملى علي جعفر الحديث الطويل يعني في الحجّ[٤].

١٢ ـ مناسك الحجّ:

يشتمل على فرائض الحجّ بشكل واف. كتب النجاشيّ في رجاله يقول:

عمر بن محمّد بن يزيد... له كتاب في مناسك الحجّ وفرائضه وما هو مسنون من ذلك سمعه كلّه من أبي عبد الله عليه السلام[٥].

---

(١) رسالة ابن غالب الزراري إلى ابن ابنه/ ١٨١.
(٢) من لا يحضره الفقيه، ج٤/ ٣٥٢؛ وراجع أيضاً: روضة المتّقين، ج٣/ ١٢.
(٣) رجال النجاشيّ/ ١٤.
(٤) تهذيب التهذيب، ج٢/ ١٠٣.
(٥) رجال النجاشيّ/ ٢٨٣.

وقد أورد النجاشيّ هذه المناسك بثلاث طرق.

١٣ ـ كتاب:

رواه طلاّب بن حرشب أبو رويم الشيبانيّ.

١٤ ـ نسخُ:

جاء في بعض مصادر أهل السنّة:

ولجعفر بن محمّد حديث كبير عن أبيه عن جابر، وعن أبيه عن آبائه، ونسخ لأهل البيت يرويه جعفر بن محمّد[١].

١٥ ـ كتاب:

رواه ابنه الإمام الكاظم عليه السلام برواية القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل عنه، وعن أبيه وغيرهما وهو القاسم الرسيّ من أئمّة الزيديّة[٢].

١٦ ـ كتاب مبوّب في الحلال والحرام:

عنه كتب النجاشيّ في آخر الحديث عن إبراهيم بن محمّد بن أبي يحيى:

... ذكر بعض أصحابنا أنّ له كتاباً مبوّباً في الحلال والحرام عن أبي عبد الله عليه السلام[٣].

١٧ ـ النوادر:

تحت هذا العنوان ذكر عدد من الرواة صحفاً للإمام الصادق عليه السلام

---

(١) تهذيب التهذيب، ج٢/ ١٠٤، نقلاً عن «الكامل» ج٢/ ٥٥٨. وغيرهما معرفة النسخ والصحف الحديثة/ ١١٥.

(٢) رجال النجاشيّ/ ٣١٤.

(٣) رجال النجاشيّ/ ١٥.

منهم خالد بن صبيح الكوفيّ، وخالد بن يزيد العكليّ الكوفيّ، وداود بن عطاء المدنيّ، وخضر بن عمرو النخعيّ[١].

١٨ ـ نسخة:

نقلها فضل بن عياض، وعنها كتب النجاشيّ يقول:

بصريّ ثقة روى عن أبي عبد الله نسخة[٢].

١٩ ـ نسخة:

نقلها سفيان بن عيينه الهلاليّ وهو من محدّثيّ العامّة[٣].

٢٠ ـ نسخة:

نقلها عن الإمام عليه السلام مطلّب بن زياد الزهريّ القرشيّ المدنيّ[٤].

٢١ ـ نسخة:

نقلها إبراهيم بن رجاء الشيبانيّ الجحدريّ ابن هراسة[٥].

* * *

نكتفي بهذا المقدار مما أوردناه ـ تيمّناً ـ وإلاّ فإنّ لهذا الإمام ميراثاً عظيماً لا تسعه صفحاتنا هذه، وسنعود إلى طرق هذا الباب من جديد ولكن بشكل آخر عندما سنتحدّث عن الأُصول الأربعمائة، ورغم الجدل المثار حول طبيعة هذه الأُصول، لكنّه ليس هناك شكّ بأن الجزء الأعظم من

(١) رجال النجاشيّ/ ١٥٠و١٥٢و١٥٣و ١٥٧.
(٢) رجال النجاشيّ/ ٣١، أعيان الشيعة، ج١/ ٦٦٨.
(٣) رجال النجاشيّ/ ١٩٠.
(٤) رجال النجاشيّ/ ٤٢٣.
(٥) رجال النجاشيّ/ ١٦.

الصحف والكتب أو قُلْ كلّها إنْ شئت هو من جمع تلامذة الإمام الصادق عليه السلام عنه، كتب العلاّمة محمّد تقي المجلسيّ ـ المجلسيّ الأوّل ـ يقول:

فإنّ أصحاب الإمام أبي عبد الله جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام، المصنّفين للكتب كانوا أربعة آلاف رجل واختاروا من جملتها وجملة ما نقله أصحاب بقية أئمّتنا صلوات الله عليهم أربعمائة كتاب وسمّوها الأُصول[1]..

الإمام الكاظم(ع):

أكّد هذا الإمام الهمام كسائر الأئمّة المعصومين عليهم السلام على تدوين الحديث ونشر العلم وتدوين الآثار، وقد عكف على ذلك أصحابه. انظروا إلى هذا النصّ:

عن زيد النهشليّ قال: كان جماعة من خاصّة أبي الحسن عليه السلام ـ من أهل بيته وشيعته ـ يحضرون مجلسه ومعهم في أكمامهم ألواح أبنوس لطاف، وأميال، فإذا نطق أبو الحسن عليه السلام بكلمة، أو أفتى في نازلة أثبت القوم ما سمعوا منه في ذلك[2].

وقد حفظت للإمام موسى بن جعفر عليه السلام آثار مدوّنة شوهد بعضها بخطّه المبارك. وهي في مجموعها دلالة على سيرته العمليّة عليه السلام في تأكيده ودعوته إلى تدوين الأحاديث وكتابتها وضبطها، وهنا سنعرج على ذكر بعضها:

---

(١) روضة المتّقين، ج١/ ٨٦.

(٢) مهج الدعوات، لابن طاوس/ ٢١٩ ـ ٢٢٠.

١ ـ مسند الإمام موسى بن جعفر عليه السلام :

صحيفة تشتمل على مجموعة من روايات الإمام عليه السلام ، رواها مسندة أو مرفوعة إلى النبيّ الأكرم محمّد صلى الله عليه وآله عن آبائه عليهم السلام ، نقلها موسى بن إبراهيم، أبو عمران المروزيّ البغداديّ عن الإمام عليه السلام عمن كان معه في السجن، وقد جاء ذكرها في مصادر متعدّدة منها: الفهرس لشيخ الطائفة[١]. ورجال النجاشيّ[٢] وكذا كشف الظنون[٣]. وعنها كتب العلاّمة الحلّي (رضوان الله عليه):

موسى بن إبراهيم المروزيّ... روى عن الكاظم عليه السلام، له كتاب ذكر أنّه سمعه والكاظم عليه السلام محبوس عند السنديّ بن شاهك... وهو معلّم ولديّ السندي بن شاهك[٤].

وقد حقّق العلاّمة السيّد محمّد حسين الجلاليّ الحسينيّ النسخة الموجودة في مكتبة الظاهريّة بدمشق وقام بطبعها في النجف عام ١٣٨٩هـ. وعاد بعد ذلك إلى طبعها في طهران عام ١٣٩٢هـ. وقد نشر المؤلّف طبعة ثالثة في أميركا عام ١٤٠١هـ وطبعة رابعة عام ١٤٠٦هـ في بيروت. ومجموع رواياتها ٥٩ رواية. قال الأستاذ السيّد محمّد رضا الجلاليّ الحسيني:

والملاحظ وجود عدد وافر من الأحاديث الّتي رواها للمروزيّ المذكور عن الإمام الكاظم عليه السلام على

---

(١) الفهرست/ ٣٤٠.
(٢) رجال النجاشيّ/ ٤٠٧.
(٣) كشف الظنون/ ١٦٨٢.
(٤) إيضاح الاشتباه/ ٢٩٦.

منهج الأُستاذ المذكور، يمكن اعتبارها مستدركاً على النسخة المذكورة ولعلّها تبلغ ضعف ما جاء فيه.

وقال في مقام آخر:

وأحاديث الكتاب مسندة على النهج المذكور، أي أنّ الإمام يروي الروايات عن أبيه عن آبائه عن النبيّ ﷺ عدا بعض الأحاديث، حيث جاء فيها «عن الإمام، عن النبيّ» والظاهر أنّ هذا حدث بتصرّف الرواة أو النسّاخ، اختصاراً، وقد عثرت على أحاديث للمروزيّ، عن الإمام على النهج المذكور[١]..

بعدها ذكر المصادر والموارد التي أُوردت رواياتها على الهيئة المذكورة عن المروزيّ[٢].

وإضافة إلى ما ذكرناه فهناك طبعة صدرت في بيروت لهذه النسخة مع قليل من الإيضاح والبيان حول محتوى الروايات وأسنادها.

٢ ـ كتاب:

رواه محمّد بن صدقة، العنبريّ، البصريّ[٣].

٣ ـ كتاب:

رواه بكر بن الأشعث، أبو إسماعيل الكوفيّ[٤].

---

(١) مجلّة تراثنا، (السنة الأُولى العدد الثالث)/ ١٣٠، مقالة (المصطلح الرجاليّ = أسند عنه).
(٢) رجال النجاشيّ/ ٣٦٤، نفس المصدر، ج٢/ ١٦٧، طبعة بيروت وراجع أيضاً تنقيح المقال، ج٣/ ١٣٣.
(٣) رجال النجاشيّ/ ١٠٩.
(٤) رجال النجاشيّ/ ١٥٢، نفس المصدر، ج٢/ ١٠٧، طبعة بيروت.

٤ ـ كتاب:

رواه خلف بن حمّاد بن ياسر، الكوفيّ[١].

٥ ـ نسخة:

رواها عليّ بن حمزة بن الحسن العلويّ[٢].

٦ ـ نسخة:

رواها محمّد بن ثابت[٣].

٧ ـ نسخة:

رواها محمّد بن زرقان بن الجنّاب[٤].

٨ ـ مسائل:

رواها حسن بن عليّ بن يقطين[٥]. وقد جاء الشيخ الطوسيّ على ذكر هذا الكتاب في فهرسه وكتب:

حسن بن عليّ بن يقطين... له كتاب مسائل موسى بن جعفر وكان فقيهاً متكلّماً[٦].

٩ ـ مسائل:

رواها عليّ بن يقطين[٧]. جاء ذكرها في الفهرس أيضاً.

---

(١) رجال النجاشيّ/ ٢٧٣، نفس المصدر، ج٢/ ١٠٧، طبعة بيروت.
(٢) رجال النجاشيّ/ ٣٦٩، نفس المصدر، ج٢٧٦/ ٢، طبعة بيروت.
(٣) رجال النجاشيّ/ ٣٧٠، نفس المصدر، ج٧٧/ ٢، طبعة بيروت.
(٤) رجال النجاشيّ/ ٤٥.
(٥) الفهرست/ ٩٤.
(٦) الفهرست، ٢٣٤.
(٧) رجال النجاشي/ ٢٧٣.

وله مسائل عن أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام[١].

١٠ ـ رسالة:

كان عليّ بن سويد من الشيعة ومحدّثاً عظيم المنزلة، وأحد الرواة المعتمدين عند الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، بعث كتاباً إلى الإمام وهو في حبسه، سأل فيه عن حال الإمام وبعض الأُمور الشرعيّة، فحرّر الإمام رسالة في جوابه أوردها سويد كالتالي:

كتبت إلى أبي الحسن الأوّل، وهو في الحبس، كتاباً أسأله فيه عن حاله وعن جواب مسائل كثيرة كتبت بها إليه، فاحتبس الجواب عليّ أشهر، ثم أجابني بجواب هذه نسخته[٢]..

وقد ذكر الرجاليّ الكبير الشيخ النجاشيّ هذه الرسالة بالقول:

روى رسالة أبي الحسن موسى عليه السلام إليه... عن عليّ بن سويد قال: كتب إلى أبي الحسن موسى عليه السلام بهذه الرسالة[٣].

وقد حقّقها، الشيخ فاضل المالكيّ وعلّق عليها بشروح قيّمة وجاء بها في مبحث مسهب ودقيق في شرح تراجم المشايخ والرواة الّذين نقلوا عن عليّ بن سويد وطريقة إسناد رسالته[٤].

١١ ـ رسالته في العقل:

وهي خطاب لهشام بن الحكم، ملؤها المباحث الدقيقة، والحقائق

---

(١) مسند عليّ بن سويد السائيّ/ ٢١٩.
(٢) مسند عليّ بن سويد السائيّ/ ٢١٩ ـ ٢٢٢.
(٣) رجال النجاشيّ/ ٢٧٦، نفس المصدر، ج٢/ ١١١، طبعة بيروت.
(٤) مسند عليّ بن سويد السائيّ، فاضل المالكيّ، المؤتمر العالميّ للإمام الرضا عليه السلام، ١٤١١هـ.

الرفيعة، والمعارف القرآنيّة، نقلها المحدّث الكبير محمّد بن يعقوب الكلينيّ[١]. وقد تناوله كثيرون في شرح «الكافي» بالتفصيل والتدقيق كلّ من زاويته، والأشهر هو الشرح الوافي لفيلسوف الشيعة الكبير صدر المتألّهين وعنه كتب العلاّمة باقر شريف القرشيّ:

ويعتبر هذا الحديث من أهمّ الثروات الفكريّة الّتي أثرت عن الإمام، وقد شرحه شرحاً فلسفيّاً صدر المتألّهين الآخوند ملاّ صدرا[٢].

وفي بداية شرحه عليها كتب صدر المتألّهين يقول:

هذا الحديث مشتمل على بيان حقيقة العقل بالمعنى المذكور ـ أعني المرتبة الرابعة من العقول الأربعة المذكورة في علم النفس ـ ومحتوٍ على معظم صفاته وخواصّه ومدائحه، ومتضمّن لمعارف جليلة قرآنيّة، ومقاصد شريفة إلهيّة لم يوجد نظيرها في كثير من مجلّدات كتب العرفاء ولم يعهد شبيهها في نتائج أنظار العلماء النظّار ذوي دقائق الأفكار إلاّ منقولاً عن واحد من الأئمّة الأطهار أو مسنداً من طريقهم أو طريق العامّة إلى الرسول المختار عليه وآله سلام الله الملك الغفّار[٣].

١٢ ـ رسالة في التوحيد:

رسالة موجزة لكنّها ذات مدلولات عميقة وقيّمة، حرّرها الإمام

---

(١) الكافي، ج١/ ١٣.
(٢) حياة الإمام موسى بن جعفر، ج١/ ١٨١.
(٣) شرح أُصول الكافي، ج١/ ٢٥٢، «مؤسّسة الأبحاث والتحقيقات الثقافيّة».

موسى بن جعفر عليه السلام في جواب سائل سأل عن التوحيد، أوردها ثقة الإسلام الكلينيّ:

عن فتح بن عبد الله مولى بني هاشم قال: كتبت إلى أبي إبراهيم عليه السلام أسأله في شيء من التوحيد، فكتب إليّ بخطه: الحمد للّه الملهم عباده حمده..[1]..

وقال العلاّمة باقر شريف القرشيّ:

من تراثه القيّم رسالته في التوحيد وهي ـ على إيجازها ـ مدعمة بالحجج الكلاميّة على وجود الله تعالى، وبيان صفاته الإيجابيّة والسلبيّة[2]..

عهد الإمام الرضا(ع):

تميّز عهد إمامة الإمام الرضا عليه السلام عن باقي عهد أئمّة أهل البيت عليهم السلام بالأهميّة فهو عهد يدعونا للوقوف عنده والتأمّل فيه من عدّة نواح، ففيه توالت الانتفاضات ضدّ الحكم العبّاسيّ الجائر، وفيه أُجبر الإمام على التوجّه إلى خراسان، وفيه طرحت قضيّة ولاية العهد للإمام وفيه ظهر الإمام وبرز في الواقع الاجتماعيّ، فقد شارك بنفسه عليه السلام في مجالس البحث والمناظرة المتعددّة الّتي أقامها المأمون لأغراض سياسيّة وأُمور أُخرى هيّأت في مجملها الأرضيّة لتبلور وبروز المذهب الشيعيّ وطرح أفكاره على الواقع إلى حدّ كبير، وقد اغتنم الإمام الرضا عليه السلام هذه الظروف والمواقف أيّما اغتنام لبسط ونشر الفكر والتفسير الصحيح والحقّ.

وقد دعا الإمام عليه السلام أصحابه وخواصّه إلى تدوين وتسجيل الحقائق

---

(١) الكافي، ج١/ ١٤٠؛ وراجع أيضاً: مرآة العقول، ج٢/ ١٠٠، شرح الملاّ صالح المازندرانيّ، ج٤/ ٢٣٦.

(٢) حياة الإمام موسى بن جعفر، ج٢٢٣/١.

والمعارف وأوصاهم بالمحافظة عليها وصيانتها، وقد حرّر بيديه المباركتين الرسائل والصحف انظروا إلى هذه الرواية:

قال حمزة بن عبد الله الجعفريّ، دخلت على أبي الحسن الرضا عليه السلام ومعي صحيفة أو قرطاس فيه عن أبي عبد الله عليه السلام «انّ الدنيا تمثّل لصاحب هذا الأمر في مثل خلقة الجوز» فقال: يا حمزة ذا والله حقّ! فانقلوه إلى أديم.

وفي نقل آخر للحديث قال: هو حقّ فحوّله في أديم[١].

وفي مجال بيان الحديث قال العلاّمة المجلسيّ:

إنّما قال عليه السلام «فحوّل إلى أديم» ليكون أدوم، وأكثر بقاءً من القرطاس، لاهتمامه بضبط هذا الحديث ويظهر منه استحباب كتابة الحديث وضبطه، والاهتمام به وكون ما يكتب فيه الحديث شيئاً لا يسرع إليه الاضمحلال[٢].

وبينا نحن بين صفحات الآثار الذهبيّة المنقولة عن الإمام الرضا عليه السلام يمكننا العثور على مثل هذه البيانات التي يأمر فيها الإمام عليه السلام خواصّه وأتباعه بتدوين العلم وضبط المعلومات والمعارف ويؤكد عليهم في حفظها وصيانتها.

وقد قام برنامجه العمليّ وسنّته في هذا المجال على تدوين الحقائق وعرضها على الأنصار والأتباع وفيما يلي سنتناول بعضاً ممّا أوردته المصادر والمراجع من مؤلّفات الإمام عليه السلام:

---

(١) الاختصاص/ ٢١٧، بحار الأنوار، ج١٤٥/ ٢.

(٢) بحارالأنوار، ج١٤٦/ ٢.

١ ـ صحيفة الرضا عليه السلام:

ورد ذكرها باسم «مسند الإمام الرضا عليه السلام» أيضاً، نقلها الكثير من رواة الفريقين وقد أشارت بعض المصادر إلى أسماء بعض رواتها[١]. وقد أدّى اشتهارها وذياع صيتها في حينها، إلى عثورنا اليوم على عدّة نسخ منها محفوظة في رفوف كبريات المكتبات في العالم؛ وقد تكرّر طبعها محقّقة على يد ثلّة من المحقّقين:

١ ـ رتّبها وطبعها في اليمن عام ١٣٥٤هـ في مطبعة المتوكّليّة بصنعاء الشيخ عبد الواسع الواسعيّ، تحت عنوان «مسند الإمام الرضا عليه السلام» وبعدها صدرت ضمن إصدارات «دار مكتبة الإحياء» بمعيّة «مسند الإمام زيد».

٢ ـ بعنوان «كتاب ابن أبي الجعد» وهي كنية أحمد بن عامر بن سليمان الطائيّ، وهو من أشهر رواة الإمام الرضا عليه السلام. وقد طبعت في مدينة قم بنسخة هذا الراوي.

٣ ـ وفي طهران عام ١٣٧٧هـ محقّقة من قبل الدكتور حسين علي محفوظ الكاظميّ تحت عنوان «صحيفة الإمام الرضا عليه السلام».

٤ ـ في مشهد عامي ١٤٠٤ و١٤٠٦ للهجرة محقّقة من قبل الشيخ محمّد مهديّ نجف باهتمام المؤتمر العالميّ للإمام الرضا عليه السلام.

وفي المقدمة تحدث الشيخ نجف عن إسناد هذه الصحيفة، وعمد في هوامشها إلى تحديد المقاطع المذكورة منها في متون الحديث.

٥ ـ في قم عام ١٤٠٨هـ محقّقة من قبل مدرسة الإمام المهديّ (عجّ)

---

(١) صحيفة الإمام الرضا عليه السلام، طبعة مكتبة الإمام المهديّ عليه السلام، المقدمه؛ خلاصة عبقات الأنوار، ج١٠/ ٦٨ ـ ٧٦.

بمقدمة جامعة في طبقات رواتها على اختلاف نسخها وقد روعي في ترتيب الروايات إيرادها على أساس القرون وقد تمّ تخريج عدد كبير من أحاديثها وإضافة روايات أُخرى مسندة على النهج المذكور في هذا الكتاب.

٢ ـ الرسالة الذهبيّة:

حرّرها الإمام عليه السلام بطلب من المأمون، وهي صحيفة تشتمل على بعض القضايا الطبية، وقد أمر المأمون بأن تدونّ بماء الذهب، ولهذا سمّيت بـ«الرسالة الذهبيّة».

وهي مشهورة ومتداولة وقد طبعت عدّة مرّات. منها طبعة النجف المحقّقة من قبل السيّد محمّد مهدي الخرسان وطبعة المؤتمر العالمي للإمام الرضا عليه السلام المحقّقة من قبل الشيخ محمّد مهدي نجف.

٣ ـ مجالس الرضا عليه السلام مع أهل الأديان:

أشرنا فيما مضى بأنّ المأمون أقام ولأسباب مختلفة محافل علميّة، طرحت فيها قضايا عقائديّة متنوّعة بحضور علماء الأديان المختلفة وهو بفعله هذا أجرى حواراً ومناظرة بين الأديان، وفيها انبرى الإمام عليه السلام للردّ على الإثارات والانتقادات الموجّهة والعلل المطروحة. وقد تولّى فيما بعد أحد أتباع الإمام جمعها جميعاً ـ وعنه كتب النجاشيّ يقول:

حسين بن محمّد بن الفضل... أبو محمّد شيخ من الهاشميّين، ثقة،... صنَّف مجالس الرضا مع أهل الأديان[1].

٤ ـ أمالي الإمام الرضا عليه السلام:

صحيفة نقلها الفضل بن شاذان عمّا سمعه عن الإمام الرضا عليه السلام في

(١) رجال النجاشيّ/٥٦، طبعة بيروت، ج١/١٦٩.

المناسبات المختلفة وقد عرفت بصحيفة «العلل» وقد أوردها العلاّمة السيّد محسن الأمين في ضمن مؤلّفات الإمام الرضا عليه السلام.

العلل التي ذكر الفضل بن شاذان أنّه سمعها من الرضا عليه السلام مرّة بعد مرّة وشيئاً بعد شيء فجمعها وأطلق لعليّ بن محمّد بن قتيبة النيسابوريّ روايتها عنه عن الرضا فإنّها في الحقيقة من تأليف الرضا فهو كالمؤلّف الذي يملي علي[١].

٥ ـ أمالي الإمام الرضا عليه السلام:

صحيفة رواها أبو الحسن عليّ بن عليّ الخزاعيّ، أخو الشاعر الشيعيّ الكبير دعبل الخزاعيّ، وهي كالتالي:

حدّثنا أبو الحسن عليّ بن موسى الرضا عليه السلام، بطوس، إملاءً، في رجب سنة ثمان وتسعين ومائة، قال: حدّثني أبو موسى بن جعفر....

وبهذا السند نقل الشيخ الطوسيّ روايات في هذه الصحيفة[٢].

وقد احتمل المحقّق الكبير السيّد محمّد رضا الجلاليّ الحسينيّ أنّها نفس الكتاب الّذي ذكره النجاشيّ وعلى هذا كتب يقول:

لعلّ هذا الكتاب هو الذي ذكره النجاشيّ، وأنّ الخزاعيّ رواه عن الإمام عليه السلام[٣].

٦ ـ كتاب الإهليلجة:

وقد ذكره العلاّمة السيّد محسن الأمين وكتب يقول:

---

(١) أعيان الشيعة، ج٢/ ٢٦.
(٢) أمالى الشيخ الطوسيّ، ج١/ ٣٧٠ ـ ٣٨٢.
(٣) تدوين السنّة الشريفة/ ،رجال النجاشيّ/ ٢٧٧.

فيه حجج بالغة، ومطالب جليلة في علم الكلام[١].

ولم أر في المراجع والمصادر الأُخرى من ينسب هذا الأثر للإمام الرضا عليه السلام، لكنّه نسب لاثنين من أصحاب الإمام ورواة أخباره هما:

١ ـ أبو جعفر حمدان بن المعافى الصبيحيّ، قال النجاشيّ:

له... كتاب الإهليلجة أخبرنا محمّد بن عليّ الكاتب[٢]..

٢ ـ أبو سليمان داود بن كثير الرقّي، قال النجاشيّ:

داود بن كثير الرقيّ... له كتاب الإهليلجة، أخبرني أبو الفرج محمّد بن عليّ[٣]..

ولا يستبعد أن يكون هذان الصحابيّان هما اللّذان نقلا هذا الكتاب عن الإمام الرضا عليه السلام وعلى هذا فلا إشكال يرد على العلاّمة السيّد محسن الأمين في نقله ونسبته هذا الأثر للإمام عليه السلام.

٧ ـ كتاب:

رواه موسى بن سلمة الكوفيّ[٤].

٨ ـ كتاب:

رواه وريزة بن محمّد الغسّانيّ[٥].

---

(١) أعيان الشيعة، ج١ق٣٧٧/ ١، ج١ق٥/ ٢.
(٢) رجال النجاشيّ/ ١٣٨، يراجع الذريعة، ج١/ ٤٨٣.
(٣) رجال النجاشيّ/ ١٥٦، وراجع الذريعة: ج١/ ٤٨٤.
(٤) رجال النجاشيّ/ ٤٠٩.
(٥) رجال النجاشيّ/ ٤٣٢.

٩ ـ كتاب:

رواه عليّ بن مهديّ بن صدقة، أبو الحسن الرقّي الأنصاريّ[١].

١٠ ـ نسخة مبوّبة كبيرة:

رواها محمّد بن عبد الله اللاّحقيّ[٢].

١١ ـ نسخة:

رواها محمّد بن عليّ بن الحسين بن زيد الشهيد[٣].

١٢ ـ نسخة:

رواها أبو أحمد، داود بن سليمان، الغازي[٤]. وهو من جملة رواة الصحيفة السجّاديّة أيضاً.

١٣ ـ نسخة:

رواها عبد الله بن عليّ بن الحسين بن زيد الشهيد[٥].

١٤ ـ نسخة:

رواها عبد الله بن محمّد بن عليّ بن العبّاس، التميميّ الرازيّ[٦].

١٥ ـ نسخة:

رواها عبّاس بن هلال الشاميّ[٧].

---

(١) رجال النجاشيّ/ ٢٧٧.
(٢) رجال النجاشيّ/ ٣٩٦.
(٣) رجال النجاشيّ/ ٣٩٦.
(٤) أعيان الشيعة، ج١ ق٣٧٤.
(٥) رجال النجاشيّ/ ٢٢٧.
(٦) رجال النجاشيّ/ ٢٢٨.
(٧) رجال النجاشيّ/ ٢٨٢.

١٦ ـ مسائل:

رواها معاوية بن سعيد.

١٧ ـ مسائل:

رواها الحسن بن عليّ، الوشّاء[١].

١٨ ـ مسائل:

رواها سعد خادم أبي دلف العجليّ[٢].

١٩ ـ مسائل:

رواها صباح بن نصر الهنديّ[٣].

٢٠ ـ مسائل:

رواها عبد الله بن محمّد بن حصين الأهوازيّ[٤].

عهد إمامة الإمام محمّد بن عليّ الجواد(ع):

بعد التحرّك السياسيّ والثقافيّ الواسع للإمام الرضا عليه السلام انبرى العدو بدهاء ومكر تامين للحدّ من تحرّكات الإمام الجواد عليه السلام ومحاصرته، لكنّ الإمام واصل مع كلّ هذه الضغوط والممارسات مسيرة سلفه من الأئمّة المعصومين وأمر بطلب العلم وتنشيط حركة المعرفة من جهة، وتصدّى بنفسه لحركة البناء الفكريّ للمجتمع والأُمّة الإسلاميّة من جهة أُخرى. وفي هذا عكف على تربية تلامذته وأتباعه. ويبدو أنّ الرواة لم يذكروا آثار الإمام الجواد عليه السلام المدوّنة لكنّ الكثير من تلامذته خلّفوا آثاراً مدوّنة

(١) رجال النجاشيّ/ ٣٩.
(٢) رجال النجاشيّ/ ١٧٩.
(٣) رجال النجاشيّ/ ٢٠٢.
(٤) رجال النجاشيّ/ ٢٢٧.

ومهمّة[١]. وهنا سنورد رواية عن الإمام الجواد عليه السلام يحثّ فيها ويدعو إلى كتابة العلم وتدوينه:

عن محمّد بن الحسن بن أبي خالد شنبولة، قال: قلت لأبي جعفر الثاني عليه السلام: جعلت فداك! إنّ مشايخنا رووا عن أبي جعفر، وأبي عبد الله عليهما السلام، وكانت التقيّة شديدة، فكتموا كتبهم، فلم تُرْو عَنْهم، فلمّا ماتوا صارت الكتب إلينا؟ فقال: حدّثوا بها، فإنّها حقّ[٢].

وقد عني ثلّة من العلماء بجمع كليّات الأحاديث الواردة عن الإمام محمّد بن عليّ الجواد عليه السلام في أبعاد المعارف الإسلاميّة المختلفة فصدرت مطبوعة تحت عنوان «مسند الإمام الجواد عليه السلام»[٣].

عهد الإمام عليّ بن محمّد الهاديّ(ع):

عهد الإمام الهاديّ عليه السلام جدير بالدراسة والتحليل من زوايا عديدة وأبعاد مختلفة في التأريخ الشيعيّ، إذ عاش الإمام عليه السلام بسامرّاء حتّى استشهد وهو في قبضة الفئة الباغية، مقاوماً للظالمين والجبّارين من خلفاء عصره.

ذات يوم بلغ المقام بوالي المدينة العبّاسيّ أن أرسل إلى مولاه المتوكّل يقول:

إن كانت لك حاجة بمكّة والمدينة، فأخرج عليّ بن

---

(١) راجع: الإمام محمّد بن عليّ الجواد، عبد الزهراء عثمان محمّد/ ٩٥ ـ ١٣٥، منهاج التحرّك عند الإمام الجواد عليه السلام، (مجلّة دراسات وبحوث، العدد الخامس، السنة الثالثة)/ ٩٩ فما بعد.

(٢) الكافي، ج١/ ٥٣.

(٣) مسند الإمام الجواد، أبي جعفر محمّد بن عليّ الرضا عليه السلام، جمعه ورتّبه الشيخ عزيز الله العطارديّ، المؤتمر العالميّ للإمام الرضا عليه السلام، ١٤١١هـ.

محمّد (الهاديّ) منها، فقد استمال إليه أكثر من في هذه الناحية، وأضحوا له مطيعين منقادين[١].

وفي هذا الصدد قال مؤرّخو ومحدّثو المدينة إنّ العلماء والفقهاء والمحدّثين وعشّاق المعارف الإلهيّة والمتلهّفين لها، كانوا يتحلّقون حول الإمام لينهلوا من ينابيع علومه ومعارفه العذبة، فلم يتحمّل الظلمة من الحكّام أمثال المتوكّل هذه القطبيّة والمحوريّة للإمام فأمر بجلبه إلى سامرّاء.

على أيّة حال يجب القول إنّ الإمام الجواد عليه السلام اغتنم فرصة الأوضاع الثقافيّة والسياسيّة الخاصّة في يومه وتبنّى حركة ثقافيّة وفكريّة عظيمة لا مجال هنا لبسط الحديث فيها[٢].

ونورد هنا بعض الأحاديث والمؤلّفات المنسوبة له عليه السلام:

١ ـ كتاب في أحكام الدين:

أشار إليه المرحوم العلاّمة السيّد محسن الأمين بالقول: وألّف... في أحكام الدين..[٣]..

٢ ـ رسالة الردّ على أهل الجبر والتفويض:

بروز ونمو التيّارات الفكريّة المتعدّدة في المجتمع الإسلاميّ ابان عهد الأئمّة المعصومين خاصّة بعد الإمام الصادق عليه السلام أمر ينبغي الوقوف عنده باهتمام إذ كانت هذه التيّارات مدعومة من قبل الحكّام تارة، وأُخرى كانت من صنيعهم لإلهاء العقول كي تبقى السلطة فارغة البال وتحقّق ما تصبو إليه.

---

(١) حياة الإمام عليّ الهاديّ/ ٢٣٤؛ «امام در عينيت جامعه»/ ٦٨.

(٢) راجع: حياة الإمام عليّ الهاديّ/ ٦٣ فما بعد، منهاج التحرّك عند الإمام الهاديّ/ ٨١ فما بعد.

(٣) أعيان الشيعة، ج١/ ١٠٢.

وقد اتسع نطاق هذه التيّارات في عهد إمامة الهادي عليه السلام وقد عني بهمّته العالية رغم سياسة القمع الشديد من حوله إلى الانتباه إلى هذه التيّارات فلم يغفل أبداً عن نقد الأفكار الغريبة وتصحيح أفكار المجتمع. وخير نموذج على ذلك الرسالة التي أشرنا إليها، حيث وردت في بعض مجامع الحديث، منها تحف العقول[١]. وعنها كتب العلاّمة السيّد محسن الأمين:

وألّف رسالة في ردّ على أهل الجبر والتفويض..[٢]..

وعنها كتب أيضاً العلاّمة الشيخ باقر شريف القرشيّ يقول:

لعلّ من أروع ما أثر عن الإمام ابي الحسن الهاديّ عليه السلام من الثروات الفكريّة والعلميّة هذه الرسالة الذهبيّة الّتي بعثها عليه السلام لأهل الأهواز وقد تعرّض فيها بصورة موضوعيّة ودقيقة للردّ على فكرة «الجبر» وهي الّتي تبنتها الأشاعرة ونادوا بها فقالوا إنّ العباد مجبورون على ما يفعلون، وأنّهم غير خاضعين لإرادتهم واختيارهم... كما ردّ فيها على التفويض الذي قال به المعتزلة... وبعدما أبطل الإمام هذين الأمرين أثبت بالأدلّة الحاسمة «الأمر بين الأمرين» وهي الفكرة التي رفع شعارها أئمّة أهل البيت عليهم السلام وتبنّوها هم وشيعتهم وتفسير هذه الرسالة من أخصب الدراسات لهذه البحوث[٣]..

---

(١) تحف العقول/ ٤٥٨ ـ ٤٧٦.

(٢) أعيان الشيعة، ج١/ ١٠٢.

(٣) حياة الإمام عليّ الهاديّ/ ١٠٤.

وقد عني العلاّمة القرشيّ الذي نقل مقاطع وفصول من هذه الرسالة بشرح علمي ودقيق لها.

٣ ـ نسخة:

رواها أبو طاهر، ابن حمزة بن اليسع، أخو أحمد[١].

٤ ـ نسخة:

رواها عيسى بن أحمد بن عيسى بن المنصور، السرّ من رأى[٢].

٥ ـ نسخة:

رواها علي بن الريّان بن الصلت، الأشعري، القمّيّ[٣].

٦ ـ مسائل:

رواها عليّ بن جعفر الهمّانيّ، البرمكيّ[٤].

٧ ـ أجوبة يحيى بن أكثم:

سأل يحيى بن أكثم أسئلة وهو في محضر موسى بن محمّد بن الرضا [المبرقع] فطلب المبرقع الإذن بالدخول على الإمام الهادي عليه السلام وطرح أسئلة يحيى حيث أجاب الإمام عليها واحدة واحدة. وقد ورد ذكر هذه الصحيفة كاملة أو مقاطع منها في مصادر الحديث منها الاختصاص[٥].

٨ ـ الزيارة الجامعة:

واحدة من أعظم وأجمل وأشرف وأغزر الزيارات عكف فقهاء

---

(١) رجال النجاشيّ/ ٤٦٠.
(٢) رجال النجاشيّ/ ٢٩٧.
(٣) رجال النجاشيّ/ ٢٧٨.
(٤) رجال النجاشيّ/ ٢٨٠.
(٥) الاختصاص/ ٩٨ ـ ٩١. وراجع: تحف العقول/ ٤٧٦، مسند الإمام الهاديّ(ع)/ ٢١٣.

ومحدّثون كبار من الشيعة على قراءتها. وعنها كتب العلاّمة الشيخ باقر شريف القرشيّ يقول:

وهي من أشهر زيارات الأئمّة الطاهرين عليهم السلام، وأعلاها شاناً، وأكثرها ذيوعاً وانتشاراً، فقد أقبل أتباع أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم على حفظها، وزيارة الأئمّة بها خصوصاً في يوم الجمعة..[1]..

وقد أورد كبار محدّثي الشيعة هذا الأثر العظيم[2] في مجامع

---

(١) حياة الإمام عليّ الهاديّ/ ١٣٨.

(٢) الشيخ الطوسيّ في التهذيب ج٦/ ٩٤ وملاذ الأخبار، ج٩/ ٢٤٧ والشيخ الصدوق في من لا يحضره الفقيه، ج٢/ ٦٠٩، كانت للفقيه الكبير المولى محمّد تقي المجلسيّ (المجلسيّ الأوّل) في شرحه القيّم على كتاب (من لا يحضره الفقيه)، (روضة المتقّين) وفي باب الزيارة الجامعة، التفاتات لطيفة تدعو للتأمّل نوردها كاملة، مهداة لأصحاب القلوب الحيّة وعشّاق الحقيقة ورهبان اللّيل عند مشهد كل واحد ويزور الجميع قاصداً بها الإمام الحاضر والباقي، والبعيد يلاحظ الجميع ولو قصد في كلّ مرّة واحداً بالترتيب والباقي بالتبع لكان أحسن كما كنت أفعل ورأيت في الرؤيا الحقّة تقرير الإمام أبي الحسن عليّ بن موسى الرضا صلوات الله عليه لي وتحسينه عليه، ولمّا وفّقني الله تعالى لزيارة أمير المؤمنين عليه السلام وشرعت في حوالي الروضة المقدّسة في المجاهدات وفتح الله تعالى عليّ ببركة مولانا صلوات الله عليه أبواب المكاشفات الّتي لا تحتملها العقول الضعيفة رأيت في ذلك العالم (وإن شئت قلت بين النوم واليقظة) عندما كنت في رواق عمران جالساً أنّي بسر من رأى ورأيت مشهدهما في نهاية الارتفاع والزينة ورأيت على قبرهما لباساً أخضر من لباس الجنّة لأنّه لم أر مثله في الدنيا ورأيت مولانا ومولى الأنام صاحب العصر والزمان عليه السلام جالساً، ظهره على القبر ووجهه إلى الباب فلمّا رأيته شرعت في هذه الزيارة بالصوت المرتفع كالمدّاحين فلمّا أتممتها قال صلوات الله عليه نعمت الزيارة! قلت:

مولاي روحي فداك زيارة جدّك؟ (وأشرت إلى نحو القبر) فقال: نعم. أُدخل فلمّا دخلت وقفت قريباً من الباب فقال صلوات الله عليه: تقدّم. فقلت: مولاي أخاف أن أصير كافراً بترك الأدب. فقال صلوات الله عليه: لا بأس إذا كان بإذننا. فتقدّمت قليلاً وكنت خائفاً مرتعشاً. فقال: تقدّم ـ تقدّم حتّى صرت قريباً منه صلوات الله عليه. قال: اجلس. قلت: أخاف مولاي. قال صلوات الله عليه: لا تخف. فلمّا جلست جلسة العبد بين يدي المولى الجليل قال صلوات الله عليه: استرح واجلس مربّعاً، فإنّك تعبت جئت ماشياً حافياً. والحاصل أنّه وقع منه صلوات الله عليه بالنسبة إلى عبده ألطاف عظيمة ومكالمات لطيفة لا يمكن عدّها ونسيت أكثرها. ثمّ انتبهت من تلك الرؤيا وحصل في اليوم أسباب الزيارة بعد كون الطريق مسدودة في مدّة طويلة وبعدما حصلت موانع عظيمة ارتفعت بفضل الله وتيسّر الزيارة بالمشي والحفا كما قاله الصاحب عليه السلام. =

الحديث. واعتبروا سندها موثّقاً وصحيحاً، وعنها كتب العلاّمة المجلسيّ رضوان الله عليه:

إنّ هذه الزيارة من أصحّ الزيارات سنداً، وأعمقها مورداً، وأفحمها لفظاً، وأبلغها معنى، وأعلاها شاناً[١].

ومثلما أشرنا سابقاً فقد عني عدد من العلماء والحكماء الشيعة منذ القديم عناية فائقة بهذه الصحيفة وكتبوا عليها الشروح ووضعوا التعليقات الكثيرة. وقد ذكر العلاّمة الطهرانيّ بعضها في الذريعة[٢]. وقد تولّى الشيخ عزيز الله العطارديّ القوجانيّ مؤخّراً بجمع أحاديث وزيارات ورسائل وكلمات وآثار الإمام عليه السلام[٣].

تجب الإشارة هنا أنّ الزيارات المنقولة عن الإمام ازدانت بمفاهيم اجتماعيّة عالية للغاية وكذا ثقافيّة وسياسيّة وفي هذا المجال نشير إلى زيارة «الغديريّة» المنبّهة العظيمة[٤].

عهد الإمام الحسن العسكريّ(ع):

زاد الطاغوت الحاكم في عهد الإمام العسكريّ عليه السلام من ظلمه وفتكه

= وكنت ليلة في الروضة المقدّسة وزرت مكرّراً بهذه الزيارة وظهر في الطريق وفي الروضة كرامات عجيبة بل معجزات غريبة يطول ذكرها فالحاصل أنّه لا شك لي أنّ هذه الزيارة من أبي الحسن الهاديّ سلام الله عليه بتقرير الصاحب عليه السلام وأنّها أكمل الزيارات وأحسنها بل بعد تلك الرؤيا أكثر الأوقات أزور الأئمّة صلوات الله عليهم بهذه الزيارة وفي العتبات العاليات ما زرتهم إلاّ بهذه الزيارة. روضة المتقين ج٥/ ٤٥١ ـ ٤٥٢، عيون أخبار الرضا/ ٣٧٥.

(١) بحارالأنوار، ج٩٩/ ١٤٤.

(٢) الذريعة إلى تصانيف الشيعة، ج١٣/ ٣٠٥ ـ ٣٠٦، حياة الإمام عليّ الهاديّ/ ١٣٩.

(٣) مسند الإمام الهاديّ أبي الحسن عليّ بن محمّد عليه السلام جمعه ورتّبه الشيخ عزيز الله العطارديّ، المؤتمر العالميّ للإمام الرضا عليه السلام ١٤١٠هـ.

(٤) حياة الإمام عليّ الهاديّ/ ١٤١ ـ ١٤٧.

بالعباد، فقد بلغت ممارسات العبّاسيّين الوحشيّة الأوج، فكانوا غلاظاً في التعامل، يقمعون المعارضة بلا رحمة ولا هوادة لكنّ الإمام عليه السلام لم يتقاعس والحالة هذه فتصدّى وبالإضافة إلى نشاطه السياسيّ والاجتماعيّ لكشف الستار عن الوجه الحقيقي والكريه للحكّام الظلمة وبيان زيفهم وخداعم ومكرهم للأئمّة، وكذلك عُني بهداية الشيعة وتوجيههم في الأبعاد السياسيّة، وأنبرى أيضاً وفي مسعى كبير إلى تربيّة جيل مؤمن وفتح أبواب المعرفة أمامهم على مصراعيها. وقد دفع الإمام ـ وعبر إرساله الكتب وتقديمه النصائح والتوصيات وتربيّته التلامذة وأصحاب الثغور الفكريّة، دفعهم باتجاه المشاركة في المناظرات وتدوين الحقائق وتثمين دور التسجيل والضبط ـ خطوات عمليّة كبيرة في هذا الاتجاه[1]. لاحظوا هذا النصّ:

عن داود بن القاسم الجعفريّ، قال: عرضت على أبي محمّد صاحب العسكر عليه السلام «كتاب يوم وليلة» ليونس. فقال لي: تصنيف من هذا؟

فقلت: تصنيف يونس مولى آل يقطين.

فقال: أعطاه الله بكلّ حرف نوراً يوم القيامة[2].

. . . وعن سعيد بن عبد الله الأشعريّ، قال:

عرض أحمد بن عبد الله بن خانبه، كتابه على مولانا أبي محمّد الحسن بن عليّ بن محمّد، صاحب العسكريّ الآخر، فقرأه، وقال: صحيح فاعملوا به[3].

---

(١) لمزيد من الاطّلاع راجع: حياة الإمام الحسن العسكريّ/ ٦١ فما بعد، منهاج التحرّك عند الإمام العسكريّ (مجلّة دراسات وبحوث، العدد الرابع، السنة الثانية)/ ٢١٧ فما بعد.

(٢) وسائل الشيعة، ج١٨/ ٧٢.

(٣) فلاح السائل/ ١٨٣.

وقال ابن داود:

الفضل بن شاذان النيشابوري ،... كان أحد أصحابنا الفقهاء العظام المتكلّمين، حاله أعظم من أن يشار إليها، قيل: إنّه دخل على أبي محمّد العسكريّ عليه السلام فلمّا أراد أن يخرج سقط منه كتاب من تصنيفه، فتناوله أبو محمّد عليه السلام ونظر فيه وترحّم عليه وذكر أنّه قال: أغبط أهل خراسان لمكان الفضل، وكونه بين أظهرهم، كفاه بذلك فخراً[١].

آثار الإمام(ع):

تحرّك الإمام بخطى حثيثة في مجال نشر التفسير الصحيح والقويم للقرآن الكريم، كما هو حاله في نشر سنّة الرسول صلى الله عليه وآله وآثاره وآثار آبائه[٢]. وسنورد هنا بعضاً من آثاره ومؤلّفاته عليه السلام.

١ ـ تفسير القرآن:

لا شكّ ان للإمام عليه السلام تفسيراً كبيراً، أورده حسن بن خالد البرقيّ. وعنه كتب المحدّث والرجاليّ الكبير ابن شهرآشوب:

حسن بن خالد البرقيّ: أخو محمّد بن خالد، من كتبه: تفسير العسكريّ من إملاء الإمام عليه السلام، مائة وعشرون مجلّداً[٣].

وهذا التفسير هو بلا شكّ غير الذي أورده الشيخ الصدوق عن المفسّر

---

(١) رجال ابن داود/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣.

(٢) راجع: حياة الإمام الحسن العسكريّ/ ٧١ ـ ١٠١، حياة الإمام العسكريّ، الشيخ محمّد جواد الطبسيّ/ ١٥٩ ـ ١٦٧.

(٣) معالم العلماء/ ٣٤.

الأسترآباديّ والمنسوب للإمام عليه السلام، وقد تحدّث الكثير من العلماء حول كيفيّته وطبيعته ويبدو «أنّه لم يشكّك أحد» في كونه موضوعاً أو مجعولاً، أو في أسوأ الأحوال التقليل من اعتباره[١].

٢ ـ كتاب المنقبة:

يبدو أنّه كتاب يشتمل على كثير من الأحكام الشرعيّة، وعنه كتب العلاّمة الطهرانيّ:

«كتاب المنقبة» المشتمل على أكثر الأحكام ومسائل الحلال والحرام ـ عن «مناقب» ابن شهرآشوب و«الصراط المستقيم» للبياضي، أنّه تصنيف الإمام أبي محمّد العسكريّ، حكاه الميرزا محمّد هاشم في آخر رسالته في «فقه الرضا» وجعل الاحتمال الخامس اتحاده مع هذا الكتاب[٢].

٣ ـ نسخة:

رواها عبد الله بن محمّد، أبو معاد الحويميّ[٣].

٤ ـ مسائل:

رواها محمّد بن سليمان، أبو طاهر، الزراريّ، جدّ أبي غالب[٤].

٥ ـ مسائل:

رواها محمّد بن الريّان بن الصلت الأشعريّ القمّيّ[٥].

---

(١) راجع ما كتبه المحقّق المتتبّع الشيخ رضا الأُستادي، المطبوع في آخر التفسير المنسوب للإمام العسكريّ/ ٧٤١ فما بعد، وحياة الإمام الحسن العسكريّ/ ١٠٦ فما بعد.

(٢) الذريعة، ج١٤٩/ ٣.

(٣) الذريعة، ج٧٤/ ١٥٢.

(٤) رجال النجاشيّ/ ٣٤٧.

(٥) رجال النجاشيّ/ ٣٧٠.

٦ ـ مسائل:

رواها محمّد بن عليّ بن عيسى القمّيّ[١].

عهد الإمام الحجّة ابن الحسن العسكريّ:

لقد انحسرت شمس وجوده الوضاءة بستار غيبته الصغرى في عام ٢٦٠هـ وهو ما عرف بعد ذلك بـ«الغيبة الصغرى» التي استمرّت ٧٠ عاماً أي حتّى عام ٣٢٩هـ. فقد ترك حضرته مخطوطات ومؤلّفات في هداية الأُمّة، وصلتنا عبر نوّابه الأربعة والمشهورة بتواقيع صاحب الزمان. وقد عكف المحدّثون والمؤلّفون من الأوائل والمتأخّرين على جمعها، منهم عبد الله بن جعفر الحميريّ، وعنه كتب الرجاليّ الكبير النجاشيّ:

عبد الله بن جعفر بن الحسين بن مالك بن جامع الحميريّ... صنّف كتباً كثيرة يعرف منها: كتاب الإمامة... مسائل أبي محمّد وتوقيعات..[٢]..

ومن المتأخّرين يجب الإشارة إلى الأثر القيّم «كلمة الإمام المهديّ(عج)»[٣] حيث عني هذا الأثر وإضافة إلى عرض كتب وكلمات وأدعية وزيارات الإمام(عج) بتناول حياته وكيفيّة غيبته وظهوره.

لقد كان ما أوردناه حتّى الآن بمثابة النظرة السريعة والمرور العابر على دور الأئمّة عليهم السلام في تدوين ونشر الحديث والآن حان موعدنا في تناول الأُصول الأربعمائة.

---

(١) رجال النجاشيّ/ ٣٧٠.

(٢) رجال النجاشيّ/ ٢٢٠.

(٣) كلمة الإمام المهديّ، السيّد حسن الشيرازيّ مؤسّسة الوفاء، بيروت، لبنان.

الأُصول الأربعمائة

قلنا فيما مضى إنّنا سوف لن نشير إلى المؤلّفين من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام والأئمّة من بعده وما دوّنوه لتعدّدهم وكثرتهم من جهة ولأنّ البحث سيتكرّر في «الأُصول الأربعمائة» حيث سنعرّج على ذكر جميل أسمائهم بادئ ذي بدء سنعنى إلى بيان وتوضيح العنوان أعلاه ونذكر تباعاً بعضاً من هذه الأُصول:

تعريف الأصل والفرق بينه وبين الكتاب والمصنّف:

ما هو المتن الذي نطلق عليه كلمة «الأصل» وعلى ماذا نطلق عبارة «الكتاب» أو «المصنّف»، لقد اختلف العلماء والرجاليّون والمحدّثون منذ القدم في تعريف الأصل. كتب العلاّمة السيّد مهديّ بحر العلوم في تعريفه له:

الأصل في اصطلاح المحدّثين من أصحابنا بمعنى الكتاب المعتمد الذي لم ينزع من كتاب آخر[1].

وقال العلاّمة عناية الله القهبائيّ:

... فالأصل مجمع عبارات الحجّة عليه السلام والكتاب يشتمل عليه وعلى الاستدلالات والاستنباطات شرعاً وعقلاً[2].

وقال العلاّمة وحيد البهبهانيّ:

إنّ الأصل هو الكتاب الذي جمع فيه مصنّفه الأحاديث التي رواها عن المعصوم ـ عليه السلام أو عن

---

(١) رجال السيد بحر العلوم، ج٢/ ٣٦٧، تنقيح المقال، ج١/ ٤٦٤.
(٢) مجمع الرجال، ج١/ ٩.

الراوي والكتاب والمصنّف لو كان فيهما حديث معتمد معتبر لكان مأخوذاً عن الأصل غالباً، وإنّما قيّدنا بالغالب لأنّه ربّما كان بعض الروايات وقليلها يصل معنعناً ولا يؤخذ من أصل[1]..

وقال العلامة الطهرانيّ:

...إطلاق الأصل على هذا البعض [بعض كتب الحديث خاصّة] ليس بجعل حادث من العلماء بل يطلق عليه الأصل بما له من المعنى اللّغوي ذلك لأنّ كتاب الحديث إن كان جميع أحاديثه سماعاً من مؤلّفه عن الإمام عليه السلام أو سماعاً منه عمّن سمع عن الإمام عليه السلام فوجود تلك الأحاديث في عالم الكتابة من صنع مؤلّفها وجود أصلي بدويّ ارتجاليّ غير متفرّع من وجود آخر فيقال له الأصل لذلك وإن كان جميع أحاديثه أو بعضها منقولاً عن كتاب آخر سابق وجوده عليه ولو كان هو أصلاً وذكر صاحبه لهذا المؤلّف أنّه مروياته عن الإمام عليه السلام وأذن له كتابتها وروايتها عنه لكنّه لم يكتبها عن سماع الأحاديث عنه بل عن كتابته وخطّه فيكون وجود تلك الأحاديث في عالم الكتابة من صنع هذا المؤلّف فرعاً عن الوجود السابق عليه وهذا مراد الأُستاذ الوحيد البهبهانيّ من قوله (الأصل...).

وبعد هذا النقل المفصّل عرّف العلاّمة الطهرانيّ الأصل بصورة ملخّصة هكذا:

---

(١) الفوائد الرجّالية، للوحيد البهبهاني/ ٣٤ (المطبوع مع رجال الخاقاني).

فالأصل من كتب الحديث هو ما كان المكتوب فيه مسموعاً لمؤلّفه عن المعصوم أو عمّن سمع منه لا منقولاً عن مكتوب فإنّه فرع منه، ويشير إلى اعتبار السماع كلام النعمانيّ الآتي في أصل سليم كما أنّ أصل كلّ كتاب هو المكتوب الأوّلي منه الذي كتبه المؤلّف وكلّ ما ينتسخ منه فهو فرع له فيطلق عليه النسخة الأصليّة أو الأصل لذلك[١].

لقد نقضت هذه التعاريف وأبرمت في الغالب وأهمّ ما يشار إليه هنا هو أنّها جميعاً لم تدوّن في عهد أصحاب الأئمّة ولم يحتو أيّاً منها على نقد وتحليل موضوعي للأُصول وقد أطلق جميع هذه التعاريف علماء الرجال في القرن الخامس وبعده. وجاء في تعريف العلاّمة السيّد مهديّ بحرالعلوم:

الأصل... الكتاب المعتمد...

جدير ذكره أنّ هذا الاصطلاح لم يرد على لسان المحدّثين من الأصحاب بل نسبه السيّد بحر العلوم لهم، بل وجدنا نحن نقيض ذلك في حكم المتقدّمين. على سبيل المثال اعتبر القدماء عليّ بن حمزة من أصحاب الأصول. لكنّ لم يأخذوا بآثاره على الإطلاق وأنّ الشيخ الطوسيّ نقل لعن الإمام الرضا عليه السلام له وقد جاء في تعريف العلاّمة القبهائيّ:

فالأصل مجمع عبارات الحجّة والكتاب يشتمل عليه وعلى الاستدلالات والاستنباطات شرعاً وعقلاً[٢].

---

(١) الذريعة، ج٢/ ١٢٥ ـ ١٢٦.
(٢) الفهرست/ ١٢٢.

وفي نقده يجب أن نقول:

أولاً: توجد الآن في مصادر الكتب وأمّهاتها كفهرس الطوسيّ والنجاشيّ نسخ وصفت بـ«الكتاب» وبعضها موجود اليوم، وليس فيها استدلال عقليّ واستنباط شرعيّ واحد وهي صرف نقل للأحاديث عن الأئمّة عليهم السلام فحسب.

ثانياً: إنّ هذا التقابل (أي تقابل الأصل والكتاب) أمر غير صحيح دائماً. لنتمعن في مقولة اثنين من أساتذة هذا الفنّ:

قال العلاّمة الشيخ آقا بزرگ الطهرانيّ:

الأصل عنوان صادق على بعض كتب الحديث خاصّة، كما أن الكتاب عنوان يصدق على جميعها. فيقولون له كتاب أصل أو له كتاب وله أصل أو قال في كتاب أصله أو له كتاب وأصل وغير ذلك[١].

وقال العلاّمة الرجاليّ الكبير الشيخ محمّد تقي التستريّ:

لا تقابل بين الكتاب والأصل، لقول الشيخ في أحمد بن ميثم: «روى عن حميد بن زياد كتاب الملاحم وكتاب الدلالة وغير ذلك من الأُصول»[٢]. وفي أحمد بن سلمة «روى عنه حميد بن زياد أصولاً كثيرة، منها كتاب زياد بن مروان القنديّ»[٣]. وفي أحمد بن مغلس «روى عنه حميد كتاب زكريّا بن محمّد المؤمن وغير ذلك من الأُصول»[٤]. وفي عبيد

(١) الذريعة، ج٢/ ١٢٥.
(٢) رجال الشيخ/ ٤٤٠.
(٣) رجال الشيخ/ ٤٤٠.
(٤) رجال الشيخ/ ٤٤١.

الله بن أحمد بن نهيك «روى عنه كتباً كثيرة من الأُصول»[١]. وفي عليّ بن بُزُرح «روى عنه كتباً كثيرة من الأُصول»[٢]. وفي كلّ من محمّد بن عبّاس بن عيسى[٣] ومحمّد بن أحمد بن رجا[٤] «روى عنه حميد كتباً كثيرة في الأُصول» وفي يونس بن عليّ العطّار «روى عن حميد بن زكريّا كتاب أبي حمزة الثماليّ وغير ذلك من الأُصول»[٥].

وإنّما المقابل للأُصول التصنيف، فقال في هارون بن موسى «روى جميع الأُصول والمصنّفات»[٦] وفي حيدر بن محمّد بن نعيم السمرقنديّ «روى جميع مصنّفات الشيعة وأصولهم»[٧] وتقدّم كلامه في ديباجة فهرسته نقلاً عن أحمد بن الحسين الغضائريّ «عمل كتابين أحدهما ذكر فيه المصنّفات والآخر ذكر فيه الأُصول»[٨].

وإلى هذا البيان التحقيقيّ للعلاّمة الشوشتريّ يجب أن نضيف أنّ الكثير ممّا أورده الشيخ الطوسيّ أصلاً أورده النجاشيّ كتاباً. وأنّ كثيراً ممّا أطلق عليه النجاشيّ «نوادر» أورده الشيخ «كتاباً»[٩].

---

(١) مجمع الرجال، ج٤/ ١٢٠.
(٢) مجمع الرجال، ج٤/ ١٦٨.
(٣) رجال الشيخ/ ٤٤٩.
(٤) مجمع الرجال، ج٥/ ١٣٤.
(٥) رجال الشيخ/ ٥١٧، مجمع الرجال، ج٦/ ٣٠٧.
(٦) مجمع الرجال، ج٦/ ٢٠٤.
(٧) مجمع الرجال، ج٢/ ٢٥٣.
(٨) الفهرست/ ١ ـ ٢ طبعة النجف، راجع: قاموس الرجال، ج١/ .
(٩) الذريعة، ج٤٢/ ٣١٦.

وبعد الذي أوردناه من نقد وتحليل لآراء عدد من الرجاليّين حول معنى الأصل، هذا رأي العلاّمة الشوشتريّ في الأمر:

ثمّ الظاهر أنّ الأصل ما كان مجرّد رواية أخبار بدون نقض وإبرام وجمع بين المتعارضين وبدون حكم بصحة خبر أو شذوذ خبر، كما فيما وصل إلينا من الأُصول من أصل زيد الزرّار والنرسيّ وأصول غيرهما، سواء كان صاحب الأصل راوياً عن المعصوم عليه السلام بلا واسطة أو مع الواسطة كما يفهم من تلك الأُصول الواصلة إلينا[1].

ويضاف إلى ما أوردناه في تعريف الأصل آراء ووجهات نظر أخرى، وكلّ منها عرضة للنقد من زاوية معيّنة وقد آثرنا عدم إيرادها للاختصار[2]. لكنّنا ننوه هنا أنّ السبب في عدم الوضوح الدقيق لطبيعة «الأصول» ناجم عن فقداننا لكثير منها، وهو الأمر الذي يحرمنا النظر في محتواها ومتنها وكيفيّة تدوينها والبت فيها بشكل نهائيّ. وأخيراً هذا رأي العلاّمة السيّد محسن الأمين الّذي يقول بعد إيراده لمختلف التعاريف بهذا الخصوص: «وكلّ ذلك حدس وتخمين»[3].

وفي توجيه مقولة العلاّمة السيّد محسن الأمين كتب المحقّق الكبير السيّد محمّد حسين الجلاليّ يقول:

والوجه فيما ذكره السيّد الأمين أنّ هذه التعاريف لم تستند إلى دراسة نصوص الأصول الموجودة

---

(١) قاموس الرجال، ج١/ ٦٥.
(٢) دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، ج٢/ ٣٣، تهذيب المقال، ج١/ ٨٩.
(٣) أعيان الشيعة، ج١/ ١٤٠.

اليوم ومن الناحيّة التاريخيّة لم نعهد هذا الاصطلاح إلاّ في كتب علماء الشيعة في القرن الخامس الهجريّ ومن تاخّر عنهم[١]..

ثمّ يتجه إلى نقد الآراء والأفكار الواردة في تعريف «الأصل» ويقول بعد تحقيقات دقيقة ألحقها بنهاية تعريف العلاّمة الوحيد البهبهانيّ الّذي اعتبره أقربها إلى الواقع وهو ما أوردناه قبل حين، يقول:

يعتبر هذا أقرب التعريفات ولو بدّلنا قوله: «رواها عن المعصوم» بقولنا: «روى أغلبها عن الصادق سماعاً» لكان التعريف التام[٢].

وطبقاً لرأيه علينا التعبير عن الأصل بما يلي:

الأصل هو الكتاب الذي جمع فيه مصنّفه الأحاديث التي روى أغلبها عن المعصوم أو عن الراوي، والكتاب والمصنّف لو كان فيهما حديث معتمد لكان مأخوذاً في الأصل..[٣]..

ويؤيّد هذا التعريف وإلى حد كبير النصوص والتعابير الّتي أطلقها المتقدمون والتحقيقات والدراسات المطروحة بشأن الأصول الموجودة وكذا التأمّل في عصر حياة أولئك الّذين وردت هذه الأصول بأسمائهم في رجال الشيخ والنجاشيّ.

عصر التأليف

إذا تقرّر أنّ نخوض في زمان تأليف وتدوين هذه الأصول فهذا مشوار

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، ج٢/ ٣٢.
(٢) دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، ج٢/ ٣٦.
(٣) المصدر السابق.

صعب ومعقد، حيث سنواجه تشتّتاً في الآراء كبير، وأقواها هو فقداننا للنصوص والتقارير التي بإمكانها أن تقودنا صوب الحقيقة.

في هذا الصدد كتب العلاّمة الشيخ آقا بزرگ الطهرانيّ:

لم يتعيّن في كتبنا الرجاليّة تاريخ تأليف هذه الأصول بعينه ولا تواريخ وفيّات أصحابها تعيّناً وإن كنّا نعلم بها على الإجمال والتقريب... نعم الّذي نعلمه قطعاً أنّه لم يؤلف شيء من هذه الأصول قبل أيّام أمير المؤمنين عليه السلام ولا بعد عصر العسكريّ عليه السلام إذ مقتضى صيرورتها أصولاً كون تاليفها في أعصار الأئمّة المعصومين عليهم السلام وكونها مأخوذة عنهم أو عمّن سمع عنهم من أصحابهم، وحينئذٍ فلنا أن نخبر بأنّ تأليف هذه الأصول كان في عصر الأئمّة عليهم السلام من أيّام أمير المؤمنين عليه السلام إلى عصر العسكريّ عليه السلام[1].

أشرنا فيما مضى إلى وجود اختلاف حول زمن تأليف هذه الأصول، وهو أمر ناجم عن الاختلاف في تعريف «الأصل» أيضاً.

نقل الرجاليّ والمتكلّم الكبير ابن شهرآشوب عن الشيخ المفيد (رضوان الله عليه) قوله:

صنّف الإماميّة من عهد أمير المؤمنين عليّ عليه السلام إلى عهد أبي محمّد الحسن العسكريّ صلوات الله عليه أربعمائة كتاب يسمّى الأصول، وهذا معنى قولهم: أصل[2].

---

(١) الذريعة، ج٢/ ١٣٠.

(٢) معالم العلماء/ ١٣، طبعة ايران، (ص ٣ طبعة النجف) وراجع أيضاً: الإرشاد/ ٢٥٣ طبع الآخوندي.

قال الشيخ أمين الإسلام الطبرسيّ:

روى عن الإمام الصادق عليه السلام من مشهوري أهل العلم أربعة آلاف وصنّف من جواباته في المسائل أربعمائة كتاب تسمّى الأصول رواها أصحابه وأصحاب ابنه موسى الكاظم عليه السلام[١].

وقال الشهيد الأوّل:

كتبت من أجوبة الإمام الصادق عليه السلام أربعمائة مصنّف لأربعمائة مصنّف ودوّن من رجاله المعروفين أربعة آلاف رجل[٢].

وقال المحقّق الحليّ:

كتبت من أجوبة مسائل جعفر بن محمّد أربعمائة مصنّف لأربعمائة مصنّف سمّوها أُصولا[٣].

وقال الشيخ حسين عبد الصمد:

وقد كتبت من أجوبة مسائل الإمام الصادق فقط أربعمائة مصنّف لأربعمائة مصنّف تسمّى الأصول في أنواع العلوم[٤].

وقال المحقّق الداماد:

المشهور أنّ الأصول أربعمائة مصنّف لأربعمائة مصنّف من رجال أبي عبد الله الصادق عليه السلام[٥].

---

(١) أعلام الورى/ ٢٧٦.
(٢) الذكرى/ ٦.
(٣) المعتبر/ ٥.
(٤) وصول الأخيار إلى أصول الأخبار/ ٤٠.
(٥) الرواشح السماوية/ ٩٨ ـ ٩٩.

وقال الفاضل الدربنديّ:

صنّف الإماميّة من عهد أمير المؤمنين صلوات الله عليه إلى عهد أبي محمّد العسكريّ عليه السلام أربعمائة كتاب تسمّى الأصول فهذا معنى قوله: له أصل[1].

تجسّد أمامنا ومن خلال الآراء التي سردناها طبقاً لتعاقبها التأريخيّ، تشتّتاً في الآراء، فقد تناول بعض العلماء والمحدّثين هذه الأصول دون الإشارة إلى زمانها تحديداً، على سبيل المثال كتب الشهيد الثاني رضوان الله عليه:

استقرار المتقدّمين على أربعمائة مصنّف لأربعمائة مصنّف سمّوها أصولاً فكان عليها اعتمادهم.

من جملته كتب العلاّمة الشيخ آقا بزرگ الطهرانيّ بعد سرده مختلف الآراء ودراستها:

... إذاً يسعنا دعوى العلم الإجمالي بأنّ تأريخ تأليف جلّ هذه الأصول إلاّ أقلّ قليل منها كان في عصر أصحاب الإمام الصادق عليه السلام سواء كانوا مختصيّن به أو كانوا ممّن أدركوا أباه الإمام الباقر عليه السلام قبله أو ممّن أدركوا ولده الإمام الكاظم عليه السلام بعده. والذي يورثنا هذا العلم الإجماليّ بعد ما مرّ من عدم تصريح أحد من أعلام الأصحاب

(١) القواميس/ ٧٣. انظر (تراثنا، العدد ٢٤ السنة السّادسة/ ١٨٢). المنتقى النفيس من درر القواميس: انتخاب وعرض منهجي، قام بنضده وتحقيقه، العلاّمة السيد محمد رضا الحسيني الجلالي.

بخلافه هو سير تأريخ الرواة والمصنّفين في الظروف القاسية الحرجة، وما عانوه من المحن والمصائب فيها وعدم تمكّنهم من أخذ معالم الدين عن معادنها ثمّ ما مكّنهم الله تعالى منه في عصر الرحمة، عصر النور، عصر انتشار علوم آل محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم، عصر ضعف الدولتين واشتغال أهل الدولة بأمور الملك عن أهل الدين..[١]..

لقد قبل أحد المحقّقين ومع الأخذ بنظر الاعتبار أقوال المتقدّمين والإمعان في فهرسيّ الشيخ والنجاشيّ، ما أورد الشيخ آقا بزرگ واعتبر أنّ زمن تحرير أغلب هذه الأصول كان في عهد الإمام الباقر والصادق والكاظم عليهم السلام، وكتب في جملة ما كتبه في نتيجة بحثه المسهب المفصّل الذي شمل الأبعاد المختلفة لـ«الأصول الأربعمائة»:

تحديد زمن التأليف بعصر الإمام الصادق عليه السلام أي من روى عنه عليه السلام ولا ينافي ذلك أن يروي عن أبيه الباقر عليه السلام أو ابنه الكاظم عليه السلام[٢].

هنا لا بّد من الإشارة إلى أن ما أوردناه من كلام الشيخ المفيد رضوان الله عليه في أنّ هذه الأصول صنّفت اعتباراً من عهد الإمام عليّ عليه السلام وإلى عهد الإمام الحسن العسكريّ، بل انّ جلّ ما يفهم من كلامه هو أنّ بداية هذه الأصول كان عند الإمام عليّ ونهايتها عند الإمام العسكريّ عليه السلام.

---

(١) الذريعة، ج٢/ ١٣١.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، ج٢/ ٤٤.

وفي هذا المجال كتب العلاّمة الطهرانيّ يقول:

ولم يرد الشيخ المفيد أنّ تأليف هاتيك الأصول كان مودّعاً على جميع تلك المدّة كما توهّمه كلمتا «من» و«إلى» بل إنّما أخبر أنّه ألفت الأصول بين هذين العصرين فلا مخالفة بين كلامه وبين تصريح الشيخ الطبرسيّ، والمحقّق الحلّيّ، والشهيد، والشيخ حسين بن عبد الصمد، والمحقّق الداماد وغيرهم من أعلام علماء الأصحاب بأنّ الأصول الأربعمائة منه ألّفت في عصر الصادق عليه السلام من أجوبة المسائل الّتي كان يسأل عنها ولم يصرّح أحد من الأصحاب بخلاف ما قالوه[1].

امتيازات «الأصول» وأهمّيّتها

إنّ انتخاب بعض مجاميع الحديث باعتبارها «أصولاً» من جهة واهتمام المحدّثين بها اهتماماً كبيراً ووافراً من جهة أخرى يجسّدان «الأصول الأربعمائة» التي تحظى بالأهمّيّة وتمتاز عن باقي مجاميع الحديث ويمكننا الإشارة إلى هذه الامتيازات طبقاً لما وردت في الآثار الرجاليّة على النحو التالي:

١ ـ صحّة الحديث:

يجب التأمّل والوقوف عند تقييم وتحقيق الأحاديث، أنّه ربّما كان بعض الأشخاص ينتمون إلى أحد المذاهب الفاسدة لكن كتبهم معتبرة لكونهم ثقاة نزهاء في النقل. وتناول شيخ الطائفة في مقدّمة كتابه القيّم «الفهرست» كيفيّة تدوينه فكتب يقول:

---

(١) الذريعة، ج٢/ ١٣١.

... فلا بدّ من أن أشير إلى ما قيل فيه من التعديل والتجريح وهل يقول على روايته أو لا؟ وأبيّن عن اعتقاده وهل هو موافق للحقّ أو مخالف له لأنّ كثيراً من مصنّفي أصحابنا وأصحاب الأصول ينتحلون المذاهب الفاسدة وإن كانت كتبهم معتمدة..[١]..

وقد تطرّقت مباحث الرجال ودراية الحديث إلى العلل والمعايير التي اعتبر الشيخ بموجبها بعض الكتب والمجاميع معتمدة وأي المجاميع انتخب، فواحدة من معايير صحّة الحديث أو في أسوأ أحوال اعتماده هو وجوده في «الأصول الأربعمائة» حيث قلنا فيما مضى في مجال تعريف «الأصول» بأنّ أحاديثها هي سماع مباشر عن الإمام عليه السلام أو عمّن سمع عنه، وهذا في حدّ ذاته يقلل إلى حد كبير احتمالات الخطأ والغلط. يقول العلاّمة الشيخ آقا بزرگ الطهرانيّ:

من الواضح أنّ احتمال الخطأ والغلط والسهو والنسيان وغيرها في الأصل المسموع شفاهاً عن الإمام أو عمّن سمع عنه أقلّ منها في الكتاب المنقول عن كتاب آخر لتطرّق احتمالات زائدة في النقل عن الكتاب فالاطمئنان بصدور عين الألفاظ المندرجة في الأصول أكثر والوثوق به آكد، فإذا كان مؤلّف «الأصل» من الرجال المعتمد عليهم الواجدين لشرائط القبول يكون حديثه حجّة لا محالة وموصوفاً بصحّة كما عليه بناء القدماء[٢].

---

(١) مجمع الرجال/٨.

(٢) الذريعة، ج٢/١٢٦.

وقد أكّد علماء آخرون على هذه النقطة وأشاروا إلى اهتمام القدماء بأحاديث «الأصول الأربعمائة».

كتب الشيخ البهائيّ (رحمة الله عليه) خلال إشارته إلى المعايير الّتي يعتبر القدماء بموجبها الحديث صحيحاً:

منها وجوده في كثير من الأصول الأربعمائة المشهورة أو تكرّره في أصل واحد أو أصلين منها بأسانيد مختلفة متعدّدة أو وجوده في أصل رجل واحد من أصحاب الإجماع... وقد بلغنا من مشايخنا أنّه كان من دأب أصحاب الأصول أنّهم إذا سمعوا عن أحد من الأئمّة عليهم السلام حديثاً بادروا إلى إثباته في أصولهم لئلاّ يعرض لهم نسيان لبعضه أو كلّه بتمادي الأيّام..[1]..

وقال المحقّق الداماد:

وليعلم أنّ الأخذ من الأصول المصحّحة المعتمدة أحد أركان تصحيح الرواية[2].

من خلال هذه العبارات يتّضح أن مجرّد وجود الحديث في أحد الأصول المعتمدة عند القدماء يعدّ دليلاً على صحّة الحديث.

أمّا إذا عثرنا على حديث معتبر في مجموعة أخرى، وحكم بصحّته، فإنّه سيهمل بمجرّد التشكيك به رغم الاطمئنان من صدوره.

وقد التفت العلاّمة الشيخ آقا بزرگ إلى هذه النكتة وكتب يقول:

---

(١) الذريعة، ج٢/ ١٢٦، دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، ج٢/ ٣٧، عن «مشرق الشمسين» للشيخ البهائي.

(٢) الرواشح السماوية/ ٩٩.

... فالكتاب الذي هو أصل ممتاز عن غيره من الكتب لشدّة الاطمئنان بالصدور والأقربيّة إلى الحجّيّة والحكم بالصحّة[١].

وقد رفض أحد المحقّقين[٢] هذا الامتياز، واعتبر أنّ الكتاب هو أفضل من «الأصل» لأهمّيّته، وذهب إلى هذا الرأي لكثرة ما وجد من الكتب لكنّه من الواضح أنّ هذا الأمر ليس دليلاً محكماً، وعليه فقد طعن عدد آخر من المحقّقين برأيه[٣].

وقد رأى عدد آخر من المحقّقين وبعد تأمّلهم وتدقيقهم في كتب كفهرس النجاشيّ بتقدّم الأصول على الكتب وصرّحوا بذلك وكتبوا فيما كتبوا:

الظاهر أنّ الأصل أعلى وأشرف قدراً عند أصحاب الحديث من الكتاب ويمدح به صاحبه، قال النجاشيّ في ترجمة إبراهيم بن مسلم الضرير: ثقة ذكره شيوخنا في أصحاب الأصول..[٤]..

وعليه ليس هناك ثمة ترديد بأنّ «الأصول» امتازت على باقي مجاميع الحديث بالأهمّيّة والمكانة الخاصّة.

٢ ـ دلالته على مدح صاحبه:

اعتبر عدد من العلماء والرجاليّين أنّ عبارة: «له أصل» تعدّ واحدة من ألفاظ المدح بالنسبة للراوي. قال الشيخ سليمان البحرانيّ: إنّ كون الرجل صاحب أصل يستفاد منه مدح[٥].

---

(١) الذريعة، ج٢/ ٢٢٧.
(٢) العلامة السيّد محسن الأمين، أعيان الشيعة، ج١/ ٩٤.
(٣) دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، ج٢/ ٣٧.
(٤) تهذيب المقال في تنقيح كتاب الرجال، ج١/ ٩٠.
(٥) تعليقة الوحيد البهبهاني/ ٣٥ (الملحق برجال الخاقاني).

وقال العلاّمة الوحيد البهبهانيّ:

والظاهر أنّ كون الرجل صاحب أصل يفيد حسناً لا الحسن الاصطلاحي..[١]..

وحكى أيضاً عن خاله المجلسيّ الثاني (رحمه الله) بل وجدّه المجلسيّ الأوّل (رحمه الله) أيضاً وقال:

عند خالي وجدّي على ما هو ببالي كون الرجل ذا أصل من أسباب الحسن وعندي فيه تأمّل[٢]..

كتب العلاّمة الشيخ آقا بزرگ الطهرانيّ في إدامة بحثه وبعد تأكيده على أهميّة «الأصول» (وقد أوردناه فيما مضى من الحديث) يقول:

هذه الميزة ترشّحت إلى الأصول من قبل مزيّة شخصية توجد في مؤلّفيها تلك هي المثابرة الأكيدة على كيفيّة تأليفها والتحفّظ على ما لا يتحفّظ عليه غيرهم من المؤلّفين وبذلك صاروا ممدوحين عند الأئمة عليهم السلام كما في حديث مدح أهل البصرة بدخولهم وسماعهم وكتابتهم، ولذا نعدّ قول أئمّة الرجال في ترجمة أحدهم أنّ له أصلاً من ألفاظ المدح له لكشفه عن وجود مزايا شخصيّة فيه من الضبط والحفظ والتحرّز عن بواعث النسيان والاشتباه والتحفّظ عن موجبات الغلط والسهو وغيرها والتهيّؤ لتلقي الأحاديث بعين ما تصدر عن معادنها على ما كان عليها ديدن أصحاب الأصول[٣].

---

(١) منتهى المقال/ ١١.
(٢) التعليقية/ ٣٥.
(٣) الذريعة، ج٢/ ١٢٧.

يجب أن يشار هنا أنّ هذا الامتياز كان عرضة للنقد في بعض الأحيان؛ ولا يسعنا المجال هنا الالتفات إلى نقد وتحليل أدلّة الطرفين.

العدد الدقيق للأصول

ذكرنا فيما سبق بأنّ المحقّقين والمحدّثين قالوا إنّ عدد «الأصول» هو أربعمائة أصل وقد اشتهرت هذه المجموعة بهذا الاسم أيضاً لكنّها ليست جميعاً في متناول أيدينا اليوم، إلاّ المنقول منها وهو غالباً تمّ على يد المتأخّرين عن زمان تصنيفها. والظاهر أنّ هذا العدد لم يطرح بفعل إحصاء دقيق. فنحن لا نملك اليوم الأصول بعينها وليس لنا إلمام دقيق بعناوين مؤلّفيها. ناهيك عن التعريف الدقيق والجامع لها، ليتسنّى لنا المجال في البحث عنها في كبريات المصادر الرجاليّة بدقّة، ومشكلة عدم تحديد الرقم الدقيق لها كانت مطروحة أمام كبار الرجاليّين أمثال شيخ الطائفة رضوان الله عليه، فكتب في مقدّمة الفهرس:

وإنّي لا أضمن الاستيفاء، لأنّ تصانيف أصحابنا وأصولهم لا تكاد تنضبط لكثرة انتشار أصحابنا في البلدان.

وعليه لا يمكننا القول بأنّ ما جاء في المصادر التأريخيّة والرجاليّة، كان بفعل إحصاء دقيق نضيف إلى ذلك أن أقدم مصدر استخدم هذا العنوان هو كتاب «الإرشاد» للشيخ المفيد وهو بدوره متأخّر عن زمان «الأصول»، وهناك أيضاً بحث وتشكيك حول كون المؤلّفين أربعمائة فعلاً، حيث نواجه عبارة «أربعمائة مصنّف لأربعمائة مصنّف».

وسنلاحظ عند إيراد بعض الأُصول تكرّر اسم أحد الأصحاب أكثر من مرّة، وعلى أيّة حال فإنّ هذا البحث بحاجة إلى المزيد من التحقيق والتفحّص.

وفيما يلي فهرس جامع للأصول طبقاً لما وردت في «الذريعة»، حيث سنعمد إلى تكميل المعلومات التي ذكرها العلاّمة الطهرانيّ بالرجوع إلى «رجال النجاشيّ»، و«الفهرست»، و«معالم العلماء» وعددٍ آخر من المصادر.

فهرس بعض الأُصول الأربعمائة

١ ـ أصل آدم بن الحسين النحاس الكوفيّ. رجال النجاشيّ/ ١٠٤، رجال الطوسي/ ١٤٣.

٢ ـ أصل آدم بن المتوكّل أبو الحسن بيّاع اللّؤلؤ الكوفيّ. رجال النجاشيّ/ ١٠٤، الفهرست/ ٥.

٣ ـ أصل أبان بن تغلب بن رباح الكبريّ من آل بكر بن وائل الجريريّ، مولى بني جرير. رجال النجاشيّ/ ١٠، الفهرست/ ٥ ـ ٦، معالم العلماء/ ٢٣.

٤ ـ أصل أبان بن عثمان الأحمر البجليّ. نجاشيّ(ترجمة) رجال النجاشيّ/ ١٣، الفهرست/ ٨.

٥ ـ أصل أبان بن محمّد البجليّ (المعروف بسنديّ البزاز) كان ابن أُخت صفوان بن يحيى. رجال النجاشيّ/ ١٤.

وقال العلاّمة الطهرانيّ:

نقل عنه السيّد ابن طاوس في عمل المحرّم من كتاب الإقبال معبّراً عنه بالأصل، وكان موجوداً عنده. نقل عن نسخته. الذريعة ج١٣٩/٢.

٦ ـ أصل إبراهيم بن أبي البلاد. رجال النجاشيّ/ ٢٢، الفهرست/ ٩، معالم العلماء/ ٤.

٧ ـ أصل إبراهيم بن صالح. معالم العلماء/ ٥.

قال العلاّمة الطهرانيّ:

في بعض نسخ المعالم له كتاب.

الذريعة، ج١٣٦/ ٢ هكذا في طبعتي: النجف/ ٥ وطهران/ ٦.

٨ ـ أصل إبراهيم بن عبد الحميد. الفهرست/ ١٤، رجال النجاشيّ/ ٢٠.

٩ ـ أصل إبراهيم بن عثمان (المكنّى بأبي أيّوب الخرّاز كوفيّ). الفهرست/ ١٤، معالم العلماء/ ٤.

١٠ ـ أصل إبراهيم بن عمر اليمانيّ الصنعانيّ. الفهرست/ ١٥، معالم العلماء/ ٥.

١١ ـ أصل إبراهيم بن مسلم بن هلال الضرير الكوفيّ رجال النجاشيّ/ ٢٥.

١٢ ـ أصل إبراهيم بن مهزم الأسديّ الكوفيّ (المعروف بابن أبي بردة). رجال النجاشيّ/ ٢٢، الفهرست/ ١٨، معالم العلماء/ ٣.

١٣ ـ أصل إبراهيم بن نعيم العبديّ (أبي الصباح) (يسمّى الميزان). الذريعة، ج٢/ ١٣٧، الفهرست/ ٣٧٥.

١٤ ـ أصل إبراهيم بن يحيى. الفهرست/ ١٩، معالم العلماء/ ٤.

١٥ ـ أصل أبي عبد الله بن حمّاد الأنصاريّ.

قال العلاّمة الطهرانيّ:

يظهر من السيّد رضي الدين عليّ بن طاوس أنّه

كان موجوداً عنده، وينقل عنه في أعمال عاشوراء من كتابه الإقبال. الذريعة، ج١٣٨/٢.

١٦ ـ أصل أبي محمّد الخزّاز. الفهرست/ ٣٨٠، الذريعة، ج٢/ . . .

١٧ ـ أصل أحمد بن الحسين بن سعيد بن عثمان القرشيّ. الفهرست/ ٢٧ رجال النجاشيّ/ ٢٠٠.

قال العلاّمة الطهرانيّ:

من جملة أصحابنا من عدّه من أصحاب الأُصول ثمّ ذكر أنّه يرويه عنه أحمد بن محمّد بن سعيد بن عقده الذي توفي سنة/ ٢٣٣. فأقول: على ذلك فهو من الأُصول القليلة التي ألّفت في أواخر عصر الأئمّة عليهم السلام. الذريعة،ج١٣٨/٢.

١٨ ـ أصل أحمد بن الحسين بن عمر بن يزيد الصيقل أبو جعفر الكوفيّ.

قال العلاّمة الطهرانيّ:

يظهر من السيّد رضي الدين بن طاوس أنّه من الأُصول، قال في اللّهوف: ورويت من كتاب أصل أحمد بن الحسين بن عمر... ، الذريعة،ج١٣٩/٢، وراجع أيضاً رجال النجاشيّ/٨٣.

١٩ ـ أصل أحمد بن عمر الحلاّل بيّاع الحل وهو الشيرج (دهن السمسم). رجال الشيخ/ ٣٦٨، الذريعة، ج١٣٩/٢.

٢٠ ـ أصل أحمد بن محمّد بن عمّار أبي عليّ الكوفيّ. الفهرست/ ٤٥، رجال النجاشيّ/ ٩٥.

٢١ ـ أصل أحمد بن يوسف بن يعقوب الجعفيّ. رجال النجاشيّ/ ١٢٧.

وفيه: . . . أحمد بن محمّد بن سعيد، عن أحمد بن يوسف بن يعقوب الجعفيّ من كتابه وأصله. . . وراجع أيضاً: الذريعة ج٢/ ١٤٠.

٢٢ ـ أصل أديم بن الحرّ الجعفيّ. رجال النجاشيّ/ ١٠٦، مجمع الرجال، ج١/ ١٧٩.

٢٣ ـ أصل اسباط بن سالم أبي عليّ الكوفيّ بيّاع الزطي. الفهرست/ ٥٢ وراجع أيضاً: مجمع الرجال، ج٢/ ١٨٣، ومعالم العلماء/ ٢٨، ورجال النجاشيّ/ ٢٠٦.

٢٤ ـ أصل إسحاق بن جرير بن يزيد بن جرير بن عبد الله البجليّ الكوفيّ. الفهرست/ ٥٣، معالم العلماء/ ٢٦.

٢٥ ـ أصل إسحاق بن عمّار بن موسى الساباطيّ. الفهرست: ٥٤، معالم العلماء/ ٢٦.

٢٦ ـ أصل إسماعيل بن أبان. معالم العلماء/ ٩، الفهرست/ ٥٥.

قال العلاّمة الطهرانيّ:

كذا في بعض نسخ فهرس الطوسيّ، وفي بعضها له كتاب. الذريعة، ج٢/ ١٤١. أقول: في مجمع النسخ المطبوعة: له كتاب. راجع: مجمع الرجال، ج٢٠٣/ ٢.

٢٧ ـ أصل إسماعيل بن بكير. الفهرست/ ٥٦، معالم العلماء/ ١٠.

قال العلاّمة الطهرانيّ:

إسماعيل بن بكير، يرويه عنه إبراهيم بن سليمان الكوفيّ النهميّ الراوي لكثير من الأُصول عن مؤلّفيها ويرويها عنه حميد بن زياد الدهقان المتوفى سنة ٣١٠. الذريعة، ج٢/ ١٤١.

٢٨ ـ أصل إسماعيل بن جابر. الفهرست/ ٥٦، معالم العلماء/ ١٠.

٢٩ ـ أصل إسماعيل بن دينار. الفهرست/ ٥٦، معالم العلماء/ ١٠.

٣٠ ـ أصل إسماعيل بن عثمان بن أبان. الفهرست/ ٥٧، معالم العلماء/ ١٠.

وقال العلاّمة الطهرانيّ:

يرويه عنه أحمد بن ميثم بن فضل بن دكين الّذي كان يروي جملة من الأُصول. الذريعة ج٢/ ١٤٢.

٣١ ـ أصل إسماعيل بن عمّار. معالم العلماء/ ١٠.

٣٢ ـ أصل إسماعيل بن محمّد. الفهرست/ ٦٠، مجمع الرجال ج١/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣.

٣٣ ـ أصل إسماعيل بن مهران بن محمّد بن أبي نصر السكونيّ الكوفيّ. الفهرست/ ٦٢، اختيار معرفة الرجال/ ٥٨٩، معالم العلماء/ ١٠.

٣٤ ـ أصل أيّوب بن الحرّ الجعفيّ (المعروف بأخي أديم). رجال النجاشيّ/ ١٠٣، مجمع الرجال، ج١/ ٢٤٥، الفهرست/ ٦٤.

٣٥ ـ أصل بشار بن يسار العجليّ الكوفيّ. الفهرست/ ٦٨، معالم العلماء/ ٢٩.

٣٦ ـ أصل بشر بن مسلمة الكوفيّ. الفهرست/ ٦٨، معالم العلماء/ ٢٨.

٣٧ ـ أصل بعض القدماء.

قال العلاّمة الطهرانيّ(ره):

هو من مصادر البحار ذكره في أوّله وينقل عنه

واحتمل في مؤلفه احتمالات. قال: ويظهر من بعض القرائن أنّه لهارون بن موسى التلعكبريّ (أقول) الظاهر أنه يرويه كما يروي عمدة الأُصول الموجودة... الذريعة، ج٢/١٣٢.

٣٨ ـ أصل بكر بن محمّد الأزديّ المعمر الجليل من آل نعيم الغامديين بالكوفة. رجال النجاشيّ/١٠٨، الفهرست/٧٠، معالم العلماء/٢٨.

٣٩ ـ أصل بندار بن محمّد بن عبد الله الفقيه الإماميّ.

قال ابن النديم:

بندار بن محمّد بن عبد الله الفقيه، إمامي متقدّم وله من الكتب... على نسق الأُصول. كتاب الفهرست/٢٧٩.

وقال العلاّمة الطهرانيّ:

ظهر أنّ له أُصول متعدّدة وكان يعدّ من القدماء في عصر ابن النديم. الذريعة، ج٢/١٤٤، وراجع أيضاً: رجال النجاشيّ/١١٤.

٤٠ ـ أصل ثابت بن أبي صفية دينار أبي حمزة الثماليّ. رجال الشيخ الطوسيّ/٥١٧.

قال العلاّمة الطهرانيّ:

يظهر من رجال الشيخ... أنّ كتاب أبي حمزة من الأُصول. الذريعة ج٢/١٤٤، وعبارة الشيخ الّتي استفاد منها العلاّمة الطهرانيّ هكذا: روى عنه حميد بن زياد كتاب أبي حمزة الثماليّ وغير ذلك من الأُصول.

٤١ ـ أصل جابر بن يزيد الجعفيّ. الفهرست/ ٧٣، معالم العلماء/ ٣٢.

٤٢ ـ أصل جعفر بن محمّد بن شريح الحضرميّ هو من الأُصول الموجودة بعينها إلى الآن يروي فيه عن أصحاب الأئمّة عليهم السلام مثل حميد بن شعيب السبيعيّ و...، راجع كتاب الأُصول الستّة عشر ٩٤ ـ ٩٨.

٤٣ ـ أصل جميل بن درّاج أبي عليّ النخعيّ. الفهرست/ ٨٠، معالم العلماء/ ٣٢، رجال النجاشيّ/ ١٢٦ ـ ١٢٧.

٤٤ ـ أصل جميل بن صالح الأسديّ. الفهرست/ ٨٠، رجال النجاشيّ/ ١٢٧، معالم العلماء/ ٣٢.

٤٥ ـ أصل الحارث بن الأحول (هو أبو عليّ الحارث بن أبي جعفر مؤمن الطاق، محمّد بن عليّ بن النعمان الأحول البجليّ الكوفيّ). معالم العلماء/ ٢٩٠، الذريعة، ج٢/ ١٤٥.

٤٦ ـ أصل حبيب بن المعلّل المداينيّ الخثعميّ. الفهرست/ ٨٣، معالم العلماء/ ٣٨، رجال النجاشيّ/ ١٤١.

٤٧ ـ أصل أبي محمّد حريز بن عبد الله السجستانيّ الأزديّ الكوفيّ. الفهرست/ ٨٥، رجال النجاشيّ/ ١٤٤ ـ ١٤٥.

قال ابن إدريس:

كتاب حريز أصل معتمد معوّل عليه، السرائر، ج٣/ ٥٨٩ ط جديدة.

٤٨ ـ أصل الحسن بن أيّوب. رجال النجاشيّ/ ١١٣، الفهرست/ ٨٧.

٤٩ ـ أصل الحسن بن رباط البجليّ الكوفي. الفهرست/ ٨٩، معالم العلماء/ ٣٥، رجال النجاشيّ/ ٤٦.

٥٠ ـ أصل الحسن بن زياد العطّار الكوفيّ فهرس: (بعنوان الحسن

العطار). رجال النجاشيّ/ ٤٧، الفهرست/ ٩٦؛ معالم العلماء/ ٣٤.

٥١ ـ أصل الحسن بن صالح بن حيّ الأحول. الفهرست/ ٩٠، معالم العلماء/ ٣٤، رجال النجاشيّ/ ٥٠.

٥٢ ـ أصل الحسن بن موسى بن سالم الحنّاط الكوفيّ. الفهرست/ ٩٨، معالم العلماء/ ٣٤، مجمع الرجال، ج٢/ ١٥٦.

٥٣ ـ أصل الحسين بن أبي العلاء الخفّاف فهرس: (كتابه يعدّ في الأُصول). معالم العلماء/ ٣٨، الفهرست/ ٩٩ ـ ١٠٠.

قال الشيخ(ره):

«له كتاب يعدّ في الأُصول».

٥٤ ـ أصل الحسين بن أبي غندر الكوفيّ. الفهرست/ ١٠٠، معالم العلماء/ ٤١.

٥٥ ـ أصل الحسين بن عثمان بن شريك بن عدي العامريّ الكوفيّ. الفهرست/ ١٠٦ ـ ١٠٧.

قال العلاّمة الطهرانيّ:

... هو مختصر موجود بعينه برواية التلعكبريّ عن ابن عقدة بإسناده عن مؤلّفه. الذريعة، ج٢/ ١٤٧ وراجع: كتاب الأُصول الستّة عشر ١٠٨ ـ ١١٤.

٥٦ ـ أصل حفص بن البختريّ الكوفيّ البغدادي. الفهرست/ ١١١، معالم العلماء/ ٤٣.

٥٧ ـ أصل حفص بن سالم أبي ولاّد الحنّاط. الفهرست/ ١١٢، رجال النجاشيّ/ ١٣٥.

٥٨ ـ أصل حفص بن سوقة العمريّ. الفهرست/ ١١٢، رجال النجاشيّ/ ١٣٥، معالم العلماء/ ٤٣.

٥٩ ـ أصل حفص بن عبد الله السجستانيّ الكوفيّ. الفهرست/ ١١٢، معالم العلماء/ ٤٤.

قال العلاّمة الطهرانيّ:

«مرّ نظير ذلك لحريز بن عبد الله السجستانيّ المذكور في هذه النسخة من الفهرس، ولم أجد ذكراً في سائر الكتب الرجاليّة لحفص هذا إلاّ في هذه النسخة الّتي ذكر طابعها أنّه قابلها بأربع نسخ».

أقول: وكذلك موجود في معالم العلماء كما مرّ.

٦٠ ـ أصل الحكم بن ايمن الحنّاط الكوفيّ. الفهرست /١١٣ ـ ١١٤، رجال النجاشيّ/ ١٣٧.

٦١ ـ أصل الحكم بن مسكين أبي محمّد الكوفيّ المكفوف. الفهرست/ ١١٣، الذريعة، ج٢/ ١٤٨.

٦٢ ـ أصل حميد بن زياد بن حماد بن زياد الدهقان الكوفيّ. قال الشيخ: «ثقة كثير التصانيف روى الأُصول أكثرها». الفهرست/ ١١٨، معالم العلماء/ ٤٣.

٦٣ ـ أصل حميد بن المثنى العجليّ الكوفيّ الصيرفيّ. الفهرست/ ١١٩، الذريعة، ج٢/ ١٤٨.

٦٤ ـ أصل خالد بن أبي إسماعيل الكوفيّ. الفهرست/ ١٢١، معالم العلماء/ ٤٦.

٦٥ ـ أصل خالد بن صبيح الكوفيّ. الفهرست/ ١٢١، معالم العلماء/ ٤٦.

٦٦ ـ أصل خالد بن عبد الله بن سدير بن حكيم بن صهيب الصيرفيّ. الفهرست/ ١٤٧ ـ ١٤٨.

قال العلاّمة الطهرانيّ:

حكى الشيخ في الفهرس في ترجمة زيد النرسيّ وزيد الزرّاد كلام الصدوق في فهرسه نقلاً عن شيخه ابن الوليد أنّه وضع هذه الأُصول محمّد بن موسى الهمدانيّ وأراد بالمشار إليه بقوله هذه الأُصول أصل زيد النرسيّ وأصل زيد الزرّاد وكتاب خالد بن عبد الله المذكور، فظهر أنّه من الأُصول، الذريعة، ج٢/ ١٤٩.

٦٧ ـ أصل خلاّد السنديّ (السدي) البزّاز الكوفيّ. الفهرست/ ١٢٤، قال العلاّمة الطهرانيّ:

هو مختصر موجود بعينه برواية التلعكبريّ عن ابن عقدة بإسناده إلى خلاّد. الذريعة، ج٢/ ١٤٩.

٦٨ ـ أصل داود بن زربي أبي سليمان الخندقيّ البندار. رجال النجاشيّ/ ١٦٠، الفهرست/ ١٢٨، معالم العلماء/ ٤٨.

٦٩ ـ أصل داود بن كثير الرقّيّ. الفهرست/ ١٣٣، معالم العلماء/ ٤٨.

٧٠ ـ أصل ذريح بن محمّد بن يزيد المحاربيّ فهرس. الفهرست/ ١٣٦، معالم العلماء/ ٤٩.

٧١ ـ أصل ربعي بن عبد الله بن الجارود أبي نعيم البصريّ. الفهرست/ ١٣٦، معالم العلماء/ ٥٠.

٧٢ ـ أصل ربيع بن محمّد بن عمر بن حسّان الأصمّ المسليّ. الفهرست/ ١٣٧، رجال النجاشيّ/ ١٦٤، معالم العلماء/ ٥٠.

٧٣ ـ أصل رفاعة بن موسى الأسديّ الكوفيّ النخّاس. معالم العلماء/ ٥٠، فهرس الفهرست/ ١٣٩، رجال النجاشيّ/ ٤٣٨.

٧٤ ـ أصل ذرعة بن محمّد الحضرميّ. الفهرست/ ١٤٣، الذريعة، ج٢/ ١٥٠.

٧٥ ـ أصل زكار بن يحيى الواسطيّ. الفهرست/ ١٤٤. قال العلاّمة الطهرانيّ: . . . ويرويه عنه القاسم بن إسماعيل القرشيّ الراوي لكثير من الأُصول. الذريعة، ج٢/ ١٥٠.

٧٦ ـ أصل زياد بن مروان القنديّ أبي الفضل الواقفيّ.

قال المحدّث الفقيه الشيخ الحرّ العامليّ نقلاً عن الشيخ:

إنّ كتاب زياد بن مروان من جملة الأُصول. خاتمة الوسائل/ ٢٣ مؤسّسة آل البيت لإحياء التراث؛ وراجع أيضاً: الذريعة، ج٢/ ١٥٠.

٧٧ ـ أصل زياد بن المنذر أبي الجارود الأعمى. الفهرست/ ١٤٦، الذريعة، ج٢/ ١٥٠.

٧٨ ـ أصل زيد الزرّاد. معالم العلماء/ ٥١.

قال العلاّمة الطهرانيّ:

الراوي عن أبي عبد الله عليه السلام من الأُصول الموجودة بعينها. راجع: الذريعة، ج٢/ ١٥١.

٧٩ ـ أصل زيد النرسيّ. الفهرست/ ١٤٧، معالم العلماء/ ٥١.

٨٠ ـ أصل سعد بن أبي خلف (المعروف بالزام الكوفيّ). الفهرست/ ١٥١، معالم العلماء/ ٥٥.

٨١ ـ أصل سعدان بن مسلم العامريّ الكوفيّ. الفهرست/ ١٥٤، معالم العلماء/ . . .

٨٢ ـ أصل سعيد الأعرج (وهو سعيد بن عبد الرحمن الأعرج السمّان). الفهرست/ ١٥٦، معالم العلماء/ ٥٥.

٨٣ ـ أصل سعيد بن غزوان الأسديّ الكوفيّ. الفهرست/ ١٥٥، معالم العلماء/ ٥٥.

٨٤ ـ أصل سعيد بن مسلمة بن هشام بن عبد الملك بن مروان الدمشقيّ. الفهرست/ ١٥٦، معالم العلماء/ ٥٥.

٨٥ ـ أصل سعيد بن يسار الضبيعيّ الكوفيّ. الفهرست/ ١٥٦، معالم العلماء/ ٥٥.

٨٦ ـ أصل سفيان بن صالح. الفهرست/ ١٥٧، معالم العلماء/ ٥٨.

٨٧ ـ أصل سلام بن أبي عمرة (عميرة) الخراسانيّ الكوفيّ.

قال العلاّمة الطهرانيّ:

وهو من الأُصول الموجودة برواية التلعكبريّ عن ابن عقدة بإسناده إلى مؤلّفه. الذريعة، ج٢/ ١٥٢، وراجع: الأُصول الستّة عشر ١١٧ ـ ١٢١.

٨٨ ـ أصل سليم بن قيس الهلاليّ أبي صادق العامريّ الكوفيّ التابعيّ. هذا الكتاب من الآثار المشهورة في التراث الشيعيّ، وله منزلة خاصّة بين بقيّة الكتب. وقد أتينا ببعض التوضيحات حول هذا الكتاب في مطاوي هذا الكتاب.

٨٩ ـ أصل شعيب بن أعين الحدّاد الكوفيّ. الفهرست/ ١٦٦، معالم العلماء/ ٥٩.

٩٠ ـ أصل شعيب بن يعقوب العقرقوفيّ. الفهرست/ ١٦٦، معالم العلماء/ ٥٨.

٩١ ـ أصل شهاب بن عبد الله الأسديّ الصيرفي الكوفيّ. الفهرست/ ١٦٧، معالم العلماء/ ٥٩.

٩٢ ـ أصل صالح بن رزين الكوفيّ. الفهرست/ ١٦٨، معالم العلماء/ ٥٨.

٩٣ ـ أصل ظريف بن ناصح الكوفيّ البغداديّ. رجال النجاشيّ/ ٢٠٩، الفهرست/ ١٧٣.

قال العلاّمة الطهرانيّ:

ذكر الشيخ والنجاشيّ تصانيفه بعنوان الكتاب، ومنها كتاب الديات الّذي هو المراد من الأصل بل هو من الأُصول المعتمد عليها غاية الاعتماد. الذريعة، ج٢/ ١٦٠.

٩٤ ـ أصل عاصم بن الحميد الحنّاط الكوفيّ. الذريعة، ج٢/ ٦٢.

قال العلاّمة الطهرانيّ:

... الثقة الراوي عن أبي عبد الله عليه السلام.... هو من الأُصول الموجودة بعينها إلى اليوم. راجع: الأُصول الستّة عشر/ ٢١ ـ ٤٣.

٩٥ ـ أصل عباد العفريّ أبي سعيد الكوفيّ. هذا أيضاً من الأُصول الموجودة، راجع: الأُصول الستّة عشر: ١٥ ـ ٢١، الذريعة، ج٢/ ١٦٣.

٩٦ ـ أصل عبد الله بن سليمان الصيرفيّ العبسيّ الكوفيّ. رجال النجاشيّ/ ٢٥٥، الذريعة، ج٢/ ١٦٣.

٩٧ ـ أصل أبي محمّد عبد الله بن محمّد اليمنيّ. ذكره السيّد ابن طاوس في جمال الأُسبوع/ ٤٨٣.

٩٨ ـ أصل عبد الله بن يحيى الكاهليّ. هذا أيضاً من الأُصول المختصرة الموجودة بعينها. الذريعة، ج٢/ ١٦٣، الأُصول الستّة عشر/ ١١٤ ـ ١١٧.

٩٩ ـ أصل عبد الله بن الهيثم الكوفيّ. رجال النجاشيّ/ ٢٢٧، الذريعة، ج٢/ ١٦٣.

١٠٠ ـ أصل عبد الملك بن حكيم الخثعميّ الكوفيّ، هذا أيضاً من الأُصول المختصرة الموجودة بعينها برواية التلعكبريّ. . . . الذريعة، ج٢/ ١٦٣، الأُصول الستّة عشر٩٨ ـ ١٠٢.

١٠١ ـ أصل عليّ بن أبي حمزة واسم أبي حمزة سالم البطائنيّ الكوفيّ. الفهرست/ ٢١٠، معالم العلماء/ ٦٧.

١٠٢ ـ أصل عليّ بن أحمد بن أبي القاسم الكوفيّ العلويّ. معالم العلماء/ ٦٤، رجال النجاشيّ/ ٢٦٥، مجمع الرجال، ج٤/ ١٦٢.

١٠٣ ـ أصل عليّ بن أسباط الكوفي. الفهرست/ ٢١١، معالم العلماء/ ٦٣.

١٠٤ ـ أصل علاء بن رزين القلاء الثقفيّ. وهو أيضاً أحد الأُصول الموجودة إلى عصرنا. الذريعة، ج٢/ ١٦٤، راجع: الأُصول الستّة عشر/ ١٥٠ ـ ١٥٨.

١٠٥ ـ أصل عليّ بن إسماعيل بن شعيب بن ميثم بن يحيى الكوفيّ، جدّه ميثم التمّار. . . . الذريعة، ج٢/ ١٦٤، الفهرست/ ٢١٢. ذكره السيد ابن طاوس في غياث سلطان الورى/ ٧، وفي إقبال الأعمال/ ٣٠٤.

١٠٦ ـ أصل عليّ بن رئاب أبي الحسن الكوفيّ. الفهرست/ ٢٢١، معالم العلماء/ ٦٢.

١٠٧ ـ أصل عليّ بن عبد الواحد الهنديّ. رجال النجاشيّ/ ١٣٧، الذريعة، ج٢/ ١٦٥.

١٠٨ ـ أصل عمّار بن موسى الساباطيّ. انفرد السيّد ابن طاوس في نسبة الأصل إليه. مكتبة... سيّد ابن طاوس/ ١٧٦.

١٠٩ ـ أصل قاسم بن إسماعيل القرشيّ أبي محمّد المنذر. الذريعة، ج٢/ ١٦٥، نقلاً عن منهج المقال.

١١٠ ـ أصل مثنى بن الوليد الحنّاط الكوفيّ هو أيضاً من الأُصول الموجودة المختصرة بعينها إلى الآن. الذريعة، ج٢/ ١٦٥، الأُصول الستّة عشر/ ١٠٢ ـ ١٠٨.

١١١ ـ أصل محمّد بن أبي عمير، انفرد السيّد ابن طاوس بذكر أصل ابن عمير. فرج المهموم/ ٨٧، فتح الأبواب/ ١٤٨، جمال الأُسبوع/ ٤١٩، كتابخانه.../ ١٧٨.

١١٢ ـ أصل محمّد بن جعفر البزّاز القرشيّ هو أيضاً من الأُصول المختصرة الموجودة برواية التلعكبريّ. الذريعة،ج٢/ ١٦٥ ـ ١٦٦، الأُصول الستّة عشر/ ٩٤ ـ ٩٨.

١١٣ ـ أصل محمّد بن قيس الأسديّ أبي نصر الكوفيّ. الذريعة، ج٢/ ١٦٦.

قال العلاّمة الطهرانيّ:

«قال الشهيد الثاني في شرح الدراية: محمّد بن قيس الأسديّ، ومحمّد بن قيس البجليّ لهما أصلان في الحديث.

١١٤ ـ أصل محمّد بن قيس البجليّ أبي عبد الله. الفهرست/ ٣١٣، سبق تصريح الشهيد الثاني به آنفاً، الذريعة،ج٢/ ١٦٦.

١١٥ ـ أصل محمّد بن مثنى بن القاسم الحضرميّ هو أيضاً من الأُصول الموجودة بأعيانها برواية التلعكبريّ. الذريعة، ج٢/ ١٦٦، الأُصول الستّة عشر/ ٨٣ ـ ٩٤.

١١٦ ـ أصل مروك بن عبيد بن سالم بن أبي حفصة. رجال النجاشيّ/ ٤٢٥، الذريعة، ج٢/ ١٦٦.

١١٧ ـ أصل مسعدة بن زياد الربعيّ الكوفيّ. رجال النجاشيّ/ ٤١٥، خاتمة وسائل الشيعة/ ١٦٥ طبع مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث.

١١٨ ـ أصل معاوية بن حُكيم، لم يذكر أحد هذا الأصل غير السيّد ابن طاوس. فرج الهموم/ ٩١، كتابخانه.../ ١٧٨.

١١٩ ـ أصل وهب بن عبد ربّه بن أبي ميمونة بن يسار الأسديّ. الفهرست/ ٣٤٩، معالم العلماء/ ١٢٧.

١٢٠ ـ أصل هشام بن الحكم أبي محمّد الشيبانيّ الكوفيّ. رجال النجاشيّ/ ٦٣٣ الفهرست/ ٣٥٥.

١٢١ ـ أصل هشام بن سالم الجواليقيّ. الفهرست/ ٣٥٦، رجال النجاشيّ/ ٤٣٤، إقبال/ ١٠٤، معالم العلماء/ ١٢٩.

١٢٢ ـ أصل يونس بن بكير، لم يذكر أحد هذا الأصل غير السيّد ابن طاوس. مهج الدعوت/ ٢٥٣، كتابخانه.../ ١٨٠.

* * *

كان هذا عدد من مجاميع الحديث المشهورة التي تعرضت للأصل.

وعقب استشهاد الأئمّة واحداً تلو الآخر وبدء مرحلتي الغيبة «الصغرى والكبرى» لم يقعد علماء الشيعة ومحدّثوها المجدّون والأذكياء مكتوفي الأيدي بل واصلوا مساعيهم الجليلة من أجل حفظ الأحاديث والروايات، وصونها، وأهمّها «الكتب الأربعة» وسنعنى إلى الحديث عن طبيعتها في فرصة أخرى.

ملحق خاص حول
مصحف فاطمة(ع)

مصحف فاطمة(ع):

أشرنا سابقا إلى موضوع بهذا العنوان[١]. وقلنا إنه اعتماداً على أساس التأمل في الأحاديث والنقول ذات العلاقة بهذا الموضوع يمكن اعتبار مصحف فاطمة عليها السلام بنحو ما من مدونات الإمام علي عليه السلام. ونحن نعرض هنا لدراسة هذا الموضوع بنحو من التفصيل والتوسع ما أمكننا.

ورد ذكر موضوع مصحف فاطمة عليها السلام في كثير من المصادر

---

(١) إشارة إلى دراستنا الموسعة حول: تدوين الحديث عند الشيعة، الذي كتب بداية على شكل مقدمة لـ(معجم ألفاظ أحاديث بحار الأنوار) ونشر في بداية المجلد الأول منه. ونشر قسم منه آنذاك بعد تنقيحه وإعادة النظر فيه في مجلة (علوم الحديث) وجاء في سلسلة مقالات أن كثيراً من المؤلفين والدارسين قد عدّوا «كتاب فاطمة عليها السلام» شيئاً واحداً وساووا بينهما. وعلى هذا الأساس وبعد قطعهم بأنه إملاء رسول الله صلى الله عليه وآله قد ذكروا هذه المجموعة في الروايات ضمن السنة الفعلية للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله في الكتابة. وبعد التامل في الروايات ذات العلاقة بالمصحف توصلت «مجلة علوم الحديث في عددها الثاني، ص ٢٥» إلى هذه النتيجة:
«كتاب فاطمة عليها السلام» غير «مصحف فاطمة عليها السلام» وانهما يختلفان عن بعضهما بعض الاختلاف وإن «مصحف فاطمة عليها السلام» وعلى أساس النصوص المبينة لارتباطه بفاطمة عليها السلام لا يمكن أن يكون إملاء رسول الله صلى الله عليه وآله. وعليه نظراً لقطعية كون هذا المصحف بخط علي عليه السلام يجب وضعه ضمن السنة (الفعلية) والسيرة العملية لأمير المؤمنين عليه السلام القائمة على الكتابة. والأسطر الأولى لهذه المقالة تشير إلى النقاط التي ذكرتها.

والروايات. وتتمتع بعض هذه الروايات على أقل تقدير بصحة السند واستقامته. وعلى هذا الأساس لا يوجد أي شك في وجود مصحف فاطمة عليها السلام أصلاً.

وها نحن نذكر هنا بعضاً من هذه الروايات في مقدمة هذه الدراسة:

محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد عن ابن محبوب عن ابن رئاب عن أبي عبيدة قال: سأل أبا عبد الله بعض أصحابنا عن الجفر؟

فقال: هو جلد ثور مملوء علماً.

قال له: فالجامعة؟

قال: تلك صحيفة طولها سبعون ذراعاً في عرض الأديم، مثل فخذ الفالج، فيها كل ما يحتاج الناس إليه، وليس منه قضية إلا وهي فيها، حتى أرش الخدش.

قال: فمصحف فاطمة؟

قال: فسكت طويلاً ثم قال: إنكم لتبحثون عما تريدون وعما لا تريدون. إن فاطمة مكثت بعد رسول الله صلى الله عليه وآله خمسة وسبعين يوماً وكان دخَلها حزن شديد على أبيها وكان جبرائيل عليه السلام يأتيها فيحسن عزاءها على أبيها ويطيب نفسها عن أبيها ومكانه ويخبرها بما يكون بعدها في ذريتها وكان علي عليه السلام يكتب ذلك؛ فهذا مصحف فاطمة[1].

---

(١) الكافي (الأصول): ١/ ٢٤١.

نظرة إلى سند الحديث

ذكر العلامة المجلسي أن الحديث الآنف الذكر من (الصحيح)[١].

ونظرة عابرة إلى سند الحديث تبين استقامة هذا الحكم فيه.

١. محمد بن يحيى الملقب بـ(العطار) ثقة، وقد ذكره النجاشي بالصفات والعناوين التالية: «ثقة، عين، كثير الحديث»[٢].

٢. إن أحمد بن محمد هو أحمد بن محمد بن عيسى ومن الثقات[٣].

٣. إن ابن محبوب هو إما حسن بن محبوب أو محمد بن علي بن محبوب وكلاهما من الثقات[٤].

٤. إن ابن رئاب هو علي بن رئاب الذي قال عنه الشيخ الطوسي: «... هو ثقة جليل القدر»[٥].

٥. إن أبا عبيدة هو زياد بن عيسى وهو نفسه أبو عبيدة الحذّاء. قال عنه النجاشي: كوفي ثقة[٦]. وقال عنه العلامة: كوفي مولى ثقة[٧].

كاتب المصحف

يجب في البدء أن نتحدث عن كاتبه ليتضح من هو مدون تلك المجموعة.

---

(١) مرآة العقول، ٣/ ٥٩.
(٢) رجال النجاشي/ ٥٣، طبعة دار الأضواء، ج٢/ ٢٥٠.
(٣) هداية المحدثين / ١٧٥؛ المفيد من معجم رجال الحديث/ ٤٤.
(٤) رجال الطوسي/ ٣٣٤؛ منتهى المقال ٢/ ٤٤٧.
(٥) الفهرست، تحقيق بحر العلوم/ ٨٧؛ الطباطبائي/ ٢٦٣.
(٦) رجال النجاشي ١/ ٣٨٨ (شبيري/ ١٧٠).
(٧) خلاصة الأقوال/ ١٤٨.

فقد جاء صراحة في الحديث الذي قدمنا ذكره آنفاً:

وكان علي عليه السلام يكتب ذلك..[١].

وذكر هذا المضمون في روايات مختلفة وبعبارات متنوعة.

ـ الإمام الصادق عليه السلام ضمن جوابه عن مضمون المصحف قال:

...فجعل أمير المؤمنين يكتب كلَّ ما سمع حتى أثبت من ذلك مصحفاً[٢].

وجاء في رواية أخرى:

...وخطه علي عليه السلام بيده[٣].

وهكذا فإن جميع الروايات التي فيها بشكل ما ذكر لـ (المصحف) تشترك في نقلها بالتزام أمير المؤمنين علي عليه السلام كتابته على عاتقه.

وفي قبال كل تلك الروايات هناك روايات انفرد في تقريرها ابن رستم الطبري تشير إلى أن الملائكة أتت بـ«مصحف فاطمة عليها السلام» مكتوباً إلى السيدة الزهراء وعليه فلم يكن هناك إملاء حتى يكون كاتبه الإمام عليه السلام.

وجاء في قسم منه تقرير ما يلي:

لما أراد الله تعالى أن ينزل عليها جبرائل وميكائيل واسرافيل وأن يحملوه فينزلون به عليها وذلك في ليلة الجمعة من الثلث الثاني من الليل فهبطوا به وهي قائمة تصلي فما زالوا قياماً حتى

---

(١) الكافي ١/ ٢٤١.

(٢) المصدر نفسه / ٢٤٠، ح٢؛ بصائر الدرجات/ ١٥٧، ح١٨.

(٣) بصائر الدرجات/ ١٥٣، ح٥؛ وكذلك يرجع إلى: المصدر نفسه/ ١٥٥، ح ١٤؛ ١٦١، ح٣٣ و...

قعدت، ولما فرغت من صلاتها سلموا عليها وقالوا: يقرئك السلام ووضعوا المصحف في حجرها..[١].

وكما هو واضح فإن عبارة «. . .ووضعوا المصحف في حجرها. . .» دليل على أن الكتاب نفسه منزل وليس محتواه وهذا ما يتعارض بوضوح مع مضمون الروايات التي أسلفنا ذكرها.

ولحل التعارض يجب إما التصرف بمضمون هذه الرواية وتأويل عبارة «وضع المصحف في حجرها» بمعنى: الإملاء؛ لئلا يتعارض مع كتابة الإمام عليه السلام له. ولكن هذا تبرير غير سائغ وفيه تكلف.

وإما رفض وإنكار الرواية من أساسها، وإسقاط حجيتها نظراً إلى سند الرواية وذلك لوجود جعفر بن محمد بن مالك الفزاري في سند الرواية المتهم بـ«فساد المذهب»[٢]، و«وضع الحديث»، و«الرواية والنقل عن المجهولين»، و«الكذب»[٣] و«الغلو».

فابن الغضائري يقول فيه:

«كذاب، متروك الحديث جملة، وفي مذهبه ارتفاع، ويروي عن الضعفاء والمجاهيل، وكل عيوب الضعفاء فيه»[٤].

وهكذا فمن الأفضل نقد هذه الرواية ورفضها والإدبار عنها[٥]. وعليه تبقى الروايات الأخرى على حجيتها.

---

(١) دلائل الإمامة/ ١٠٦.

(٢) رجال النجاشي١/ ٣٠٢.

(٣) معجم رجال الحديث٤/ ١١٧.

(٤) ابن الغضائري، الرجال/ ٤٨ ونقل العلامة الحلي كلام ابن الغضائري بلفظه في خلاصة الأقوال، ص٢١٠.

(٥) بعض العلماء في حديثهم عن «مصحف فاطمة عليها السلام» ومضمونه جمعوا هذه الرواية إلى جانب=

وفي مقام الجواب على هذا السؤال: من هو مدون «مصحف فاطمة عليها السلام»؟ يجب القول ودون أدنى شك: إن مدونه هو الإمام علي عليه السلام.

مملي المصحف

النص الذي قدمنا ذكره دليل على أن جبرائيل مملي محتوى «مصحف فاطمة عليها السلام» وأن علياً عليه السلام كاتبه. وليس هذا الموضوع متناغماً ومنسجماً في الروايات المختلفة الواردة في هذا الصدد. ونحن نأتي هنا بما وجدناه في مجموعة الروايات لنرى كيف يمكن الجمع بين محتويات الروايات المختلفة؟

١. الله تبارك وتعالى

ذكر بصراحة في بعض الروايات أن المملي هو الله تعالى.

فقد جاء في الرواية التي نقلها أبو بصير عن الإمام الصادق عليه السلام:

...انما هو شيء أملاه الله..[1].

=الروايات الأخرى التي قرروها في هذا الصدد دون أن يلتفتوا إلى التنافي أو التناقض الظاهر بين محتوى هذه الرواية والروايات الأخرى. انظر إلى نموذج: فاطمة الزهراء عليها السلام بهجة قلب المصطفى/ ١٧٥ ـ ١٧٦. فعجباً لهذا الفاضل الجليل الذي جاء في نهاية دراسته بنقاط استنبطها من الروايات تحت عنوان: (فائدتان) ثبت إحداها بالشكل التالي:
الأول: ما يستفاد من هذه الاخبار في شأن مصحف فاطمة عليها السلام وجوه مختلفة: ...منها ما يدل على أن مصحف فاطمة عليها السلام كان موجوداً في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله كما لاحظت في «حديث البصائر»... مع انه جاء في أول البحث بروايات تدل أن جبرائيل أتى بالمصحف بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله واستفاد أول ما استفاد من الروايات وقال: ...منها: ما يدل على أن الله تعالى أرسل ملكاً أو يأتيها جبرائيل بعد قبض نبيه صلى الله عليه وآله يحدثها ويكتب علي عليه السلام كما في الحديث الأول... ص١٧٦.

(١) بصائر الدرجات ص٥٧٩ ـ ٥٨٠؛ بحار الأنوار، ج٢٦، ص٣٩. في بصائر الدرجات/ عبارة (...أملاها الله...) والذي يظهر أنه خطأ، وفي نقل الوافي لا توجد هذه الجملة ويحتمل سقوطها؛ الكافي١/ ٢٤٥؛ بصائر الدرجات/ ١٥٧.

٢. المَلَك

جاء في بعض الروايات أن المملي كان ملكاً وجاء في الرواية التي نقلها حماد بن عثمان عن الإمام الصادق عليه السلام:

.. فأرسل الله إليها ملكاً يسلي غمها ويحدثها فشكت ذلك إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: إذا أحسستِ بذلك وسمعتِ الصوت قولي لي. فأعلَمَتْه بذلك فجعل أمير المؤمنين يكتب كلَّ ما سمع حتى أثبت من ذلك مصحفاً[١].

٣. جبرائيل

ذكر في بعض الروايات أيضاً أن جبرائيل كان المملي للمصحف. فقد جاء في رواية أبي عبيدة نقلاً عن الإمام الصادق عليه السلام والتي عدها العلماء من الروايات الصحاح:

وكان جبرئيل يأتيها فيحسن عزاءها على أبيها ويطيب نفسها ويخبرها عن أبيها ومكانه ويخبرها بما يكون بعدها في ذريتها وكان علي عليه السلام يكتب ذلك فهذا مصحف فاطمة[٢].

هذه الرواية تعتبر بصراحة أن المملي هو جبرائيل.

وجاء في رواية أخرى:

عن عمر بن يزيد، قلت للإمام الصادق عليه السلام: الذي أملى جبرائيل على علي عليه السلام أقرآن؟ قال: لا[٣].

---

(١) مرآة العقول، ج٣، ص٥٧.

(٢) الكافي، ج١، ص٢٤١، ح ١٧؛ بصائر الدرجات، ص١٥٣ ـ ١٥٤، ح٦.

(٣) بصائر الدرجات، ص١٧٧، ح١٧؛ بحار الأنوار، ج٢٦، ص٤٣، طبعة بيروت، ج١١، ٢٧١.

٤. رسول الله

ذكر في مصادر وروايات أن رسول الله صلى الله عليه آله هو مملي هذه المجموعة. وجاءت بعض المرويات بالشكل التالي:

عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

وعندنا مصحف فاطمة. أما والله ما فيه حرف من القرآن ولكنه إملاء رسول الله وخط علي عليه السلام[١].

ونقل أيضاً أنه قال:

وعندنا والله مصحف فاطمة ما فيه آية من كتاب الله وإنه لإملاء رسول الله صلى الله عليه وآله خطه علي بيده[٢].

رواية أخرى ذكرها بعض العلماء ضمن روايات المصحف.

تصريح بإملاء الرسول له ولكن يبدو أن الرواية ليست لها صلة بهذا المصحف. هذا نصها:

... وإن عندنا كتاباً إملاء رسول الله وخط علي صحيفة فيها كل حلال وحرام وإنكم لتأتونا بالأمر فتعرف إذا أخذتم به وتعرف إذا تركتموه[٣].

إن مثل هذه الروايات تدل بوضوح على أن رسول الله صلى الله عليه وآله هو مملّيها وأن مولانا امير المؤمنين عليه السلام هو مدوّنها

لننظر الآن ماذا يجب عمله مع العناوين الأربعة الآنفة الذكر:

هل يمكن حل هذا التعارض الظاهري بشكل من الأشكال أم لا؟

---

(١) بصائر الدرجات، ص١٥٧، ح١٩؛ بحار الأنوار، ج٢٦، ص٤٦، طبعة بيروت، ج١١، ٢٧٣.
(٢) نفس المصدر، ص١٥٣، ح٥؛ نفس المصدر، ج٤٧، ص ٢٧١، ح٣.
(٣) عوالم العلوم، ص١١، القسم الثاني ص٨٣٩.

من الواضح أنه لا يوجد تعارض بين العناوين الثلاثة الأولى. إن الله تعالى أملى المصحف بواسطة أو بتعبير آخر عن طريق ملك الذي هو جبرائيل إلا أن التعارض بارز في القبول بأن جبرائيل كان المملي والتصديق بأن الرسول ﷺ كان هو المملي أيضاً.

كيف يمكن حل التعارض؟

النقطة التي يجب الانتباه إليها قبل حلّ التعارض وتكون مهمة في موضوع هذه الدراسة أنه لا يمكن ببساطة التخلي عن الروايات الدالة على أن المملي كان جبرائيل لوجود روايات صحيحة السند بينها كما أسلفنا ذكره. هذا من جهة ومن جهة أخرى جاء بصريح الروايات أن هذا الإملاء والكتابة والتدوين قد أعقب حياة النبي ﷺ وفي تلك الفترة القصيرة لحياة فاطمة الطهر عليها السلام من بعده لذلك فإن التبرير القائل بإملاء جبرائيل محتوى المصحف على رسول الله ﷺ وآنذاك أعاد قراءته للسيدة فاطمة هو تبرير غير مقبول

احتمالات عديدة

١ ـ انه كتاب بمحتويات متنوعة يمكن أن يتصور بأن مصحف فاطمة كان كتاباً بمحتويات متنوعة وكان قسم منه علوماً ومعارف بإملاء الرسول والقسم الآخر بإملاء جبرائيل. وان كان هذا الاحتمال غير مستبعد إلا أنه لا ينسجم مع التعابير المستخدمة في الروايات. إن ظاهر الروايات يشير إلى أن هذا المصحف بأجمعه كان إملاءً من قبل شخص واحد. انظروا إلى هذه النماذج من الروايات:

وكان جبرائيل يأتيها... ويخبرها عن أبيها.. فهذا مصحف فاطمة[1].

---

(١) الكافي، ج١، ص ٢٤٠.

فأرسل إليها ملكاً يسلي عنها غمها ويحدثها... فجعل أي علي يكتب كل ما سمع حتى أثبت من ذلك مصحفاً..[١].

وواضح تماماً أن الروايتين اللتين لهما كثير من نظائرهما دليل على ان جبرائيل الملك هو الذي تفرد بإملائها وهكذا فإن تقسيم الإملاء إلى قسمين وإلى مملين يخالف ظاهر الروايات.

وجود مصحفين متباينين:

كان العلامة السيد محسن الأمين العاملي على اعتقاد بوجود مصحفين للسيدة عليها السلام أحدهما بإملاء النبي والآخر بإملاء جبرائيل الملك[٢].

إلا أنه يمكن تقوية أو تعزيز احتمال السيد الأمين نظراً للنقطة القائلة بوجود كتاب أو تعبير أدق كتابين آخرين للسيدة فاطمة أحدهما ورد ذكره ضمن حديث الإمام الصادق عليه السلام في تعيين وزن الدرهم المختلف فيه.

الإمام في جوابه على سؤال والي المدينة وسؤال عبد الله بن الحسن أجاب بشكل مخالف لما كان مشهوراً وأسند كيفية وسبب ذلك الجواب إلى كتاب فاطمة[٣].

---

(١) بصائر الدرجات، ص١٧٧، ح١٨؛ بحار الأنوار، ج٢٦، ص٧٧.

(٢) أعيان الشيعة، ج١، ص٣١٤، ط٣ بيروت مطبعة الإنصاف، ١٣٧٠ش. ذكر المؤلف قسماً مهماً من الروايات ذات الصلة بمصحف فاطمة عليها السلام وتحدث عند جمعها عن مملي المصحف ومحتواه أيضا. وفي النسخة الجديدة التي أعيد طبعها تحت إشراف ورعاية ابن المؤلف الأكبر السيد حسن الأمين(رض) لم يذكر من هذا الموضوع إلا يسيراً من الروايات وحذف الجزء الآخر منه. وباعتبار أن قسماً مهماً في مقدمة أعيان الشيعة يخص تاريخ التشيع وحضارة وثقافة الشيعة ودولهم وأقاليمهم وغيرها فقد قام بتحقيق هذا القسم ودراسته والتعليق عليه مركز الغدير للدراسات الإسلامية ومن ثم نشره بطبعة جديدة تحت عنوان «الشيعة في مسارهم التاريخي» وعند دراسة موضوع «مصحف فاطمة» اعتمد المحققون والباحثون على ما كتبه السيد الأمين (ره) حول موضوع «مصحف فاطمة» من الطبعة الجديدة المنقوصة. وكان الأجدر بالمحققين أن يرجعوا إلى الطبعة الصادرة في حياة المؤلف نفسه. ويأتوا بالموضوع المتعلق بمصحف فاطمة عليها السلام المفيد والحساس بأجمعه في طبعتهم الجديدة.

(٣) الكافي(الفروع)، ج٣، ص ٥٠٧، ح٢. وانظر: إلى شرح الرواية في مصابيح الأنوار، ج٢، ص٤٣٦، وهامش الكافي في الصفحة المذكورة.

وذكر الإمام عليه السلام في رواية أخرى أيضاً عن كتاب فاطمة[١].

خاصة وأن مصحف فاطمة عليها السلام كما سيذكر لاحقاً لم يكن مشتملاً على الأحكام والتشريعات وهذه الحقيقة تؤيد بشكل ما أن الذي أملاه النبي على فاطمة هو غير المصحف الذي يتحدث عنه إلا أن هذا الاحتمال سيضعف إذا التفتنا إلى هذه النقطة بأن الروايات لم تخبر عن نوعين من المصحف. إنما أخبرت عنه مجموعة مكتوبة أو مدونة أو أكثر وما ذكر في الروايات عن إملاء المصحف هو حديث عن نوع واحد لا عن نوعين.

المقصود من «رسول الله» هو جبرائيل

اختار هذا الاحتمال العلامة المجلسي وكأن هذا الاحتمال هو الاقرب للقبول خاصة إذا التفتنا إلى ما ورد ضمن روايتين عن محمد بن مسلم عن الإمام الصادق عليه السلام:

وخلفت فاطمة مصحفاً ما هو قرآن ولكنه كلام من كلام الله أنزل عليها إملاء رسول الله وخط علي[٢].

ظاهر الرواية يفصح عن التنافي لاحتوائها على العبارة التالية كلام من كلام الله أنزل عليها وهذه الجملة إشارة إلى أن ما نزل على الزهراء كان مباشراً ودون واسطة ولكن الجملة الأخرى التي تقول إملاء رسول الله صلى الله عليه وآله بيان لأن المملي هو رسول الله صلى الله عليه وآله وواضح أنه لو كان المقصود من رسول الله صلى الله عليه وآله هو النبي ستكون الجملتان متناقضتين لأنه لو كان المقصود من رسول الله هو النبي والمملي هو نفسه فبعد ذلك سوف لن يستقيم التعبير بأنزل عليها وعلى هذا الأساس يمكن القول إن المراد من رسول الله هو جبرائيل ولو أصبح الأمر هكذا لانتفى التناقض بين الجملتين.

---

(١) الكافي (الأصول) ج١، ص٢٤٢؛ علل الشرائع، ص٢٠٧.
(٢) بصائر الدرجات، ص١٥٥، ح١٤.

ولذلك فإن كلام الإمام الصادق عليه السلام يعني أن المصحف الذي خلفته فاطمة ليس قرآناً إنما هو كلام الله تعالى المنزل إلى تلك السيدة الجليلة أملاه جبرائيل عليها وكتبه علي عليه السلام.

يمكن تعزيز احتمال العلامة المجلسي بالنظر لما ذكر أي القبول بأن جملة رسول الله منصرفة إلى الرسول الأكرم كما اكد السيد الأمين على ذلك. إلا أن القرينة السابقة ليست كافية للتخلي عن هذا الظاهر والانصراف.

اضافة إلى هذا ان التعبير برسول الله عن الملائكة اسلوب شائع ورائج في أدب الكتاب والسنة كما جاء في قوله تعالى ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾[1] و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا...﴾[2]. وقوله تعالى في سورة هود الآية ٨١ ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ...﴾.

يروي أبو بصير عن الصادقين: لما قال جبرائيل إنا رسل ربك. قال له لوط: يا جبرائيل عجل[3].

قال الإمام الرضا عليه السلام نقلاً عن آبائه الكرام وهم عن علي عليه السلام وهو عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: الملائكة هم رسل الله[4].

روى الإمام الباقر عليه السلام عن أمير المؤمنين والإمام الهمام عن رسول الله أنه قال:

يا علي إني والله ما أحدثك إلا ما سمعته أذناي

---

(١) الحج/ ٧٥.
(٢) فاطر/ ١، وانظر أيضا: الأعراف: ٣٧، الأنعام: ٦١ و٧٧، الحجر: ١٥ و١٦، مريم: ١٧ ـ ١٩، طه: ٢٠.
(٣) علل الشرائع، ص٥٥١، باب ٣٤٠؛ نور الثقلين، ج ٣، ص ٣٠٦.
(٤) بحار الأنوار، ج٥٩، ص٣٢٢.

ووعاه قلبي ونظره بصري إن لم يكن من الله فمن رسوله فإياك يا علي أن تفضح سري[١].

الروايات التي عبر فيها عن الملائكة أو جبرائيل بـ«رسول الله» وفيرة وما ذكرناه منها غيض من فيض وهكذا يتعزز عندنا احتمال العلامة القائل بأن «رسول الله» في الروايات هو «جبرائيل» ونراه أكثر استقامة وبهذا الشكل يزول التعارض عن الروايات.

وتبقى الروايات الكثيرة الدالة على أن هذه الحادثة وقعت بعد رسول الله ﷺ على قوتها.

محتوى المصحف

الروايات الكثيرة ذات الصلة بمصحف فاطمة عليها السلام والمنقولة عن الأئمة لها أيضاً إشارات واضحة لمحتواها وهذه الروايات نفت أموراً وأثبتت أموراً أخرى.

أي إنها من جهة أكدت على خلو المصحف من قضايا وأمور محددة. ومن المحتمل أن يكون هذا التأكيد في تلك الأيام بسبب ما يمكن أن يتصور من أمور من لفظة «مصحف» أو بسبب سعي البعض ومحاولاتهم لإعطاء صورة باطلة وغير صحيحة عنه وكان الإمام بالتفاته لذلك الجو المحيط قد أكد على نفيه تلك المعاني الباطلة.

ومن جهة أخرى بيَّن عليه السلام محتوى «مصحف فاطمة» وماهيته.

ونسلط هنا الضوء ونلقي نظرة على ما ذكر في الروايات.

١. «مصحف فاطمة» لم يكن مشتملاً على قرآن:

أغلب الروايات ذات الصلة صرحت بأن «مصحف فاطمة» عليها السلام لا

---

(١) م ن، ص٣٠٦.

يشتمل بأي شكل من الأشكال على قرآن. وجميع هذه التأكيدات والتصريحات في اعتقادنا قائمة على النقطة التي قدمنا ذكرها.

فقد نفى الامام الصادق عليه السلام ـ من خلال الروايات المنقولة عنه بخصوص المصحف وبتعابير شتى ـ نفى اشتماله على قرآن. وجاء في بعض الروايات:

«.. وعندنا مصحف فاطمة أما والله ما هو بالقرآن..»[١]

يقول حسين بن أبي العلاء سمعت الإمام الصادق عليه السلام قال:

«ومصحف فاطمة ما أزعم فيه[٢] [أنه[٣]] قرآناً».

وجاء في رواية محمد بن مسلم انه عليه السلام قال:

وخلفت فاطمة مصحفاً ما هو قرآن[٤].

وفي رواية اخرى نقلها الامام السجاد عليه السلام عن الامام الصادق عليه السلام قال فيها مؤكدا ومصرحاً:

وعندنا مصحف فاطمة اما ـ والله ـ ما فيه حرف من القران[٥].

وفي رواية أخرى:

ما فيه آية من القرآن[٦].

---

(١) بصائر الدرجات، ص ١٥١؛ بحار الأنوار، ج٢٦، ص١٣٨؛ ج٤٧، ص٢٧٠.
(٢) بصائر الدرجات، ص ١٥٠؛ الكافي (الأصول) ج١، ص ٢٤٠؛ بحار الأنوار، ج٣٧، ص٣٨.
(٣) بصائر الدرجات، ص ١٥٤؛ بحار الأنوار، ج٢٦، ص٤٥؛ عوالم العلوم، ج١١، ص٨٣٦.
(٤) بصائر الدرجات، ص١٥٥؛ بحار الأنوار، ج٢٦، ص٤١؛ عوالم العلوم، ج١١، ص٨٣٥.
(٥) بصائر الدرجات، ص١٥٧؛ بحار الأنوار، ج٢٦، ص٤٦؛ عوالم العلوم، ج١١، ص٨٣٩.
(٦) بصائر الدرجات، ص١٥٣؛ بحار الأنوار، ج٤٧، ص٢٧١.

ونقل عن الامام موسى بن جعفر عليه السلام انه قال:

عندي مصحف فاطمة ليس فيه شيء من القرآن[١].

ما أتينا به وذكرناه كان قسماً من الروايات الدالة على نفي اشتمال المصحف على قرآن. وهناك روايات أخرى في هذا الخصوص تصرح وتؤكد على ذلك.

والآن لنضف إلى ما تقدم استناداً لما ذكر وبدقة في كثير من الروايات المصرحة بعدم اشتمال المصحف على قرآن ومن بينها روايات ليست قليلة منقولة من الصحاح نضيف قولنا: لا شك أن ما ينقل من الروايات خلافاً لما تقدم ذكره فإنه فاقد للاعتبار ولا قيمة له ويجب ان لا يؤخذ به نحو هذه الرواية:

قال محمد بن سليمان الديلمي نقلاً عن أبي بصير الذي روى عن الإمام الصادق عليه السلام انه كان يتلو الآية: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢﴾ بهذا النحو: «سأل سائل بعذاب واقع للكافرين بولاية علي ليس له دافع». ثم قال: هكذا هي في مصحف فاطمة[٢].

الكتاب الذي ينقل العلامة المجلسي الرواية منه ويذكره برمز «كنز» هو «كنز جامع الفوائد» الذي يعتبره العلامة خلاصة لكتاب «تأويل الآيات الطاهرة» للسيد شرف الدين الحسيني الاسترابادي الذي لخصه مؤلف أو عالم آخر يحتمل أن يكون علي بن يوسف بن منصور[٣].

---

(١) بصائر الدرجات، ص١٥٤؛ بحار الأنوار، ج٢٦، ص١٨؛ عوالم العلوم، ج١١، ص٨٤٣.
(٢) بحار الأنوار، ح٣٧، ص١٧٦.
(٣) م ن، ج١، ص١٣.

إن نقل المجلسي كأنما هو نقل مقتضب عن رواية مفصلة تقريباً مذكورة بشكل مضمر في الكافي المشتملة على هذا الجزء المنقول من قبل المجلسي(ره) وقد ذكر شرف الدين الاسترابادي الجزء المنقول من قبل المجلسي في ذيل تأويل الآية الشريفة الآنفة الذكر وبنقلين يكونان رواية واحدة ولا أكثر من ذلك[١].

إن راوي جميع هذه المنقولات التي سندها ليس بسياق واحد تقريباً هو أبو بصير محمد بن سليمان الديلمي ذلك الذي سمي بالبصري أحياناً وأخرى بالنصري[٢].

وقد قطع الرجاليون بغلوه وعدم استقامته فهو مطرود ولا يقبل كلامه بأي شكل من الأشكال.

فقد ذكر ابن الغضائري عنه:

ضعيفٌ في حديثه، مرتفع في مذهبه، لا يلتفت إليه[٣].

وكتب النجاشي:

ضعيفٌ جداً، لا يعول عليه في شيء[٤].

وذكره الشيخ الطوسي(ره) ضمن أصحاب الإمام السابع الكاظم عليه السلام بهذا النحو:

---

(١) تأويل الآيات الظاهرات، ج٢، ص٧٢٣.

(٢) يؤكد آية الله الخوئي(قد) على وحدة هذه العناوين. التفرشي (ره) صرح أيضاً باتحاد هذه العناوين المتعددة. معجم رجال الحديث، ج١٧، ص ١٣٥وبعدها؛ نقد الرجال، ج٤، ص١؛ وانظر أيضاً: منتهى المقال، ج٦، ص٦٢؛ قاموس الرجال، ج٩، ص٢٩٨.

(٣) ابن الغضائري، الرجال، ص٩١.

(٤) رجال النجاشي، ج٢، ص٢٦٩(= ط قم، ٣٦٥).

محمد بن سليمان البصري الديلمي له كتاب يرمى بالغلو[١].

وذكر التفرشي أيضاً في كتابه القيم:

الديلمي ضعيفٌ جداً، لا يعول عليه في شيء[٢].

وأخيراً آية الله الخوئي(ره) بعد تقريره لوجهات نظر الرجاليين، يذكر عنه نقاطاً منها:

ان محمد بن سليمان هذا، لا يعمل بروايته، لتضعيف النجاشي والشيخ، المؤيد بتضعيف ابن الغضائري[٣].

وبناءً على ما تقدم تعتبر الرواية من أصلها مطرودة ومرفوضة إضافة لما ذكر من معارضتها لكثير من الروايات التي من بينها روايات صحيحة السند والتي ذكرت مراراً في هذه الدراسة.

وملخص الكلام: ان «مصحف فاطمة» لا يشتمل بأي شكل من الأشكال على قرآن ولا يوجد فيه آية أو كلمة أو حرف من القرآن وأن وضوح هذه النصوص الروائية الكثيرة في هذا الخصوص يرفع احتمال أي تشكيك فيها.

وليت الذين سمحوا لأنفسهم بمجرد سماعهم لهذه الكلمة مصحف فاطمة نسبة ما شاؤوا إلى الشيعة ولم يقصروا في توجيه الاتهامات لهم ليتهم نظروا إلى واحدة من هذه الروايات[٤] وحذوا حذو العالم المصري

---

(١) رجال الطوسي، ص٣٤٣.
(٢) نقد الرجال، ج٤، ص٢٢٠.
(٣) معجم رجال الحديث، ج١٧، ص١٣٨.
(٤) من العجب العجاب ان البعض قد رأوا قسماً من هذه الروايات ووقفوا على مضمونها إلا أنهم لم=

الشهير الشيخ محمود ابو زهرة الذي بحث عن هذه الحقيقة وصرح بأن «مصحف فاطمة» لم يكن مشتملاً على آية من القرآن. فهو يقول ضمن دراسته وبحثه عن روايات التحريف بتبرئة ساحة القرآن من أنواع التحريف والتصريح والتأكيد على عدم تحريف القرآن الكريم فيذكر قسماً من روايات الكافي المخبرة عن حقيقة الجفر والجامعة ومصحف فاطمة عليها السلام ثم يقول: وظاهر هذا النص انه ليس من القرآن ما قيل لفاطمة على لسان جبرائيل.. لأنه ليس فيه حلال ولا حرام..[1].

=يتحملوا الحق وقالوا ما قالوا. والقفاري الذي كتب في نقد أفكار وعقائد الشيعة وقف على هذه الروايات ونظر إليها إلا أن نوعية نظرته واستنتاجه تبعث على التعجب الشديد فقد قام بكتابة بحثه حول مصحف فاطمة عليها السلام واعتماداً على الروايات المذكورة ذهب إلى أن روايات المصحف متناقضة ومتضادة بعضها مع بعضها البعض وعليه فإن أصل المصحف موهوم ولا أساس له! فهو تارة يذهب إلى الاعتقاد بأن المصحف يشتمل على أحكام وتارة أخرى يقرر روايات تخبر عن نفيه وتارة ثالثة يقول باشتماله على قرآن اعتماداً على خبر مؤلف ليبين أن البعض يقولون باشتماله على قرآن ويقول: ان الشيعة يعتقدون بأن المصحف كان أضعاف القرآن أي إن القرآن أقل من مصحف فاطمة عليها السلام! وهذا الاستنتاج إن دل على شيء فهو يدل على ذهنية الكاتب المريضة وكتابه المعنون بـ«أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثنا عشرية ـ عرض ونقد» سيئ الفهم ومعوج وما يؤسف له أكثر هو تحريف النصوص وتقطيع الروايات خدمة لاستنتاجات المؤلف الموهومة. ولحسن الحظ فإن زميلنا الفاضل السيد د. فتح الله المحمدي قد تعرض لنقد الجزء المتعلق بالقرآن من ذلك المؤلف وضمن نقده بين بعضاً من قراءات القفاري المعكوسة لروايات وآراء ومعتقدات الشيعة وتحريفه لها. (سلامة القرآن من التحريف، فتح الله المحمدي، طهران، ديام آزادى، ١٤٢٠ هـ ق).

(١) الإمام الصادق عليه السلام حياته وعصره، ص٢٥٦. ورغم أننا نثني على فهم أبي زهرة الصحيح والمحكم في نقله عن مصحف فاطمة عليها السلام إلا أننا نعتبر أن عدم تأمله في روايات الكافي ومآلاً نسبته الاعتقاد بـ«التحريف» للكليني، نعتبر ذلك نقطة سوداء في سجله العلمي فهو يدافع عن ساحة القرآن بصورة صحيحة وبقوة ويؤكد على الروايات الموضوعة الدالة على التحريف في كتب الفريقين ويقر بأنها من صنيع أعداء الدين والقرآن وعندما يؤكد على عدم اذعان علماء السنة لها ونقدهم اياها وابعادها عن ساحة العقيدة لكنه يدعي والقول لأبي زهرة بعض علماء الشيعة رغم منزلتهم العالية في مجال الحديث قد نقلوا تلك الأحاديث وأصروا على صحة ما رووا وعلى رأسهم أبو جعفر الكليني. الإمام الصادق...، ص٢٥٥) وقد ذكر هذا الموضوع بقليل من الاختصار وبلحن أخف في كتابه الآخر: الإمام زيد حياته وعصره، ص٣٥٠ ـ ٣٥١.

وعلينا الآن ان نذكّر بما يلي:

١ ـ لم يكن نقله عن روايات الكافي نقلاً محكماً ودقيقاً خاصة نقله الأول من الكافي حيث كان خليطاً من عدة روايات مما أدى إلى استنتاج غير صحيح. وفي الواقع خلط جزءاً من الرواية الأولى (باب في=

٢. مصحف فاطمة لا يشتمل على أحكام:

ذكر في رواية واحدة على الأقل وبصراحة تامة أن المصحف لم يشتمل على حلال ولا حرام. ونص الرواية:

... فجعل أمير المؤمنين يكتب كلّ ما سمع حتى أثبت من ذلك مصحفاً. قال: ثم قال: أما انه ليس فيه شيء من الحلال والحرام ولكن فيه علم ما يكون[١].

=ذكر الصحيفة والجفر والجامعة ومصحف فاطمة عليها السلام) مع الرواية الثانية وحمَّل الكليني ما كان هو يتوهمه.

٢ ـ روى الكليني عن الصادق عليه السلام انه قال: لا يوجد في القرآن الذي جمعه علي ـ كرم الله وجهه ـ وبظن الكليني انه يعادل ثلاثة أضعاف القرآن إلا أنه ليس فيه من قرآنكم ولا حتى حرفاً واحداً. يا للعجب... إذ لا يوجد مثل هذه العبارات والتراكيب في أي من منقولات الكليني! في الواقع الرواية المشتملة على مثل المواضيع هي نهاية حديث من الباب الآنف الذكر والذي اختلط مع رواية أخرى عند نقل أبي هريرة.

٣ ـ كان أبو زهرة في تفسيره الوهمي يشكل على الكليني ويرى من ظاهر الرواية ان ما نزل على فاطمة عليها السلام ليس له صلة بالقرآن بل «ربما يكون جفراً».

٤ ـ وأخيراً يجب تذكير أبي زهرة وأمثاله بأن ما نقله الكليني به ليس له صلة بالتحريف. وثانياً: ان ما رواه الكليني... بعد بحث وتحقيق ومجاهدة لا ينفي احتمال وجود مرويات متزلزلة وضعيفة في كتابه ومن هذا الجانب وضمن تأكيده على صعوبة بل عدم إمكان المعرفة القطعية والشاملة لتمييز الروايات الخالصة عن غير الخالصة أرشد قراء مجموعة الكافي والمراجعين الآخرين لها إلى ملاكات وقرائن ومستندات أخر... (الكافي، ج١، ص٨).

٥ ـ عرض العالم الجليل الأستاذ توفيق الفكيكي في مقالته العلمية لما ذكرناه عن أبي زيد وباستناده وتأكيده على الفرق بين الرواية والدراية يدافع الفكيكي عن مكانة الكليني العالية بقوله: ان ما قرره الكليني هو نقله من الأحاديث ولا يلزم أن يكون معتقداً بجميع ما نقل. (رسالة الإسلام مجلة إسلامية عالية تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة، السنة الثانية عشرة، العدد الأول، ص٦٥ وما بعدها) كما ان للشيخ عبد الله السبيتي نقداً علمياً على أجزاء من كتاب أبي زهرة في كتابه القيم «مع أبي زهرة في كتاب الإمام الصادق» (لا سيما في ص ٢١٢ ـ ٢١٨).

٦ ـ بعد الاشارة إلى روايات الكافي وصلتها بتحريف القرآن نضيف هنا ان السيد العميدي في بحثه العلمي الواسع قد أتى بالروايات كل على حدة مرتبة وعرض لها بدقة من حيث السند والمتن وطهر ساحة الكليني عن هذه الطعون والافتراءات. (دفاع عن الكافي، ثامر هاشم حبيب العميدي، مركز الغدير للدراسات الإسلامية، قم، ١٤١٦ هـ.ق، ج٢، ص ٣٣٦ وما بعدها).

(١) الكافي، ج١، ص٢٤٠؛ مرآة العقول، ج٣، ص٥٧.

يمكن فهم هذه الحقيقة من الروايات النافية لاشتماله على قرآن. وبما أن القرآن يشتمل على الأحكام والمصحف ليس فيه شيء من القرآن فيمكن ضمنياً نفي اشتماله على أحكام.

ونذكر هنا وجهات نظر بعض العلماء القائلين باشتماله على الحلال والحرام ليتضح منها أن أولئك الأجلاء لم يتأملوا بدقة في هذه الروايات ولا في الرواية الصريحة منها.

كتب المحقق اللبناني الجليل هاشم معروف الحسني ـ خلال بحثه في عناوين مثل «الجفر» و«الجامعة» و«مصحف فاطمة» ومضمون محتوياتها كتب ـ يقول:

... مع أن الروايات التي تعرضت.. مصحف فاطمة عليها السلام قد نصت على أنها كتاب يشتمل على الأحكام[١].

وقال في مقام آخر ضمن بحثه فيما ذكر:

أما (مصحف فاطمة) فقد جمعت فيه أكثر الأحكام وأصول ما يحتاج إليه الناس كما وصلت إليها من أبيها وابن عمها أمير المؤمنين..[٢].

المحقق المتتبع السيد محمد رضا الجلالي الحسيني ضمن بحثه لسيرة المعصومين في تدوين الحديث تحدث عن «كتاب فاطمة» واستناداً إلى المصادر حدد محتواه بصورة عامة.

وبالاستناد إلى رواية عن الكافي[٣] كتب بأن جواب الإمام عليه السلام في كيفية دفع الزكاة النقدية كان مستنداً إلى مصحف فاطمة.

---

(١) دراسات في الحديث والمحدثين، ص٣٠٢.
(٢) نفسه، ص٣٠١.
(٣) الكافي (الفروع) ج ٣، ص ٥٠٧.

وفي تتمة بحثه أضاف: يعرف كتاب فاطمة باسم مصحف فاطمة عليها السلام[١].

وفي اعتقادنا أن كتاب فاطمة هو غير مصحف فاطمة عليها السلام لذلك نرى في هذا الحديث أنه قد تم خلط أمرين:

١. بين «مصحف فاطمة عليها السلام» و«كتاب فاطمة».

٢. بأن مصحف فاطمة عليها السلام يشتمل على أحكام.

وقد ذكر العلامة السيد محسن الأمين العاملي (ره) ضمن تقريره المفصل حول الروايات ذات الصلة بالمصحف ذكر رواية تصرح بنفي اشتمال «مصحف فاطمة» على (أحكام وحلال وحرام)[٢].

إلا أنه وفي سياق بحثه اعتبر أن مصحف فاطمة عليها السلام هو نفسه كتاب فاطمة المشتمل على (أحكام). لذا فإنه في النتيجة يعتقد باشتمال المصحف على (أحكام وحلال وحرام)[٣].

وذهب العلامة السيد محمد حسين فضل الله ضمن اعتقاده بوحدة «كتاب فاطمة» و«مصحف فاطمة» إلى أن «مصحف فاطمة» يشتمل على أحكام حيث قال:

ولذا فالأرجح انه كتاب يشتمل على الحلال والحرام..[٤].

الخطيب المشهور المغفور له السيد محمد كاظم القزويني في كتابه القيم عن السيدة الزهراء عليها السلام وفي أثناء الحديث عن سمو لقب تلك السيدة أي «محدثة» والأخبار الخاصة بالمصحف كتب:

---

(١) تدوين السنة الشريفة، ص٧٦ ـ ٧٧.
(٢) أعيان الشيعة (الطبعة السابقة) ج١، ص٣٣.
(٣) م ن، ص٣١٥.
(٤) الزهراء قدوة، ص ١٩١ ـ ١٩٥.

«وختاماً لهذا البحث نقول إن «مصحف السيدة فاطمة الزهراء» كتاب ضخم يحتوي على جميع الأحكام الشرعية بالتفصيل ويستوعب قانون العقوبات في الإسلام حتى بعض المخالفات التي عقوبتها جلدة واحدة أو نصف جلدة أو ربع جلدة وغرامة من خدش جسم أحد من الناس خدشة واحدة[١].

ولكن ما يبعث على التعجب هنا هو أن هذا الحكم وتحت هذا العنوان وبهذا التفصيل لم يرد في أية رواية!

فحكم العلماء المستند في الغالب إلى الرواية التي جاء بها الكليني(ره) في الكافي بهذه الصورة:

عن الحسين بن أبي العلاء قال: سمعت أبا عبد الله يقول: إن عندي الجفر الأبيض.

قلت: فأي شيء فيه؟

قال عليه السلام: زبور داود وتوراة موسى وانجيل عيسى وصحف ابراهيم والحلال والحرام و«مصحف فاطمة» ما أزعم أن فيه قرآناً. وفيه ما يحتاج الناس إلينا ولا نحتاج إلى أحد. حتى فيه الجلدة ونصف الجلدة وربع الجلدة وأرش الخدش[٢].

ظاهر الرواية وما قاله الإمام عليه السلام: عندنا الجفر و.. مصحف فاطمة عليها السلام الذي ليس فيه قرآن وفيه ما نحتاج إليه ونحن لا نحتاج لأحد وفيه حكم التعزير.

---

(١) فاطمة الزهراء من المهد إلى اللحد، ص٩٦.

(٢) الكافي الأصول ج١، ص ٢٤٠، ح٣.

واعتماداً على هذه الرواية سيكون مصحف فاطمة مشتملاً على أحكام وعندئذ سيحصل التناقض مع رواية تصرح بـ[عدم] شموله على أحكام وحلال وحرام..

لنر الآن كيف يمكن رفع هذا التناقض؟

كتب العلامة المجلسي:

لعل الضمائر كلها أو الآخرين راجعة إلى الجفر لا المصحف فلا ينافي الأخبار الدالة على أنه ليس في مصحفها الأحكام(١).

ويعتقد العلامة السيد جعفر مرتضى أن جملة «وفيه ما يحتاج الناس إلينا» غير معطوفة على جملة «ما أزعم أن فيه قرآناً» كي تكون مبينة لمحتوى المصحف بل إنها معطوفة على «زبور داود وتوراة موسى و..» يعني أن «الجفر الأبيض» يشمل زبور داود وتوراة موسى ومصحف فاطمة وفيه حلال وحرام وما يحتاج الناس إليه.

فالعاملي يسند هذا التفسير للرواية إلى الروايات المخبرة عن محتوى الجفر الأبيض، ومنها رواية عن عنبسة بن مصعب التي جاء فيها:

... فيه سلاح رسول الله ﷺ والكتب ومصحف فاطمة..(٢).

ويعتقد أكرم بركات الذي أعد تحقيقاً شاملاً حول مصحف فاطمة عليها السلام وحول الجفر يعتقد جازماً ودون أي شك بأن الضمير في (...وفيه ما يحتاج) عائد إلى الجفر وليس إلى المصحف.

---

(١) مرآة العقول، ج٣، ص٥٧.

(٢) مأساة الزهراء، ص ١٠٩. انظر للرواية في: بصائر الدرجات، ص١٥٤ ـ ١٥٦؛ بحار الأنوار، ج٧، ص ٢٧١.

ويسعى بركات إلى تأييد هذه النقطة بقرائن عديدة:

١ ـ ان نقل هذا المضمون قد جاء في رواية أخرى. كان الحديث فيها عن الجفر واحتوائه على صغير وكبير الأحكام بنفس التعابير الواردة في الرواية التي نحن بصددها ومن ثم ورد الحديث عن المصحف.

٢ ـ الجفر في أغلب استعماله في الروايات يدل على مظروف كبير من محتوياته «كتاب الجامعة» الذي وصف كراراً بهذه الخصوصيات أي (.. ما يحتاج إليه الناس.. أرش الخدش... الجلدة و...)[١].

ونظراً لما ذكر يمكن القول إن رواية حسين بن أبي العلاء ليست لها أية دلالة على أن «مصحف فاطمة» يحتوي على حلال وحرام وأحكام شرعية.

استند بعض العلماء إلى رواية طويلة أخرى ليقولوا بأن المصحف يحتوي على أحكام[٢]، وهي رواية جاء فيها أن منصور الدوانيقي طلب من واليه في المدينة أن يسأل أهل المدينة وبالأخص الإمام الصادق عليه السلام وعبد الله بن الحسن يسألهم عن كيفية دفع زكاة الأموال التي كانت في عهد النبي صلى الله عليه وآله ٥ دراهم لكل ٢٠٠ درهم وتقرر في عهده أن يكون ٧ دراهم لكل ٢٠٠ درهم. وأجاب الإمام الصادق عليه السلام على ذلك ولما أطلع عبد الله بن الحسن بن علي على الجواب سأله عن مصدر الجواب الذي أخذه منه؟

---

(١) حقيقة مصحف فاطمة عند الشيعة، ص٩٩؛ حقيقة الجفر عند الشيعة الإمامية، ص٨٨ ـ ٩٥.

(٢) تدوين السنة الشريفة، ص٧٧؛ الزهراء القدوة، ص١٩٣.

فأجاب الإمام: قرأت في كتاب أمك فاطمة..[١].

استفاد بعض العلماء من جواب الإمام عليه السلام بأن المراد من «كتاب أمك فاطمة» هو «مصحف فاطمة». وعليه فإن المصحف المذكور كان مشتملاً على أحكام شرعية.

وأعتقد أن المراد من الـ«كتاب» في هذه الرواية ليس «مصحف فاطمة» بل إما أن يكون المراد هو كتاب مستقل كما أسلفنا ذكر هذا الاحتمال أو أن القول المذكور في هذه الرواية ليس كلام السيدة الطاهرة فاطمة عليها السلام بقرائن عديدة بل المراد هو «فاطمة» أخرى غير الزهراء البتول.

واحتمال أن «كتاب فاطمة» مجموعة غير «مصحف فاطمة» احتمال ذكره العلامة الجليل المجلسي(قد) ضمن شرحه لهذا الحديث، وأشار إلى نفي بعض الروايات بصراحة احتواء مصحف فاطمة عليها السلام على أحكام فكتب يقول:

...يحتمل أن يكون المراد أنه ليس فيه حكم أصالة؛ ولا ينافي أن يستنبط من بعض الأخبار التي تضمنها بعض الأحكام إذ ما من خبر إلا ويستفاد منه حكم غالباً.

ونعتقد أن قبول هذه الرواية ينفي الاحتمال الأول لأن ما في هذه الرواية هو حكم صريح وليس مستنبطاً ولأنه حكم بالأصالة وليس مستخرجاً من الروايات.

---

(١) الكافي(الفروع)،ج٣، ص٥٠٨. كتبت توضيح الرواية عن شرح وتوضيح العلامة الفقيد الشيخ أبو الحسن الشعراني (ره) الذي شرح الرواية بالتفصيل على أساس بيان الفيض (ره).

الاحتمال الآخر أن بعض الفضلاء ذكر اعتماداً على قرائن تبدو قريبة للواقع أن المراد من «فاطمة» في هذه الرواية هي «فاطمة بنت الحسين عليها السلام»، وأم عبد الله بن الحسن، وليست هي السيدة «فاطمة الزهراء عليها السلام» فالإمام الصادق عليه السلام خاطب عبد الله بن الحسن بقوله: «قرأت في كتاب أمك...» ولم يقل «كتاب أمك فاطمة الزهراء» أو «كتاب جدتك فاطمة الزهراء» لأنه:

١ ـ يجوز أن يكون للسيدة الجليلة كتاب ترويه عن أبيها أو أخيها تروي عنه مسائل الحلال والحرام وأشار إليه الإمام عليه السلام.

٢ ـ استناداً إلى روايات تشير إلى أن الإمام الحسين عليه السلام قبل استشهاده أودع ابنته فاطمة أم عبد الله بن الحسن كتاب الجامعة. وفي الواقع فإن الامام يشير إلى ذلك وبهذه الإشارة يبين من جهة المكانة العالية لتلك السيدة الجليلة ومن جهة أخرى لا يظهر أصل ومكانة «الجامعة» لأسباب سياسية وظروف حاكمة.

وهذا الاحتمال غير مستبعد اعتماداً على الجهة الثانية.

ينقل الكليني روايتين بأن الإمام الحسين عليه السلام قبيل استشهاده ائتمن ابنته فاطمة عليها السلام كتاباً وهي بدورها بعد مرور فترة سلمته للإمام زين العابدين عليه السلام.

ولما سئل الامام السجاد عن مضمون الكتاب قال:

«فيه ما يحتاج الناس حتى أرش الخدش».

هذه الخصوصية تنطبق بدقة على الوصف المتكرر الوارد في الروايات حول كتاب «الجامعة».

وجاءت روايات من هذا القبيل أيضا في كتاب بصائر الدرجات[١].

هذه الاحتمالات على أقل تقدير تخرج الرواية من حيز الصراحة وتجر مفهومها إلى العموم الذي لا يمكن فيما بعد الاستناد عليها لإثبات المدعى وعلى هذا الأساس يمكن القول ان مصحف فاطمة عليها السلام لم يكن محتوياً على أحكام وقضايا الحلال والحرام.

مواضيع المصحف

لنلق نظرة على نوعية المواضيع والقضايا التي تحتوي عليها تلك المجموعة القيمة وعلى مضمون الحقائق التي كان يتحدث بها الرسول الإلهي في لقاءاته الملكوتية مع سيدة الطهر فاطمة عليها السلام.

ذكرنا آنفاً أن الروايات في باب مصحف فاطمة كثيرة في المصادر الحديثية وتحدث كثير منها عن محتوى المصحف. من ذلك ما جاء في الحديث الذي ذكرناه في مقدمة البحث أي صحيفة أبي عبيدة.

١. مقام الأب ومستقبل الأبناء

فقد جاء ضمن تلك الرواية:

..ويخبرها عن أبيها ومكانه ويخبرها بما يكون بعدها في ذريتها..[٢].

٢. أحداث المستقبل

تطرقت بعض الروايات إلى حديث حول أحداث المستقبل حتى أن بعض الأئمة أسندوا إخباراتهم المستقبلية إليه. فجاء في رواية حماد بن عيسى نقلاً عن الإمام الصادق عليه السلام:

---

(١) بصائر الدرجات، ص١٤٨.

(٢) الكافي(الاصول) ج ١، ص ٥٩ ـ ٦٠؛ بصائر الدرجات، ص١٥٣.

... إنه ليس فيه شيء من الحلال والحرام ولكن فيه علم ما يكون[١].

وجاء في نقل آخر:

ففيه ما يكون من حادث[٢].

وكما أسلفنا ذكره فان الأئمة استندوا أحياناً في هذا الموضوع إلى المصحف منهم الإمام الصادق عليه السلام عند حديثه عن فرقة الزندقة و..[٣].

٣. ذكر الأنبياء والأوصياء

من خلال بعض الروايات يمكن فهم احتواء المصحف من ضمن ما يحتويه على ذكر الأنبياء وأوصيائهم فقد ذكر ابن شهراشوب أنه لما سئل الإمام الصادق عليه السلام عن محمد بن عبد الله بن الحسن قال عليه السلام:

ما عن نبي ولا وصي.. إلا وهو في كتاب عندي - يعني مصحف فاطمة..[٤].

المقصود هو محمد بن عبد الله بن الحسن المشهور بالنفس الزكية[٥]

---

(١) نفسه، ج١، ص٢٤٠؛ نفسه، ص١٥٧؛ بحار الأنوار، ج٢٦، ص٤٤؛ الوافي، ج٣، ص٥٨٠.
(٢) روضة الواعظين، ج١، ص٢١١؛ بحار الأنوار، ج٢٦، ص١٨.
(٣) الكافي، ج١، ص٢٤١؛ بصائر الدرجات، ص١٣٨.
(٤) المناقب، ج٣، ص٣٧٣؛ بحار الأنوار، ج٢٦، ص٣٢.
(٥) محمد بن عبد الله بن الحسن الملقب بالنفس الزكية من الشخصيات المرموقة في عالم التشيع ومن القائمين بالحق الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر وذكر السيد ابن طاوس في الاقبال بالتفصيل عن بني الحسن عليه السلام خاصة محمد بن عبد الله بن الحسن وأكد على هذه الشخصية المجاهدة في سبيل الله وثورته لإحقاقه الحق وعدم ادعائه الإمامة وبالخصوص القول الواضح والصريح لإبراهيم بن عبد الله عن أخيه محمد بن عبد الله وادعاء مهدويته وتكذيبه نسبة ذلك الادعاء منه. (الاقبال، ص٨٧ - ٨٨). وقد مدح العلامة الأميني أيضاً النفس الزكية باستناده إلى ما نقله ابن طاوس معتبراً ثورته ثورة إلهية بالاعتصام بالله ورسوله (الغدير، ج٣، ص٣٧٨). والإمام الصادق عليه السلام لعلمه بفشل الثورة أطلع محمد بن عبد الله بنهايتها الحمراء وحذره وبعد استشهاد ذلك السيد الجليل وأخيه ذكرهما بخير ومدحهما. (مقاتل الطالبيين، ص٢٣٩). على أية حال: موقف الامام نظراً لاختلاف=

الذي ثار في عهد الإمام الصادق عليه السلام على سلطة بني العباس ودعا الناس إلى مبايعته. ودعا الإمام الصادق عليه السلام أيضاً إلى البيعة وفقاً لبعض الروايات على الرغم من أن الامام نهاه عن القيام في مواجهة الحكومة ولكنه لم يستجب وعلى هذا الأساس كان هناك أناس في ذلك الزمان يعتقدون بمقام وصاية محمد بن عبد الله والإمام عليه السلام أجاب السائل بما مر ذكره آخذاً الظرف السائد بعين الاعتبار[١].

٤. ذكر الحكام

جاء في الرواية التي أسلفنا ذكرها:

... وأما مصحف فاطمة ففيه ما يكون من حادث وأسماء من يملك إلى أن تقوم الساعة[٢].

وورد أيضاً نفس المضمون في رواية فضيل بن سكرة عن الإمام الصادق عليه السلام. أخيراً يذكر الإمام عليه السلام في تلك الرواية عن كتاب فاطمة وليس عن مصحف فاطمة، إلا أن لحن الكلام تقريباً هو نفس رواية المناقب التي صرح فيها بوجود أسماء الولاة استناداً إلى نفي اسم محمد بن عبد الله بن الحسن من بين الأوصياء[٣].

=الروايات يحتاج إلى دراسة وتتبع أكثر دقة. ودراسة جميع الروايات من حيث إسنادها ودراسة المتن أيضا وكيفية خبر وموقف محمد بن عبد الله في الفترة التي كان له سلطة على المدينة ومكة بوضوح دليل على أن ذلك السيد كان داعياً إلى الحق ولا شك انه لم يدع المهدوية. انظر أيضاً: أنساب الأشراف، ج١، ص٩٨ وما بعدها طبع المحقق المحترم الحاج الشيخ محمد باقر المحمودي، هوامش المحقق المذكور في مختلف صفحات الكتاب ضمن ذكرى محمد بن عبد الله وثورته. وكذلك محمد الكاظمي بوران، ثورات الشيعة في العصر العباسي، ص٩٩ وما بعدها. بحث تفصيلي مع نقد ودراسة روايات ومنقولات مختلفة. كذلك سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام ج٢، ص ٣٠٤ وما بعدها؛ موسوعة الإمام الصادق عليه السلام باقر شريف القرشي، ج٧، ص١٣٢ وما بعدها.

(١) الكافي، ج١، ص٣٥٨.

(٢) روضة الوعظين، ج١، ص٢١١؛ بحار الأنوار، ج٢، ص١٨.

(٣) الإمامة والتبصرة، ص٥٠(= ص١٨٠ تحقيق الجلالي)؛ الكافي، ج١، ص٢٤٢؛ علل الشرائع، ص٢٠٧؛ الوافي، ج٣، ص٥٨٤.

٥. وصية فاطمة عليها السلام

ذكر في روايات متعددة احتواء مصحف فاطمة عليها السلام على وصية تلك السيدة الجليلة.

فقد جاء ضمن رواية سليمان بن خالد عن الإمام الصادق عليه السلام:

وليخرجوا «مصحف فاطمة» فان فيه وصية فاطمة..[١].

لنر هنا ماذا يمُكن أن تكون الوصية؟ وردت عبارات في الروايات ذات الصلة بفاطمة الطهر تتحدث عن نوعي وصية: وصية متعلقة بعدة بساتين ووصية سياسية حول كيفية تعامل الجهاز الحاكم مع تلك السيدة وأمور ذات علاقة بمراسم الدفن وكأنما كان المراد من الوصية هذه الأمور المذكورة.

الوصية ذات العلاقة بالبساتين

ورد في روايات متعددة أن فاطمة تركت مدونة محتوية على وصية منها:

عن أبي بصير قال أبو جعفر: ألا أحدثك بوصية فاطمة؟ قلت: بلى.

فأخرج حُقاً أو سفطاً فاخرج منه كتاباً فقرأ[ه] بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أوصت به فاطمة بنت محمد..[٢].

محتوى هذه الوصية المقرر في الروايات جملة وتفصيلاً هو كيفية تولية البساتين السبعة التي كان النبي قد أوقفها لتلك السيدة الجليلة فاطمة

---

(١) بصائر الدرجات، ص١٥٧ ـ ١٥٨؛ الكافي، ج١، ص٢٤١؛ مرآة العقول، ج٣ ص٥٨.

(٢) تهذيب الأحكام، ج٩، ص١٦٩؛ الكافي (الفروع)، ج٧، ص٤٨؛ دعائم الإسلام، ج٢، ص٣٤٣.

في هذه الوصية ووهبت توليتها للإمام علي ثم للإمام الحسن ثم للإمام الحسين ومن ثم للابن الأكبر من أبناء أبي عبد الله[١].

الوصية السياسية

بعد رحيل النبي والتغيير الجذري للساحة السياسية وتثبيت السلطة خلافاً لإرادته المنبثقة من الوحي الالهي وبتقمص ثوب الخلافة من قبل من كان ذاك الثوب له زيفاً وباطلاً نهضت السيدة فاطمة الطهر لإحقاق حق الخلافة وخلافة الحق، وجاهدت في هذا السبيل كمسؤولية إلهية. ومن الجانب الآخر واجه الحكام وصناع السياسة الذين ثبتوا السلطة كما أرادوا وكانوا قد خططوا لها من قبل، تلك السيدة الطاهرة المطهرة وقاموا بمحاربتها، أباحوا الظلم عليها وملأُوا طريق بيتها بالاشواك وصبوا النار على باب بيتها الذي لا زال صدى رسول الله يصدح فيه.

ومن العجيب انهم تباهوا بكل تلك الأفكار العدوانية وسواد الوجه والوقاحة. لما رأت فاطمة الطاهرة ذلك لم يكن بمقدورها القيام بعمل قبال القوة القاهرة لسلطة ومنطق اصالة القهر والغلبة وان المياه لا ترجع إلى مجاريها صدعت بخطبتها الموقظة والمزلزلة قائلة والخطاب للانصار:

إيهاً بني قيلة! أأهضم تراث أبي؟ وأنتم بمرأى وبمسمع ومنتدى ومجمع؟ تلبسكم الدعوة وتشملكم الخبرة وأنتم ذوو العدد والعدة والأداة والقوة وعندكم السلاح والجنة توافيكم الدعوة فلا تجيبون؟ وتأتيكم الصرخة فلا تعينون؟ وأنتم موصوفون

---

(١) المصادر السابقة وأيضاً: الكافي ج٧، ص٤٧، باب صدقات النبي وفاطمة والأئمة، ح١، ٦ وأيضاً انظر: عوالم العلوم، ج١١، ص١٠٦٠ وما بعدها. محقق الكتاب المحترم العلامة السيد باقر الموحدي ابطحي، ضمن مستدركات الكتاب، قرر بالتفصيل انواع مختلفة من روايات هذه الوصية.

بالكفاح ومعروفون بالخير والصلاح. والنخبة التي انتخبت والخيرة التي اختيرت. قاتلتم العرب وتحملتم الكد والتعب. فأنى حرتم بعد البيان وأسررتم بعد الاعلان ونكصتم بعد الاقدام وأشركتم بعد الايمان؟![1].

وبتعبير مولى المتقين أمير المؤمنين:

كانت ترى أن الحق الذي وصل إلي هو حقي المبتز ينهب فصبرت وفي العين قذى وفي الحلق شجا[2].

أجل لما استتبت الامور على هذا الشكل، وبعد اللتيا والتي التزمت الزهراء الطاهرة عليها السلام كزوجها الجليل المظلوم الصبر والحلم إلا أنها عليها السلام لكي تضع ما جرى عليها ظلماً محوراً للتساؤل وحث المتفكرين، ولبيان وتوضيح ما حدث، تدبرت في الامور وأوصت وصية حاذفة، هادفة، محرقة للفؤاد، محركة للفكر:

[مخاطبة علي عليه السلام] إذا أنا مت فغسلني بيدك وحنطني وكفني وادفني ليلاً، ولا يشهدني فلان وفلان[3].

وجاء في بعض الروايات:

ولا تؤذن رجلين ذكرتهما.

---

(١) فاطمة الزهراء من المهد إلى اللحد، ص٣٨٧؛ وراجع أيضاً: عوالم العلوم، ج١١، ص٦٥٣ وما بعدها.

(٢) نهج البلاغة، خطبة٣، الخطبة الشقشقية. [ما أوردناه مستفاد من كلام المولى عليه السلام].

(٣) بحار الانوار، ج١٠٣، ص١٨٥؛ معاني الأخبار، ص٣٥٧؛ بحار الأنوار، ج٤٣، ص١٥٩، وص١٨٢ ـ ١٨٣؛ ج٨٣، ص٢٥٥.

ونقل أيضاً بتعابير أخرى تتناظر في محتواها وكلها تؤكد على:

سرية مراسم التكفين والدفن إدانة والإعلان عن انزجار مضمخ بالشكوى وموقف غضب تجاه السلطة وموقف الحكام(١).

حجم المصحف

تعرضت بعض الروايات الخاصة بمصحف فاطمة عليها السلام لحجمه أيضاً فجاء في رواية أبي بصير ما تكررت الإشارة إليه ضمن هذا الموضوع:

وإن عندنا مصحف فاطمة عليها السلام وما يدريهم ما مصحف فاطمة؟

---

(١) صرح به أمير المؤمنين علي عليه السلام الذي قام بمراسم التكفين والدفن تحت جناح الليل بقلب يموج فيه الغم جواباً على سؤال شخص سأله عن سبب دفن السيدة الزهراء عليها السلام ليلاً. (أمالي الصدوق، المجلس٩٤، ح٩؛ علل الشرائع، ص١٨٥). انتشر صدى هذه القصة الفياضة بالألم والحرقة بهذا التدبير الحاذق لفاطمة عليها السلام حتى تثبت تاريخياً. وبالفعل حفظت في كثير من المصادر التاريخية وبقيت خالدة على صفحات التاريخ؛ انظر إلى: الطبقات الكبرى، ج٨، ص٢٩ ـ ٣٠؛ تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٢٠٨؛ صحيح البخاري، ج٥، ص١٧٧؛ صحيح مسلم، ج٣، ص١٣٨٠، إعلام الورى، ج١، ص٣٠٠(هامش المحقق عن عدد من مصادر أهل السنة)؛ ترتيب الأمالي، ج٥، ص١٧٧(هامش المحقق عن مصادر وفيرة لأهل السنة)؛ روضة الواعظين، ج١، ص١٥٣؛ الذرية الطاهرة، الدولابي، ص١٥٢.

ومن الجدير واللائق أن نأتي بالتحليل والتفسير والتمثيل الجميل والقيم والذي يعلم مطلباً مهماً للمرحوم الدكتور شريعتي في بيان سبب هذه الوصية: [فاطمة]... نامت في الفراش مطمئنة ومرتاحة، دارت بوجهها نحو القبلة منتظرة، مرت لحظة ولحظات، فجأة علت صرخة، أطبقت أجفانها، وفتحت عينيها في وجه حبيبها الذي كان بانتظارها، انطفأت شمعة النار والمرار في بيت علي، وعلي بقي وحيداً مع أطفاله، كانت قد طلبت من علي أن يدفنها ليلاً كي لا يعرف أحد قبرها، ولا يشيع الشيخان جنازتها، وهكذا فعل علي، إلا أن أحداً لا يعرف كيف وإلى الآن لا يعرف أين؟ أفي بيتها؟ أم في البقيع؟ مجهول على الباحثين أن يحققوا في ذلك إلا أنني لست باحثاً. لا أحب أن أحقق، لا أحب أن أعثر على مكان قبرها الحقيقي. يجب أن يبقى مدفنها مجهولاً لكي يبقى ما كانت تبغيه معلوماً، إنها أرادت أن لا يعرف قبرها أحد في أي وقت، وأي أحد إلى الأبد، والكل يسأل: لماذا؟ (فاطمة هي فاطمة ص١٩٩ ـ ٢٠٠. وما ذكر كان من متن الكتاب وجزء من هامش المتن وقد جمعتهما معاً).

قال: مصحف فيه مثل قرآنكم وثلاث مرات والله ما فيه من قرآنكم حرفاً[١].

في هذه الرواية صرح بأن حجم مصحف فاطمة يعدل ثلاثة أضعاف حجم القرآن.

ونضيف نحن الآن القول: بأنه جدير بالسؤال هل كان الإمام عليه السلام في حديثه هذا مستهدفاً تحديد حجمه المادي؟

وهل أن «ثلاث مرات» تبين دقة مقداره وكيفيته؟ وهل في هذا الكلام إشارة إلى محتوى وسعة العلوم الكامنة فيه؟ وهل في هذا العدد كناية عن الكثرة؟

ليس عندنا قرائن ولا حتى قرينة واحدة في الروايات للجواب على هذه الأسئلة، ولكن صراحة الحديث عن حجمه مقايسة مع القرآن هي من الناحية الكمية.

الـ«مصحف» ميراث خالد عند الأئمة(ع):

ما يمكن فهمه من الروايات الوفيرة هو كون مصحف فاطمة عليها السلام ميراثاً عند الأئمة وكان الأئمة حين توديعهم الحياة الدنيا يجعلونه عند الإمام التالي.

نقل أبو بصير عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

ما مات أبو جعفر حتى قبض مصحف فاطمة عليها السلام[٢].

قدمنا ذكر أن الامام الصادق عليه السلام قد أسند إخباره عن المستقبل إلى

---

(١) بصائر الدرجات، ص١٥٢.

(٢) نفسه، ص١٥٨؛ بحار الأنوار، ج٢٦، ص٤٧.

مصحف فاطمة عليها السلام وقد تحدث عنه الائمة خلال نصوص مختلفة بتعابير: «عندي» أو «عندنا» مما يدل على وجود ذلك الأثر النفيس القيم كميراث عند الأئمة عليهم السلام. وهكذا فإن الإمام الرضا عليه السلام ضمن عده علامات الإمامة قال:

...عنده الجفر والجامعة وكذلك مصحف فاطمة.

وعلى هذا المنوال يتضح أن تلك الصفحات الذهبية هي الآن عند الإمام الحجة ابن الحسن العسكري عليه السلام وقد وردت هذه الحقيقة بوضوح في الرواية التالية.

يقول عبد الملك بن أعين: أراني أبو جعفر بعض كتب علي عليه السلام ثم قال لي: علم أن قائمكم يقوم يوماً فأحب أن يعمل بما فيها.

قال: صدقت[1].

كتب العلامة الجليل وكبير خبراء التشيع الشيخ آقا بزرگ الطهراني:

مصحف فاطمة عليها السلام مجموعة من ودائع الإمامة عند مولانا وإمامنا صاحب الزمان عليه السلام كما روي في عدة أحاديث من طرق الأئمة عليهم السلام[2].

وعلى هذا فإن مصحف فاطمة عليها السلام مجموعة مليئة بالحقائق الإلهية التي قرئت على فاطمة الطهر عليها السلام بواسطة الرسول الرباني وكتبها مولانا وسيدنا الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام وخلدت من بعده ميراثاً عند أبنائه عليهم السلام.

---

(١) نفسه، ص١٥٨؛ نفسه، ص٥١؛ إثبات الهداة، ج٣، ص٥٢٠.

(٢) الذريعة، ج٢١، ص١٢٦.

تكملة

وفي خاتمة الحديث عن مصحف فاطمة عليها السلام جدير بنا أن نعرض لأحد ألقاب فاطمة الطهر عليها السلام ذي الصلة بشكل ما بدراستنا من جهة ومن جهة أخرى يتعلق بتبيين كيفية دخول جبرائيل على السيدة الزهراء عليها السلام وحديثه مع تلك السيدة الطاهرة. هذا اللقب هو لقب «محدثة» وهو من الألقاب السامية لفاطمة الطاهرة عليها السلام.

قال الإمام الصادق في هذه المنقبة السامية:

فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله كانت محدثة ولم تكن نبية إنما سميت فاطمة لأن الملائكة كانت تهبط من السماء فتناديها كما تنادي مريم ابنة عمران..[1].

استناداً إلى هذه الرواية يثني الامام الصادق عليه السلام من جهة على تلك السيدة بهذه المنقبة السامية ومن جهة أخرى يفسر هذا اللقب.

هذا التفسير لـ «محدثة» يعني أن: «المحدث هو من يسمع حديث الرسول الإلهي ولا يراه».

وجاء في روايات كثيرة بألفاظ متنوعة ومختلفة نحو:

المحدث هو الذي يسمع الصوت ولا يرى شيئاً[2].

المحدث فهو الذي يسمع كلام الملك فيحدث من غير أن يراه[3].

---

(١) علل الشرائع، ج٢، ص١٨٢؛ بحار الأنوار، ج٤٣، ص٧٨؛ الاختصاص، ص٣٢٩.
(٢) بصائر الدرجات، ص٣٦٩ ـ ٣٧٠.
(٣) م ن، ص٣٧١.

المحدث الذي يسمع كلام الملائكة وحديثهم ولا يرى شيئاً بل ينقر في أذنه وينكت في قلبه[١].

بهذا التصوير للمحدث في روايات كثيرة عرف الائمة عليهم السلام وأوصياء رسول الله صلى الله عليه وآله وحتى بعض الصالحين والأتقياء كسلمان عرفوا بأنهم محدثون[٢].

علماء السنة من جهة واجهوا وجود محدث في الفكر الإسلامي بالقبول ومن جهة أخرى فإن هذا التصوير لـ«المحدث» الذي نقلناه من روايات الشيعة قد استخدم في مصادرهم التفسيرية والروائية.

وخلافاً لما تصوره بعض فضلاء أهل السنة، أو سعوا إلى حمله على الأوهام[٣] فإن عنوان «المحدث» لم يكن من صنيع الشيعة لمدح أئمتهم به فالاعتقاد بهذا كان عاماً وسائداً بين جميع المذاهب الإسلامية ورواياته ونصوصه ذكرت أيضاً في مصادر الفريقين.

قال العلامة الأميني في هذا الصدد:

علماء الشيعة والسنة جميعهم يقولون بوجود «المُحَدَّث» في الاسلام ويعتقدون على نحو اليقين

---

(١) نفسه، ص٣٦٨؛ وانظر أيضاً: الكافي(الأصول)، ج١، ٢ص١٧٦ ـ ١٧٧، ص٢٤٣؛ بصائر الدرجات، ص٣٢٢، ص٣٦٨ ـ ٣٧٤؛ الاختصاص، ص٣٢٨ ـ ٣٢٩؛ بحار الأنوار، ج١١، ص٤١؛ ج٢٦، ص٧٤ ـ ٨٢.

(٢) انظر إلى: الكافي(الأصول)، ج١، ص١٧٦، وص٢٤٣؛ الاختصاص، ص٣٢٨ ـ ٣٢٩؛ بصائر الدرجات، ص٢٣٨، ٣١٩، ٣٧٢؛ الخصال، ج٢، ص٤٧٦؛ معاني الأخبار، ص١٠٢؛ الغيبة (للنعماني)، ص٦٠؛ بحار الأنوار، ج٥، ص٧٧؛ ج٢٦، ص٦٦، ٧٢، ٧٤؛ ج٣٦، ص٢٧٢، ٣٨٣، ٣٩٣... (كون سلمان محدثاً انظر إلى: أمالي الطوسي، ص٤٠٧، ح٨١٤؛ ترتيب الأمالي، ٢، ص٤٩٧، ح١٠٠٨؛ وبصائر الدرجات، ص٣٢٢، ح٤؛ الخراج والجرائح، ج٢، ص٨٣٠؛ وذكر الكشي ما يشير إلى هذه الحقيقة في مكان بعنوان: «...وكان سلمان محدثاً»؛ اختيار معرفة الرجال، ج١، ص٦٢ ـ ٦٣، ح٣٦.

(٣) الصراع بين الإسلام والوثنية، ج١، ص١؛ ج٢، ص٣٥ نقلاً عن: الغدير، ج٥، ص٧٩.

أنه بعد النبي الاكرم يجب أن يوجد بشر محدثون (يتلقون الالهام ويستمعون إلى حديث الملائكة) والمحدث عبارة عن إنسان بشري جميع كلامه وسلوكه مطابق للأوامر الإلهية ومصدقاً ومؤيداً من الله تعالى.

ومحادثة ومسارة مثل هؤلاء الاشخاص مع الملاك الذي هو واسطة الفيض الإلهي. والشخص المحدث يعمل بالامر الذي يتلقاه في منتهى الطاعة.

ونعتقد نحن الشيعة أن الأئمة الأطهار جميعهم محدثون[١].

وعلماء السنة أيضاً يقولون إنه بعد النبي يجب أن يكون هناك بشر محدث تتحدث معه الملائكة ويرى الحق والباطل من قبل الله تعالى.

ويقول علماء العامة إن الشخص الذي كان يحدث ـ بعد الرسول ـ من قبل الملائكة حدده الرسول الأكرم وذلك الشخص هو «عمر»![٢].

وقد أسلفنا بأن هذا الاعتقاد جاء في مصادر الفريقين. وعلى هذا فإن قول علماء السنة أيضاً مستنده عدة روايات جاءت في بعض صحاحهم منها ما أورده البخاري:

---

(١) أصول الكافي، ج١/ ١٧٦، ٢٤٣؛ الاختصاص، ٣٢٨، ٣٢٩؛ بصائر الدرجات، ص٣١٨، ٣١٩، ٣٧٢؛ كنز الفوائد، ص١٧٦؛ خصال الصدوق، ج٢/ ٤٧٤، ١٠٦؛ معاني الأخبار، ص١٠٢؛ عيون الأخبار، ج١/ ١٦٩؛ الغيبة (للنعماني) ص٦٠؛ الغيبة (للطوسي) ص ٩٢، ٩٣، ٩٧؛ بحار الأنوار، ج٢٥/ ٧٧، ١١٦، ج٢٦/ ٦٦، ٧٢، ٧٤، ٧٥، ٧٧، ٧٩، ٨١، ج٣٦/ ٢٧٢، ٣٨٣، ٣٩٣، ٣٩٥، ٣٩٩، ٣٩/ ١٥٢...

(٢) صحيح البخاري ـ كتاب المناقب، باب مناقب عمر بن الخطاب ـ ج٥/ ٧٨ ـ ٧٩؛ صحيح مسلم ـ كتاب فضائل الصحابة، باب(٢) من فضائل عمر، ح٢٣ ـ ج٤/ ح ٢٣٩٨؛ مشكل الآثار، ج٢/ ٢٥٧؛ الرياض النضرة، ج٢/ ٢٨٧؛ أعلام الموقعين، ج٤/ ١٨٢، الدر المنثور ـ ذيل آية ٥٢ من سورة الحج ـ ج٤/ ٣٦٦ وكثير من المصادر الأخرى.

النبي ﷺ: لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء فإن يكن من أمتي منهم أحد فعمر[١].

ونظير هذا القول جاء به مسلم بهذه الصورة:

عن النبي ﷺ: قد كان في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي منهم أحد فإن عمر بن الخطاب منهم[٢].

ثم ينقل مسلم بنفسه عن قول ابن وهب الذي قال في تفسير «محدثون»:

تفسير «محدثون» ملهمون.

وكتب القسطلاني في شرحه على البخاري:

محدثون يعني يجري على ألسنتهم الصواب من غير نبوة[٣].

وقال الخطابي:

يلقى الشيء في روعه فكأنه قد حدث به[٤].

---

(١) صحيح البخاري، ج٥، ص٧٧ ـ ٧٨، كتاب المناقب، باب مناقب عمر بن الخطاب.

(٢) صحيح مسلم، ج٤، ص٤٤، ح٢٣٩٨.

(٣) إرشاد الساري، ج٧، ص٤٨٢.

(٤) توجد أحاديث كثيرة بالمضمون الذي ذكرناه في مصادر السنة، منها ما نقلناه عن مسلم والتي يقول فيها ابن الجوزي: «متفق عليه» (صفوة الصفوة، ج١، ص١٧٧) كما قرر أبو جعفر الطهاوي أيضاً هذه الرواية بطرق مختلفة وعندها قال: «كان عمر يتحدث ملهماً» وينقل من ملهماته عن أنس بن مالك أن عمر بن الخطاب قال: أنزل الله تعالى في مواقف آية مطابقة وموافقة لفكري «(= ما ذكرها علماء السنة تحت عنوان: موافقات عمر) ومنها: «إن نساءك يدخل عليهم الصالح والطالح، الأجدر بهن أن تأمرهن بالحجاب فنزلت آية الحجاب». . (مشكل الآثار، ج٢، ص٢٥٧).
عجباً من الحب الذي أعمى أولئك الذين صنعوا مثل هذه المناقب لعمر! ما ظنهم؟ يقول العلامة الأميني: =

والقرطبي أيضاً عند تفسيره لقراءة منسوبة إلى ابن عباس كتب في تفسير محدث:

محدثون، بفتح الدال، اسم مفعول، جمع محدث بالفتح، أي ملهم أو صادق الظن، وهو من ألقي في نفسه شيء على وجه الإلهام والمكاشفة من الملأ الأعلى أو من يجري الصواب على لسانه بلا قصد أو تكلمه الملائكة بلا نبوة أو من إذا رأى رأياً أو ظن ظناً أصاب كأنه حدث به وألقي في روعه من عالم الملكوت فيظهر على نحو ما وقع له وهذه كرامة يكرم الله بها من شاء من صالح عباده وهذه منزلة جليلة من منازل الأولياء[1].

لما ذكر واستناداً عليه وعلى نظائره كتب العلامة الأميني(قده) في أثره الخالد الغدير:

أصفقت الأمة الإسلامية على أن في هذه الأمة لدة الأمم السابقة أناساً محدثين ـ على صيغة المفعول ـ وقد أخبر بذلك النبي الأعظم كما ورد في الصحاح والمسانيد من طرق الفريقين ـ العامة والخاصة ـ[2].

ذكرنا قول القرطبي آنفاً واستناداً إلى تفسيره فإن هذه المنزلة هي كرامة إلهية تكرم بها الله تعالى على الصالحين والأنقياء وذوي القلوب الطاهرة والنفوس الزكية.

= لو كان مثل هذه المنسوجات إلهاماً إلهياً فعلى الإسلام السلام، ولنقرأ فاتحته.
لقد كان جديراً ولائقاً بعلماء السنة عقلياً ان ينكروا مثل هذه المنسوجات من الأقوال التي تحط من مقام النبوة وتشين بكرامة الرسالة، وتوجه المطاعن لرسوال الله ﷺ. (الغدير، ج٥، ص٦٩ ـ ٧٠).

(١) الجامع لأحكام القرآن، ج٢، ص٥٣، ج١٢، ص٧٩ ـ ٨٠.

(٢) الغدير، ج٥، ص٦٧.

من هذه الجهة بنظرة سريعة في المصادر الرجالية لأهل السنة يمكن العثور على أناس كثيرين عرفوا بـ(محدثين) كعمران بن حصين الخزاعي(م٥٢)[١] وأبي المعالي الصالح (م٤٢٧)[٢]، و...

بعد كل ما أتينا به استناداً إلى الروايات بالمحتوى المذكور نتساءل ألم يطلع أولئك الذين ينسبون إلى الشيعة زيفاً وباطلاً ويشيعون في كل مكان بأنهم يعتقدون أن أئمتهم يوحى إليهم على النصوص المذكورة في مصادرهم؟

ألم يطلعوا على المصاديق التي ذكرها علماؤهم لـ(المحدث)؟!

ألا يعلم هؤلاء أنهم يفترون على غيرهم ولا يقتصر افتراؤهم على واحد أو أكثر من العلماء بل على خط أصيل في الفكر الإسلامي؟

كتب العلامة الأميني(قده) بعد دراسة قيمة في هذا الصدد:

إن في هذه الأمة أناساً محدثين كما كان في الأمم الماضية وأمير المؤمنين وأولاده الأئمة الطاهرون علماء محدثون وليسوا بأنبياء وهذا الوصف ليس من خاصة منصبهم ولا ينحصر بهم بل كانت الصديقة ـ كريمة النبي الأعظم ـ محدثة بتمام معنى المحدث: هو العالم بالأشياء بإحدى الطرق الثلاث المفصلة في الأحاديث المتلوة هذا ما عند الشيعة ليس إلا[٣].

(١) الطبقات، ج٤، ص٢٨٨؛ الإصابة، ج٤، ص٥٨٥؛ أسد الغابة، ج٤، ص٢٦٩.
(٢) صفوة الصفوة، ج٢، ص٢٨٠؛ المنتظم، ج١٧، ص٨٢.
(٣) الغدير، ج٥، ص٧٧.

ثم يذكر العلامة الجليل الأميني صاحب الغدير بألم قول عبد الله القصيمي مؤكداً على زيفه وكذبه المحض ومن ثم يختم بحثه كأسلوبه المتبع في جميع كتاباته وبحوثه بهذه الآية الشريفة:

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾[1].

ننهي حديثنا حول مصحف فاطمة عليها السلام ونسأل الله التوفيق لفهم شخصية المعصومين عليهم السلام السامية فهماً واستيعاباً لأبعادهم التعليمية وسيرتهم في الحياة القائمة على أساس سنتهم التي هي الصراط المستقيم.

(١) النحل/ ١٠٥.

الفهرس

مقدمة ٩
معنى الحديث لغة ١٠
الحديث اصطلاحاً ١٢
الخبر ١٤
الأثر ١٨
السنّة ٢١
السنة عند الفقهاء ٢٣
السنّه عند المحدّثين ٢٥
نظرة تاريخيّة لمفهوم السّنة ٢٦
مكانة السنّة ٢٨
الفصل الأول: تدوين الحديث ٣٥
الكتابة والثقافة ٣٨
القرآن والكتابة ٣٩
الكتابة والسنّة ٤٠
تدوين الحديث ٤٤
أ ـ سنة رسول الله القولية ٤٤
ب ـ سنة رسول الله الفعليّة ٤٦
ج ـ سنة رسول الله التقريرية ٤٧
١ ـ صحيفة النبي(ص) ٤٨

صحيفة النبي(ص) في المصادر الشيعية ٤٩
٢ ـ كتاب علي(ع) ٥٢
٣ ـ مصحف فاطمة(ع) ٥٤
تأمّل في بعض النصوص ٥٤
رواية «منع التدوين» في الميزان ٦٣
حديث أو أحاديث أبي سعيد الخدري ٦٤
سند الحديث ٦٥
الصحابة وتدوين الحديث ٦٩
١ ـ الصحيفة ٦٩
٢ ـ النسخة ٧٠
منع تدوين الحديث ١٠٠
تبريرات وانتقادات ١٠٠
بداية منع التدوين ١٠١
عند انتقال رسول الله(ص) إلى الرفيق الأعلى ١٠٢
جهود لتحريف معنى الحديث ١٠٥
تفاقم ظاهرة منع الكتابة ايام خلافة عمر ١٠٦
منع الحديث أيام خلافة عثمان ١٠٩
الأمراء ومن يحذو حذوهم ١١٢
توجيهات وتبريرات ١١٤
اختلاط الصحيح بالسقيم ١١٥
نقد هذه الرؤية ١١٥
النهي عن ترك القرآن والاشتغال بغيره ١١٩
تدبر في كلام ١٢١
أكتاب يوازي كتاب الله تعالى؟! ١٢٣
التباس القرآن بالحديث ١٢٦

نقد وإبطال ١٢٨
عدم معرفة الناس بالكتابة ١٣١
اختلاف القرآن والحديث في الكتابة ١٣٦
الحفظ بديل الكتابة ١٤٠
تأمل آخر ١٤٨
الاحتياط في الدين ١٥٠
نقد هذه الرؤية ١٥١
ابن حزم ورأيه في ذلك ١٥٢
موقف آخر ١٥٣
منع تدوين الحديث ١٥٧
أسرار وألغاز ١٥٧
التحوّل السياسي ونتائجه ١٥٧
١ ـ المنع من نشر فضائل علي وأهل البيت(ع) ١٥٩
تأمّل فيما تقدّم ١٦٥
أخصية الدليل من المدّعى ١٦٨
في نقد هذا الكلام ١٦٩
٢ ـ عدم المصلحة في كشف الأسرار ١٧٤
٣ ـ تثبيت العمل بالرأي وإزالة العقبات من أمامه ١٨٣
تأملات فيما تقدم ١٨٦
منع كتابة الحديث ١٨٩
النتائج والآثار ١٨٩
١ ـ ضياع الكثير من الأحاديث ١٩٠
٢ ـ اتساع رقعة الوضع والجعل في الأحاديث ١٩٧
٣ ـ انتشار الإسرائيليّات ٢١٠
٤ ـ تحريف الدين وبلورة ثقافة تتعارض مع الإسلام الأصيل ٢١٦

٥ ـ اختلاف الآراء عند المسلمين ٢٢٣
٦ ـ بلورة مذهب الرأي ونشر القياس ٢٢٥
٧ ـ جهل الأُمّة لدينها ٢٢٧
٨ ـ عزل أهل البيت(ع) عن الساحة ٢٢٨
الفصل الثاني: تدوين الحديث عند الشيعة ٢٣٥
بداية التدوين عند الشيعة ٢٣٥
علي(ع) وكتابة الحديث ٢٣٧
أقوال علي(ع) في تدوين الحديث ٢٤٣
مساعي تلامذة الإمام علي(ع) في مجال التدوين ٢٤٤
الإمام الحسن(ع) وتدوين الحديث ٢٦٦
الإمام الحسين(ع) وكتابة الحديث ٢٦٧
عهد الإمام الرابع(ع) ٢٦٩
عهد الإمام الباقر(ع) ٢٨٤
عهد الإمام الصادق(ع) ٢٩٧
اطلبوا العلم ولو بخوض المهج وشقّ اللّجج ٣٠٣
الإمام الكاظم(ع) ٣١٧
عهد الإمام الرضا(ع) ٣٢٣
عهد إمامة الإمام محمّد بن عليّ الجواد(ع) ٣٣٠
عهد الإمام عليّ بن محمّد الهاديّ(ع) ٣٣١
عهد الإمام الحسن العسكريّ(ع) ٣٣٦
آثار الإمام(ع) ٣٣٨
عهد الإمام الحجّة ابن الحسن العسكريّ ٣٤٠
الأُصول الأربعمائة ٣٤١
عصر التأليف ٣٤٧
امتيازات «الأصول» وأهمّيّتها ٣٥٢

العدد الدقيق للأصول ٣٥٧
فهرس بعض الأُصول الأربعمائة ٣٥٩
ملحق خاص حول مصحف فاطمة(ع) ٣٧٧
مصحف فاطمة(ع) ٣٧٧
نظرة إلى سند الحديث ٣٧٩
كاتب المصحف ٣٧٩
مملي المصحف ٣٨٢
كيف يمكن حل التعارض؟ ٣٨٥
احتمالات عديدة ٣٨٥
وجود مصحفين متباينين ٣٨٦
المقصود من «رسول الله» هو جبرائيل ٣٨٧
محتوى المصحف ٣٨٩
مواضيع المصحف ٤٠٣
الوصية ذات العلاقة بالبساتين ٤٠٦
الوصية السياسية ٤٠٧
حجم المصحف ٤٠٩
الـ«مصحف» ميراث خالد عند الأئمة(ع) ٤١٠
تكملة ٤١٢